مُدرج على لائحة نيويورك تايمز لأكثر الكتب مبيعاً
وفازت نسخته السينمائية بجائزة رفيعة

مكتبة الرمحي أحمد ٩٦

روبيرتو سافيانو

غومورا

رحلة شخصية داخل إمبراطورية العنف الدولية لمنظومة الجريمة في نابولي

رواية واقعية

ترجمة: مها عز الدين

روبيرتو سافيانو هو كاتب وصحفي إيطالي (ولد في 22 سبتمبر 1979) يستخدم نمط التقارير الإخبارية لعرض قصة «كامورا»، المافيا النابوليتانية المنظمة، فاضحاً أعمالها واتصالاتها التجارية.

منذ العام 2006، وإثر نشر كتابه الأكثر مبيعاً: «غومورا»، حيث يتصدى لتفاصيل أعمال منظمة «كامورا» التجارية، تلقى سافيانو عدة تهديدات بالقتل من زعماء المافيا. لذلك خصص له وزير الداخلية الإيطالية مرافقة أمنية دائمة من الشرطة. ولقد اعتبره المؤلف والفيلسوف الإيطالي أومبرتو أيكو بطلاً قومياً.

مكتبة الرمحي أحمد

غومورا

الناشران

كلمة
الإمارات العربية المتحدة - أبو ظبي - هاتف 6314468 2 971 + - فاكس 14462
ص.ب 2380 - الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.kalima.ae

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
لبنان - بيروت - هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
فاكس: 786230 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 - الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

الطبعة الأولى 1430هـ - 2009م
ردمك 978-9953-87-633-7

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

غومورا

رحلة شخصية داخل إمبراطورية العنف الدولية لمنظومة الجريمة في نابولي

رواية واقعية

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

٩٦

تأليف

روبيرتو سافيانو

ترجمة

مهى عز الدين

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

كلمة
KALIMA

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

الإدراك الشمولي يعني المواجهة اليقظة للواقع ومقاومته دون تعمد، أياً كان ذلك الواقع.

حنا أريندت

ليس للفائزين ما يخجلون به، مهما كانت الطريقة التي فازوا بها.

نيكولو ميكيافيلي

الناس هم ديدان، وعليهم أن يبقوا ديداناً.

نقلاً عن حديث مسجل تم التنصت عليه.

العالم ملك لك

من فيلم "وجه الندبة" Scarface 1983

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

المحتويات

القسم الأول

مقدمة الطبعة العربية.. 9
المرفأ..17
أنجلينا جولي...35
التنظيم...63
حرب سيكونديغليانو..91
النساء... 191

القسم الثاني

كالاشنكوف 221
الإسمنت 257
دون بيبينو ديانا 301
هوليوود 329
أبيردين، موندراغون.. 349
أرض الحرائق... 379

مُقدمة الطبعة العربيّة

يسعدني أن كتاب غومورا سيصبح مقروءاً باللغة العربية. إن المحفزات الثقافية التي تجعل من أي كاتب سعيداً لرؤيته عمله وهو يترجم إلى العربية - وهي لغة الشعر والنثر رفيعي المقام - لهي كافية لوحدها لتبرير الإثارة التي أشعر بها. غير أن حماستي تتضاعف، لأنه بالتسليم إلى واقع أنني ولدت في نابولي، فإنني أعتبر نفسي مواطناً متوسطياً، وبالتالي أقرب كثيراً إلى الثقافة العربية، مني إلى الثقافة الوسط أوروبية مثلاً. ولأجل هذا، كثيراً ما يقول لي الناس عبر أوروبا، في ألمانيا وفرنسا، إنني أملك وجهاً عربي الملامح، مما يولِّد لدي إحساساً بالانتماء، وبالقرابة.

يروي كتاب غومورا قصة مناطق معينة من الجنوب الإيطالي حيث تُحكم الجريمة المنظمة سيطرتها القوية والعميقة على السياسات المحلية، وبشكل خاص على الموارد المالية الحكومية. إن الكامورا، وهي المافيا الإيطالية الأخرى كما تدعى غالباً، ليست كما يريدنا أعضاؤها أن نعتقد. فهي ليست تلك المنظمة قديمة الجذور، التي توظّف العنف لتعزز دور القانون وحسب في المناطق التي تكون فيها الحكومة أضعف كثيراً من أن تفرض قوانينها. بل ما من دستور أخلاقي لدى الكامورا يستند إلى أي من المثاليات النبيلة من احترام وكرامة. ففي مراتبها لا وجود لرجال ذوي شرف أصيل، ولا هم حتى مجرد مجرمين جهلة ومتخلفين. إن الكامورا قبل كل شيء عبارة عن منظمة أعمال تجارية، وحجم أعمالها ومبيعاتها غير قابل للمقارنة مع أي شركة أخرى في العالم. تنافسها في ذلك المافيا الكالابريّة، إندرانيتا.

مكتبة الرمحي أحمد ٩٦

كما أن لها مجسّات في جميع أنحاء الكرة الأرضية.

لقد حاولت في كتاب غومورا أن أمزق لثام اللامبالاة، وأن أظهر كم هي جبانة الكامورا في الحقيقة، وكم هي مقتصرة على وجه واحد ألا وهو التعطش إلى المال، والوحشية والقسوة التي ينطوي عليها قيامها بشكل منظم بتدمير بلد بأكمله، عن طريق تسميم اقتصاده، وتعطيل السوق الصحية الحرة، وأيضاً عبر شكل حقيقي ملموس من أشكال التلوث، من خلال التخلص غير المشروع من النفايات السامة عبر طمرها في طبقة الأرض الواقعة تحت التربة، والمياه الباطنية.

إن الكاموريين ليسوا رعاة أغنام بسطاء، أو لأُعِد صياغة ذلك هم ليسوا مجرد رعاة قطعان ضارِّين كما قد يفترض المرء للوهلة الأولى. إنهم في الواقع مستثمرون مغامرون على نطاق واسع، وخريجو جامعات غالباً، وذوو مظهر حسن ومرفَّه. وعلى ضوء هذا الإدراك، قد فعلتُ ما في وسعي لأجعل من غومورا أكثر من مجرد كتاب عن نابولي، بل عوضاً عن ذلك كتاباً يحكي عبر نابولي، حكاية جميع المدن الكبرى ذات التركيبة المدنية الضخمة، التي قد تجد فيها الجريمة المنظمة بالضرورة، المساحة المساعدة على تنفيذ مآرب عملياتها غير القانونية.

إن القارئ العربي، نظراً إلى كونه قارئاً متوسطياً، سوف يطابق، أو على الأقل يميز، الشوارع، والعادات، والأساليب، والتصميم الدائم لمجرمي جنوب إيطاليا على التغرُّب، وغالباً من خلال محاكاتهم شخصيات عظيمةً من هوليوود، عبر تبنيهم لأسلوب حياة ووقفات تحاكي أسلوب غريبي الأطوار أو الهزليين. بالإضافة إلى ذلك، فإنني على ثقة من أن القارئ العربي سيتمكن من التعرف إلى الأشخاص العاديين والشعور بشعورهم في صراعاتهم واهتماماتهم. إنهم أهل جنوب إيطاليا الذين، في غمرة واقع معولم كلياً، ليس بإمكانهم

سوى المطالبة بالتمتع بالأشياء عينها من الحقوق والمنافع التي يتمتّع بها العالم الغربي، وإنني هنا أشير بشكل جوهري إلى إيجاد حكومة تستند إلى سيادة القانون فيها. لكنهم كثيراً ما يعانون من الإنكار الكلي من الآخرين؛ من أولئك ذوي الدور الأكثر أهمية وحيوية. وكل ما أصفه هنا، بالنظر إلى عوامل التقارب الثقافية والتاريخية، لن يكون غير مألوف بالنسبة إلى الحياة اليومية في عالم الأمة العربية. فقد كانت جماعات الجريمة المنظمة المغربية، والتركية، واللبنانية جميعها، لوقت طويل على اتصال بجماعات الجريمة الإيطالية. يكفي أن نشير إلى أنه خلال عشر سنوات خلت، أظهرت تحقيقات عديدة أجراها فريق قوى الأمن المكافِحة للمافيا في نابولي، وجود علاقات متينة وسبل موثوقة لتهريب المخدرات والبضائع المزيفة من كافة الأنواع. فعلى سبيل المثال لا الحصر، تزوّد المافيا التركية اتحادات الجريمة الإيطالية بالأسلحة مقابل الحصول على الكوكايين.

وعليه فإن الكامورا من هذا المنظور، كانت منظمة الجريمة الأوروبية الأولى التي تأوي تونسيين في صفوفها، محققة بذلك خطوة واسعة، قد فشل المجتمع الأوروبي حتى اللحظة في تحقيقها، ألا وهي: إيجاد اتحاد من الولايات الأوروبية التي تأخذ في الاعتبار بشكل مناسب دول حوض البحر الأبيض المتوسط، التي يمكن لها أن تستظل تحت مظلة موحدة من حيث الأصول، والثقافة، والتقارب الإقليمي. لقد كانت الكامورا على قدر كافٍ من النفوذ مكّنها من أن تجمع منظومة متنوعة من الثقافات، مركّزة للأسف على أسوأ الجوانب التي تحملها كل منها. وحقيقة أن ظاهرة لا أحد سوى الكامورا نفسها، هي من احتكرت إمكانية الوحدة بين ثقافات حوض البحر الأبيض المتوسط، لهي أمر خطر ويدعو إلى القلق، لأنه يعني أنه يوجد مستوى من الشراكة الإجرامية الفعالة المسبقة، والتي يصعب للغاية التصدي

لها، في غضون وقت معقول، من خلال شكل من أشكال الشراكة القانونية والسياسية التي تساويها قوة واندماجاً بين عناصرها.

وإن تفاعلي مع الأمر، وتفاعل السكان المدنيين، وتفاعل وسائل الإعلام، والصحافة، والمفكرين، تكمن في أن نجمع معاً الجوانب الأكثر رقياً من الثقافة المتوسطية، لنحارب عبر حرية الكلمة وعبر ترجمة الكتب، كل من يحاول فرض الصمت على الأصوات التي لا يلائمه ارتفاعها. هناك الكثير من الكتّاب العرب الذين يختبرون ظروفاً حياتية صعبة. فالأصولية، واستحالة الكلام والتعبير عن النفس بشكل حر يجعلان من الكتابة مهنة خطرة.

على مدى العامين الماضيين وأكثر، أعيش حياتي تحت حماية متواصلة من الشرطة، الأمر الذي برزت ضرورته نظراً إلى التهديدات بالقضاء على حياتي من قِبَل الاتحادات الإجرامية التي شجبتها في كتابي. على مدى العامين الماضيين وأكثر، لم أكن قادراً على الخروج لشراء بقالتي، أو لمشاهدة فيلم، أو للذهاب إلى المسرح، أو حتى لمجرد التمشي. كل ما أفعله يجب أن يكون مخططاً له مسبقاً مع الشرطة، ومرافقاً بحماية منها. قد يتطرق إلى ذهنك في نظرة سريعة إلى قضيتي، أن الكامورا قد ربحت. في الواقع، إن حياتي فعلاً أشبه بالجحيم، وهي حياة في جزء منها فقط. وتمر بي أوقات، عندما تكون أحوالي في أقصى درجات القتامة، وأكون في قمة الإحباط، أتمنى فيها لو أن الزمن يرجع بي إلى الحين الذي كنت أكتب فيه غومورا، كي أستعيد شيئاً من مذاق الحرية التي على الأرجح لن أستمتع بها يوماً مرة أخرى.

وعلى الرغم من ذلك، فقد نجح كتاب غومورا بطرائق لم أكن يوماً لأتصورها، وقدّم الدعم والتشجيع إلى السلطات في جنوب إيطاليا، التي تدأب وتكافح يوماً إثر الآخر، لتحرر أرضنا من هيمنة

الجريمة المنظمة. لقد أضحى نضالي، على نحو غير متوقع، معركة شعب بأكمله، وكلماتي باتت كلمات شعب بمجمله. وإن هذا لهو ما تخشاه الكامورا أكثر من أي شيء آخر. إنها تخشى أن يتمزق حجاب الصمت الذي كان نقاباً يستر مصالحها لسنوات عديدة، وأنه ما إن تسلط بقع الضوء على هذه المصالح فإنها لن تعود لتظلم ثانية أبداً. هذا ما يرجو حدوثه شعب بأكمله: أن يبقى اهتمام العامة والإعلام مسلطاً ومكثفاً، وأنّ وطني سيستعيد أخيراً الحرية والكرامة اللتين يستحقهما بكل جدارة.

إن كتابي بمثابة رواية بصورة بلاغ. لقد كان ترومان كابوت يقول: إن نهر الأدب المتخيّل ونهر الأدب الواقعي، سرعان ما يجريان معاً في مجرى واحد. وإنني أعتبر نفسي بادئ ذي بدء صحفياً، على الرغم من أنني أملك أيضاً رغبة قوية وكفاءة في مجال القصة، وما كان لي بالكاد أن أمنع نفسي عن اتباع الأثر الذي أذاعت انتشاره الصحافة الحديثة، ألا وهو أسلوب الرواية الواقعية. إنه نوع من الكتابة الذي ينحو إلى الإبداع في الأدب، لكن دونما التخلي عن متطلبات الأساسين الموضوعي والواقعي.

وعندما يطرح عليّ الناس أسئلتهم، عمّا إذا كنت حقاً قد شاهدت كل ما وصفته رؤية العين، وعمّا إذا كنت قد اختبرت حقاً المواقف التي تحدّثت عنها جميعها، أختار أن أجيبهم بالكلمات نفسها التي وضعها المخرج الإيطالي فرانسيسكو روسي، في ختام فيلمه الأساسي عام 1963 عن نابولي، أيد على المدينة (لي ماني سولا سيتا): «إن الواقع الاجتماعي الذي أفرز الشخصيات التي أتحدث عنها هنا، موثوق وحقيقي».

إنني آمل، بل إنني بالفعل لعلى ثقة، من أن قارئ النسخة العربية لغومورا سيسعى إلى العثور على طريقة شخصية ومناسبة للتصدي

للجريمة المنظمة، والتهديدات الأخرى كافة، أينما كانت وكيفما برزت، في سبيل تأسيس دولة مبنية على سيادة القانون.

غير أن هذه حرب قد شُنَّت مسبقاً في ساحات معارك الضمائر والوعي، وعليه إن أخذنا ذلك في الاعتبار، فوحدها المقارنة بين الظواهر الإجرامية الدولية المختلفة هي ما يمكن له أن يؤلف قوة كافية وملائمة لإيجاد شكل جديد من أشكال الوعي والإدراك.

روبيرتو سافيانو

القسم الأول

المرفأ

أخـذت الحاويـة بالتأرجـح، بينمـا كانت الرافعـة ترفعها إلى ظهر السفينة. لم تستطع الموزّعة التي تثبت الحاوية إلى الرافعة بكلاّب أن تسيطر على حركتها، فبدا أنها تطفو في الهواء. أما الفتحات التي لم تغلق بشـكل مناسـب، فقد ارتدّت فجأة وانفتحت، وأخذت العشـرات من الجثث بالسقوط. لقد بدت كالدمى المخصصة لعرض الأزياء، غير أنهـا حيـن ارتطمـت بالأرض انفلقت رؤوسـها كما لو كانت جماجمها حقيقيـة، وقـد كانـت كذلك. كانت جثثاً لرجال، ونسـاء، وحتى لبعض الأطفـال، أخـذت تتكـوم خارجة من الحاوية. كانت هذه جثث أموات مجمّدين، ومكدّسين فوق بعضهم بعضاً ومعلّبين كالسردين. كان هؤلاء الأموات هم الصينيين الذين لا يموتون يوماً، أولئك الذين يعيشون إلى الأبـد، ويتبادلـون أوراق الهويـة فـي ما بينهم. إذاً، هنا كان مآلهم؛ مآل تلك الجثث التي تغذي أو توحي بالتخيلات الأكثر وحشية، كأن تطهى في المطاعم الصينية، أو تدفن في الحقول قرب المصانع، أو تقذف في فم جبل بركان فيزوف. كانت هنا. كان الأموات يتدفقون من الحاوية بالعشـرات، أسـماؤهم مخربشـة على رقع صغيرة ومربوطة بخيط إلى رقابهـم. كانـوا يضعـون بعض المال جانباً كي يدفنوا في الصين، هناك فـي موطنهـم. إنهـا نسـبة تقتطع من رواتبهم كي يضمنـوا رحلة العودة حال وفاتهم: مسـاحة في وعاء، أو حفرة ضيقة في تراب صيني. لقد غطى مشغّل الرافعة وجهه بيديه بينما كان يروي لي القصة، وأخذ ينظر

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

إليّ من بين أصابعه، وكأن قناعاً من يديه سيمنحه الشجاعة ليتحدث. لقد رأى الجثث تتساقط، لكن لم يكن هناك ضرورة لإطلاق جهاز الإنذار أو لتحذير أحدهم. لقد قام فقط بإنزال الحاوية إلى الأرض. وفجأة ظهرت عشرات من الناس ليعيدوا هذه الجثث إلى الحاوية ثانية، وينظفوا مكان الأشلاء. هكذا تم الأمر. إنه لا يزال إلى الآن غير مصدق ما حدث، ويتمنى لو أنه كان مجرد هلوسة بسبب العمل الإضافي المفرط. ثم غطى كامل عينيه بأصابعه، وواصل الانتحاب. غير أنني لم أستطع أن أفهم ما كان يقول.

كل ما يوجد في الدنيا يمر عبر هذا المكان، عبر مرفأ نابولي. فما من منتج، أو قماش، أو قطعة من البلاستيك، أو لعبة، أو مطرقة، أو حذاء، أو مفك، أو قفل، أو لعبة متلفزة، أو سترة، أو سروال، أو حفارة أو ساعة يد، إلا وتمر عبر المرفأ. إن مرفأ نابولي كالجرح المفتوح، إنه نقطة النهاية للرحلة المطوّلة للبضائع. فالسفن تدخل الخليج، وتتجه إلى المرسى كما يتوجه الأطفال الرضع إلى أحضان أمهاتهم للرضاعة، غير أنها هنا لتحلب لا لترضع. مرفأ نابولي هو الفجوة في الأرض التي ينبع منها كل ما هو مصنوع في الصين، "الشرق الأقصى" كما لا يزال المراسلون يحبون تسميته. إنه قَصي، قَصي للغاية، ولا يمكن تحديده بدقّة. عندما أغمض عيني أرى الكيمونو، ولحية ماركو بولو، وبروس لي يركل الهواء. لكن، في الواقع، إن هذا الشرق لمرتبط بمرفأ نابولي بعرى وثيقة أكثر منه ارتباطاً بأي مكان آخر. الشرق ليس بعيداً في شيء عن هنا، إذ يجب أن يدعى الشرق القريب للغاية، بل الأقرب. كل ما يصنع في الصين يصب هنا، كدلو من الماء يسفح في حفرة في الرمل، إذ يُرَصّ الرمل بفعل الماء وتزداد الحفرة اتساعاً وعمقاً. يمر عبر نابولي عشرون بالمئة من واردات الأنسجة الصينية، ولكن سبعين بالمئة

منها لا تظهر في السجلات. إنه أمر غريب ويصعب فهمه. ومع ذلك فالبضائع تملك سحراً نادراً. فهي تتدبر الأمر بحيث أن تكون موجودة وألا تكون في الوقت ذاته، بأن تصل ومع ذلك ألا تبلغ وجهتها يوماً، وبأن تكلف الزبون الكثير على الرغم من نوعيتها المتواضعة، وبأن تفرض عليها قيمة ضريبية مخصّصة على الرغم من أنها تساوي مبالغ ضخمة. تُدرج الأنسجة ضمن التصنيفات الجد قليلة للمنتجات، التي يمكن أن تخفّض، وبشكل جوهري، السعر وضريبة القيمة المضافة، بمجرّد جرة قلم واحدة على بيان الشحن. في صمت الثقب الأسود للمرفأ، يبدو أن التركيب الجزيئي للبضائع يأخذ بالتفكك، فقط كي يعاود التشكل ما إن يصل إلى ما بعد الحدود الخارجية للساحل. على البضائع أن تغادر المرفأ فور وصولها. فكل شيء يحدث بسرعة كبيرة بحيث إنها تختفي في لحظات، وتتبخر وكأنها لم توجد أصلاً. وكأن شيئاً لم يحدث، وكأن كل شيء كان ببساطة تمثيلاً. وكأن الرحلة خيالية، ورسو السفينة مزيف، والسفينة وهم، والحمولة سريعة الزوال. على السلع أن تصل إلى يد الشاري دون ترك أي علامات تدل على طريقها. عليها أن تصل إلى مستودعاتها بسرعة وبشكل مباشر، وحتى قبل أن يحين الوقت الذي يمكن أن يترك مجالاً للتفتيش. مئات الباوندات من البضائع تنتقل كما لو كانت طرداً بريدياً يسلّم باليد من قبل ساعي البريد. في مرفأ نابولي، الذي يمتد على مساحة 330 إيكراً من الأرض على طول سبعة أميال من خط الساحل، يخضع الوقت إلى تمددات وتقلصات فريدة من نوعها. فالأشياء التي تستغرق ساعة في مكان آخر، يبدو أنها تحدث هنا في أقل من دقيقة. هنا يُسحق المثل القائل بأن أهل نابولي بطيئون كدبس السكر في كل حركة يأتون بها، بل إنه يُدحض ويُبطل. فالسرعة التي تتحرك بها البضائع الصينية لا ترحم، وهي تتخطى البعد الموقت لتفتيش الجمارك، بل هي

تقتل الوقت نفسه. إنها مجزرة للدقائق، ومذبحة للثواني المسروقة من السجلات، والتي تلاحقها الشاحنات، وتسهم فيها الرافعات، وتساعدها شاحنة التفريغ المشعبة التي تفرغ أحشاء الحاويات.

COSCO، أكبر شركة شحن صينية تملكها الدولة، والتي تملك ثالث أضخم أسطول في العالم، تشتغل في مرفأ نابولي بالاتفاق مع MSC، وهي شركة أُسست في جنيف، وتمتلك ثاني أضخم أسطول تجاري في العالم. في نابولي، قرر السويسريون أن يتشاركوا مع الصينيين وأن يستثمروا معاً على نحو كثيف، فهم يتولون أضخم المحطات الأخيرة للحمولات. وبوجود ما يزيد عن 3000 قدم من الرصيف البحري، وقرابة المليون ونصف قدم مربعة كمحطة نهائية، وأكثر من 300,000 قدم مربعة كمساحة خارجية تحت تصرفهم، فإنهم يمتصون كل التجارة التي تعبر إلى أوروبا. يتوجب عليك أن تعيد النظر في مخيلتك لتحاول فهم مرفأ نابولي الذي يبدو وكأنه قاعدة سلم الإنتاج الصيني. تبدو الصورة وكأنّ المرفأ هو عين الإبرة، والسفن هي الجمل الذي يجب أن يمر منها. في الخليج، مراكب ضخمة تصطف خارجاً في طابور مفرد تنتظر دورها في خضم فوضى مؤخرات السفن المتمايلة، ومقدماتها المتصادمة، وهي تقعقع بحديدها المناضل. ثم تخترق ببطء فتحة المرفأ الضيقة. إنه كما لو أن رحم البحر ينفتح خارجاً مسبباً بذلك الكثير من الألم للعضلات المحيطة. لكن لا، ليس الأمر كذلك. ما من فوضى جلية، فجميع السفن تقبل وتدبر بشكل منظم، أو على الأقل هذا ما يبدو عليه الأمر من اليابسة. وعلاوة على ذلك، فإن 150,000 من الحاويات تمر من هنا سنوياً. مدن بأكملها من البضائع تبنى على أرصفة الميناء فقط لتساق بعدها بعيداً. يقاس نشاط المرفأ تبعاً لسرعة إنجاز العمل فيه. وكل ركود بيروقراطي المنشأ، كل تفتيش مُريب، يحوّل السرعة التي تتم بها عملية النقل من سرعة الفهد

إلى حركة حيوان كسول بطيء ومعوّق.

إنني دوماً أضل طريقي في الرصيف البحري. رصيف باوزان البحري أشبه بشيء صنع من قطع الليغو. منشأة هائلة تبدو كأنها لا تشغل حيزاً بقدر ما تخترعه. إحدى زوايا هذا الرصيف عبارة عن تعريشة لأعشاش الدبابير. حائط كامل مغطى بخلايا نحل هجينة: مقابس كهربائية بالآلاف تغذي البرادات أو حاويات التبريد المملوءة بالأطعمة المجمدة. جميع وجبات العشاء التي تظهر على التلفاز وأصابع السمك في العالم، تحشر في هذه الحاويات الجليدية. في رصيف باوزان أشعر وكأنني أرى مرفأً يشكّل المدخل لجميع البضائع التي ينتجها البشر، حيث تمضي هذه البضائع ليلتها الأخيرة فيه قبل أن يتم بيعها. إنه يتيح للمرء التأمل في مصادر منتجات العالم: من الملابس التي سيرتديها الشباب الباريسيون لشهر، وأصابع السمك التي سيأكلها أهل بريشا لعام، والساعات التي سيزين الكاتالانيون معاصمهم بها، إلى الحرير الذي يزدان به كل ثوب إنكليزي لموسم كامل. جميعها ستمر من هنا خلال ساعات قليلة. سيكون ممتعاً أن يقرأ المرء ليس عن المكان الذي صنعت فيه السلع فحسب، بل أيضاً عن الطريق الذي تسلكه لتحط في يد الشاري. للمنتجات جنسيات متعددة، هجينة، وغير شرعية. فهي تولد في قلب الصين، تنجز في ضواحي مدينة سلافية ما، تُطوَّر إلى حدّ الكمال في شمال شرق إيطاليا، تحزم في باغليا أو شمال تيرانا في ألبانيا، وأخيراً ينتهي بها الأمر في مستودع في مكان ما في أوروبا. ما من إنسان يمكن أن يحصل البتة على حرية الحركة التي تملكها البضائع. كل نبذة من الرحلة، بمسالكها العَرَضية والرسمية، تعثر على نقطة ثابتة في نابولي. عند بداية دخول السفن الهائلة الحاملة للحاويات الخليج واقترابها ببطء من الرصيف، فإنها تبدو كفِيَلَة ماموث من جرّاء صفائح المعدن والسلاسل التي تتحرك بتثاقل، ومن جرّاء

الدرزات الصدئة على جانبيها والتي تنزّ ماء. لكنها عندما ترسو تتحول إلى مخلوقات رشيقة. قد تتوقع أن تحمل هذه السفن طاقماً ضخماً، لكن عوضاً عن هذا تراها تلفظ حفنة قليلة من الرجال الذين يبدون غير قادرين على ترويض هذه الوحوش في المحيط.

عندما رأيت رصيف سفينة صينية لأول مرة، شعرت وكأنني أرقب نتاج العالم بأسره. لم أكن قادراً على عدّ الحاويات لأحصيها، لم أستطع متابعتها جميعها. قد يبدو الأمر سخيفاً لكنني لم أستطع ترقيم الأشياء، لأنني كنت أخطئ في العدّ باستمرار. لقد كانت الأرقام كبيرة جداً، وأخذت تختلط في رأسي.

في هذه الأيام، أضحت البضائع التي تفرغ في نابولي محصورة تقريباً بالصين، فهي تبلغ 6.1 مليون طن سنوياً، والحديث هنا هو عن البضائع المسجلة. وهناك على الأقل مليون طن من البضائع الأخرى التي تمر دون أن تترك أي أثر. وفقاً لوكالة الجمارك الإيطالية، فإن 60 بالمئة من السلع التي تصل إلى نابولي لا تخضع لرقابة التفتيش الرسمي الجمركي، و20 بالمئة من فواتير الدخول تُوقّع من دون مراقبة. وخمسون ألفاً من الشحنات عبارة عن سلع مهربة، 99 بالمئة منها من الصين. كل هذا يقدر بنحو 200 مليون يورو من الضرائب المتهرَّب منها في كل موسم. توضع الحاويات التي ينبغي عدم إخضاعها للتفتيش في الصف الأول. وكل حاوية ترقم كما ينبغي، غير أن الكثير من الأرقام تكون متطابقة. لذا فإن حاوية واحدة يتم تفتيشها تحصّن كل الحاويات غير القانونية الأخرى التي تحمل الرقم ذاته من خطر التفتيش. ما يتم تفريغه يوم الاثنين يمكن أن يصبح معداً للبيع في مودينا أو جنوا، أو أن يضحي في واجهات المحال التجارية في بون أو ميونيخ مع حلول يوم الخميس. يفترض أن كثيراً من البضائع الموجودة في السوق الإيطالية هو في حالة عبور فقط، غير أن سحر الجمارك يكمن في

جعل هذا العبور مستقراً. علم النحو في البضائع له إعراب خاص بالوثائق، وآخر خاص بالتجارة. ففي نيسان من عام 2005، قامت وحدة مكافحة الاحتيال في وكالة الجمارك الإيطالية، والتي كادت عن طريق المصادفة أن تشن في الوقت نفسه أربع عمليات منفصلة عن بعضها، قامت بمصادرة 24,000 سروال من الجينز كانت في طريقها إلى السوق الفرنسية. 51,000 منتج من بنغلاديش قد صنفت على أنها صنعت في إيطاليا، 450,000 قطعة تزينية صغيرة، وألعاب، ودمى "باربي و"الرجل العنكبوت"، 46,000 لعبة صغيرة وغيرها، جميعها كانت ذات قيمة تقريبية تساوي 36 مليون يورو. هذه مجرد حصة صغيرة من الاقتصاد، كانت تشق طريقها عبر مرفأ نابولي خلال ساعات قليلة، ومن المرفأ إلى العالم. ويستمر هذا في كل يوم، وطوال اليوم. وتزداد هذه الحصة لتصبح نظاماً رئيسياً في الاقتصاد.

يقع المرفأ بعيداً عن المدينة، ويبدو كزائدة دودية ملوثة، غير أنها لا تتحول يوماً إلى التهاب، بل هي موجودة دوماً في جوف الخط الساحلي كحيز صحراوي تحدوه الأرض والماء، إلاّ أنه لا يبدو أنه ينتمي إلى أي من اليابسة أو البحر. إنه كحيوان برمائي متصل بالأرض ومتحول عن البحر. تكوين جديد أُحدث من مجموع القذارة، والنفايات، وأشياء أخرى متنوعة شتى حملها المد إلى الشاطىء عبر السنين. تفرّغ السفن مراحيضها التي تشبه تلك التي في المعسكرات، وتنظف مخازنها، وهي تسرّب رغوة صفراء اللون في البحر. وكذلك اليخوت والزوارق، التي تهدر بمحركاتها والتي تستعيد نظافتها وترتيبها بأن تلقي كل ما لديها في صفيحة القمامة، التي هي البحر. تشكل تلك الكتلة الرطبة قشرة صلبة على طول الشريط الساحلي. وتشعل الشمس الماء الذي يبدو كالسراب، إلا أن سطح الخليج يومض كما أكياس القمامة اللامعة،

سوداء اللون. ويبدو البحر هنا وكأنه حوض عملاق من قطع الجليد العائمة. يتراءى رصيف تحميل السفن، بآلاف الحاويات المتعددة الألوان، وكأنه سدّ لا يمكن اختراقه: مدينة نابولي تطوقها جدران من البضائع، غير أن هذه الجدران لا تقوم بحماية المدينة، بل على العكس، فالمدينة هي التي تقوم بحماية الجدران. ومع ذلك فلا يوجد عند المرفأ لا جيوش من محملي السفن، ولا الترهات الرومانسية. يتخيله المرء مكاناً مملوءاً بالصخب، برجال يجيئون ويروحون، بندبات في الوجوه ولغات مبهمة، وبجنون من البشر. لكن عوضاً عن ذلك، تجد سكون مصنع البضائع مطبق. وكأن لا أحد في ذلك المكان المليء بالحاويات والسفن والشاحنات المفعمة بالحياة، والتي هي في حركة دائبة. إنها سرعة صامتة.

اعتدت أن أذهب إلى المرفأ كي آكل السمك، علماً أن القرب من البحر لا يعني شيئاً في ميزان جودة المطعم، إذ إنني أجد في طعامي حجارة صغيرة، ورملاً، وحتى أعشاب بحر مغلية. كانت قطع المحار تجلب من البحر، وتلقى في القدر مباشرة، وهذه العملية ضمانة لطعام طازج، لكنها أيضاً لعبة روليت روسيّة تنطوي على التلوث. غير أن الجميع أذعن في هذه الأيام، لمذاق طعام البحر المربى في المزارع المائية، فأصبح طعم الحبار يشبه طعم الدجاج. أما إن كنت ترغب بتلك النكهة التي يتعذر تعريفها لطعم البحر، فعليك بالمجازفة. بالنسبة إليّ فقد رغبت بأن أجازف عن طيب خاطر. في أحد المطاعم، عند المرفأ، سألت عن مكان أستطيع استئجاره:

"لا علم لي بأي شيء، فالمنازل تختفي هنا. الصينيون يأخذونها..."

شخص ضخم، غير أنه لم يكن بضخامة صوته، كان يعقد اجتماعاً في وسط الغرفة. رمقني بنظرة وصاح: "قد لا يزال هناك

مكان متبقٍ!"، كان هذا كل ما قاله.

بعد أن أنهى كل منا غداءه، شققنا طريقنا أسفل الشارع الذي يمر بمحاذاة المرفأ، ولم يكن بحاجة إلى أن يطلب مني أن أتبعه. وصلنا إلى فسحة تطل على السماء لمنزل مقسم إلى شقق، وصعدنا إلى الطابق الرابع، حيث غرفة الطلبة الوحيدة المتبقية. لقد كانوا يطردون الجميع خارجاً ليخلوا المكان للفراغ، لم يكن من المفروض أن يتبقى شيء في الشقق. لا خزائن، ولا أسرّة، ولا لوحات، ولا مناضد بجانب الأسرّة، ولا حتى جدران. فقط الفراغ، فراغ لعلب الكرتون، فراغ لخزائن كرتونية ضخمة، إنه فراغ للبضائع.

لقد خصصت لي غرفة من ذاك النوع، وكانت أقرب إلى مكان ضيق مقفل، تتسع فقط لسرير وخزانة ملابس. ولم نتطرق للحديث عن الأجرة الشهرية، أو فواتير الخدمات، أو خط الهاتف. عرفني بأربعة أشخاص كانوا زملائي في السكن، هذا كل ما في الأمر. لقد وضّحوا لي أن هذه هي الشقة الطلابية الوحيدة المتبقية في المبنى، والتي كانت تستخدم لإيواء شيان، الرجل الصيني المسؤول عن البلاتزي، أي البناء. لم أكن مطالباً بأي أجرة، لكن كان يتوقع مني العمل في مستودعات المبنى في عطل نهاية الأسبوع. لقد كنت ذاهباً للبحث عن غرفة، وانتهى بي المطاف بالعثور على عمل. كنا نهدم الجدران في الصباح، وفي المساء ننظف حطام قطع الإسمنت والقرميد الضخمة، ونجمعها في أكياس عادية للقمامة. هدم الجدران يصدر أصواتاً غريبة، لا كحجارة تضرب، بل كقطع كريستالية تكنس من الطاولة إلى الأرض. كل شقة تحولت إلى مستودع خالٍ من الجدران. وأنا لا أزال لا أفهم كيف استطاع البناء الذي عملت فيه أن يبقى واقفاً. فقد قمنا لأكثر من مرة بهدم جدران كنا نعلم أنها رئيسية. لكن المساحة كانت ضرورية لأجل البضائع، وما من مجال للمنافسة بين إنقاذ الجدران وتخزين المنتجات.

لقد تفتقت قريحة بعض التجار الصينيين عن فكرة حشو الشقق السكنية بالبضائع، بعد أن قدمت سلطات مرفأ نابولي خطتها الأمنية إلى وفد من أعضاء الكونغرس الأميركي. لقد تضمنت الخطة تقسيم المرفأ إلى أربع مناطق: سفن الرحلات، مراكب للمتعة، مراكب تجارية، والحاويات، مع تقدير للأخطار في كل منطقة. بعد أن نُشرت الخطة الأمنية، قرّر الكثير من رجال الأعمال الصينيين اعتماد الطريقة التي يحولون بها دون شعور الشرطة بوجوب التدخل، ودون كتابة الصحف عن الموضوع بشكل متواصل، أو دون تسلل المحطات التلفزيونية إلى المكان للحصول على قصة دسمة، كانت بأن يغلّفوا كل شيء بستار كثيف من الصمت. ارتفاع الأسعار من جهة أخرى كان سبباً لإبقاء البضائع مخفيّة. وكانت فكرة إخفائها في مستودعات في أجزاء منعزلة من الريف وسط مكبات النفايات وحقول التبغ، ستتطلّب الكثير من حركة النقل الإضافية للمقطورات. أما بهذه الطريقة، فهي لا تتطلّب أكثر من عشر عربات مغلقة، محشوة بالصناديق، تدخل وتخرج من المرفأ يومياً. مجرد رحلة قصيرة وتصبح في مرائب المنازل ذات الشقق التي تقع بمواجهة المرفأ. دخول وخروج، هذا كل ما يستلزمه الأمر.

تحركات مخفية لا تكاد تُدرك، تضيع في الزحام اليومي. شقق تُستأجر، تُفرّغ من أحشائها. جدران مرائب السيارات تزال للحصول على مساحة واحدة متصلة، وأقبية توضع فيها رزم البضائع حتى السقف. وما من مالك واحد تجرأ على التذمر، فقد دفع "شيان" مقابل كل شيء: الأجرة، والتعويض عن أعمال الهدم غير المصرح بها. آلاف من الصناديق تحضر عبر المصعد، والذي أُعيد بناؤه ليتحمل الحمولات الكبيرة. إنه قفص فولاذي بمسارات ومنصة تتحرك باستمرار. لقد كان العمل مركزاً في بضع ساعات، واختيار البضائع لم يكن يتم بشكل عشوائي. كنت أفرغ البضائع في الأيام الأولى من تموز، لقد كان

الأجر جيداً، لكن عمله شاق إن لم تكن معتاداً عليه. لقد كان الجو حاراً ورطباً، لكن أحداً لم يجرؤ على طلب مكيف للهواء. لا أحد. ولم يكن ذلك نابعاً من الخوف من العقاب، أو بسبب ثقافة الطاعة والخضوع المتأصّلة فيهم. فالناس الذين يعملون في تفريغ الحمولات قدموا من كل أصقاع الأرض: غانا، ساحل العاج، الصين، ألبانيا، وكذلك من نابولي، كالابريا، ولوكانيا. لم يسأل أحد لأن الجميع أدركوا أنه ما دامت البضائع لا تتأثر بالحرارة، فما من داعٍ لتبديد الأموال على مكيف للهواء.

لقد كدّسنا صناديق من السترات، والمعاطف المطرية، والواقيات من الريح، والكنزات القطنية، والمظلات. لقد بدا خياراً غريباً في قيظ الصيف أن نكدس ثياباً خريفية عوضاً عن ملابس السباحة، والفساتين الصيفية، والأحذية الخفيفة. على عكس المستودعات المستخدمة للتخزين الاحتياطي للبضائع، فإن شقق التخزين هذه كانت تستخدم للمواد التي ستُطرح في الأسواق مباشرة، إلا أن رجال الأعمال الصينيين توقعوا أن يكون شهر آب غائماً. إنني لم أنس يوماً درس جون مينارد كينيس عن مفهوم القيمة الهامشية، وكيف أن سعر قارورة الماء مثلاً يتفاوت بحسب إن كانت تباع في الصحراء، أو قرب شلالات الماء. في ذلك الصيف كانت المؤسسات التجارية الإيطالية تعرض الماء قرب الشلالات، بينما كان المقاولون الصينيون يفجّرون الينابيع في الصحراء.

بعد أيامي القليلة الأولى في العمل، أمضى شيان ليلته في الشقة. كان يتحدث الإيطالية بطلاقة، ويلفظ حرف الراء برقّة، كانت تبدو معها أقرب إلى حرف v. فيصبح كالأرستقراطيين الذين حلّ بهم الفقر والذين يقلدهم "توتو في أفلامه. "شيان تسو" قد أُعطِي اسم نينو، ففي نابولي جميع الصينيين الذين يتعاملون مع السكان المحليين

يأخذون أسماء نابوليّة. هذا الأمر أضحى من الممارسات المألوفة. وليس من المفاجئ أن ترى صينياً يعرّف بنفسه على أنه تونينو، نينو، بينو، أو باسكال. نينو شيان لم ينم، وبدلاً من ذلك أمضى الليل جالساً إلى طاولة المطبخ وهو يجري مكالمة هاتفية، وعينه على التلفاز، أما أنا فقد استلقيت في فراشي لكنني لم أستطع النوم. فصوت شيان لم يخفت قط، كان لسانه كمسدس أوتوماتيكي، يطلق الرصاص من خلال أسنانه. لقد كان يتكلم دون أن يشهق، وكأن الكلمات كانت تختنق في جوفه. لقد أشبعت الغازات التي أطلقها حراسه الشخصيون المنزل برائحة مثيرة للغثيان اخترقت حتى غرفتي. لم تكن الرائحة النتنة هي وحدها ما أثار اشمئزازي، بل كذلك الصور التي استحضرتها: ينابيع تتدفق في معداتهم، والأرز الكانتونيزي ينقع في العصارات المعدية. أما بقية المستأجرين فقد كانوا معتادين على الأمر، فما إن تغلق دونهم أبواب حجراتهم فما من شيء له وجود بالنسبة إليهم سوى النوم. أما بالنسبة إليّ، فلا وجود لشيء سوى ما كان يحصل خارج باب غرفتي. لذا فقد خرجت للجلوس في المطبخ، الذي كان منطقة مشاعة، والذي كان جزئياً لي أنا أيضاً، على الأقل من الناحية النظرية. عندها توقف شيان عن الكلام وبدأ بالطهي، كان يحضّر دجاجاً مقلياً. أخذت كل أنواع الأسئلة تحضر إلى ذهني. أشياء وددت أن أسأله عنها، وكليشيهات رغبت أن أتجاوزها. أخذت أتحدث عن الترایاد، المافيا الصينية، لكن شيان استمر بالطهو. كنت أريد أن أسأله عن أمور دقيقة محددة، حتى لو كانت بالرموز فقط، فأنا حتماً لم أكن لأتوقع اعترافاً بعضويته فيها، لكن على فرض أن العلم بالتحقيقات كان كالعلم بالواقع، فقد أظهرت له أنني على معرفة بالعالم السفلي في الصين. كان كل ما فعله شيان هو أنه وضع طعامه المقلي على الطاولة، وجلس دون أن ينبس ببنت شفة. لست أدري إن كان قد وجد ما أتحدث

عنه مثيراً للاهتمام، ولم أستطع أبداً أن أعرف إن كان ينتمي حقاً إلى الترایاد. تناول بضع رشفات من شراب الشعير، ثم رفع أحد ردفيه عن كرسيه، أخرج محفظته من جيب سرواله وقلّب فيها، ثم سحب منها ثلاث فواتير. وضعها على الطاولة ووضع كأساً فوقها، ثم قال: "يورو، دولار، ين. هذه هي ثلاثية الترایاد خاصتي

لقد بدا شيان صادقاً. ما من إيديولوجية أخرى، ولا رموز أو عاطفة متسلسلة، إنها الربح، العمل، ورأس المال ولا شيء غيرها. يميل المرء إلى الاعتقاد بأن القوة المحددة لبعض العوامل المحركة مبهمة، وكذلك يجب أن تصدر عن كيان مبهم، كالمافيا الصينية. إنها تركيب يلغي كل المراحل الوسيطية، التحويلات المالية، الاستثمارات، وكل ما من شأنه أن يجعل من المؤسسة الاقتصادية الإجرامية ذات نفوذ. فعلى مدى خمس سنوات فعلية قامت كل لجنة لمكافحة المافيا بالتأكيد في تقريرها على الخطر المتنامي للمافيا الصينية، لكن مع ذلك ففي غضون عشر سنوات من التحقيقات صادرت الشرطة فقط 600,000 يورو في كامبي بيسينزيو قرب فلورنسا، وبضع دراجات نارية، وجزءاً من مصنع. وهذا لا يقارن مع القوة الاقتصادية التي كانت تحرك مئات الملايين من اليورو كرأس مال، والتي واصل المحللون الأميركيون الكتابة عنها. كان شيان رجل الأعمال يبتسم لي ويقول:

"للاقتصاد قمة وقاع. نحن دخلنا في القاع وسنخرج من القمة"

وقبل أن يأوي نينو شيان إلى سريره، قدّم إلي عرضاً لليوم التالي:

- هل تستيقظ باكراً؟

- هذا يعتمد على الأمر الذي سأستيقظ لأجله.

- إن كنت تستطيع أن تهب على قدميك في الخامسة من فجر الغد، فرافقنا إلى الميناء. سيكون بإمكانك تقديم العون لنا.

- في أي شأن؟

- إن كنت تملك كنـزة قطنية ذات قلنسوة، فستكون فكرة حسنة أن ترتديها.

كان هـذا كل مـا قالـه ولا شـيء آخـر. وأنـا من جهتـي لم أصر على معرفة المزيد لتوقي إلى المشـاركة، فطرحُ أسـئلة أكثر من اللازم كان سيعرض دعوة شيان لي للخطر. لقد تبقى لي بضع ساعات فقط للراحة، لكنني كنت متحمساً كثيراً لدرجة يصعب معها النوم.

في تمام الخامسـة كنت مسـتعداً وأنتظر في الطابق الأسـفل مع الآخرين: وكان أحدهم زميلي في السكن، والآخران من شمال إفريقيا وقَدْ بـدأ المشـيب يغـزو مفارقهمـا. انحشـرنا جميعاً فـي حافلة مغلقة وتوجهنا إلى الميناء. لسـت أدري كم توغلنا داخل الميناء، أو أياً من الطرقات الخلفية سلكنا، لقد غفوت ورأسي مستند إلى نافذة الحافلة. ترجلنـا قـرب بعـض الصخور، عند حاجـز مائي صغير ينتأ في المنطقة الصخرية، حيث رسا قارب ذو محرك ضخم كان يبدو كحمولة ثقيلة في ذيل مركب ضيق وطويل كهذا. كنا ونحن نعتمر القلنسـوات نبدو كأعضاء في إحدى مجموعات موسيقى "الراب" السخيفة. تلك القلنسوة التـي ظننـت أن وظيفتهـا إخفـاء هوياتنـا، تبيّن أنها كانـت لحمايتنا من الرذاذ الجليدي، في محاولة لرد الصداع النصفي الذي سيدق مساميره في صدغ كل منا في ساعات الصباح الأولى في البحر. قام شاب من نابولي بتشغيل المحرك، وتولى آخر قيادة الدفة، لربما كانا أخوين، فقد بـدَوَا متشـابهين للغايـة. لم يذهب شـيان برفقتنـا. وبعد حوالى النصف سـاعة اقتربنا من سـفينة لدرجة ظننت معها أننا كنا سـنصطدم بها. لقد كانت هائلة، مما استلزمني إمالة رأسي بشدة إلى الخلف حتى أستطيع رؤيـة قمـة متاريسـها. تطلق السـفن في فضاء الميـاه المفتوح صرخات حديدية، كأصوات أشجار تقطع، وأصوات جوفاء عميقة تجعلك تزدرد ريقك باستمرار، ويصبح للعابك طعم الملح.

مكتبة الرمحي أحمد

سقطت من بكرة السفينة وبطريقة غير منتظمة شبكة مملوءة بالصناديق. وفي كل مرة كانت الحزمة ترتطم بقاربنا كانت تُقذف بشدة، لدرجة كنت معها في كل مرة متأكداً من أنني سأسقط في الماء. لم تكن الصناديق ثقيلة، إلا أنه بعد تكديس ما يقرب الثلاثين منها في الخلف، أحسست بالألم في معصمي، واحمرّت ذراعاي من زوايا الصناديق التي أخذت تغرز فيهما. ثم انطلق قاربنا متوجهاً إلى الساحل، بينما كان قاربان آخران يقتربان ليتوقفا إلى جانب السفينة ليجمعا المزيد من العلب. لم يكادا يغادران الحاجز المائي حتى أصبحا فجأة في أثرنا. وفي كل مرة كانت مقدمة القارب تصفع وجه الماء، شعرت بها وكأنها في قلب معدتي. أسندت رأسي إلى أحد الصناديق، وحاولت أن أخمن محتواه من رائحته، ووضعت أذني عليه محاولاً استنتاج ما بداخله من الأصوات التي قد تسمع فيه. تسلل إليّ شعور بالذنب، فمن يدري ما الذي شاركت فيه دون أن أتخذ قراراً حقيقياً، ودون أن أختار. لقد كان أمراً أدين نفسي على فعله عمداً، لكن عوضاً عن ذلك فقد انتهى بي المطاف إلى تفريغ سلع سرية بدافع الفضول. لسبب ما يعتقد المرء أن الفعل الإجرامي يجب أن يتم بعد تفكير معمق ومتروٍّ أكثر من الفعل الحميد، لكن في الحقيقة ليس هناك فرق. فالإيماءات تعرف مرونة تتجاهلها الأحكام الأخلاقية. عندما عدنا إلى الحاجز المائي تسلق كل من الرجلين الإفريقيين القارب، وهما يحملان علبتين على أكتافهما، أما بالنسبة إليّ فقد كنت أجد صعوبة في الوقوف دون تمايل. كان شيان يقف بانتظارنا على الصخور. قام باختيار علبة كرتونية ضخمة وقطع شريط التغليف اللاصق بالمشرط. وهناك ظهرت أحذية رياضية. كانت أحذية أصلية من أشهر الماركات، ومن أحدث التصميمات، كانت جديدة للغاية لدرجة أنها لم تكن بعد مخصّصة للبيع في إيطاليا. لخوفه من التفتيش الجمركي فضّل شيان أن يتم

تفريغ هذه الحمولات في عرض البحر. فبهذه الطريقة يمكن للبضائع أن توضع في الأسواق دون تحمّل العبء الضريبي، وتجار الجملة لن يضطروا بهذه الطريقة إلى دفع رسوم استيراد. وبهذا فإنك تقهر التنافس على الأسعار، فتحصل على نوعية البضاعة نفسها بحسم 4، و6، و10 بالمئة. وهي نسب ما من مندوب مبيعات يستطيع تقديمها، وهذه النسب هي التي تنجح عمل المتجر أو تفشله، وهي التي تأذن بولادة مركز تسوق جديد، وتحقق أرباحاً مضمونة والتي بدورها تؤمّن القروض المصرفية. يجب أن تكون الأسعار متدنية، وكل شيء يجب أن يتحرك بسرعة وسرية وأن يؤدي إلى عمليتي بيع وشراء. إنه كأوكسجين غير متوقع للتجار الإيطاليين والأوروبيين معاً، أوكسجين يمر عبر مرفأ نابولي.

وبينما كانت بقية القوارب تتجه إلى الشاطئ، حمّلنا الصناديق في العربات المغلقة التي انطلقت إلى روما، فيتيربو، لاتينا، فورميا، أما نحن فقد أمّن لنا شيان وسيلة تقلنا إلى المنزل.

لقد تغير كل شيء في السنوات الأخيرة، كل شيء. وحدث ذلك فجأة وبشكل غير متوقع. بعض الناس يستشعرون التغيير دون أن يدركوا كنهه. فحتى عشر سنوات خلت، كانت قوارب المهربين تحرث خليج نابولي كل صباح وهي تحمل الموزعين الساعين إلى تخزين السجائر. كانت جميع الشوارع تحتشد، والسيارات تتخم بعلب كرتونية ليتم بيعها في أكشاك الزاوية. وكانت هناك حروب مصطنعة دائرة بين خفر السواحل، الجمارك، والمهربين. أطنان من السجائر مقابل اعتقال فاسد، أو إجراء اعتقال مقابل أطنان من السجائر مخبأة في قاعدة مموّهة لقارب ذي محرك معد للفرار. ليالٍ طويلة من المراقبة: حراس، وصفارات التحذير من سيارة مشبوهة، وأجهزة الإرسال والاستقبال المحمولة والتي هي على أهبة الاستعداد لإعطاء

الإنذار، وصفوف من الرجال تمرر بسرعة الصناديق على طول الشاطئ. سيارات تنهب الطريق متجهة من ساحل باغليا إلى داخل البلاد، أو من المناطق الخلفية إلى كامبانيا. أما المحور الحاسم فكان يمر بين نابولي وبرينديسي، كان ذاك طريق السجائر الرخيصة. حرفة التهريب كانت حرفة مزدهرة، كانت كسيارة الفيات الخاصة بالجنوب، هي نظام إنعاش اجتماعي لأولئك الذين تجاهلتهم الحكومة، والنشاط الوحيد الذي تفرّغ له عشرون ألف شخص في باغليا وكامبانيا. وكانت كذلك الفتيل الذي أشعل حرب كامورا الكبيرة في أوائل عام 1980.

كانت جماعات باغليا وكامبانيا تقوم بتهريب السجائر إلى أوروبا كوسيلة للالتفاف على الضرائب الحكومية. لقد استوردوا شهرياً آلاف العلب من مونتينيغرو بفواتير تصل قيمتها إلى 500 مليون لير - ما يقارب 330,000 دولار - على كل شحنة، أما الآن فكل ذلك قد انقطع وتغير، فلم يعد التعامل مع السجائر المهربة يستحق العناء بالنسبة إلى تلك الجماعات. لكن حكمة أنتونيو لافوازييه أثبتت صحتها: لا شيء يضيع، ولا شيء يُحدَث، بل كل شيء يتحول. ذلك الأمر يحصل في الطبيعة، ولكن، وقبل كل شيء، في القوى المحركة للرأس مالية أيضاً. فالسلع الأكثر استهلاكاً كالنيكوتين استبدلت بسلعة مهربة جديدة. كانت حرب أسعار سفّاحة تتطور، حيث إن الحسومات كانت تعني الحد الفاصل بين الموت والحياة بالنسبة إلى الوكلاء، وتجار الجملة، والتجار العاديين. الضرائب، وضريبة القيمة المضافة، وشاحنات القاطرة والمقطورة جميعها أجزاء زائدة وعديمة النفع في عملية الربح، إنها العقبات الحقيقية التي تعوق دورة البضائع والمال. ولكي تستغل الشركات اليد العاملة الرخيصة فإنها تنقل الإنتاج إلى الشرق، إلى رومانيا أو مالديفيا، أو حتى إلى أبعد من ذلك، إلى الصين. لكن هذا غير كافٍ، فصحيح أن البضائع تنتج بأثمان بخسة،

إلا أنها تدخل سوقاً يتزايد فيها المستهلكون ذوو المداخيل غير الثابتة أو ذوو المدخرات القليلة للغاية، وهم يتتبعون مسار كل قرش منها. وبينما تتكوم البضائع غير المباعة، تصل قطع متنوعة منها أصلية، ومنها مقلّدة، ومنها ما يشابه المقلّد، أو الحقيقي جزئياً. إنها تصل بصمت ودون أن تترك أي أثر. فمسيرتها أقل وضوحاً من السجائر كونه ما من توزيع غير قانوني لها. وكأن هذه البضائع لم تشحن يوماً، بل وكأنها نبتت سريعاً في الحقول وتم حصادها بيد مجهولة. إن المال لا ينتن، لكن للبضائع رائحة عذبة. إنها على أي حال لا تفوح برائحة البحر الذي قطعته، ولا برائحة الأيدي التي صنّعتها، ولا وجود لبقع الشحم من الآلات التي ركبتها، إن البضائع تفوح برائحة المكان الذي تألفه، رائحة رفوف صاحب المتجر، وغايتها الوحيدة هي منزل الشاري.

تركنا البحر خلفنا وتوجهنا إلى المنزل، وبالكاد أعطتنا العربة الفرصة لتمس أقدامنا الأرض حين استدارت عائدة إلى المرفأ لتجمع المزيد من العلب الكرتونية، المزيد من البضائع. كدت أن أصاب بإغماء عندما استقلّيت المصعد. وعندما وصلت، نزعت عني كنزتي القطنية المشبعة بالعرق وماء البحر، وتهالكت على فراشي. لست أدري كم من الصناديق قد حملت وكدست، غير أنني شعرت وكأنني قد حملت علباً تحوي أحذية تكفي أقدام نصف سكان إيطاليا. لقد كنت منهكاً، وكأنني في نهاية يوم عمل شاق وطويل. ولكن في الواقع كان زملائي في المسكن يصحون لتوهم من نومهم، حيث كنا لا نزال في ساعات الصباح الأولى.

أنجلينا جولي

في الأيام التي تلت، اصطحبني شيان معه إلى اجتماعاته في العمل. لقد بدا أنه يستمتع بصحبتي في تمضية يومه، أو في أثناء تناوله طعام الغداء. كنت أتكلم أكثر من اللازم أو أقل من اللازم، وفي كلتا الحالتين كان الأمر يعجبه. لقد تتبعت كيف تبذر بذور المال ثم تحرث، وكيف أن التربة الاقتصادية يترك لها المجال لتستريح. لقد ذهبنا إلى لاس فيغاس - نابولي، وهي منطقة في شمال نابولي، ونحن ندعوها كذلك هنا لعدة أسباب، فكما هي الحال في لاس فيغاس - نيفادا التي شيدت في وسط الصحراء، فإن هذا التكتل المدني هنا يبدو وكأنه قد انبثق من العدم، ويتوجب عليك لتصل إليه أن تقطع طرقات في الصحراء تبدو وكأنها أميال من القطران. إنها شوارع عريضة تنقلك بسرعة خاطفة بعيداً من هنا، وتحث بك المسير باتجاه الطريق السريع إلى روما، وبخط مستقيم نحو الشمال. هذه طرقات شيدت لا للسيارات بل للشاحنات، ولا لتنقل الناس، بل الثياب والأحذية والمحافظ. وعندما تصل من نابولي فإنك ترى هذه البلدات تظهر لك من العدم، مزروعة في الأرض الواحدة تلو الأخرى. كتل من الإسمنت، وتشابكات معقدة من الشوارع. شبكة من الطرقات التي تدور بلا نهاية حول كاسافاتور، وكيفانو، وسانت أنتيمو، وميليتو، وأرزانو، وبيسينولا، وسان بييترو أباتييرنو، وفراتاماغواير، وفراتامينور، وغرومو نيفانو. إنها أماكن يصعب تمييزها عن بعضها لدرجة أنها تبدو بشوارع إحداها

تخترق الأخرى، وكأنها عاصمة واحدة عظيمة الحجم.

لا بد أنني قد سمعت مئات المرات أن المنطقة المحيطة بفوجيا يطلق عليها اسم كاليفوجيا، وأن القسم الجنوبي من كالابريا يشار إليه بكالافريكا أو ساودي كالابريا، وأن منطقة سالا كونسلينا يشار إليها بساهارا كونسولينا أو أن منطقة سيكونديغليانو (والتي تعني الميل الثاني) تدعى تيرزو موندو (العالم الثالث)، أما لاس فيغاس هذه فهي فعلاً لاس فيغاس. فعلى مدى سنوات، كل من أراد أن يجرب حظه في العمل كان بإمكانه أن يفعل ذلك هنا. على مبدأ عِش حلمك، كان بإمكانه أن يستخدم ماله المقتطع، مدخراته، أو قرضاً اقترضه ليفتح به مصنعاً. قد تراهن على شركة: إن ربحت، فستكسب الكفاءة، والإنتاجية، والسرعة، والحماية، واليد العاملة الرخيصة. وربحك مشابه للطريقة التي تربح بها عند المراهنة على الأحمر أو الأسود. أما إن خسرت فستخرج من نطاق الأعمال خلال أشهر قليلة. إنها لاس فيغاس، حيث ما من أنظمة محدّدة، وما من مخططات تنفيذية أو اقتصادية. فالملابس، والأحذية، والإكسسوارات كانت تطرح في السوق العالمية على نحو سري، وبالتالي فلم يكن هذا الإنتاج القيم مفخرة لهذه البلدات. بل على العكس، كلما تم تصنيع المنتجات بصمت وسرية، كلما تكلل الأمر بالنجاح أكثر فأكثر. على مدى سنوات طويلة أنتجت هذه المنطقة أرقى الأزياء الإيطالية، وبالتالي أفضل الأزياء في العالم. إلا أن سكانها لم يكونوا يمتلكون نوادي للمقاولة، أو مراكز تدريب، لم يكونوا يمتلكون سوى عملهم، ولا شيء سوى آلات الحياكة، ومصانع صغيرة، وصناديق مغلّفة، وبضائع مشحونة. لا شيء سوى تكرار الإنتاج بلا نهاية. أي شيء آخر كان زيادة عن الحاجة. يأخذ التدريب مكانه على طاولات الحرفيين، وجودة الشركة كانت تبرز من خلال نجاحه: لا تمويل، لا مشاريع،

إذاً، لا تدريب. ففي عالم التجارة كانت المعادلة الكل أو لا شيء، ربح أو خسارة. كانت الزيادة في الرواتب تعني منازل أفضل، وسيارات فارهة، لكنها على الرغم من ذلك لم تكن تلك الثروة التي يمكن اعتبارها مشروعة، بل إنها ثروة مسروقة، اغتصبت من شخص آخر، ووضعت في كهفك. فجميع الناس قدموا من أصقاع شتى ليستثمروا أموالهم في صنع القمصان، والسترات، والتنانير، والسترات الرياضية، والقفازات، والقبعات، وحقائب اليد، ومحافظ المال لشركات إيطالية، وألمانية، وفرنسية. لقد توقفت لاس فيغاس في الخمسينيات عن طلب الرخص، والعقود، وفرض ظروف عمل مناسبة. وبالتالي تحولت المرائب، والسلالم، والمخازن إلى مصانع. لكن، مؤخراً، المنافسة الصينية أفلست أولئك الذين ينتجون بضائع متوسطة النوعية. لم يعد هناك مكان للحرفية في العمل، فإما أن تقدم أفضل عمل بأسرع طريقة، أو أن أحداً ما سيجد وسيلة يقدم من خلالها متوسط العمل بسرعة أكبر. كثير من الناس وجدوا أنفسهم دون عمل، وأصحاب المعامل سحقتهم الديون والفوائد، والكثير منهم فرّوا سراً.

هناك مكان بعينه أصبح وجوده مهدداً جراء اختفاء هذه الصناعات متوسطة النوعية: إنه باركو فيرديه في بلدة كيفانو. لقد انقطعت أنفاسه وأعيق نموه، حتى إنه أصبح رمزاً للتقدم التدريجي الخارجي للتمدد المدني. هنا الأضواء دائماً مضاءة، والمنازل ملأى بالناس، والأفنية مزدحمة، والسيارات مركونة. لا أحد يغادر المكان، فبعض الناس يختفون عن الأعين لكن القلة يبقون. فما من لحظة تمر خلال النهار تصبح بها المنازلُ التي تحوي شققاً خاوية. إنك لا تجد ذلك الإحساس بالسكون الذي يلي مغادرة الجميع في الصباح قاصدين أعمالهم أو مدارسهم. يوجد هنا دوماً حشد من الناس، ويسمع لهم ضجيجاً متواصلاً طويل الأمد.

تقع باركو فيرديه عند المحور الرئيسي في المدينة، ذاك السكين الإسفلتي الذي يشرّح نابولي. إنه يبدو أقرب إلى كومة نفايات منه إلى حي سكني. أبنية إسمنتية لها شرفات من الألمنيوم تنتفخ كما الدمامل خارجةً من كل فتحة. إنها تبدو كأحد تلك الأماكن التي صممها مهندس معماري استوحى إلهامه من الشاطئ، وكأنه كان يريد لهذه الأبنية أن تظهر كالقلاع الرملية تلك، التي تشكّل من قلب أكوام من الرمل رأساً على عقب، مملة، وبلا ملامح. في إحدى الزوايا تجد دار عبادة صغيرة تكاد لا تلحظها. لكن لم تكن هذه الحال على الدوام. فقد كان هناك دار عبادة كبيرة بيضاء اللون، وضريح بالمقاسات الأصلية، مهدى لصبي يدعى إيمانويل. لقد قتل إيمانويل في أثناء العمل. عملٌ كان في بعض الأماكن أسوأ حتى من العمل الإضافي الليلي في المصنع، غير أنه كان وسيلة لكسب الرزق. كان إيمانويل يقوم بالسرقة، وكان دائماً يضرب ضربته أيام السبت. وقد استمر في هذا كل سبت لبعض الوقت. ودائماً في المكان نفسه، والزمان نفسه، والشارع نفسه، ويوم السبت نفسه، لأن يوم السبت كان يوم قدوم ضحاياه، إنه يوم العشاق. وشارع 87 كان هو المكان الذي يقصده جميع العشاق في المنطقة. وهو زقاق مرقع بإسفلت قد وزِّعت فيه مكبات قمامة صغيرة هنا وهناك. في كل مرة أمرّ فيها هناك وأشاهد ثنائياً أفكر في أنه يتوجب عليهما أن يطلقا العنان للكثير من عواطفهما كيلا يشعرا بالمحيط المثير للإشمئزاز الذي هما في وسطه. كان هذا هو المكان الذي يختبئ فيه إيمانويل مع اثنين من أصدقائه، بانتظار ركن سيارة، وانطفاء أضوائها. ينتظرون بضع دقائق إضافية ليعطوا العاشقين الفرصة ليخلعا ملابسهما، وعندما يصبحان في أكثر الأوضاع حساسية، ينقضون عليهما. كانوا يحطمون زجاج النافذة بعقب المسدس، ويلصقون فوهته تحت أنف الرجل. وبعد أن يستولوا على كل ما تحمله ضحاياهم، يتوجهون إلى قضاء

عطلة نهاية الأسبوع وهم يطوون عشرات السرقات تحت أحزمتهم و500 يورو في جيوبهم، وعلى الرغم من أنها غنيمة ضئيلة إلا أنهم كانوا يشعرون بأنهم يملكون ثروة.

ثم في إحدى الليالي حاصرتهم دورية من الجنود الذين أوكلت إليهم مهام رجال الشرطة. لقد كان إيمانويل وشريكاه على درجة من التهور لم يدركوا معها أن القيام بالتحركات نفسها في الموقع نفسه، يُعدّ أفضل وسيلة ليتم القبض عليهم. لقد حصلت مطاردة للسيارات انتهت باصطدام تلك السيارات ببعضها، ودوي طلقات الرصاص، ثم كان السكون. لقد كان إيمانويل قابعاً داخل السيارة، مصاباً بجروح قاتلة. وكان في يده مسدس وجهه نحو الجنود، فما كان منهم إلا أن أردوه قتيلاً بإحدى عشرة طلقة خلال ثوانٍ. أن تُطلَق إحدى عشرة طلقة بهذا الشكل فذلك يعني أن مسدسك مصوب وجاهز للإطلاق عند أقل بادرة استفزاز. أردوه قتيلاً في لحظات ثم اعتبر الأمر لاحقاً دفاعاً عن النفس. لقد طارت الرصاصات بسرعة الريح لتستقر في جسد إيمانويل وكأنه مغناطيس يجذبها. كان صديقاه على وشك الهروب، لكنهما استسلما عندما أدركا أن إيمانويل قد مات. فتحا أبواب السيارة وترجلا منها وتعرضا دون أي مقاومة للّكمات التي انهالت على وجهيهما، والتي هي استهلال لكل عملية اعتقال. أما إيمانويل فكان مثنياً إلى الأمام وبيده مسدس مزيف من ذلك النوع الذي يطلق عليه اسم طارد الكلاب، والذي يستخدم لإبعاد الكلاب الشاردة عن قن الدجاج. كان لعبة تستخدم وكأنها مسدس حقيقي، على الرغم من كل شيء كان إيمانويل طفلاً يتصرف على طريقة الرجال، وكان ذا نظرة خائفة تدّعي القسوة، وذا رغبة في مصروف للجيب أظهرته وكأنه متعطش للغنى. كان إيمانويل يبلغ الخامسة عشر ربيعاً، وكان الجميع ينادونه مينو. كان ذا وجه نحيل، كئيب، وخشن. ذاك النوع من الوجوه

الذي تتصور صاحبه كآخر من تود الخروج لتمضية الوقت بصحبته. لقد قـدم إيمانويـل مـن زاويـة في العالم لا يحوز فيهـا المرء على الاحترام والتقديـر لمجـرد امتـلاك مصروف للجيب، بل للكيفية التي حصل عليه بها. لقد كان إيمانويل ينتمي إلى باركو فيرديه، وعندما تأتي من مكان يصمك، فما من خطأ أو جريمة يمكن أن تلغي حقيقة انتمائك. قامت العوائل في باركو فيرديه بجمع المال لتبني ضريحاً صغيراً، وفي الداخل وضعـت صـورة لإيمانويل وهو يبتسـم. لقد كان ذلك الضريح الخاص بإيمانويـل واحـداً من عشـرين ضريحاً بناهـا المخلصون تخليداً لذكرى بعض الأشخاص، إلا أن المحافظ لم يحتمل أن يخصص هذا الضريح بالذات لمجرم، لذا قام بإرسال جرافة ليدكه عن بكرة أبيه. تداعى البناء الإسـمنتي مباشـرة كمـا لـو كان مصنّعـاً مـن قوالب من الطين. وسـرى الخبر سـريعاً، فتوافد شـباب باركو فيرديه على دراجاتهم النارية، دون أن ينطـق أحدهـم بكلمـة. لقـد أخذوا يحدّقون بالرجل الذي كان يعمل على الجرافة. وتحت ثقل نظراتهم ما كان منه إلا أن توقف، وأشار إلى مدير الشرطة، وكأنه يقول إنه هو من أصدر الأمر. كانت إيماءة يدلّ بها على المسـؤول عن حنقهم ويخرج نفسـه من موضع الاسـتهداف. لكن الخوف والشـعور بالحصار دفعاه إلى إغلاق الأقفال وحبس نفسـه في الداخـل، إذ مـا هـي إلا لحظـة حتى بدأ الشـجار. لقد اسـتطاع أن يدبر أمر فراره في سيارة للشرطة بينما كان جمع الشباب يهاجمون الجرافة بقبضات الأيدي ورفسات الأقدام. لقد أفرغوا قوارير الشراب وملأوها بالبنـزيـن بـأن أمالـوا محركات دراجاتهم الناريـة ليقطر من الخزان إلى القـارورة. وألقـوا كذلـك بالحجـارة علـى نوافذ مدرسـة مجـاورة. كان منطقهـم أنـه إذا كان الضريـح المخصص لإيمانويل سيسـقط، فلتسـقط كل البقيـة أيضـاً. وأخـذت الصحـون، والمزهريـات، والأدوات الفضية تتطاير من نوافذ الشقق. وقذفت قنابل نارية على مركز الشرطة، صفائح

النفايات صُفَّت كمتاريس، وأشعلوا النيران في كل ما استطاعوا وضع أيديهم عليه. كانت التحضيرات تتم لشن حرب عصابات، ومع وجود المئات منهم فهم سيصمدون لفترة طويلة. كان التمرد ينتشر وسرعان ما سيصل إلى نابولي.

مكتبة الرمحي أحمد ٩٦

إلا أن شخصاً وصل من مكان ليس ببعيد. وعلى الرغم من أن المنطقة بأكملها كانت محاطة بسيارات الشرطة والجنود، غير أن سيارة سوداء رباعية الدفع تمكنت من عبور تلك الحواجز. أعطى السائق إشارة، وفتح أحدهم الباب ليصعد بضعة من المتمردين. وفي أقل من ساعتين انقضى كل شيء: أزيلت المناديل التي كانت تخفي الوجوه، وأُطفئت متاريس صفائح النفايات المشتعلة. باركو فيرديه تُعدّ كمنجم ذهب يهب عمالاً لكامورا. فكل من يريد مجندين للعمل يستطيع أن يجمعهم من هنا: عمال من الدرجة الدنيا، دون أي خبرات، يجنون حتى أقل من منتهزي الفرص النيجيريين أو الألبان. يرغب الجميع بأولاد باركو فيرديه: جماعة كاسالسي، وجماعة مالاردو دي غيوليانو، وجماعة كريسبانو أي أشبال النمور. إنهم يصبحون مروجي مخدرات بأجور محددة ودون نسب على مبيعاتهم، أو يصبحون سائقين، أو حراس مراقبة يحمون مقاطعات تبعد أميالاً عن منازلهم. وليحصلوا على العمل فهم لا يطلبون حتى تعويضاً عن مصروف البنزين. إنهم أولاد جديرون بالثقة، ويدققون كثيراً في ما يعملون. قد ينتهي الأمر ببعضهم بتعاطي الهيرويين، المادة المخدرة للبؤساء حقيقة، وبعضهم الآخر ينقذون أنفسهم بأن ينضموا إلى صفوف الجيش ويتم نشرهم في مكان ما. أما الفتيات فمنهن من يتدبرن أمر الهروب من هذا المكان إلى غير رجعة. نادراً ما أصبح أحد من الجيل الناشئ عضواً في الجماعة، إنهم يعملون لدى الجماعة من دون أن يصبحوا كاموريين

يوماً. فالجماعات لا تريدهم بل بالكاد توظفهم لتستفيد مما يقدمونه. فهؤلاء الأولاد لا يملكون أي مواهب أو مهارات تجارية، فالكثير منهم يعملون كسعاة أو يحملون حقائب الظهر المملوءة بالحشيشة إلى روما. ينطلقون على متن الدراجات النارية بأقصى سرعة وينهبون الطريق ليصبحوا خلال ساعة ونصف على بوابات العاصمة. إنهم لا يتقاضون أي أجر على هذه الرحلات، لكنهم يحصلون بعد حوالى العشرين منها على هدية، هي الدراجة النارية. إنها ثمينة جداً بالنسبة إليهم، مكسب لا يضاهى وحتماً لا يمكن الوصول إليه عن طريق أي عمل آخر متوفّر في هذا المكان. لقد كانوا يقومون بتوصيل بضائع تصل قيمتها إلى عشرة أضعاف قيمة الدراجة النارية، لكنهم لا يعلمون ذلك، بل إنهم غير قادرين حتى على تخيل الأمر. وإذا ما تم توقيفهم على حاجز في الطريق فسيحصلون على حكم ليس بأقل من عشر سنوات. وبما أنهم ليسوا أعضاءً فالجماعة لن تغطي نفقات الدعاوى، ولن تضمن تقديم المعونة لأسرهم، وعلى الرغم من ذلك فإن صوت العادم يظلّ يهدر في آذانهم وروما تنتظر وصولهم إليها.

بعض المتاريس أزيلت ببطء، بحسب درجة الغضب المكبوت. ثم أخفق كل شيء. لم تكن الجماعات خائفة من الثورة بقدر ما كانت قلقة. باركو فيرديه لها أن تحترق لأيام، وللسكان أن يفنوا بعضهم بعضاً إن أرادوا، إلا أن هذا الاضطراب كان يعني توقف العمل، وأنه لا مزيد من احتياطي العمال بخسي الأجرة. على كل شيء أن يعود إلى طبيعته على الفور. على الجميع العودة إلى العمل، أو على الأقل أن يكونوا متأهبين له في حال كان هناك حاجة إليهم. لعبة الثورة هذه يجب أن تتوقف.

لقد حضرت جنازة إيمانويل. في بقع معينة من الكرة الأرضية، الخامسة عشرة هي مجرد رقم. وفي حي الفقراء هذا، أن تموت في

الخامسة عشرة هو أقرب إلى الإيفاء بحكم بالإعدام صادر بحقك منه إلى حرمان من الحياة. كانت دار العبادة مليئة بأطفال متجهمي الوجه، كانوا يطلقون الصرخات بين الحين والآخر. وفي الخارج وقفت جوقة صغيرة كانت تنشد: "إنه ما زال معنا، وسيبقى دائماً معنا..." إنها أنشودة تقليدية ينشدها محبو كرة القدم عندما يتقاعد أحد صانعي الأمجاد من فريقهم. لقد كانوا وكأنهم يقفون في الملعب الرياضي، عدا أن أناشيدهم كانت مفعمة بغضب عارم. لقد بذل رجال الشرطة المرتدين ثياباً مدنية جهدهم في تجنب المشي في دار العبادة، وعلى الرغم من أن الجميع قد استطاعوا تمييزهم إلا أنه لم يكن هناك مجال للمناوشة معهم. لقد اكتشفتهم على الفور، أو بالأحرى هم اكتشفوني عندما لم يجدوا أثراً لصورة وجهي في أرشيف أذهانهم. وكأن الكآبة المرتسمة على وجهي قد جذبت أحدهم فتقدم نحوي قائلاً: "إنهم جميعاً مدانون هنا. مخدرات، وسرقات، وتعامل بالسلع المسروقة، وعمليات سطو مسلحة... بعضهم حتى من البغايا. ليس فيهم أحد نظيف. وكلما نفق منهم أكثر هنا، كلما كان ذلك أفضل للجميع"

كانت كلمات يستحق عليها قائلها لكمة أو نطحة رأس في أنفه. لكن في الواقع، كان الجميع يفكّرون بالطريقة نفسها، بل لربما كان في ذلك حكمة. نظرت إليهم واحداً تلو الآخر، هؤلاء الأولاد الذين سيعيشون من أجل سرقة 200 يورو، الحثالة، والبدلاء، ومنتهزو الفرص الذين لا يتجاوز عمر أحدهم العشرين عاماً. أما رجل الدين القائم على جنازة إيمانويل، الأب ماورو، فكان يعلم من سيدفن، كما أنه كان يعلم أن بقية الأولاد بالكاد يشكلون رمزاً للبراءة والنقاء.

فابتدأ كلامه قائلاً: "إنه ليس ببطل من سنقوم بدفنه اليوم..."

لم يفتح كفيه كما يفعل رجال الدين عند قراءة المواعظ يوم الأحد، بل عوضاً عن ذلك أغلق قبضتيه بإحكام. ولم يكن هناك أي

جَرْس لعظـة دينيـة فـي نبـرة صوتـه، التي كانت تتبدى فـي بحة غريبة وكأنـه كان يتحـدث لفتـرة طويلـة. لقد تحدث بغضـب، فما من عقوبة مخفّفة لهذا المخلوق، ولا تفويض لأي أمر.

لقـد بـدا كواحـد من رجال الدين الذين كانوا في السـلفادور أيام حرب العصابات. أولئك الذين فاض بهم الأمر أخيراً من تأدية مراسم الدفن لضحايا الجرائم، فذوت لديهم الشفقة، وبدأوا بالصراخ. لكن لا أحـد يعـرف روميـرو هنا، فالأب ماورو يملك طاقة غير عادية إذ قال: "على الرغم من كل المسـؤولية التي نحمّلها لإيمانويل، تبقى الحقيقة أنه كان يبلغ الخامسـة عشـرة وحسـب. في مثل هذا العمر يقوم أولاد العوائـل الذيـن ولـدوا فـي مناطق أخرى من إيطاليـا بالذهاب إلى برك السـباحة، ويأخذون دروسـاً في الرقص. هنا ليسـت الحال كذلك. إن الخطأ تم اقترافه من قبل صبي في الخامسة عشرة من العمر. وإن كانت هـذه السـن فـي جنـوب إيطاليا تعني أنك كبير بما فيـه الكفاية لتعمل، لتقرر أن تسـرق، لتقتُل وتقتَل، فهذا يعني أيضاً أنك قادر على تحمل مسؤولية بعض الأمور"

هنا أخذ نفساً عميقاً من الهواء الفاسد داخل دار العبادة، وتابع: "لكن سن الخامسة عشرة صغيرة إلى درجة تكفي لأن تجعلنا نرى ما وراءها بوضوح أكبر، وهي تدعونا لأن نوزع المسؤولية. الخامسة عشرة سن تطرق ضمائر أولئك الذين يتظاهرون فقط بالتزام القانون، والعمل، والمسؤولية. وهي لا تطرق بنعومة بل تغرز مخالبها"

أنهى رجل الدين عظته، لكن أحداً لم يكن متأكداً ممّا كان يعنيه تمامـاً، أو ممـن هـو الملام. وثـارت ثائرة جميع الأولاد، وحمل أربعة رجال النعش خارج دار العبادة، لكنه دونما سابق إنذار ارتفع من على أكتافهـم، وأخـذ يطفـو فوق الجمـوع وهو يتمايل على بحر من الأكف

كنجم الروك الذي يقذف بنفسه من المسرح إلى جمهوره ومعجبيه. كانت مجموعة من سائقي الدراجات ينتظرون بمحاذاة عربة الموتى ليصحبوا مينو إلى المقبرة. لقد شغّلوا محركاتهم، وثبّتوا أقدامهم على المكابح مؤلفين جوقة لأجل سباق إيمانويل الأخير، بإطاراتهم التي تطلق صرخات حادة، وكاتمات الصوت التي تولول، كانوا كمن يريد أن يواكبه طوال الطريق إلى الحياة الآخرة. وملأ الهواء دخان ثقيل ورائحة البنزين النتنة مخترقة ثياب الجميع. دخلت غرفة جانبية رغبة مني بالتحدث إلى رجل الدين الذي تفوه بهذه الكلمات المتقدة، لكن امرأة كانت قد وصلت إلى هناك قبلي. لقد أرادت أن تقول له إن الصبي ذهب بنفسه ساعياً إلى المشاكل، وإن أسرته لم تعلمه شيئاً. ثم صرحت وبكل فخر إن "أحفادي ما كانوا ليقدموا أبداً على فعل شنيع كالسرقة على الرغم من أنهم عاطلون عن العمل... ولكن ما الذي تعلمه ذلك الصبي؟" وتابعت بعصبية "هل تعلّم شيئاً؟"

كان رجل الدين ينظر طوال الوقت إلى الأرض. كان يرتدي ملابس رياضية فضفاضة، ولم يحاول أن يجيب عن تساؤلاتها، بل لم ينظر حتى في وجهها، وإنما ظل يحدق إلى حذائه الرياضي وهو يهمس: "الحقيقة هي أن الشيء الوحيد الذي تتعلمه هنا هو كيف تموت"

- عذراً يا أبتِ، ماذا قلت؟
- لا شيء سنيورة، لا شيء.

لكن ليس الجميع يعمل سراً هنا، ولم ينته الأمر بالجميع في مستنقع الهزيمة، على الأقل ليس بعد. فبعض المصانع الناجحة لا تزال قوية كفاية لمنافسة الصينيين لأنها تعمل لصالح كبار المصممين. فأصحابها وبتقديمهم السرعة والجودة، بل أعلى مستوى للجودة، لا

زالوا يحتكرون الأناقة والنوعية الجيدة في السوق. إن عبارة صنع في إيطاليا تصنّع هنا، في كيفانو، سانت أنتيمو، وأرزانو، وغيرها، على طول خط لاس فيغاس وكامبانيا. واجهة إيطاليا في العالم تجللها أقمشة ذات ثنيات على الرأس العاري لضواحي نابولي. الأسماء اللامعة لا تجرؤ على المخاطرة بإرسال كل شيء إلى الشرق، لتعهد بإنجازه في آسيا. المعامل هنا مزدحمة تجدها في بيوت السلالم في المباني، في الطوابق السفلى لصفوف المنازل متلاصقة الجدران، وفي السقائف وفي ضواحي تلك البلدات النائية. ترى العمال مصطفين الواحد خلف الآخر، يحدّقون إلى ظهر الشخص الجالس أمامهم، وهم يخيطون القماش، ويقصّون الجلود، ويركبون منها أحذية. عامل الثياب يعمل يومياً عشر ساعات، ليحضر دخلاً شهرياً إلى بيته يتراوح بين 500-900 يورو، أما العمل الإضافي فهو يدرّ مالاً يصل حتى 15 يورو في الساعة زيادة على الأجر المعتاد. والمعامل نادراً ما تضم أكثر من عشرة أُجراء. وتجد هناك، تقريباً بشكل دائم، تلفازاً أو مذياعاً كي يتمكن العمال من الاستماع إلى الموسيقى أو حتى الدندنة معها. أما في الأوقات الطاحنة، فالضجيج الوحيد الذي يمكنك سماعه هو غرزة الإبرة. أكثر من نصف الأُجراء من النساء، إنهن عاملات ماهرات، ولدن وهن يتفرسن في آلة الحياكة. من الناحية الرسمية هذه المصانع لا وجود لها على أرض الواقع، وهذا ينطبق على الأُجراء فيها. فلو أن العمل نفسه أنجز بصورة قانونية لكانت الأسعار ارتفعت ولن يعود هناك أي سوق أو تجارة، مما يعني اختفاء العمل من إيطاليا. يدرك رجال الأعمال في هذا المكان هذا المنطق ويحفظونه عن ظهر قلب. عادة لا يوجد أي حقد أو استياء بين عمال المصانع وأصحابها، فالصراع الطبقي هنا ليّن كقطعة كعك محلاة طرية. فكثيراً ما يكون المالك عاملاً سابقاً، وهو يضع لنفسه ساعات عمل مماثلة

لبقية العمال، وفي الغرفة نفسها، وعلى المقعد نفسه. وعندما يرتكب خطأً ما فهو يدفع ثمنه من جيبه الخاص على شكل صكوك رهن، أو قروض. والأبوية هي نمط السلطة التي يمارسها، وعليك أن تكافح لأجل يوم إجازة أو بضع سنتات لترفع أجرتك. ما من عقد، ولا بيروقراطية، وكل شيء يتم بصورة مباشرة رأساً لرأس، وأي امتياز أو إعانة يتم التفاوض عليها بشكل منفرد. ويعيش المالك وأسرته في بناء فوق المصنع، وكثيراً ما تقوم بناته بمجالسة أطفال العاملات لديه، أما والدته فتصبح الجدة الفعلية لهم، بحيث إن أبناء وبنات المالك والعمال يكبرون معاً. هذا الوجود الاشتراكي يعكس الحلم الشامل لما بعد الفوردية*: عمال ومدراء يتناولون طعامهم معاً، يتشاركون في نشاطات اجتماعية، ويشعرون أنهم جميعاً جزء من الجماعة نفسها.

لا أحد يتصرف بخجل هنا، فهم يعلمون أنهم يؤدون عملاً على أعلى درجات الكفاءة، ويتقاضون بالمقابل أزهد الأجور. لكن لا يمكنك الحصول على واحدة من هذه دون الأخرى. فأنت تعمل للحصول على ما تحتاج إليه، وأنت تؤدي عملك على أكمل وجه، كيلا يجد أحد سبباً لطردك. فلا وجود لأي حقوق، أو شبكة أمان، ولا أسباب عادلة، أو أذونات، أو أيام عطل. الأمر متروك لك لتفاوض على حقوقك، وعلى أن تلتمس وقت العطلة. لكن لا وجود لما يدعو التذمر، فكل شيء على الصورة التي يجب أن يكون عليها. هنا يوجد فقط جسد، ومهارة، وآلة، وراتب. في الواقع، لا تتوافر بيانات دقيقة عن عدد العمال السريين في هذه المناطق، أو كم هو عدد العمال ذوي العقود الذين يجبرون على الرغم من ذلك، على التوقيع شهرياً على قصاصات دفعات لمبالغ لا يستلمونها أبداً.

(*) **ما بعد الفوردية**: مصطلح يشير إلى ممارسات إنتاجية جديدة، وعمليات اجتماعية تختلف تماماً عن نظام الإنتاج المطور في مصانع هنري فورد، والذي كان العمال يكررون فيه مهمات متخصصة. (المترجمة إلى الإنكليزية).

كان يفترض أن يشارك شيان في أحد المزادات. فذهبنا إلى أحد الصفوف المدرسة الابتدائية، لكن لم يكن هناك أي أطفال أو معلمين، فقط كانت هناك أوراق عليها أحرف كبيرة، مثبتة بمسامير إلى الجدران. وكان ممثلون لقرابة العشرين شركة يحومون حول المكان، شيان كان الأجنبي الوحيد بينهم. قام بتحية اثنين منهم فقط من دون إظهار مودة مفرطة. وصلت سيارة إلى باحة المدرسة، وتوقفت ليترجل منها ثلاثة أشخاص: امرأة ورجلان. كانت المرأة ترتدي تنورة جلدية، وتنتعل حذاءً جلدياً براقاً عالي الكعب. وبعد أن نهض الجميع لتحيتها، أخذوا أماكنهم ليبدأ المزاد. قام أحد الرجلين برسم ثلاثة خطوط عامودية على السبورة، وأخذ يكتب بينما أملت عليه المرأة التالي:

"في العامود الأول 800"

كان هذا الرقم يمثل عدد قطع الثياب الواجب إنتاجها، وذكرت المرأة قائمة بأنواع الأقمشة، ونوعية القطع. تقدم رجل أعمال قادم من سانت أنتيمو، ووقف قرب النافذة مولياً ظهره لنا، وقدّم عرضه بالأسعار والمدة الزمنية:

"أربعون يورو للقطعة، خلال شهرين"

كتب عرضه على السبورة:

"2 /40 /800"

لم يبدُ القلق على بقية رجال الأعمال، فالرجل لم يجرؤ على الدخول في عالم المستحيل، الأمر الذي كان يبدو جلياً هو إعجابهم به، لكنه لم يكن مرضياً للشارين، لذا استمر المزاد.

إنها لمزادات غريبة تلك التي تقيمها الماركات الإيطالية الكبرى في هذه المنطقة. فلا أحد يفوز بالعقد، ولا أحد يخسر، فميزان اللعبة يتكوّن من القدرة على الدخول في السباق أم عدمها. فأحدهم يقدم عرضاً يقرر فيه السعر والمدة المناسبين له. وفي حال تم قبول شروطه

فلن يكون الرابح الوحيد على أي حال، إذ إن عرضه يشكل ميزة يمكن للآخرين أن يحاولوا أن يتبعوها. فعندما يقبل السماسرة بسعر ما، فإن بقية المقاولين يقررون إن كان يناسبهم، وأيهم يوافق يحصل على القماش الذي يرسل مباشرة إلى مرفأ نابولي، حيث يذهب المقاولون هناك لأخذه. غير أن أحدهم فقط سيحصل على الأجر مقابل العمل المنجز: إنه ذاك الذي يسلم البضاعة أولاً، وبأعلى نسبة جودة. يمكن لبقية المشاركين في اللعبة أن يحتفظوا بالقماش لكنهم لن يحصلوا على أي سنت. فدور الأزياء تجني أموالاً طائلة بشكل لا تعتبر معه خسارة القماش خسارة تستحق أخذها بعين الاعتبار. فإن أراد أحد المقاولين أن يستغل هذا النظام المتّفق عليه كي يحصل على مواد خام مجانية، وأخفق في التسليم بشكل متكرر، فعندها سيترك خارج المزادات في المستقبل. وبهذه الطريقة يضمن السماسرة السرعة في العمل لأنه إن تأخر أحدهم، فهناك شخص آخر سيحل محله. إذ لا راحة من إيقاعات الأزياء رفيعة المستوى.

ارتفعت يد أخرى في المزاد، مما سر المرأة الجالسة إلى المكتب. لقد كان مقاولاً حسن الهندام، أنيق المظهر.

"عشرون يورو، في خمسة وعشرين يوماً"

في النهاية تم قبول العرض الأخير، وتسعة من المقاولين العشرين وقعوا عليه كذلك، ولم يكن شيان بينهم. فما كان له أن ينسّق بين الجودة والسرعة في هذه المدة القصيرة وبهذا السعر الزهيد. وعندما فُضَّ المزاد، أخذت المرأة تدوّن أسماء المقاولين، وأرقام هواتفهم، وعناوين معاملهم. ودعا المقاول الفائز الجميع إلى مأدبة غداء في منزله. لقد كان مصنعه في الطابق السفلي بينما شغل هو وزوجته الطابق الثاني، وسكن ابنه في الطابق الثالث. وأعلن الرجل بكل اعتزاز: "سأتقدم بطلب تصريح لتشييد طابق آخر، فابني الثاني مقدم

على الزواج" وبينما ارتقينا السلالم واصل حديثه عن عائلته، والتي كانت، كما الفيللا التي سكنها، لا تزال قيد الإنشاء.

"إياك أن تحمّل يوماً رجلاً مسؤولية الإشراف على نساء عاملات، سيثير ذلك المشاكل فقط. فأنا لدي ابنان، وكلاهما تزوجا من أجيرتين لدي. بل ضع رجالاً لا رغبة جياشة لديهم، دعهم يتولون أمر المناوبات، ومراقبة العمل، كما في الأيام الخوالي..."

ثم أتى العمال رجالاً ونساء، ليحتفلوا بالعقد الجديد. وكانوا بمواجهة برنامج عمل مرهق، تبدأ فيه المناوبة الأولى من السادسة صباحاً وحتى التاسعة مساءً، مع ساعة استراحة واحدة لتناول الطعام. ثم تستمرّ المناوبة الثانية من التاسعة مساءً وحتى السادسة صباحاً. النساء كن يضعن مساحيق التبرج والأقراط، ويرتدين المآزر فوق ثيابهن لحمايتها من الصمغ، والغبار، وشحم الآلات. ومثل سوبرمان الذي كان ينزع عنه قميصه ليظهر تحته بزيه الأزرق، كذلك النساء كن جاهزات ليخرجن لتناول العشاء بمجرد أن ينزعن مآزرهن. أما الرجال فكانوا أكثر إهمالاً، بكنزات قطنية، وسراويل العمل. وبعد أن شربوا نخب العمل الجديد، انتحى أحد الضيوف بالمالك جانباً ومعه بقية المقاولين الذي وافقوا على سعر المزاد، ولم يكونوا يقصدون بذلك التخفي، بل احترام العرف القديم السائد الذي يقضي بعدم مناقشة الأمور المالية على المائدة. شرح لي شيان باستفاضة أن الضيف - وهو صورة مجسدة للموظف الذي يعد النقود في البنك - كان يناقش معهم معدلات الفائدة، على الرغم من أنه ليس موظفاً في البنك. الواقع هو أن وكالات الماركات الإيطالية تدفع فقط عند إتمام العمل، أو بالأحرى عند قبول العمل، وعلى هذا فإن كل النفقات: من أجور، وتكاليف إنتاج، وحتى شحن، كل شيء يتم دفعه سلفاً على نفقة أصحاب المصنع. فتقوم الجماعات بإقراض المال

للمصانع الموجودة في مقاطعاتها. فمثلاً جماعة ديلاوروس تتولى المصانع في أرزانو، والفيرديس في سانت أنتيمو، والسيناموس في كرسبانو، وهكذا على التوالي. أما جماعة كامورا فهي تعرض نسباً منخفضة من 2 إلى 4 بالمئة. لا أحد يتمكن من الحصول على ائتمان بنكي بسهولة أكبر من هذه الشركات التي تقوم بالإنتاج لعالم الموضة الإيطالية، لسوق الأسواق. لكن كلها تعاملات وهمية، ومديرو البنوك لا يلتقون بالأشباح. أضف إلى ذلك أن السيولة التي توفرها كامورا تُعدّ أيضاً الوسيلة الوحيدة التي يمكن لعمال المصنع أن يحصلوا من خلالها على رهن. ولذلك ترى في البلدات التي يعيل أكثر من 40 بالمئة من المقيمين فيها، أنفسهم من خلال العمل الإضافي ليلاً في المصانع، أن ستاً من أصل عشر عائلات تتدبر أمرها لتشتري منزلاً. وحتى المقاولون الذين لا يرضون متطلبات مصممي الماركات يتمكنون من إيجاد شارٍ، فهم يبيعون قطع الملابس إلى الجماعات ليعرضوها بدورهم في سوق البضائع المقلّدة. جميع غروض الأزياء، وكل الفتنة في ألمع العروض وأكثرها أناقة، تنبع من هنا من هذا الجحر. أما البلدات التي تؤلف المحاور الأساسية للسوق السوداء للأزياء فهي بلدات لاس فيغاس، وكاسارانو، وتريكاسه، وتافيانو، ومليسانو في كابو دي لوكا، وهو إقليم سالينتو الأدنى. جميعها تأتي من هنا، من هذا الجحر. للبضائع كافة أصول مبهمة، إنه قانون رأس المالية، لكن، أن تراقب مجرى الأمور في ذاك الجحر، وأن تراه أمامك، فإن هذا يثير فيك أحاسيس غريبة. فتشعر بثقل مقلق، كما لو أن الحقيقة تجثم بثقلها على صدرك.

كان أحد العاملين لدى أحد المقاولين الرابحين ماهراً بشكل خاص: إنه باسكال. شخص طويل ونحيل، ومحني الظهر نوعاً ما.

كان جسـمه منحنياً من خلف رقبته وفوق كتفيه، بشـكل يشـبه الخطاف تقريباً. وكان مصممو الأزياء يرسلون تصاميمهم إليه مباشرة، إنها قطع مقصدها كفّاه فقط. صحيح أن راتبه لم يكن يتغير، لكن مهامه كانت متنوعـة، وكان بطريقـة مـا يبـث حولـه شـعوراً مرضياً. لقـد أحببته من فـوري، منـذ اللحظـة التـي رأيت فيهـا أنفه الكبير. كان لباسـكال وجه رجل متقدم في السن، على الرغم من أنه لا يزال شاباً. وجه كان دائماً مدفوناً في قطع القماش والمقصات، وأنامل كان دأبها أن تجري وراء الدرزات. باسكال كان واحداً من العمال الوحيدين الذين يمكنهم شراء القماش مباشرة، فبعض دور الأزياء الرفيعة كانت تثق بمواهبه لدرجة أنها جعلته قيماً على طلب المواد مباشرة من الصين ثم تقييم جودتها بنفسـه. وقد تعرّف بشـيان بهذه الطريقة، إذ التقيا في المرفأ قبلاً. في أحد الأيام تناولنا جميعاً طعام الغداء معاً في الميناء، ثم ودعنا باسكال، وصعدنا شيان وأنا السيارة متجهَين إلى فيزوف. عادة ما تصور البراكين علـى أنهـا قاتمـة اللـون، غير أن بركان فيـزوف أخضر اللون. فتراه من بعيـد يتـراءى وكأنـه عبـاءة مهيبة ضخمة من الطحالب. ولكن وقبل أن نصـل إلـى الطريـق الجانبـي المـؤدي إلـى البلدات المحيطـة بفيزوف، إذا بالسـيارة تندفـع إلـى داخل باحات أحـد الأبنية وتتوقف هناك. كان باسكال بانتظارنا، ولم يكن لدي أدنى فكرة عن السبب. ترجل باسكال من سيارته وصعد مباشرة إلى صندوق سيارة شيان. كنت بحاجة إلى تفسير لما يحدث:

- ماذا يجري؟ لماذا يختبئ في صندوق السيارة؟

- لا تقلق، الآن سنتوجه إلى تيرزينو، إلى المصنع.

ثم جلس رجل له شكل الوحش الإغريقي مينوتور خلف عجلة القيادة. لقد كان في سيارة باسكال، وقد بدا أنه يعرف تماماً ما يتوجب عليـه فعلـه. وضع جهاز نقل السـرعة في السـيارة علـى وضع الرجوع

العكسي، وخرج بالسيارة خارج البوابة، وقبل أن ينطلق في الشارع، أخرج مسدساً نصف أتوماتيكي، ووضعه بين ساقيه. حبست أنفاسي، إلا أن المينوتور شاهد انعكاس وجهي في المرآة الخلفية، وأدرك أنني كنت أحملق فيه بقلق.

فقال: "لقد حاولوا مرة قتلنا"

حاولت أن أدفعه إلى شرح الأمر لي منذ البداية فسألته: "من؟"

- أولئك الذين لا يريدون للصينيين أن يتعلموا كيفية العمل في مجال الأزياء رفيعة المستوى. أولئك الذين يريدون الأقمشة فقط من الصين، ولا شيء غيرها.

لم أفهم، إنني فقط لم أفهم شيئاً مما قاله، وهنا تدخل شيان ليشرح لي بأسلوبه الهادئ المعتاد:

"إن باسكال يساعدنا على تعلم كيفية صنع قطع الملابس عالية النوعية، والتي لا يزالون لا يولوننا الثقة للقيام بصنعها"

بعد هذا الشرح الذي قدمه شيان، حاول المينوتور بدوره أن يبرر وجود المسدس فقال:

"وهكذا... فإنّ أحدهم نبع من الأرض في إحدى المرات، تماماً في ذاك المكان، أترى؟ في منتصف الميدان، وأخذ يطلق الرصاص على سيارتنا، فأصاب المحرك، وماسحات حاجبات الريح في السيارة. ولو أرادوا قتلنا لأردونا جميعاً في لحظتها، لكنه كان بمثابة تحذير ليس إلا. ومع ذلك فإن حاولوا القيام بهذا مرة أخرى، فهذه المرة أنا مستعد لهم"

أوضح لي المينوتور أن أفضل تقنية في أثناء القيادة هي أن تبقي المسدس بين فخذيك. لأن وضعه على العلبة الأمامية سيبطئ من حركتك، وسيستنزف منك وقتاً غالياً ريثما تلتقطه.

كان الطريق إلى تيرزينو يتجه صعوداً، واستطعت أن أشم رائحة احتراق دواسة القابض (الدوبرياج). لقد كانت مخاوفي من انفجار طلقات سلاح رشاش أقل من مخاوفي من ارتداد في محرك السيارة قد يؤدي إلى إطلاق رصاصة من المسدس تستقر في حوض السائق. أخيراً وصلنا دون عوائق، وبمجرد أن توقفت السيارة، سارع شيان إلى فتح الصندوق، وخرج باسكال، وكان يبدو كمنديل ورقي مكور يحاول أن يفرد نفسه. ثم تقدم إلي وقال:

"إنها القصة ذاتها كل مرة. حتى الهارب لا يختبئ هكذا... لكن يبقى هذا أفضل من أن يروني في السيارة، وإلا..."، ومر بإصبعه على عنقه كأنه يحزّه.

كان المصنع كبيراً ولكنه ليس ضخماً جداً. لقد وصفه لي شيان من قبل باعتزاز لأنه صاحبه. وكان يضم تسعة مصانع بالغة الصغر، لتسعة مقاولين صينيين. من الداخل كان يبدو كرقعة شطرنج، فكل مصنع كان له مربع يشغله مناضده وعماله الخاصّون به. لقد أعطى شيان كلاً من الشركات مساحة تماثل تلك الموجودة في لاس فيغاس، والعقود كانت تبرم بطريقة المزادات ذاتها، كما قرر عدم إدخال الأولاد في حيز العمل، فنظّم المناوبات كما في المصانع الإيطالية. كما أنه لم يكن يطلب الأموال سلفاً عندما يؤدي الأعمال لشركات أخرى. باختصار، لقد كان شيان في طريقه لأن يصبح لاعباً جدياً في تجارة الألبسة الإيطالية.

كانت المصانع الصينية في الصين تتنافس مع المصانع الصينية في إيطاليا. ونتيجة لذلك، أضحت مدن براتو، وروما، والبلدات الصينية في نصف إيطاليا تعاني بشدة، فقد خبروا ازدهاراً اقتصادياً متسارعاً لدرجة كبيرة جعلت الانهيار الذي تلاه يبدو حتى أكثر مباغتةً وإيلاماً. كانت هناك طريقة واحدة فقط لإنقاذ المصانع الصينية في إيطاليا أنفسها:

وهي أنه عليهم التحول إلى خبراء في الأزياء رفيعة المستوى، وأن يصبحوا قادرين على إنجاز العمل عالي المستوى. كان عليهم أن يتعلموا من الإيطاليين، من مالكي مصنع لاس فيغاس، ليتحولوا من منتجي التفاهات إلى مورّدي جنوبي إيطاليا الموثوقين للماركات الكبيرة. عليهم أن يحلوا محل المصانع السرية الإيطالية، أن ينتحلوا منطقهم، ومساحات عملهم، ولغتهم. كان عليهم أن يقدموا العمل نفسه، إنما بكلفة أقل بقليل، ووقت أقصر بقليل.

أخرج باسكال بعض القماش من حقيبة سفر: كان فستاناً يفترض أن يقصه ويخيطه في مصنعه، لكنه عوضاً عن ذلك قام بالعملية هنا على طاولة قبالة آلة تصوير متلفزة. كانت صورته تنعكس خلفه مكبرة على قطعة قماش معلقة على الجدار. وبينما كان يتكلم، أخذت فتاة تحمل مكبر صوت تترجم كلامه إلى الصينية، لقد كان هذا الدرس الخامس الذي يلقيه.

- عليك أن تكون شديد العناية بالدرزات. فالدرزة يجب أن تكون خفيفة، ولكن ليست مخفية كأن لا وجود لها.

الثالوث الصيني هو: سان جوزيبيه فيزوفيانو، وتيرزيانو، وأوتافيانو، إنها المحور الأساسي للتجارة الصينية للملابس. كل ما يحدث في الجاليات الصينية في إيطاليا قد حصل أولاً في تيرزيانو: أولى دورات الإنتاج، وأول تصنيع رفيع المستوى، بالإضافة إلى أولى جرائم القتل. فهذا هو المكان الذي قتل فيه وانغ دينغجم، وهو رجل صيني مهاجر في الأربعين من العمر، والذي دعي إلى حفلة يقيمها صيني آخر، وعندما أُحضر بالسيارة من روما لتلبية الدعوة، أردوه قتيلاً بطلقة في رأسه. كان وانغ رأس أفعى - أي مهرب بشر - مرتبطاً باتحادات إجرامية في بيجينغ، والتي تنظم بدورها الدخول السري

للصينيين إلى داخل إيطاليا. وجراء المتاجرة بالبشر واستخدامهم في أعمال غير مأجورة، حصلت صدامات بين المهربين وبين زبائنهم، فهم يقطعون وعوداً بكميات محددة ثم يتخلفون عن التسليم. وتماماً كما يقتل تاجر مخدرات عندما يحتفظ لنفسه بجزء من مكاسبه، فإن رأس الأفعى يُقتل عندما يتلاعب بسلعه، بالبشر. إلا أن أفراد المافيا ليسوا وحدهم الذين يموتون، فعلى أحد أبواب المصنع علقت صورة لفتاة شابة، جميلة المحيا، وردية الوجنتين، ذات عينين شديدتي القتامة حتى لتبدوان وكأنهما مطليتان. لقد كانت معلقة تماماً في المكان الذي يتوقع المرء بصورة تقليدية أن يجد فيه الوجه الأصفر لماو مطلاً عليه. لكن تلك كانت صورةً لتشانغ شانغبي، وهي فتاة حامل قتلت قبل بضع سنوات، لقد كانت تعمل هنا، غير أنها لاقت استحسان ميكانيكي اعتادت أن تمر أمام مرآبه. لقد أعجبه ما رآه فقرر أن ذلك كان سبباً كافياً ليحصل عليها. يعمل الصينيون كالكلاب النشيطة، يسعون كالحيّة، وهم أكثر هدوءاً من الصم والبكم، وليس لديهم أي وسائل متاحة للمقاومة أو للإرادة الحرة، كبديهيات يحملها كل الناس - أو معظمهم - في أذهانهم. لكن تشانغ قاومت، لقد حاولت الهرب عندما اقترب الميكانيكي منها، لكنها لم تستطع التبليغ عنه. لقد كانت صينية، وكل إشارة ظهور لها كان غير مسموح بها. وفي المرة التالية لم يقبل الرجل الرفض، فقام بضربها ورفسها حتى فقدت الوعي، ثم حز عنقها، وألقى بجثتها في بئر عميقة، حيث بقيت لأيام انتفخت فيها بتأثير الماء والرطوبة. باسكال كان على علم بهذه القصة، وصدم بها لدرجة كبيرة. وفي كل مرة قدم فيها ليعطي درساً، حرص على الذهاب إلى أخ تشانغ وسؤاله عن أحواله، وإن كان بحاجة إلى شيء. لكنه كان دوماً يتلقى الجواب نفسه: "لا شيء، شكراً لك"

لقد أصبحت وباسكال مقربين من بعضنا. لقد كان كالمعلم الملهم عندما يتحدث عن الأقمشة، وكان صعب الإرضاء للغاية في ما يتعلق بمتاجر الألبسة. لقد كان من المستحيل حتى أن تتجول معه، لأنه كان يزرع نفسه أمام نافذة كل متجر ويبدأ بانتقاد قَصّة سترة ما، أو يشعر بالخجل من الخياط الذي صمم تنورة كهذه. لقد كان قادراً على التوقع بطول عمر نوع معين من السراويل، أو السترات، أو الفساتين، ويحدد بدقة عدد الغسلات التي يتحملها القماش قبل أن يبدأ بالارتخاء. لقنني باسكال مبادئ في عالم الأنسجة المعقد. لقد بدأت حتى بزيارته في منزله، فرؤية عائلته، وزوجته وأطفاله الثلاثة، كانت تشعرني بالسعادة. لقد كانوا دائمي الانشغال بشؤونهم من دون مبالغة. في تلك الأمسية، كان الأطفال الأصغر سناً يتراكضون حول المنزل حفاة، كالعادة، لكن من دون صخب. باسكال بدوره كان قد شغّل جهاز التلفاز وأخذ يقلّب بين المحطات، لكنه تجمّد فجأة. لقد حدّق وهو يقترب من الشاشة وكأنه مصاب بقصر النظر، على الرغم من أنه كان سليم البصر تماماً. لم يكن أحد يتكلم، لكن الصمت أصبح أكثر إطباقاً. لا بد أن زوجته لويزا قد استشعرت شيئاً لأنها توجهت إلى التلفاز، وأغلقت فمها بكفها، كأنها قد شهدت للتو أمراً مريعاً، وهي تمنع نفسها من الصراخ. على شاشة التلفاز ظهرت الممثلة الأميركية أنجلينا جولي وهي تخطو على السجاد الأحمر في حفل توزيع جوائز الأوسكار، مرتدية بزة بهية بيضاء اللون من قماش الساتان، وواحداً من تلك الأثواب المفصلة خصيصاً لشخص واحد محدد، والتي يتهافت مصممو الأزياء الإيطاليون على تقديمها للنجوم. إنه ثوب صنعه باسكال في مصنع سري تحت الأرض في أرزانو. كل ما قالوه له إن هذا الثوب ذاهب إلى أميركا، ولم يكن هذا بجديد، إذ إن باسكال كان قد عمل على مئات الأثواب الذاهبة إلى أميركا، إلا أن هذا كان شيئاً

آخر. كان لا يزال قادراً على تذكر كل المقاسات: حَفرة الرقبة، محيط المعصمين، والبنطال. لقد مدّ يديه داخل الساقين وكان قادراً على تصور الجسد العاري الذي يشكله كل خياط في ذهنه، ليس بطريقة شهوانية بل بطريقة تحدد انحناءات العضلات، وتشكيلة العظام. حين يفكر بجسد ليكسوه ثوباً، فهناك حالة من التأمل للعضلات، والعظام، وشكل الحركة من مشي ووقفة. كان لا يزال باسكال يتذكر اليوم الذي ذهب فيه إلى المرفأ ليستلم القماش، لقد فوّضوه بإعداد ثلاث بزات، دون أن يقولوا له أي شيء آخر، وعلى الرغم من علمهم بصاحبة هذه البزات إلا أن أحداً لم يخبر باسكال بذلك.

في اليابان، حصل خياط عروس وريث العرش على حفل استقبال رسمي على شرفه. صحيفة أخرى في برلين خصصت ست صفحات للخياط الذي خاط ثوب المستشارة الأولى في ألمانيا، صفحات تحدثت عن الحرفية، الخيال، والأناقة. لقد اعترى باسكال غضب عارم، غضب كان يستحيل التعبير عنه. ومع ذلك كان الشعور بالرضا من حقه، وجدارته تستحق الاعتراف بها. في أعماقه كان يعلم أنه أدى عملاً فخماً، وكان يود أن يقدر على البوح بذلك. كان يعلم أنه يستحق أكثر من ذلك، لكن أحداً لم يبح له عن شيء من هذا، بل اكتشفه عن طريق الصدفة، عن طريق الخطأ. كان غضبه هو النهاية بحد ذاتها، غضب مبرر لكنه بلا طائل. لم يستطع أن يخبر أحداً بالأمر، لم يستطع حتى أن يهمس به عندما جلس صباح اليوم التالي يحدّق إلى الجريدة. لم يستطع أن يقول "لقد صنعت تلك البزة"، فما من أحد سيصدق أن أنجلينا جولي ستحضر حفل توزيع الجوائز مرتدية ثوباً صنع في أرزانو، بيد باسكال. وتصبح الموازنة بين أفضل الأشياء وأسوأها، بين ملايين الدولارات و600 يورو شهرياً. عندما يُعمل كل ما بالإمكان عمله، وعندما تصهر الموهبة، والبراعة، والقدرة، والالتزام

في عمل منفرد، وعندما يكون كل ذلك غير كافٍ لإحداث أي تغيير، عندها فإنك تود فقط أن تستلقي على الفراغ وفيه، أن تتلاشى ببطء، وتدع الدقائق تغمرك لتغرق فيها كما لو كانت رمالاً متحركة، أن لا تأتي بأي فعل سوى أن تتنفس، بالإضافة إلى أنه ما من شيء يمكن عمله سيغير مجرى الأمور، ولا حتى ثوب لأنجلينا جولي في حفل الأوسكار.

غادر باسكال المنزل من دون أن يغلق الباب خلفه حتى. لقد عرفت لويزا أين كان ذاهباً، عرفت أنه متوجه إلى سيكونديغليانو ومن كان سيقابل. فألقت بنفسها على الأريكة، ودفنت رأسها في إحدى الوسائد كطفل صغير. لست أدري لماذا، عندما أجهشت لويزا بالبكاء، أخذت أفكر في قصيدة لفيتوريو بوديني. أبيات كانت تروي الاستراتيجيات التي كان يتبعها فلاحو جنوب إيطاليا ليرفضوا بها أن يصبحوا جنوداً، ليتجنبوا الذهاب لملء الخنادق في الحرب العالمية الأولى دفاعاً عن حدود لم يعرفوا عنها شيئاً:

في أوقات الحرب يتأبط الفلاحون والمهربون أوراق نبات التبغ
ليجعلوا أنفسهم مرضى.
تلك الحمى الموهومة، والملاريا المفترضة، التي تجعل أجسادهم ترتعش، وأسنانهم تصطك
كانت حكمهم على الحكومات والتاريخ.

كذلك بدا لي نحيب لويزا، حكم إدانة للحكومات والتاريخ. لا رثاء لرضا مرّ من دون احتفال، لقد بدا لي فصلاً معدلاً في كتاب ماركس: **الرأسمالية**. وفقرة مضافة إلى كتاب آدم سميث: **ثروة الأمم**،

وعبارة جديدة في كتاب جون مينارد كينيس: **نظرية عامة في التوظيف، المصلحة والربح**، وملاحظة في كتاب ماكس ويبر: **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**. إنها صفحة مضافة، أو مزالة، وقد تكون صفحة منسية لم تكتب يوماً أو أنها قيلت في العديد من المرات الواحدة تلو الأخرى، لكنها لم تسجل يوماً على ورق. لا نتيجة لتصرّف بائس، بل لتحليل حاد، ومفصل، ودقيق، ومنطقي. لقد تخيلت باسكال في الشارع وهو يضرب الأرض بقدميه كأنه ينفض الثلج عن جزمته، فبدا كطفل فوجئ باكتشافه أن بإمكان الحياة أن تكون مؤلمة إلى هذا الحد. لقد تدبر أمره حتى ذلك الحين، تدبر أن يكبح جماح نفسه، ويؤدي عمله، بل وأن يرغب بالقيام به وعلى صورة يفوق بها أي شخص آخر. لكن في اللحظة التي شاهد فيها ذلك الثوب، وشاهد جسداً يتحرك داخل القماش ذاته الذي عانقته أنامله، شعر بأنه وحيد، وحيد جداً. لأنك حينما تعلم أمراً ما ولكنه يبقى حبيساً داخل نفسك وجسدك، فإن الحال هي كما لو أنك لا تعلمه حقيقةً. وعندما يكون العمل محصوراً في نطاق قدرتك على كفاية ذاتك والبقاء حياً، وعندما يصبح مجرد نهاية في حدّ ذاته، عندها يضحي أوحش أنواع الوحدة.

بعد مرور شهرين على هذه الحادثة. التقيت باسكال. لقد أوكلوا إليه قيادة شاحنة، وقام هو بإيصال كل ما يخطر على البال من أشياء - قانونية وغير قانونية - خاصة بأعمال عائلة ليتشياردي، أو على الأقل هذا ما قيل عنه. أفضل خياط في العالم كان يقود الشاحنات لأجل جماعة كامورا، ذهاباً وإياباً بين سيكونديغليانو ولاغو دي غاردا. لقد دعاني إلى الغداء، وأوصلني بشاحنته الضخمة. كانت يداه حمراوين، ومفاصله مشققة لأن شأنه شأن كل سائق شاحنة يقبض على المقود لساعات طويلة، وتتجمد يداه، وتصبح دورته الدموية في حالة سيئة، أما وجهه فلم يكن صافياً. لقد اختار هذا العمل بدافع الغيظ، اختاره

نكاية في قدره، لكمة موجعة لمسيرة حياته. غير أنك لا تستطيع احتمال الأمور إلى أجل غير مسمى، حتى وإن كان تخليك عنها يعني أنك ستصبح أسوأ حالاً من دونها. خلال غدائنا نهض ليلقي التحية على بعض من شركائه تاركاً محفظته على الطاولة، والتي سقطت منها ورقة مطوية. فتحتها، وكانت صورة، صورة غلاف لأنجلينا جولي مرتدية ثوباً أبيض، كان الثوب الذي صنعه باسكال، بالسترة التي تلف بشرتها العارية. عليك أن تكون ذا موهبة لتتمكن من كسو بشرة ما من دون إخفائها في الوقت ذاته. على القماش أن يتبع الجسد، عليه أن يكون مصمماً ليلاحق كل تحركاته.

إنني متأكد من أنه بين الحين والآخر، عندما يكون وحيداً، ربما عندما ينتهي من تناول طعامه، عندما يكون الأولاد غارقين في النوم على الأريكة، منهكين من كثرة اللعب، عندما تكون زوجته تتحدث عبر الهاتف مع والدتها وقبل أن تبدأ بتنظيف الصحون، تماماً في تلك اللحظة سيفتح باسكال محفظته، ويحدق إلى صفحة الجريدة. وإنني متأكد من أن باسكال سيشعر بالسعادة عندما ينظر إلى التحفة التي ابتدعها بيديه. سعادة هائلة ستعتريه، لكن أحداً لن يعلم بها يوماً.

مكتبة الرمحي أحمد ٩٦

التنظيم

إن سوق الألبسة العالمية، والأرخبيل الواسع للأناقة الإيطالية، يغذيهما التنظيم، بشركاته، ورجاله، ومنتجاته. استطاع التنظيم أن يصل إلى كل زاوية من الكرة الأرضية. \التنظيم، مصطلح يفهمه الجميع هنا، لكنه لا يزال بحاجة إلى حل شيفرته في أي مكان آخر، فهو ذو مرجعية مبهمة لكل من ليس على معرفة بالقوى المحركة للاقتصاد الإجرامي. كامورا\، هي كلمة لا وجود لها، إنها مصطلح احتقار يستعمله عملاء مكافحة المخدرات، والقضاة، والصحفيون، وكتّاب النصوص، إنه مصطلح ذو دلالة شاملة. مصطلح مثقف أحيل إلى التاريخ، واسم يجعل الكاموريّ يبتسم. أما الكلمة التي يستعملها أعضاء الجماعة فهي \التنظيم. فمثلاً جملة "إنني أنتمي إلى تنظيم سيكونديغليانو"، هي مصطلح بليغ يدل على آلية معينة أكثر منه على بنية. إن المنظمة الإجرامية ترتبط بشكل مباشر مع الاقتصاد، وإن المنطق التجاري يشكّل هيكل الجماعات.

استطاع تنظيم سيكونديغليانو أن يستحوذ ويسيطر على مجمل سلسلة تصنيع الألبسة، الذي تشكل ضواحي نابولي بالنسبة إليه نطاق الإنتاج، ومركز العمل. كل ما هو مستحيل إنجازه في أي مكان آخر بسبب انعدام المرونة في إبرام العقود، والقوانين، وحقوق الملكية تراه محتملاً هنا في شمال المدينة. وكونها قائمة على القوى التجارية للجماعات، فإن هذا جعل المنطقة قادرة على إنتاج رأس مال بالغ

الضخامة، وبكميات لا يمكن تخيلها لأي كتل صناعية قانونية. الأقمشة المتبادلة، والجلديات، وصناعة الأحذية، جميعها نشاطات أرسى دعائمها إنتاج الجماعات لقطع ثياب ومكمّلات تزينية مطابقة تماماً لتلك التي تصنّعها دور الأزياء الإيطالية الأساسية.

تتمتع القوى العاملة لدى الجماعات بمهارة عالية، مع خبرة تمتد عقوداً عملت خلالها تحت مظلة أهم مصممي إيطاليا وأوروبا. إنها الأيدي ذاتها التي عملت في يوم من الأيام سراً لدى أكبر وكالات الماركات، تعمل الآن لدى الجماعات. فدقة العمل وجودته لا تتأتّيان من الحرفية العالية فحسب، بل إن المواد الأولية هي أيضاً ذاتها تماماً، والتي تم تأمينها إما بشرائها مباشرة من السوق الصينية، أو بإرسالها من قبل المصممين إلى المعامل السرية المشاركة في المزادات. مما يعني أن هذه الملابس التي تصنعها الجماعات ليست تماماً سلعاً نمطية مقلّدة، كتقليد رخيص، وكنسخ تروج زوراً على أنها أصلية، بل هي على الأصح على نسق مقلّد وحقيقي في آن. فكل ما ينقصها هو الخطوة الأخيرة، والتي تتلخص بوضع علامتها التجارية عليها، الأمر الذي يعتبر ترخيصاً رسمياً من الدار الأم. إلا أن الجماعات تغتصب ذلك الترخيص من دون أن تزعج نفسها بطلب الإذن من أحد. إن اهتمام الزبائن في أي مكان في العالم ينصب في الواقع على الجودة والتصميم، وذاك ما تؤمّنه الجماعات تماماً: العلامة التجارية والجودة في النوعية، لذا فلا يوجد فرق حقيقةً. لقد استطاعت جماعات سيكونديغليانو أن تجمع سلسلة متكاملة للبيع بالتجزئة، تمد بالتالي من خلالها شبكتها التجارية عبر الكرة الأرضية، وتهيمن على سوق الألبسة العالمية. كما أنها تؤمّن التوزيع للمتاجر الخاصة. أما المنتجات الأدنى نوعية بشكل طفيف فتتجه نحو مسرح أحداث آخر: إلى باعة الشوارع الأفارقة، وسوق الأكشاك. لا شيء يضيع هباء. وترى الجميع

من المعمل إلى المتجر، ومن تاجر التجزئة إلى الموزع، ومئات من الشركات وآلاف العمال يتزاحمون في ما بينهم ليدخلوا مجال العمل بالألبسة الذي تديره جماعات سيكونديغليانو.

تقوم الإدارة بتنسيق وإدارة جميع الأمور، ويطرق ذلك المصطلح مسامعي باستمرار في كل مرة يتحول فيها حديث حول طاولة الشراب إلى حديث في العمل، أو في الشكاوى المعتادة حول عدم الحصول على عمل: "إنها إرادة الإدارة أن تتم الأمور بهذا الشكل" أو "على الإدارة أن تتحرك وتبدأ بإنجاز الأمور على نطاق أوسع" إنها تبدو كشظايا حديث تتناثر من نقاش دائر في زمن إدارة نابليون. الإدارة هي الاسم الذي أعطاه القضاة في DDA - مجلس إدارة المقاطعة لمكافحة المافيا - في نابولي، للهيكل الاقتصادي، والمالي، والفعّال لجماعة من رجال الأعمال، ورؤساء أسرة كامورا في شمال نابولي. وهو هيكل ذو دور اقتصادي بحت. تمثل الإدارة النفوذ الحقيقي للمنظمة، شأنها في ذلك شأن الكتلة التجمعية الحاكمة في فرنسا ما بعد الثورة، وليس الرجال القتلة والفرق الضاربة هم من يملكون النفوذ.

إن الجماعات المنضوية تحت لواء حلف سيكونديغليانو هي عوائل: ليتشياردي، وكونتيني، وما لاردو، ولو روسّو، وبوتشيتي، وستابيله، وبريستيري، وبوستي. بالإضافة إلى العائلتين الأكثر استقلالية وهما: سارنو، وديلاورو. جميعها تكوّن مع بعضها الإدارة، والتي تتضمن أقاليمها سيكونديغليانو، وسكامبيا، وبيسينولا، وتشيايانو، وميانو، وسان بيترو وآباتيرنو، بالإضافة إلى غويغليانو وبونتيشيليه. وبما أن البنية الاتحادية للإدارة منحت استقلالية متعاظمة للجماعات، فقد أدى ذلك إلى تداعي البنية العضوية للحلف بشكل جوهري. لقد تضمن مجلس الإنتاج في الإدارة رجال أعمال من كاسوريا، أرزانو، وميليتو، الذين كانوا يديرون شركات مثل فالينت، فيب مودا، فوكوس،

وفيتك، وهم صناع النسخ المحاكية لماركات فالانتينو، فير، فيرساتشي، وأرماني، التي تباع في أنحاء العالم أجمع. عام 2004 أجرى النائب العام لمجلس DDA في نابولي، فيليبو بياتريس، تحقيقاً كشف فيه عن إمبراطورية كامورا الاقتصادية الهائلة. لقد بدأ الأمر بملاحظة تفصيل صغير، واحد من تلك الأشياء التي كان يمكن لها أن تمر من دون انتباه أحد. نينيتس فاشن، وهو متجر ألبسة في شارع درسدنر 46 في شيمنيتس - ألمانيا، وظف رئيساً من سيكونديغليانو. كان خياراً غير عادي، إلا أنه اتضح أن الرجل في الواقع يملك المتجر بينما كان مسجلاً تحت اسم مستعار. وانطلاقاً من الإمساك بطرف الخيط هذا، والذي تبعه مراقبة للخطوط الهاتفية، وإفادة شهود رفيعي المستوى، استطاع مجلس DDA في نابولي أن يعيد بناء كل خيط في سلسلة الإنتاج والتجارة لدى جماعات سيكونديغليانو، من المستودعات إلى المحال التجارية.

لقد أنشأوا متاجر في كل مكان، ففي ألمانيا كان لديهم متاجر ومستودعات في هامبورج، ودورتموند، وفرانكفورت. وفي برلين كان هناك متجران باسم لاودانو. في إسبانيا، كانوا منتشرين في برشلونة، وفي باسيو ديلا إيرميتا شارع 30 في مدريد. وكذلك في بروكسل، وفيينا، وفي البرتغال في أوبورتو، وبوافيستا. في لندن كان لديهم متجر للسترات، ومتاجر أخرى في دبلين، وأمستردام، وفنلندا، والدانمارك، وسرايبفو، وبلغراد. كما تمكنت جماعات سيكونديغليانو من عبور المحيط الأطلسي لتستثمر في كندا - في وودبريدج، وأونتاريو، و253 جيفلان درايف في مدينة مونتريال - وكذلك في الولايات المتحدة الأميركية، وحتى في أميركا الجنوبية. كانت الشبكة المنتشرة في أميركا مهولة، ملايين من قطع الجينز كانت تباع في المحلات المنتشرة في نيويورك، وميامي بيتش، ونيو جيرسي، وشيكاغو، وكانت كذلك تحتكر عملياً السوق في فلوريدا.

لقد أراد تجار التجزئة، وأصحاب مراكز التسوق الأميركيون التعامل مع سماسرة سيكونديغليانو بشكل حصري. ولا عجب في أنهم فعلوا ذلك، فقطع ثياب من الخياطة الراقية Haute Couture موقّعة بأسماء كبار المصممين كانت تأتيهم بأسعار معقولة؛ عنى ذلك بالنسبة إليهم أن حشوداً من الزبائن ستندفع زرافات إلى مراكزهم التجارية. أما رقع الأسماء فقد كانت حقاً منجزة بشكل مثالي.

لقد وجد في ضواحي نابولي مختبر يحوي قالباً لطباعة الشارة المميزة لفيرساتشي، وهي رأس ميدوسا. وفي سيكونديغليانو انتشرت فكرة أن الإدارة تهيمن على سوق الملابس الأميركية، الأمر الذي يجعل الأمور أكثر يسراً بالنسبة إلى الشبان التواقين للوصول إلى أميركا والعمل كبائعين هناك. لقد أشعل حماستهم النجاح الذي حققته "فيب مودا"، التي ملأت جينزاتها متاجر تكساس، حيث روج لها على أساس أنها ماركة فالانتينو.

لقد انتشرت أعمالهم حتى بلغت أيضاً نصف الكرة الأرضية الجنوبي. فقد أصبح متجر مودا إيتاليانو إمبوريو، في شارع رامزي - فايف دوك الواقع في منطقة ويلز الجنوبية الجديدة، واحداً من أكثر متاجر أستراليا شهرة للألبسة الراقية. كما كان هناك محال ومستودعات في سيدني. وأيضاً، سيطرت جماعات سيكونديغليانو على سوق الألبسة في البرازيل، في ريو دي جينيرو، وساو باولو. وكانوا يخططون لفتح متجر للسياح الأميركيين والأوروبيين في كوبا، كما أنهم لفترة من الزمن، كانوا يستثمرون في الخليج العربي وشمالي إفريقيا. إن آلية التوزيع التي أرستها الإدارة كانت تعتمد على المستودعات - هكذا كان يشار إليها في التسجيلات الصوتية الهاتفية - إنها محطات حقيقية لتفريغ الناس والبضائع، مخازن لكل أنواع الألبسة. كانت المستودعات هي المركز لكل المحاور التجارية، إنها المكان الذي يتزود منه الوكلاء

بالبضاعة ليوزعوها على متاجر الجماعات أو تجار التجزئة الآخرين. هذه الطريقة كانت قائمة على مفهوم الميلارجي، وهو مفهوم قديم يرتبط بالبائع الجوال النابوليّ. فبعد الحرب العالمية الثانية، غزا هؤلاء نصف الكوكب، طاوين المسافات، جارّين حقائبهم المحشوة بالجوارب، والقمصان، والسترات. وبتطبيقهم عملياً لخبراتهم التجارية طويلة الأمد على نطاق أكثر اتساعاً، أضحى الميلارجيون وكلاء تجاريين متكاملين، قادرين على البيع في أي مكان وفي كل مكان، بدءاً بالأسواق المجاورة وصولاً إلى المراكز التجارية الكبيرة، ومن مواقف السيارات إلى محطات البنزين. والمتميز منهم هو من استطاع القيام بقفزات نوعية، وببيع أعداد وافرة من الألبسة مباشرة إلى تجار التجزئة. تبعاً للتحقيقات، فقد قام رجال أعمال بتنظيم توزيع البضائع المقلدة عن طريق مندوبي المبيعات، الميلارجي، مقدمين لهم دعماً لوجستياً يتلخص بالتالي: يدفعون لهم مقدماً تكاليف السفر والإقامة، بالإضافة إلى الباصات الصغيرة المغلقة، والسيارات، والمساعدة القانونية في حال القبض عليهم أو مصادرة البضاعة، وبالمقابل فهم طبعاً يضعون الأرباح في جيوبهم. إنها تجارة تحصل كل عائلة من خلالها على ما يوازي تقريباً 300 مليون يورو سنوياً.

لقد بدأ أصحاب العلامات التجارية الإيطالية فقط بالاحتجاج على سوق اتحاد سيكونديغليانو الضخمة للبضائع المقلّدة بعد تقرير مجلس DDA الذي كشف مجمل العملية. قبل ذلك لم يكن لديهم خطط لشن حملات دعاية سلبية، ولم يرفعوا دعاوى يوماً، ولم يبوحوا للصحافة بالآثار السلبية للإنتاج غير القانوني. من الصعب إدراك سبب عدم اتخاذ أصحاب العلامات التجارية موقفاً ضد الجماعات، لكن ربما كان هناك العديد من الأسباب. كان شجبهم سيعني تضييع الفرصة وبشكل نهائي للإفادة من مصادر العمال بخسي الأجرة في كامبانيا، وباغليا. كانت

الجماعات عندها ستمنع أي وسيلة للوصول إلى مصانع الألبسة حول نابولي، وستعيق العلاقات مع مصانع أوروبا الشرقية وآسيا. ومع الأخذ بعين الاعتبار العدد الضخم للمراكز التجارية التي تديرها الجماعات بشكل مباشر، فإن شجب أعمالهم كان سيعرض للخطر التواصل مع آلاف من جهات الاتصال التي تعمل في مبيعات التجزئة. أضف إلى أنه في كثير من الأماكن تتولى العوائل دفع أجور النقل والوكلاء، وعلى هذا فإن التبليغ عنهم كان سيؤدي إلى ارتفاع مفاجئ في تكاليف التوزيع. وإلى جانب هذا وذاك، الواقع أن الجماعات لم تكن تهدم صورة العلامات التجارية، بل ببساطة كانت تستغل إعلاناتها ورموزها الجذابة الساحرة. فالقطع التي كانوا ينتجونها لم تكن أدنى مستوى، ولم تكن لتلحق العار بنوعية العلامات التجارية أو بصورة التصميم. هذه الجماعات لم تكن تشكل أي منافسة رمزية مع ألقاب المصممين، حتى إنها في الواقع ساعدت على تعزيز المنتجات التي جعلها سعر السوق الباهظ محرّمة على جمهور العامة. باختصار كانت الجماعات تعزز وجود العلامات التجارية. فلو أنه وجد بالكاد من يرتدي هذه الماركات، ولو أنها لا تشاهد إلا على أجسام العارضات وهن يتبخترن على الممر في أثناء عروض الأزياء، حينها ستحتضر السوق شيئاً فشيئاً، وستذبل هيبة اسم تلك الماركة. وزيادة على هذا، لقد قامت المصانع النابوليّة بإنتاج قطع ثياب مقلدة بمقاسات لم تكن الماركات لتنتجها حفاظاً على صورتها الراقية. لكن الجماعات حتماً لم تكن لتأبه لتلك الصورة عندما يكون جني أرباح إضافية على المحك. وهكذا استطاعت جماعات سيكونديغلياو عن طريق تجارة الأصلي - المقلّد، وإيرادات الإتجار بالمخدرات أن تحوز على متاجر، ومراكز تسوّق كانت القطع الأصلية فيها تختلط بشكل متزايد مع تلك المقلدة، لاغية بالتالي أي إمكانية للتمييز بينها. وعندما حصل ارتفاع حاد في الأسعار،

ساند التنظيم في ذلك الوقت نوعاً ما إمبراطورية الأزياء القانونية، وفي الواقع لقد أفاد من تلك الأزمة مستمراً في الترويج لمفهوم صنع في إيطاليا في كل مكان في العالم، جانياً بذلك مبالغ مضاعفة بالأسّات.

لقد أدركت جماعات سيكونديغليانو أن شبكات التوزيع والمبيعات الهائلة العالمية التي لديها كانت المصدر الأعظم لقوتها، وحتى أكثر من الإتجار بالمخدرات. فالألبسة والمخدرات كثيراً ما سلكت الطرقات ذاتها. ومع ذلك، لقد توجهت الطاقات الاستثمارية للتنظيم إلى التكنولوجيا. إذ كشفت تحقيقات عام 2004 أن الجماعات تستخدم شبكاتها التجارية لتستورد منتجات صينية عالية التقنية ليتم توزيعها في أوروبا. كان لأوروبا: الشكل، والعلامة التجارية، والشهرة، والدعاية، أما المضمون فكان للصين: المنتج الحقيقي، وللعمال قليلو الأجرة، وللمواد الأولية رخيصة الثمن. لقد جمع التنظيم بين الاثنين، جانياً بذلك الأرباح من كل النواحي. ولإدراكها بأن الاقتصاد كان يسير نحو حافة الهاوية، استهدفت الجماعات المناطق الصناعية الصينية التي كانت قد بدأت من قبل تصنيع الشركات الأوروبية الكبرى. بهذا كان أفراد الجماعات يتبعون نموذج الأعمال التي تم استثمارها بداية في مناطق التوسع المدني جنوبي إيطاليا ومن ثم انتقلت تدريجياً إلى الصين. لقد خرجوا بفكرة طلب دفعات من المنتجات عالية التقنية ليبيعوها ثانية في السوق الأوروبية، تحت اسم ماركة مقلّدة يجعلها أكثر جاذبية كما هو واضح. إلا أنهم كانوا حذرين، إذ تماماً كما كانوا يجربون عينات الكوكايين، فإنهم كذلك يضعون نوعية البضائع التي ابتاعوها من المصانع الصينية تحت التجربة. وبعد أن تثبتوا من مصداقية تلك البضائع وإمكانية تصريفها في السوق، شنوا واحدة من أكثر الصفقات الجارية بين القارات ازدهاراً في التاريخ الإجرامي. والتي تضمنت: آلات تصوير رقمية، وآلات تصوير متلفزة، والمعدات الآلية

من آلات ثقب، ومطاحن، ومطارق تعمل بالهواء المضغوط، وفأرات النجارين، وجميعها كانت تسوّق تحت أسماء بوش، وهامر، أو هيلتي. عندما ابتدأ زعيم سيكونديغليانو باولو ديلاورو بإقامة علاقات عمل مع الصين، كان بذلك متقدماً بعشر سنوات على مبادرة كونفينداستريا، وهو اتحاد المصنّعين الإيطاليين، لتحسين الروابط مع آسيا. باعت جماعة ديلاورو الآلاف من آلات كانون وهيتاشي في أسواق أوروبا الشرقية. وبفضل استيرادات كامورا، أصبحت المواد التي كانت يوماً امتيازاً ينحصر بالطبقات المتوسطة والراقية، متاحة لشريحة أوسع من العموم. ولتضمن دخولاً أقوى إلى الأسواق، فقد قدمت الجماعات عملياً منتجاً مطابقاً للأصل، ملصقة عليه رقعة باسم الماركة في آخر الأمر.

إن استثمارات جماعات ديلاورو وكونتيني في الصين، والتي كانت محور تحقيق DDA في نابولي للعام 2004، برهنت عن بُعد النظر التجاري لزعمائها. فعهد العمل الضخم قد ولّى، والكتل الإجرامية المختلطة قد انهارت نتيجة لذلك. وكانت نووفا كامورا أوركانيزاتا، أو الكامورا حديثة التنظيم التي أسسها رفاييل كاتولو في الثمانينيات، كانت ما يشابه الشركة الضخمة، أو الكتل المركزية. ثم قام كارميني الفييري وأنتونيو بارديلينو بإدارة عمليات لا نووفا فاميليا أو العائلة الجديدة على أنها بنيان اتحادي لعائلات مستقلة عن بعضها اقتصادياً، ومتحدة بمصالحها المشتركة، لكن ثبت أن هذا أيضاً غير عملي.

لقد أتاحت مرونة الاقتصاد الحالي لمجموعات صغيرة من المديرين الذين يديرون المئات من المشاريع التجارية في قطاعات بارزة، أن يسيطروا على الميادين الاجتماعية والمالية على حدٍّ سواء. هناك الآن بنية أفقية أكثر مرونة من كوسا نوسترا، وتتيح الدخول في تحالفات جديدة أكثر بكثير من الكالابريان ندرانيتا. وهي تستخدم

باستمرار جماعات جديدة، وتتبنى استراتيجيات حديثة للدخول في أكثر الأسواق تطوراً. لقد كشفت العشرات من عمليات الشرطة في السنوات الأخيرة أن المافيا الصقليّة والندرانيتا، كلاهما كانا بحاجة إلى المرور عبر الجماعات النابوليّة لابتياع كميات كبيرة من المخدرات. إذ إن اتحاد نابولي وكامبانيا كانا يزوّدان مؤونة الهيرويين والكوكايين بأسعار جيدة، لذا فكثيراً ما ثبت أن الشراء منهما كان أكثر سهولة وأكثر اقتصاديةً من الشراء مباشرة من التجار الأميركيين أو الألبان.

على الرغم من إعادة تنظيم الجماعات، تبقى كامورا المنظمة الإجرامية الأقوى في أوروبا من حيث العضوية. فمقابل كل رجل مافيا صقليّ، هناك خمسة كاموريستيين، وهم ثمانية مقابل واحد من ندرانيتا، وهم ثلاثة إلى أربعة أضعاف أعضاء بقية المنظمات. لقد أفادت كامورا كثيراً من تسليط الأضواء على كوسا نوسترا، ومن الاهتمام المحموم بانفجارات المافيا، إذ إنها أمنت وسيلة إلهاء مثالية تبعد وسائل الإعلام عن كامورا، والتي بقيت عملياً غير معروفة. مع إعادة التنظيم ما بعد الفوردي، توقفت جماعات نابولي عن إعطاء الحسنات للجماهير، ويمكن عزو الارتفاع الطفيف لمعدّل الجرائم في المدينة، إلى بتر تلك الرواتب. لم تعد جماعات كامورا بحاجة إلى أن تحافظ على أسلوب السيطرة العسكري واسع الانتشار، أقلّه ليس في أغلب الأوقات، وذلك لأن نشاطاتها الأساسية في العمل باتت تحدث الآن خارج نابولي.

كشفت تحقيقات أجراها النائب العام في إدارة مكافحة المافيا في نابولي، أنّ التركيبة المرنة والاتحادية لكامورا قد أدت إلى تحول كامل في بنية العائلات: فبدلاً من التحالفات الدبلوماسية، والمواثيق الثابتة في ما بينها، أضحت طريقة عمل الجماعات الآن أقرب إلى لجان أعمال. إن مرونة كامورا تعكس حاجتها إلى تحريك مصادر الربح، وتصفية

الشركات، تدوير المال، والاستثمار سريعاً في العقارات من دون قيود ومن دون الاتكال بثقل على الوساطات السياسية. لم تعد الجماعات بحاجة إلى تنظيمات كبيرة العدد، فهذه الأيام، أي جماعة من الناس يمكنها أن تقرر تشكيل عصبة مع بعضها، لتحطم نوافذ المتاجر، وأن تسرق دون المخاطرة بأن يقتل أفرادها، أو أن يقعوا تحت سيطرة الجماعة. إن العصابات التي تغلي حول نابولي لا تتألف حصرياً من أفراد يقترفون الجرائم ليعمروا جيوبهم، ويشتروا سيارات فخمة، ويعيشوا بترف. فهم يعلمون أنهم بانضمامهم إلى صفوف الجماعة ومساهمتهم بزيادة درجة العنف وكميته يتمكنون غالباً من تحسين قدراتهم الاقتصادية، ليصبحوا متحدثين باسم الجماعات. إن كامورا تتألف من مجموعات تمتص كالعلقات الشرهة، وتعيق بالتالي كل تطور اقتصادي، ومجموعات أخرى يعمل أفرادها كمبتكرين ملحّين، يدفعون بأشغالهم إلى مراحل جديدة من التطور والمهنية. عالقة بين هاتين الحركتين المتناقضتين ومع ذلك المتكاملتين، تتعرض المدينة للأذى والتمزق. تعد القسوة في نابولي، الاستراتيجية الأوفر والأكثر تعقيداً، والتي تقود المرء لأن يصبح رجل أعمال ناجح، لدرجة أن هواء المدينة يفوح برائحة الحرب وبإمكانك استنشاقها من كل مسامة في جسدك، إن لها رائحة العرق النتنة. لقد أصبحت الشوارع صالات رياضية مفتوحة للتمرن على فنون التنقيب والنهب والسرقة، وللتدرب على الرياضات البدنية التي يُفرض النفوذ من خلالها، وعلى الدوران السريع للنمو الاقتصادي.

لقد توسع انتشار التنظيم في ضواحي المدن مضاعفاً حجمه كعجينة الخبز. لقد اعتقدت الحكومات الإقليمية والمحلية أن باستطاعتها معارضة التنظيم من خلال الامتناع عن التعامل التجاري مع الجماعات، إلا أن ذلك لم يكن كافياً. فقد استخفّت بالظاهرة وقلّلت من قيمة نفوذ العوائل، واعتبرتها إحدى آفات المدنية. وكنتيجة لذلك فإن كامبانيا

أصبحت الآن الإقليم الإيطالي ذا العدد الأعلى من المدن التي تقع تحت الرقابة، بسبب محاولات تسلل الكامورا إلى إداراتها. لقد بلغ عدد الإدارات المحلية التي تم حلها منذ عام 1991 إحدى وسبعين إدارة، وهو رقم غير عادي، ويفوق بكثير أياً من أرقام الأقاليم الإيطالية الأخرى، والتي هي: 44 في صقلية، 34 في كالابريا، و7 في باغليا. في دائرة نابولي وحدها، تضمّ: البلدات التي تم حل مجالسها البلدية بوزولي، وكوارتو، ومارانو، وميليتو، وبورتيسي، وأوتافيانو، وسان جوزيبيه فيزوفيانو، وسان جينارو فيزوفيانو، وتيرزيغنو، وكالاندرينو، وسانت أنتيمو، وتوفينو، وكريسبانو، وكاسامارسيانو، ونولا، ليفيري، وبوسكوريل، وبوجيومارينو، وبومباي، وإيركولانو، وبيمونته، وكاسولا دي نابولي، وسانت أنتونيو أباته، وسانتا ماريا لا كاريتا، وتوره أنونزياتا، وتوره ديل غريكو، وفولا، وبروسيانو، وأسيررا، وكاسوريا، وبوميغليانو دي أركو، وأخيراً فراتّاماغويره. تسعة فقط من اثنين وتسعين مجلساً بلدياً في دائرة نابولي لم تتعرض يوماً إلى قدوم مفوضين خارجيين، وإلى إجراء التحقيقات، أو إلى الرقابة. لقد حددت أعمال الجماعة كيفية حصر القوانين والتنظيمات بقطاعات محددة، فأعضاؤها المتغلغلون في خدمات التطهير المحلية، يقومون بشراء الأراضي مباشرة قبل أن يتم الإعلان عن أنها مناسبة للبناء، ثم تبرم اتفاقات من الداخل لتشييد مراكز تسوق. ومن ثم تفرض إقامة الاحتفالات، التي تعتمد فيها على شركاتها التي تقدم خدمات متنوعة، من تقديم الطعام والترفيه، إلى التنظيف، ومن توفير وسائل النقل إلى جمع القمامة.

لم يسبق لاقتصاد أي إقليم أن تجلى فيه الحضور الإجرامي الساحق وعظيم الانتشار، كما حصل في كامبانيا خلال السنوات العشر الأخيرة. وعلى عكس مجموعات المافيا الصقليّة، فإن جماعات كامورا لم تكن بحاجة إلى السياسيين، بل هم من كانوا بحاجة إليها.

هناك استراتيجية متعمدة في كامبانيا تقضي بترك البنى السياسية المكشوفة، والتي تقوم وسائل الإعلام بالتدقيق في شؤونها باستمرار، معفاة رسمياً من أعمال التغاضي والتستر، والتواصل. لكن في الريف يختلف الوضع، ففي البلدات التي تحتاج فيها الجماعات إلى حماية مسلحة وغطاء للهاربين، وحيث تكون المناورات التي يقوم بها أفرادها مكشوفة أكثر، تصبح التحالفات بين السياسيين وعوائل الكامورا أوثق. جماعات كامورا ترتقي بنفوذها من خلال إمبراطوريتها التجارية، مما يتيح لها السيطرة على كل شيء آخر.

لقد تمت صناعة تحويل ضواحي سيكونديغليانو وسكامبيا إلى الأعمال الإجرامية ببراعة من قبل عائلة ليتشياردي، والتي يعد عملياً مركز عملياتها في ماسيريا كاردون شديد المنعة. يعرف زعيمها جينارو ليتشياردي باسم القرد بسبب شبهه الكبير الصادم بالغوريلا أو الأورانغوتان. في أواخر الثمانينيات كان ليتشياردي نائب سيكونديغليانو بالنسبة إلى لويجي غيوليانو، زعيم فورسيلا، والتي هي منطقة في قلب نابولي. أما الضواحي فكانت تعتبر منطقة فظيعة، ومقاطعة من دون متاجر أو مراكز تسوق، ومنطقة تقع على هامش كل أنواع الثروات، حيث لا تجد حتى العلقات جروحاً كافية لتتغذى عليها. إلا أن ليتشياردي أدرك أن تلك المنطقة يمكن أن تصبح محوراً لبيع المخدرات، ومرفأ مجانياً للنقل، ونقطة تجمع لليد العاملة رخيصة الأجرة، ومكاناً ستبرعم فيه قريباً سقالات الإنشاءات الجديدة بينما تتوسع المدينة. لكن جينارو ليتشياردي لم ينجح في تنفيذ استراتيجيته كاملة، حيت مات في عمر الثامنة والثلاثين في السجن بسبب فتق تافه في السرة، ويا لها من نهاية مثيرة للشفقة بالنسبة إلى زعيم! بخاصة وأنه تورط مرة في شجار مع أعضاء من جبهتين كبيرتين لكامورا، وهما منظمة كامورا الجديدة

مكتبة الرمحي أحمد

والعائلة الجديدة، وذلك في أثناء انتظارهم لجلسة استماع في سجن محكمة نابولي. لقد تلقى يومها 16 طعنة في أنحاء جسده كافة، لكنه خرج منها حياً.

لقد حولت عائلة ليتشياردي ما كان مجرد احتياطي للأيدي العاملة الرخيصة إلى آلة فعالة لتجارة المخدرات، ذاك العمل الإجرامي العالمي. آلاف من الناس تم اختيارهم، أدرجوا، أو سحقوا بتأثيرِ النظام. كانت الملابس والمخدرات، هي الاستثمارات التجارية، قبل كل شيء آخر. وبعد موت جينارو القرد، تولى أخواه بييترو، وفينسينزو الجانب القتالي في الجماعة، لكن ماريا، والتي تدعى بيسيرلا لا بيكوليتا أو الصغيرة، هي من سيطرت ببراعة على النفوذ الاقتصادي.

بعد انهيار جدار برلين، قام بييترو ليتشياردي بتحويل القسم الأعظم من استثماراته الخاصة، القانونية وغير القانونية منها، إلى براغ وبرنو. كانت جماعة سيكونديغليانو تسيطر بشكل كامل على النشاط الإجرامي في الجمهورية التشيكية، وطبقت منطق الضواحي المنتجة، ووضعت لها هدفاً وهو الاستيلاء على السوق الألمانية. بييترو ليتشياردي كانت له شخصية المدير، وشركاؤه في العمل كانوا يطلقون عليه اسم الإمبراطور الروماني بسبب نزعته الفاشية، وقناعاته المتغطرسة الراسخة بأن العالم بأسره هو امتداد لسيكونديغليانو. لقد افتتح متجر ملابس في الصين كان بمثابة مقر تجاري ثانوي في تايوان ليستغل الأيدي العاملة الرخيصة، وليمضي قدماً في التغلغل في السوق الداخلية الصينية. ألقي القبض عليه في براغ في حزيران عام 1999. كان مقاتلاً عديم الرحمة، اتهم بإصدار الأمر بزرع القنبلة التي وضعت في فيا كريستاليني، في حي سانيتا عام 1998 خلال الصراعات الدائرة بين الجماعات المتمركزة في مركز المدينة وتلك التي في أطرافها. قنبلة كان الهدف منها معاقبة الحي بأسره، وليس فقط قادة الجماعات. وعندما انفجرت السيارة التي

تحوي القنبلة تناثرت شظايا المعدن والزجاج حولها كالرصاص مصيبة ثلاثة عشر شخصاً، إلا أن الأدلة ضده لم تكن كافية فأخلي سبيله. تركز نشاط جماعة ليتشياردي التجاري الرئيسي في إيطاليا في صناعة الألبسة وتجارة التجزئة، والتي تمركزت حول كاستيلنوفا ديل غاردا، في ألفينيتو. وليس بعيداً كثيراً من ذاك المكان، في بورتوغرارو، ألقي القبض على أخ زوجة بييترو ليتشياردي، والذي يدعى فينسينزو بيرنيس، ومعه بعض أنصار الجماعة، بمن فيهم ريناتو بيلسو، الذي كان يعيش في كاستيلنوفا ديل غاردا. فما بقي لبييترو ليتشياردي كلاجئ إلا أن يأويه تجار التجزئة ورجال الأعمال في فينيتو، والذين كانوا مرتبطين بالجماعة. لم يكونوا أعضاء بالمعنى الحرفي للكلمة، لكن شركاء متورطين بشكل أساسي في أعمال المنظمة الإجرامية. بالإضافة إلى امتلاكهم مهارة رائعة في مجال الأعمال، كان الليتشيارديون يملكون كذلك سرايا قتالية. بعد اعتقال بييترو وماريا تولّى فينسينزو ليتشياردي إدارة الجماعة. ذاك الزعيم اللاجئ الذي كان ينسق بين النشاطين الاقتصادي، والعسكري.

جماعة ليتشياردي كانت على الدوام شرسة في انتقامها بشكل خاص. لقد أخذوا بقسوة بالغة بثأر فينسينزو إسبوسيتو، ابن أخ جينارو ليتشياردي عام 1991. كان فينسينزو يبلغ الحادية والعشرين عندما قتل في مونتي روزا، وهو حي يديره البريستييريس وهم عناصر إحدى العوائل في الحلف. إنه ابن أخ حكام سيكونديغليانو، وكان يطلق عليه اسم إلبرينسيبينو، أو الأمير الصغير. لقد انطلق على دراجته النارية إلى مونتي روزا ليطالب بتوضيح حول المعاملة العنيفة التي تلقاها بعض أصحابه هناك. وبما أنه كان يرتدي خوذته فقد ظنوا خطأً أنه قاتل، فأطلقوا النار عليه وأردوه قتيلاً. الليتشياردي طالبوا ديلاوروسن وهم حلفاء مقربون للبريستييريس، بتقديم القتلة المسؤولين عن هذا العمل.

ووفقاً للبينتيتو أو النائب لويجي غيوليانو، فقد كان ديلاوروس نفسه من نظم مقتل الأمير الصغير لأنه كان يتدخل أكثر من اللازم في بعض الأمور. وعلى أي حال، أياً كان الدافع، كان يستحيل مواجهة نفوذ الليتشياردي لدرجة أنه طُلب من رجال الجماعات المتورطة في الأمر أن يشنوا حملة تطهير ضد كل أولئك الذين من المحتمل أن يكونوا مسؤولين عن موت إسبوسيتو. لقد نفذوا مذبحة خلفت وراءها خلال أربعة عشر يوماً، عدداً من القتلى الذين لهم علاقة مباشرة أو غير مباشرة في مقتل وريث العرش الشاب.

أجرى التنظيم تحولاً في نشاطاته في الابتزاز والربا كذلك. كانوا يدركون أن أصحاب المتاجر بحاجة إلى المال، في ظل ازدياد صرامة البنوك، لذا فقد وضعت الجماعات نفسها بين الموردين، وموزعي الجملة اللذين يتوجب عليهما شراء البضائع شخصياً، إما عبر الدفع نقداً، أو عن طريق الحوالات. بما أن الدفع نقداً يخفّف التكلفة بنسبة النصف إلى الثلثين، فإن هذين الطرفين (الموزعون والموردون) كانا يفضلان هذه الطريقة. وهكذا اتخذت أعضاء الجماعات دور التمويل في الخفاء، مقدمين المال مع نسبة يبلغ متوسطها 10 بالمئة. وبهذه الطريقة تنشأ بشكل آلي علاقة مشتركة بين الشاري، والبائع، والجماعة، أما العائدات فتقسم مناصفة. أما إن وقع موزع التجزئة تحت وطأة الدين، فستتدفق حينها نسب أعلى إلى خزائن الجماعة، وينتهي الأمر به كرجل يتحمل أوزار غيره أمام القانون، ويعيش على مرتب شهري. على عكس البنوك التي تستولي على كل شيء عندما يقع المرء في الدين، تواصل الجماعات الانتفاع من أصحابها بأن تدع الأفراد ذوي الخبرة الذين خسروا ممتلكاتهم يستمرون في العمل. فوفقاً لأحد التائبين في تحقيق عام 2004 الذي أجرته DDA، تدير كامورا نسبة كبيرة من المتاجر في نابولي بهذه الطريقة.

وحدها الجماعات المعدمة التي تفتقر إلى الكفاءة في إدارة العمل، والتي تستميت لتحافظ على بقائها، ما زالت تتبع أسلوب الابتزاز الشهري الذي يظهر في فيلم ناني لوي: ميماندا بيكون، أو ذاك الذي يمسح جميع المنازل في المنطقة في ذكرى الميلاد وذكرى الفصح إلى الخامس عشر من آب. لقد تغير كل شيء، لقد وضعت جماعة نوفوليتا من مارانو، في الضواحي الشمالية من نابولي، مخططاً أكثر فعالية للابتزاز يرتكز على المصلحة المتبادلة، والمطالبة الثقيلة بالاعتمادات المالية. جوزيبيه غالا، المعروف باسم رجل الاستعراض، قد أصبح واحداً من أكثر مسؤولي المبيعات قيمة في مجال الأغذية. لقد كان مطلوباً بشدة، كونه ممثلاً لباولي وفون هولتن، ومن خلال فيب أليمينتاري استطاع أن يصبح الممثل الحصري لبارمالات في إقليم جماعة مارانو. وفي تسجيل هاتفي قدم للقضاة في DDA نابولي في خريف عام 2003، قال بتبجح: "لقد أحرقتهم جميعاً، نحن الأقوى في السوق"

في الواقع كانت الشركات التي تولاها جوزيبيه، أو بيبه غالا، ذات سمعة تجارية طيبة تتخطّى حدود الإقليم الأمر الذي يظهر في العدد الكبير من الطلبات التجارية المرتبطة بها. وكان باعة التجزئة وأصحاب السوبرماركت أكثر من مسرورين بالتعامل معه لأنه كان يستطيع أن يضغط على الموردين كي يقدموا حسومات أكبر. وكونه رجلاً ينتمي إلى التنظيم، فقد تحكم رجل الاستعراض كذلك بوسائل النقل، ما عنى أن بإمكانه أن يضمن الأسعار المرغوبة ويؤمّن خدمة التوصيل.

إن البضائع التي تتبناها الجماعات لا تفرض على الآخرين عن طريق الترهيب، بل بالأحرى بوساطة وضع الأسعار المؤاتية. لقد

أعلنت المؤسسات التي مثّلها غالا أنها كانت ضحية مكيدة كامورا، وبالتالي أصبحت مجبرة على الإذعان للتسوية التي تفرضها الجماعات. ومع ذلك فقد كشفت بيانات من الاتحاد الإيطالي الفيدرالي أنه من عام 1998 وحتى عام 2003، ارتفعت المبيعات السنوية لجميع الشركات التي لجأت إلى غالا بنسب تتراوح ما بين 40 و80 بالمئة. فمع استراتيجياته المالية، تمكن غالا من أن يحل مشاكل الجماعات المتعلقة بالدفع النقدي. لقد وصل بعيداً إلى حد فرض ضريبة إضافية على البانيتوني، وهي كعكة الميلاد الإيطالية المنتشرة في كل مكان، ليعطي علاوات في نهاية السنة للعوائل التي يقبع أبناؤها الأعضاء في جماعة نوفوليتا في السجن. على أي حال، لقد كان نجاح رجل الاستعراض مميتاً. فبحسب ما ذكره شهود عيان، لقد حاول غالا أن يصبح أيضاً العميل الحصري في سوق المخدرات. الأمر الذي ما كانت عائلة نوفوليتا لترضى حتى بالسماع به فكيف بمسألة السماح بحدوثه. وفي كانون الثاني من عام 2003، وجدت جثته في سيارته، بعد أن أحرق حياً.

نوفوليتا هي العائلة الوحيدة خارج صقلية التي تتربع على قبة القيادة في كوسا نوسترا. فهي ليست مجرد حليف أو مؤسسة فرعية، بل واحدة من أكثر المجموعات نفوذاً في قلب المافيا، وتجمعها روابط بنيوية مع كورليون. وفقاً للبينتيتو، التائب، جيوفاني بروسكا، كان أعضاؤها على درجة هائلة من النفوذ لدرجة أنه في أواخر 1990 عندما قرر الصقليون زرع القنابل في أرجاء إيطاليا كاملة، طلبوا النصح والتعاون من جماعة مارانو. عائلة نوفوليتا بدورها اعتقدت أن تلك الفكرة محض جنون، وهي استراتيجية تتعلق بالمصالح السياسية، أكثر منها بالسعي للحصول على نتائج فعالة. لقد رفضوا المشاركة في الهجمات، أو حتى تقديم الدعم اللوجستي. رفض عبّر عنه من

دون أي تلميح للانتقام، توتو رينا بنفسه، الذي ناشد الزعيم أنجيلو نوفوليتا ليتدخل ويرشو القضاة في محاكمته الجماعية الأولى، لكن هنا أيضاً رفضت جماعة مارانو أن تساعد الجناح العسكري لعائلة كورليون. وفي فترة العداوات الذي استفحلت ضمن لانوفا فاميليا، العائلة الجديدة، بعد انتصار أفرادها على كاتولو، أرسلت عائلة نوفوليتا في طلب جيوفاني بروسكا، زعيم سان جيوفاني جاتو وقاتل القاضي جيوفاني فالكون(*). لقد أراد منه أفراد عائلة نوفوليتا تصفية خمسة أشخاص في كامبانيا، وأن يذيب اثنين منهم بالأسيد. لقد أرسلوا بطلبه بالطريقة التي ترسل بها بطلب السمكري. بدوره فقد كشف جيوفاني بروسكا للقضاة عن التقنية التي استخدمها في إذابة لويجي وفيتوريو فيستاريلا:

"لقد أصدرنا تعليمات بابتياع مئة ليتر من حمض الهيدروكلورايد، كما طلبنا حاويات معدنية سعة مئتي ليتر من النوع الذي يستخدم عادة لتخزين زيت الزيتون، بعد إزالة القسم العلوي منها. بحسب خبرتنا، كل حاوية تتسع لخمسين ليتراً من الحمض، وبتقديرنا لما يستلزمه إذابة شخصين، فقد أعددنا برميلين"

قامت النوفوليتا أيضاً، بالتعاون مع جماعتي نيتّونو وبلوفيرينو الفرعيتين، بتغيير استراتيجيات الاستثمار للمخدرات، بأن أحدثت نظام مساهمة شعبية للكوكايين. كشف تحقيق DDA في نابولي عام 2004 أن

(*) جيوفاني فالكون: والذي قتل في 23 أيار عام 1992، كان حاكماً مهماً مناهضاً للمافيا، وواحداً من الشخصيات الأساسية في عامي 1986–1987 في المحاكمة الكبرى، التي أدين فيها 360 شخصاً من المافيا. قضى فالكون وزوجه فرنشيسكا مورفيلو، التي كانت هي أيضاً قاضية، وثلاثة من رجال الشرطة، نحبهم عندما انفجرت إحدى القنابل في أثناء مرورهم على الطريق الذي يصل باليرمو بالمطار. (المترجمة الإنكليزية).

الجماعة كانت تتيح للجميع المشاركة في حيازة المخدرات عن طريق الوسطاء. كان المتقاعدون، والعمال، وصغار رجال الأعمال يسلمون أموالهم للعملاء الذين بدورهم يعيدون استثمارها في المخدرات. حين تستثمر راتبك التقاعدي البالغ 600 يورو في تجارة الكوكايين، فإن ذلك يعني حصولك على الضعف خلال شهر واحد. والضمانة الوحيدة كانت كلمة الوسيط، إلا أن الاستثمار بشكل منتظم أثبت فائدته. لقد رجّحت كفةُ الأرباح كفةَ المجازفة، وخاصة عند مقارنتها بالفائدة التي يقدمها البنك. الضرر الوحيد كان مصدره تنظيمياً، فالمستثمرون الصغار كثيراً ما كان يطلب منهم تخبئة مقادير من الكوكايين، إنها طريقة تتبع لتوزيع مؤونة الكوكايين ولضمان استحالة مصادرتها عملياً. وهكذا وعن طريق إشراك أفراد أدنى مراتب الطبقة الوسطى، البعيدين عن النشاط الإجرامي، ولكن في الوقت ذاته قد ملّوا من أن يعهدوا للبنوك بممتلكاتهم، استطاعت كامورا أن تزيد من حجم رأس المال المتوفر للاستثمار. كذلك فقد حولت جماعة نوفوليتا - بولفيرنو، توزيع بيع التجزئة، بأن جعلت من الحلاقين والعاملين في مراكز تسمير البشرة، تجار تجزئة الكوكايين الجدد. لقد استخدم أفراد هذه الجماعة أشخاصاً كواجهات لهم ليستثمروا أرباحهم التي جنوها من الإتجار بالكوكايين في الشقق، والفنادق، وشراء الأسهم في شركات الخدمات، والمدارس الخاصة، وحتى المتاحف الفنية.

بيترو نوسيرا كان الشخص المتهم بتوليه غالبية أصول أعمال نوفوليتا. هو واحد من أكثر المديرين نفوذاً في المنطقة، والذي كان يفضل السفر دوماً بسيارة الفيراري أو بطائرة خاصة. في عام 2005، أصدرت محكمة نابولي ضده حكماً بالحجز على ممتلكات وشركات تخصّه بقيمة تربو على 30 مليون يورو، والتي بمجملها كانت تمثل مجرد 5 بالمئة من إمبراطوريته الاقتصادية. كشف سلفاتور سبيرانزا،

الذي تحول إلى شاهد عيان، أن نوسيرا كان موكلاً بإدارة أموال جماعة نوفوليتا كلها، ومسؤولاً بصورة عامة عن استثمارات المنظمة في تجارة الأراضي والأبنية. تتموضع استثمارات نوفوليتا في إيميليا وروماناً، وفينيتو، ومارشه ولازيو، عن طريق إيني Enea، وهي جمعية تعاونية عمالية تمكن نوسيرا من إخفائها. استطاعت إيني أن تحرز عقوداً عامة بملايين اليورو في بولونا، وريجيو إيميليا، ومودينا، وفينيسيا، وأسولي بيسينو، وفروسينون وبعائدات خيالية. كذلك وقبل سنوات، انتشرت أعمال نوفوليتا حتى إسبانيا، إذ توجه نوسيرا إلى تاناريفا ليناقش مع زعيم جماعة مزعوم يدعى أرماندو أورلاندو تكاليف بناء قصر مارينا، وهو مجمع أبنية مهيب، واتهمه بالإسراف في النفقات على مواد باهظة الثمن. الفرصة الوحيدة التي تسنى لي فيها مشاهدة قصر مارينا كانت عبر الإنترنت: موقع إلكتروني أنيق، ترى فيه مجمعاً هائلاً من برك السباحة وأبنية الإسمنت، الذي بناه أعضاء النوفوليتا ليدخلوا في صناعة السياحة في إسبانيا.

باولو ديلاورو تلميذ نجيب في مدرسة مارانوز ابتدأ طريقه المهني كملازم في نوفوليتا، وبالتدريج استطاع أن يترقّى ليصبح في عام 1990 اليد اليمنى لمايكل داليساندرو، زعيم كاستيلامار، ولينوب عنه عندما يختفي عن الأنظار. كانت خطة ديلاورو تقضي بتنسيق سوق المخدرات الخارجية، وذلك بتطبيق العقلية نفسها التي أدار بها سلسلة المتاجر ومصانع السترات. لقد أدرك ديلاورو، بعد موت ليتشياردي في السجن، أن شمال نابولي يمكن أن يصبح أضخم سوق خارجية للمخدرات شهدتها إيطاليا أو أوروبا على الإطلاق، وأن تكون تحت سيطرة رجاله بصورة مطلقة. لقد كان رجلاً يتصرف بصمت وذا خبرة زاخرة في الأمور المالية أكثر منها في الأمور القتالية، فلم يتعدّ على الإطلاق يوماً على مناطق زعماء آخرين، ولم يسمح يوماً بأن يقتفي

أثره أحد في التحقيقات أو المباحث.

المخبر في كامورا، غايتانو كونته كان من أوائل الذين أفشوا مخطط أعمال المنظمة. وهو ذو قصة مثيرة للاهتمام بشكل خاص: إذ كان جندياً خدم في روما كحارس شخصي للرئيس الإيطالي الأسبق فرانسيسكو كوسيغا. الكفاءات ذاتها التي أوصلته لأن يكون مرافقاً لرئيس الجمهورية الإيطالية، دعمته أيضاً ليصبح على صداقة مع الزعيم ديلاورو. فبعد تورطه في عمليات ابتزاز وإتجار بالمخدرات لصالح الجماعة، قرر كونته التعاون مع السلطات، مقدماً لها ثروة من المعلومات والتفاصيل، وحده الجندي يعلم كيفية التزويد بها.

يعرف باولو ديلاورو باسم سيروزو المليونير. إنه للقب سخيف، لكن مثل هذه العلامات تحمل منطقاً دقيقاً، وهي كالصفة الراسخة فيه. لطالما سمعت الأناس المنتمين إلى التنظيم ينادَون بألقابهم لدرجة امّحت معها أسماؤهم وكنياتهم الحقيقية أو نسيت. ولا أحد منهم يختار لقبه، بل إنه يظهر فجأة من مكان ما، لسبب ما، ويقوم أحدهم بالتقاطه ونشره سريعاً. أما في كامورا، فالقدر هو من يحدد الألقاب. باولو ديلاورو أعيد تعميده ليحمل اسم سيروزو المليونير من قبل لويجي غيوليانو. ففي إحدى الليالي أخذ لويجي يراقب ديلاورو بينما احتل الأخير مكانه حول طاولة القمار وأخذت فواتير بآلاف الليرات الإيطالية تتساقط من جيوبه، فسأل بتعجب: "من هذا؟ سيروزو المليونير؟" وهكذا ولد اللقب. ومضة في ليلة من الضياع، كانت أبرع جواب.

إن أدبيات الألقاب لا متناهية. زعيم النوفا فاميليا، كارميني ألفييري، لقبه أونتوفاتو أو الغاضب. وقد حصل على لقبه بفضل تعابير الغضب وعدم الرضا التي تتجلى في ملامحه على الدوام. ثم هناك ألقاب متوارثة من الأسلاف، وتلتصق بالورثة. فمثلاً ماريو فابروسينو،

زعيم منطقة فيزوف الذي استعمر الأرجنتين بأموال كامورا، لقبه هو أوغراونار، أي تاجر الفحم، لأن أسلافه كانوا يبيعون الفحم. هناك ألقاب أخرى تنبع من عاطفة كامورية، مثل لقب نيكولا ليونغو أورانغلر لالتصاقه بسيارة رانغلر رباعية الدفع، التي اعتبرت خيار رجال التنظيم في المركبات. وهناك المزيد، ثمة سلسلة كاملة من الألقاب مبنية انطلاقاً من ميزات جسمانية. جيوفاني بيرا على سبيل المثال يدعى أمازا، أي الهراوة أو المضرب، نظراً لطوله الفارع وجسده النحيل. كوستانتينو إياكومينو هو كابايانكا، بسبب بياض الشعر الذي غزا رأسه مبكراً. سيرو مازاريللا هو أوسيلون، أي الملاك، نظراً لوحي كتفيه اللذين يبدوان بشكل قاطع كأجنحة الملائكة. نيكولا بيانيز هو أوموسوتو، للون بشرته شديد البياض الشبيه بسمكة القد. روزاريو بريفاتو هو ميغنولينو، أو الإصبع الزهرية، داريو دي سيمون هو أونانو، أي القزم. وهناك ألقاب يتعذر إيجاد مرد لها، كلقب أنتونيو دي فرايا أورباتشيللو، ومعناه مقبض القيادة المصنّع من أحد أعضاء الحمار. ثم هناك كارمن دي جيرولامو، المعروف باسم أوسبيرو، أو الجاسوس، لقدرته على توريط رجال الشرطة والجنود في عملياته. ولسبب غير معلوم، تجد أن سيرو مونتيريسو يلقّب بأوماغو. أما راسكال غالو مِن توريه أنونزياتا فيدعى أوبيليلو، لعذوبة وجهه. والبقية هي ألقاب قديمة للأسر. آل روسو يدعون كابيتوني، أي أسماك الأنقليس. آل مالاردوس يدعون كارلانتوني، آل بيلفورتيس يدعون مازاكن، أي قاتلي الكلاب. آل بيكولو يدعون كواكاروني. وبالعودة إلى الأشخاص تجد أن فينسينزو مازاريلا يدعى أوبازو، أي المجنون وأنتونيو دي بيازي يدعى بافيسينو، لعادته بمضغ بسكويت بافيسينو في أثناء قيامه بعمل ما. دومينيكو روسو، زعيم منطقة كوارتييري سبانولي نابولي، يدعى ميمي داي كاني، أي صغير الكلاب دومينيكو، ويعود ذلك إلى بيعه

الدمى عندما كان طفلاً صغيراً على طول منطقة فيا توليدو. أما بالنسبة إلى أنتونيو كارلو فكان لقبه كارلوتشيللو أومانيافات، ومعناه تشارلز الصغير آكل القطط، إذ تقول الأسطورة إنه تعلم كيفية التصويب باستخدام القطط الشاردة كأهداف له. جينارو دي تشيارا، الذي كان يندفع بعيداً بعنف في أي مرة يمس فيها امرؤ وجهه، اكتسب اسم فايل سكابيرتو أو السلك المشتعل. ترى أيضاً ألقاباً تعتمد على تعابير لا يمكن ترجمتها لأنها مشتقة من تسمية الأشياء بأصواتها: فأغوستينو تاردي لقبه بيك بوك، ودومينيكو دي رونزا سكيب سكيب، وآل دي سيمون المعروفون بلقب أكواغليا أكواغليا، وآل آفرسانوس المعروفون بلقب زيكزاك، ورفاييل غويليانو أوزوي، وأنتونيو بيفون زوزو.

أما أنتونيو دي فينسينو، فقد كان كل ما تطلبه الأمر ليصبح لقبه الليمون، هو أن يطلب الشراب نفسه عدة مرات. أما وجه فينسينزو بينيتوزي الدائري فقد أكسبه لقب سيتشيوبيللو أو السمين. وجينارو لاورو أصبح أوديسياسيته ربما لأن رقم شارعه كان 17. وجيوفاني أبريا كان يسمى بونت إيه كارتيللو، أي أشر بالسكين، لأن جده لعب دور أحد الكاموريين القدماء الذي كان يعلم صبيانه كيفية استخدام السكين، وذلك في فيلم آي غوابي عام 1974 لباسكال سكويتييري.

إن انتقاء اللقب بعناية يمكنه أن يرفع من شأن الثروة الإعلامية لزعيم ما، أو أن يهدمها. كمثل لقب فرانسيسكو سكيافونيز الشهير الضاري سان دوكان. والذي اكتسبه بسبب شبهه بكابير بيدي، النجم الذي أدى دور البطولة في المسلسل التلفازي الإيطالي سان دوكان، نمر ماليزيا، المبني على رواية لإيميليو سالغاري. أو باسكال تافوليتا، المعروف باسم زورو لشبهه بالممثل في المسلسل التلفزيوني. لويجي غيوليانو الملك، والذي يلقب أيضاً بلوفيجينو لأنه في اللحظات الحميمة تسمع عاشقاته الأميركيات يهمسن "أنا أحب لويجينو أخوه كارمن

يلقب بالأسد. فرانسيسكو فيرديه اسمه المستعار أونيغوس، وهو لقب للأباطرة الإثيوبيين أعطي له تكريماً لجلالته وطول مدة بقائه كزعيم. بدوره ماريو سكيافوني يلقب بمينيليك اقتداءً بإمبراطور إثيوبي شهير تصدى لجحافل الجيوش الإيطالية. وفينسينزو كاروبين لقبه غيدافي، لشبهه الغريب بابن الجنرال الليبي. الزعيم فرانسيسكو بيدوغنيتي يلقب سيتشوتو دي ميزانوته، لأن كل من يعترض طريقه سيرى ظلمات الليل في منتصف النهار، أي سيلقى نهايته. لكن هناك من يقول إن هذا اللقب يرجع إلى أنه قد شق طريقه عبر مراتب الجماعة عن طريق تقديمه الحماية لبنات الهوى. جماعته بأكملها أصبحت معروفة باسم جماعة منتصف الليل.

كل زعيم تقريباً له لقب، ملمح متميز بشكل مطلق يعيّن هويته. فاللقب بالنسبة إلى الرئيس، ذو أهمية كبيرة، إنه دليل عضويته في التنظيم. أي شخص يمكن أن يسمي نفسه فرانسيسكو سكيافوينز، لكن هناك ساندوكان واحد فقط. وأي شخص يمكن أن يُطلق عليه اسم كارميني ألفييري، لكن واحداً فقط سيلتفت عندما يسمع أونتافاتو. وأياً كان ذاك الذي يطلق على نفسه اسم فرانسيسكو فيرديه، فإن واحداً فقط سيستجيب لاسم أونيغوس. وصحيح أن أي شخص يمكن أن يسمى ويدرج في السجلات المدنية على أنه باولو ديلاورو، إلا أن هناك سيروزو أوميليونيرو واحداً فقط.

لقد قرر سيروزو أن ينظم أموره بهدوء، مستعملاً القليل من الشدة، ولكن الكثير من انتشار النفوذ. فلوقت طويل استطاع أن يكون زعيماً غير معروف حتى من قبل الشرطة. كانت المرة الوحيدة التي استدعي فيها من قبل السلطات قبل أن يختفي عن الأنظار، بسبب حادثة تتعلق بابنه نانزيو، الذي أهان بروفيسوراً تجرأ على تأنيبه.

لقد كان باولو ديلاورو على اتصال مباشر مع اتحادات المنتجين في أميركا الجنوبية، وأوجد شبكات توزيع هائلة عبر تحالفاته مع اتحادات المنتجين الألبان. فتجارة المخدرات تتبع سبلاً محددة بدقة هذه الأيام. الكوكايين يتجه من جنوب أميركا إلى إسبانيا، حيث يؤخذ من هناك أو يعاد إرساله عبر البر إلى ألبانيا. الهيرويين من ناحية أخرى، يأتي من أفغانستان، مسافراً عبر بلغاريا، كوسوفو، وألبانيا. الحشيشة والماريجوانا بدورهما يعبران البحر المتوسط من شمال إفريقيا من خلال الأتراك والألبان. باولو ديلاورو كان على صلة مباشرة بكل نقطة دخول إلى سوق المخدرات، ونتيجة اتباعه استراتيجيةً مجدّة أصبح مقاولاً ناجحاً في مجالي الجلديات والمخدرات. وفي عام 1989 أسس شركته الشهيرة كونفيتسيوني فالينت دي باولو ديلاورو وشركاه وهي الشركة التي قُدّر لها حسب القانون أن تنهي نشاطاتها في عام 2002، وتمت مصادرتها في تشرين الثاني من عام 2001 من قبل محمكة نابولي. كانت فالينت قد مُنحت أعداداً كبيرة من العقود لعمليات تجارية تعتمد الدفع نقداً تنفّذ عبر إيطاليا. تراوحت إمكانياتها الهائلة من الإتجار بالأثاث إلى الأقمشة، ومن تعليب اللحوم إلى المياه المعدنية. وأيضاً، زودت فالينت المؤسسات الخاصة والعامة بوجبات الطعام، وأشرفت على عمليات الجزارة لأنواع اللحوم كافة. لقد كان هدفها المحدد والمعلن هو تشييد الفنادق، والمطاعم، وسلاسل المنشآت الترفيهية، وكل ما هو ملائم كوسيلة راحة ولتمضية وقت الفراغ. وقد نص النظام الأساسي لها أيضاً على أن "للشركة أن تحوز على الأراضي، وتنشىء عقوداً أصلية أو فرعية لتشييد الأبنية، أو مراكز التسوق، أو المساكن" وفي عام 1993 منحتها بلدية نابولي ترخيصها التجاري، واستلم ابن ديلاورو، كوسيمو، زمام الإدارة في الشركة. ولأسباب متعلقة بالجماعة، غادر باولو ديلاورو المشهد في عام 1996، ناقلاً

أسهمه إلى زوجته لويزا. إن سلالة ديلاورو الحاكمة قائمة على نكران الذات، فلويزا ديلاورو قد أنجبت عشرة أبناء، كشأن سيدات الصناعة الإيطالية العظيمات، إذ زادت من عدد الذرية بينما كان عمل العائلة يتوسع. الأبناء: كوسيمو، وفينسينزو، وسيرو، وماركو، ونانزيو، وسلفاتور، جميعهم أعضاء في الجماعة. أما البقية فما يزالون قاصرين. كان لدى باولو ديلاورو نزوع إلى الاستثمار في فرنسا، مع إنشاء متاجر في نيس، وفي شارع شارنتون 129 في باريس، وعلى رصيف بيراشيه في ليون. لقد أراد للأزياء الإيطالية أن ترتسم معالمها من قبل متاجره، وأن تنقل بضائعها بواسطة شاحناته. لقد أراد لنفوذ سكامبيا أن ينتشر في شارع الشانزيليزيه.

في سيكونديغليانو كانت الحسابات مختلفة. فبالنسبة إليهم لقد أخذت شركة ديلاورو العظيمة تُظهر علامات تستدعي تصفيتها. إذ إن فروعها العديدة قد نمت بسرعة فائقة وعلى نحو مستقل، وفي الحين ذاته، كانت الأجواء تزداد تثاقلاً في أسواق المخدرات. من ناحية أخرى، كان آل ديلاورو يأملون أن تنجلي الأمور جميعها كما حدث في المرة السابقة عندما جاء الحل عن طريق كأس من الشراب. شراب من نوع خاص ارتشِف بينما كان دومينيكو ابن ديلاورو مستلقياً على عتبات الموت في المستشفى إثر حادث سير خطير. دومينيكو كان ولداً مثيراً للمشاكل، فهو على شاكلة أبناء الزعماء الذين كثيراً ما يقعون فريسة الهذيان المحموم بقدرتهم المطلقة على فعل ما يريدون، معتقدين أن المدن بأكملها مع سكانها هي تحت تصرفهم. لقد أوردت تحقيقات الشرطة التي أجريت في تشرين الأول من عام 2003، أن دومينيكو ومعه حارسه الشخصي، وثلاثة من أصدقائه، قد هاجموا بلدة كاسوريا معيثين فيها فساداً كبيراً، محطمين النوافذ، ومرائب السيارات، والسيارات نفسها، ومحرقين حاويات القمامة، راشّين الأبواب بالدهان،

ومذيبين أجراس الأبواب البلاستيكية بواسطة ولاعات السجائر. لقد كانت كلها أضراراً عرف والده كيف يعوضها بصمت، وبكل الدبلوماسية التي يمكن أن تتحلى بها العوائل عندما تقوم بالتعويض عن المصائب التي يحدثها سليلوها، ومن دون تعرّض سلطتها للخطر في الوقت ذاته. أما دومينيكو فعندما كان يدور حول منعطف بدراجته النارية، فقد سيطرته عليها وتحطم، وبعد أيام من الغيبوبة في المستشفى مات متأثراً بجراحه. لقد كانت هذه الحادثة المأساوية الشرارة لاجتماع بين القادة، كانت عقاباً، وفي الوقت نفسه عفواً عاماً. جميع من في سكامبيا على علم بالقصة. قد تكون محض خيال، إلا أنها أصبحت أسطورية، ومهمة لفهم الديناميكية التي تحل بها الصراعات داخل كامورا.

تروي الأسطورة أنه كان في جماعة باولو ديلاورو شخص يعتبره بمثابة الأمير في مملكته. كان يدعى جينارو مارينو، ويلقب بمكاي. وعندما قدم الأخير لمواساة زعيمه في المستشفى، حيث رقد دومينيكو وهو ينازع الموت، قبل ديلاورو عزاءه، ومن ثم انتحى به جانباً وقدم له كأساً من الشراب: كان قد بال في الكأس وقدمها إليه. سابقاً، كانت قد وصلت إلى مسامع الزعيم أنه قد بدر من فتاه المفضل تصرفات معينة، لم يكن يقدر ببساطة أن يصفح عنها. لقد اتخذ مكاي بعض القرارات الاقتصادية، من دون الرجوع إلى ديلاورو وسحب مبالغ معينة من المال من دون علمه كذلك. كان الزعيم مدركاً لرغبة أميره بالاستقلالية عنه، إلا أنه كان تواقاً لأن يصفح عنه، ولأن يعتبر الأمر كله لا يتعدى إفراطاً في الاندفاع لدى شخص ذي مهارة عالية في ما يقوم به. لقد قيل إن مكاي شرب الكأس عن آخره، حتى آخر قطرة. جرعة كبيرة من البول بددت أول بادرة شقاق داخل قيادة جماعة ديلاورو. هدنة عابرة، ما كان لكلِّيَة أن تجففها في ما بعد.

مكتبة الرمحي أحمد

حرب سيكونديغليانو

مكاي وأنجيوليتو كانا قد حسما أمرهما. لقد قررا تشكيل مجموعتهما الخاصة، وأرادا أن يتم ذلك بشكل رسمي. كان الحرس القدامى جميعهم قد وافقوا؛ وهما قد أوضحا تماماً أنهما لم يكونا بصدد محاولة إثارة نزاع مع المنظمة، بل كل ما كانا يسعيان إليه هو أن يصبحا من ضمن المنافسين الساعين إلى منافسة شريفة في السوق المفتوحة، وجنباً إلى جنب مع الجميع، وإنما باستقلالية. وهكذا، وفقاً لبينتيتو، التائب، بييترو إسبوسيتو، فقد بعثا برسالة إلى كوسيمو ديلاورو، وكيل الاتحاد، أخبراه فيها عن رغبتهما بلقاء والده، لقاء الرجل الأعلى، والزعيم، والرجل الأول في الاتحاد. لقد أرادا أن يتحدثا إليه شخصياً، أن يخبراه أنهما لا يتفقان مع قراراته في إعادة التنظيم، أن يذكّراه أن لديهما الآن أطفالاً يجب أن يعيلاهم. لقد أرادا أن ينظرا مباشرة في عينيه. فقد اكتفيا من انتقال الكلام من فم إلى آخر، ومن رسائل امتلأت لُزُوجة جرّاء لعاب الألسنة المتعددة التي تناقلتها. أما الحديث معه عبر الهاتف الخلوي فقد كان غير وارد لأنه قد يكشف مخبأه. جيني مكاي أراد أن يلتقي مع باولو ديلاورو، مع الزعيم الذي كان مسؤولاً عن تنشئته في عالم الأعمال.

كوسيمو بدوره قبل رسمياً طلب الاجتماع ذاك، لقد كان الأمر في الواقع، جمعاً لكافة الأعضاء الصفوة في المنظمة: الزعماء، والرؤساء والأدنى مرتبة، وقادة المناطق. الرفض كان مستحيلاً. غير أن كوسيمو

كان قد فهم كل شيء مسبقاً، أو هذا ما يبدو. لقد كوّن فكرة واضحة عن المنحى الذي يدفع الأمور إليه، وكان يعلم كيف ينظم دفاعاته. وهكذا - طبقاً لما أوردته التحقيقات وذكره شهود عيان - فإن كوسيمو لا يرسل مرؤوسيه، أمثال جيوفاني كورتيس كافالارو، تاجر الأحصنة، وهو الناطق الرسمي الذي طالما تولى علاقات عائلة ديلاورو مع العالم الخارجي، بل أرسل أخويه. على ماركو وسيرو أن يتحريا مكان الاجتماع، أن يتفقداه، ويكتشفا اتجاه هبوب الريح، لكن من دون أن يعلم أحد أنهما هناك. لا حراس شخصيين برفقتهما، فقط جولة سريعة بالسيارة. لكن ليست بأسرع من اللازم، إذ كان عليهما ملاحظة طرقات المخارج، وكيفية اتخاذ الحراس لمواقعهم، وذلك كله من دون أن يلفتا الانتباه إليهما. ثم رفعا تقريرهما إلى كوسيمو. إنه بدوره قام باستيعاب الأمور جميعها ليخلص إلى نتيجة أن الاجتماع ليس إلا مكيدة، وفخاً نصب للقضاء على باولو ديلاورو وكل من سيأتي معه، وطريقة للحصول على إقرار ببدء عهد جديد في إدارة الاتحاد. فأنت لا تشطر إمبراطورية بأكملها بواسطة مصافحة بسيطة لليدين، بل عليك أن تقطع تلك اليد من جذورها. هذا ما كان يقوله جميع المخبرين، وما أتت به كل نتائج الاستقصاءات.

كان على كوسيمو، الرجل الذي أوكله باولو بتجارة المخدرات، والذي عهد إليه بالمسؤوليات الجسيمة، كان عليه أن يقرر. سوف تكون حرباً، لكنه لن يعلنها حرباً على الملأ. سيبقي كل شيء في رأسه كيلا ينذر خصومه. إنه يراقب وينتظر ليرى ما سيفعلونه، فهو يعلم أنهم سيهاجمونه قريباً، وأن عليه أن يكون مستعداً لمخالبهم التي تود أن تنغرس في لحمه، لكنه كذلك بحاجة إلى أن يناور لاكتساب الوقت، ليخرج باستراتيجية دقيقة، معصومة عن الخطأ، ومضمونة النجاح. عليه أن يكتشف الذين يمكنه الاعتماد عليهم، وأي القوى هي التي يستطيع

السيطرة عليها. وأن يتأكد ممن معه، ومن ضده، فسيكوندیغليانو ليست كبيرة كفاية لأن تتسع لكلا الفريقين.

لقد قدّم آل ديلاورو الأعذار لتغطية غياب والدهم بأنه فار من القانون، فهو رجل مطلوب من قبل السلطات لأكثر من عشرة أعوام، والتحقيقات التي تجريها الشرطة عنه تجعل من الصعوبة بمكان تنقله من مكان إلى آخر. فعندما تكون واحداً من اللاجئين الثلاثين الأكثر خطورة في إيطاليا، يصبح تفويتك لموعد ما ليس أمراً يذكر. الآن، وبعد سنوات تقدر بالعقود من العمليات السلسة، أصبحت الشركة الأكبر في مجال التحكم في تجارة المخدرات على المستويين الوطني والدولي، في مواجهة أزمة مميتة.

لطالما كانت أعمال جماعة ديلاورو حسنة التنظيم، ومركبة وفقاً لبنية هيكلية تعتمد عدة مستويات في الشركة. ووفقاً لمكتب المدعي العام لمكافحة المافيا في نابولي، فإن المستوى الأول مؤلف من قادة الجماعة: روزاريو باريانته، ورافاييل أبينانته، وإنريكو دافانزو، وأركانجيلو فالينتينو. هؤلاء يعملون كمؤسسين وخبراء ماليين، مسيطرين على نشاطات البيع غير المشروع والإتجار بالمخدرات عن طريق مؤسساتهم الفرعية مباشرة. ويتضمن المستوى الثاني، جينارو مارينو، ولوسيو ديلوسيا، وباسكال غارغيولو، هؤلاء من يقومون بالتعامل مع المخدرات، فهم يقومون بالشراء والتعليب، ويتدبرون أمر العلاقات مع الباعة الذين هم خط الدفاع القانوني المضمون في حال إلقاء القبض عليهم. أما المستوى الثالث فهو يتألف من قادة سوق المخدرات المفتوحة. وهؤلاء لديهم اتصال مباشر مع الباعة، وينسقون سبل الحراسة والفرار، ويؤمنون سلامة المستودعات والأماكن التي تودع فيها المخدرات. في المستوى الرابع يأتي الباعة، وهو المستوى الأكثر عرضة للانكشاف. ولكل مستوى رئيسي مستوياته الفرعية والتي ترجع

حصراً إلى قائدها بدلاً من العودة إلى البنية بأكملها. إذا قمنا بتحرٍ مبدئي بسيط نجد أن هذا العُرف يعود بأرباح بقيمة 500 بالمئة.

إن نمط إدارة أعمال ديلاورو يذكرني دوماً بالمفهوم الرياضي للهندسة الكسيرية، الذي تشرحه الكتب المدرسية بالاستعانة بكمية من الموز. فكل موزة مفردة هي في الواقع عبارة عن مجموعة من الموزات، وبالمقابل فكل واحدة من هذه الموزات هي أيضاً عبارة عن مجموعة من الموزات، وهكذا حتى اللانهاية. تحصّل جماعة ديلاورو ما قيمته 500,000 يورو يومياً من خلال تجارة المخدرات وحدها. الباعة، والمسؤولون عن المستودعات، والسعاة غالباً ما يكونون مجرد موظفين برواتب محددة، وليس لهم علاقة بالمنظمة. فالإتجار بالمخدرات هو نشاط هائل يستلزم الآلاف من الأفراد، الذين لا يعلمون هوية زعيمهم. قد يملكون تصوراً عاماً عن أي من عوائل كامورا التي يعملون لديها، لكن ليس أكثر. وعليه إن تم إلقاء القبض على أحدهم وقرر أن يتكلم فمعلوماته عن المنظمة ستبقى محصورة بمنطقة صغيرة ومحددة، ولن يكون قادراً على كشف كامل الجداول، أو البوح بالاتساع الهائل للنفوذ الاقتصادي والعسكري للمنظمة.

إن التركيب الاقتصادي والمالي بمجمله تعضده بنية عسكرية تتألف من فريق من الرجال الأشداء المؤزرين بشبكة واسعة من الدعم. لقد تضمن فيلق القتلة ذاك إيمانويل دامبرا، وأوغو ديلوسيا أوغاريللو، وناندو إيمولو أوشيزاتو، وأنتونيو فيرارا أوتافانو، وسالفاتور تامبورينون وسلفاتور باتريتشيون، وأومبيرتو لا مونيكا، وأنتونيو مينيتا. لقد كانوا محاطين بقادة الحي، جينارو أروتا، وسيرو ساجيز، وفولفيو مونتانينو، وأنتونيو غاليوتا، وكونستانتينو سورينتينو، وجوزيبيه بريزيوسو الحارس الشخصي لكوسيمو. إنها مؤسسة تحوي ما لا يقل عن ثلاثمئة فرد، جميعهم يتقاضون مرتبات شهرية، ويعملون ضمن تركيبة معقدة، خُطط

لها ونظمت بكثير من التمحيص. مع موكب ضخم من السيارات، والدراجات النارية دائمة الاستعداد لحالات الطوارئ. بالإضافة إلى مخزن أسلحة ومجموعة من المصانع الجاهزة لتدمير الأسلحة مباشرة بعد استخدامها، ومؤونة من الملابس الرياضية والخوذات التي يتم إتلافها أيضاً في ما بعد. بل هناك حتى شبكة لوجستية تتولى نقل فريق القتلة مباشرة بعد ضربتهم إلى مضمار الرماية، يسجل فيه توقيت دخولهم لبناء حجة غياب وتدحض نتائج تحقيقات الشرطة في حال إجراء فحص لتتبع آثار البارود من السلاح. يمثل هذا الفحص أسوأ مخاوف كل قاتل، فآثار البارود لا يمكن إزالتها، وهي أقوى دليل إدانة ممكن. إن الفكرة هنا لا تهدف إلى التغطية على عملية القتل أو إخفاء التحقيق، بقدر ما هي ببساطة سعي لجعلها غير قابلة للإثبات في المحكمة. يا لها من شركة خالية من الأخطاء، يسير فيها كل شيء حسب نظام مثالي، أو يكاد يكون كذلك!

مضت مدة وأنا أواظب على الذهاب إلى سيكونديغليانو. منذ ترك باسكال عمله كخياط، وهو يوافيني بآخر المستجدات حول مجرى هبوب الرياح هناك. وقد كانت تتغير وتنتقل بسرعة، تماماً كتدفق الأموال.

كنت أطوف في سيكونديغليانو على متن دراجتي الفيسبا، وكان أكثر ما يعجبني فيها وفي سكامبيا هو الضوء. فالشوارع الضخمة المتسعة تفسح المجال لتنشّق الهواء أكثر منه في مركز المدينة، وكان باستطاعتي تخيل الريف لا يزال ينبض بالحياة تحت وطأة الإسفلت، والأبنية الخرساء. ففي النهاية، إن الفضاء موجود في اسم سكامبيا نفسه، إذ إن هذا الاسم في لهجة محلية نابولية منقرضة الآن كان يعني الأرض المفتوحة، المكان الذي تنمو فيه الأعشاب الضارة، حيث نبعت

في عام 1960 مشاريع الإسكان الشعبي المشوهة سيئة السمعة لفيله، أو سايلس. إنها رمز عفن لأسلوب البناء المحموم، أو لعلها مجرد مدينة فاضلة إسمنتية، عديمة الحيلة والقوة في مواجهة ماكينة تجارة المخدرات التي تتغذى على هذا الجزء من العالم. لقد حولت البطالة المزمنة، والغياب الكلي لأي مخططات تطوير اجتماعي، هذه المنطقة إلى مستودع للمخدراتَ، ومختبر لتحويل أموال المخدرات إلى اقتصاد مشروع وحيوي. إن سكامبيا وسيكونديغليانو تضخان الأوكسجين من الأسواق غير القانونية، إلى الأعمال المشروعة. في عام 1989 ذكرت كامورا أوبزيرفاتوري، أو مرصد كامورا، وهي منظمة تعمل على مراقبة كامورا، ذكرت في أحد منشوراتها أن نسبة تجار المخدرات إلى قاطني ضواحي نابولي الشمالية، هي الأعلى في إيطاليا كلها. والآن أصبحت هذه النسبة هي الأعلى في أوروبا، وواحدة من أعلى خمس نسب في العالم أجمع.

مع الوقت، أصبح وجهي مألوفاً في المنطقة. وبالنسبة إلى حراس الجماعة أو المراقبين، كان مفهوم الإلفة سلبياً. ففي إقليم يخضع باستمرار للمراقبة هناك مدلولات سلبية: كالشرطة والجنود، والمتسللين من العوائل المنافسة. وهناك أيضاً مدلولات إيجابية وهم المشترون. أي شيء آخر يعد محايداً، وعديم الفائدة، فإن صنفت في هذه الفئة، فمعنى هذا أنك غير موجود. لطالما أدهشتني أسواق المخدرات المفتوحة، فتنظيمها الخالي من الأخطاء يناقض أي تصوّر على أنها انحطاط صرف. إنهم يعملون بدقة كالساعة، فالناس كما في تروس الساعة، كل منهم ينقل الحركة للآخر. لقد كانت مراقبة ذلك أمراً فاتناً حقاً. تدفع الرواتب هنا بشكل أسبوعي ووفق الآتي: 100 يورو للمراقبين، و500 يورو لمنسقي السوق وأمناء الصناديق، و800 يورو لكل بائع، و1000 يورو للناس القيّمين على المستودعات،

والذين يخفون المخدرات في منازلهم. تستمر المناوبات من الثالثة عصراً وحتى منتصف الليل. ثم من منتصف الليل وحتى الرابعة فجراً. فالبيع صعب عند الفجر بشكل خاص لوجود العديد من أفراد الشرطة. وهناك لكل فرد يوم عطلة، وإن تأخرت في القدوم إلى عملك يقتطع من أجرك، 50 يورو لكل ساعة تأخير.

منطقة فيا باكو دائمة الغليان. يصل الزبائن، يدفعون، يحصلون على البضاعة، ثم يغادرون. في الواقع هناك أوقات يتشكل فيها صف طويل من السيارات خلف البائع، خاصة في أمسيات السبت حيث يُسحب الباعة من المناطق الأخرى ويرسلون إلى هنا. تدرّ فيا باكو نصف مليون يورو شهرياً، وتذكر فرقة مكافحة المخدرات في تقاريرها أنه تباع هنا وكمعدّل وسطي 400 جرعة من الماريجوانا والكوكايين يومياً. وعندما يظهر أفراد الشرطة، فإن الباعة يعلمون تماماً إلى أي المنازل يتوجهون، وفي أي مكان يخبئون البضاعة. وهناك سيارة، أو موتورينو، عادة ما تتوقف أمام سيارة الشرطة لتعيقها، وتعطي بذلك الفرصة للمراقبين بأن يلتقطوا الباعة سريعاً وينطلقوا بهم بعيداً على متن دراجاتهم النارية. يتميز المراقبون بأنهم غير مسلحين، وعادة ما يملكون سجلات إجرامية نظيفة، فحتى إن تم توقيفهم تبقى فرص إدانتهم قليلة. وفي حال تم القبض على الباعة، فهناك احتياطيون منهم يستدعون لتغطية مكانهم، وهم عادة من المدمنين أو المتعاطين العاديين الذين هم على استعداد لتقديم المساعدة في حالات الطوارئ. وعليه فلكل بائع يقبض عليه ثمة بديل ليحل محله، فالعمل يجب أن يستمر حتى في أسوأ الأوقات.

منطقة فيا دانته كذلك تدرّ أرباحاً فلكية. هذه السوق المزدهرة هي واحدة من مشاريع ديلاورو، والباعة هنا جميعهم أطفال حديثو السن. ثم هناك منطقة فياله ديلا ريزيستينزا، وهي سوق قديمة للهروين

تتعامل كذلك بالكوبرت والكوكايين. في الواقع يوجد لمنسقي السوق هنا مقر رئيسي تجد فيه خرائط، ومكبرات صوت، حيث يقومون بتنظيم دفاعات إقليمهم. المراقبون، من خلال الهواتف النقالة، يبقونهم على اطلاع على ما يحدث، مما يتيح لهم متابعة تحركات الشرطة والزبائن لحظة بلحظة.

واحد من ابتكارات جماعة ديلاورو هو حماية الزبائن. فقبل أن تتولى الجماعة الأمور، كان الباعة وحدهم هم المحميين من الاعتقال، ومن كشف هوياتهم. بينما كان يسهل توقيف المشترين، والتعرف إليهم، وسحبهم إلى مقر الشرطة. إلا أن ديلاورو زوّدهم بحراس لحمايتهم هم أيضاً، مؤمناً بذلك للجميع سلامة الوصول إلى أسواقه. وكان مبدأ أن "لا أقلّ من الأفضل للمستهلك الطارئ"، هو الدعامة الأساسية لتجارة المخدرات في سيكونديغليانو. في حي برلينجيري يمكنك أن تقوم باتصال هاتفي مسبق وهم سيقومون بتحضير طلبك ليكون جاهزاً وبانتظارك. ينطبق ذلك على فيا غيسليري، وباركو إيسيس، وكل حي دون غوانيلا، وقطاع إتش من فيا لابريولا، وحي سيته بالازي. تجد الشوارع في المناطق التي تم تحويلها إلى أسواق مربحة، دائماً تحت الحراسة. أما القاطنون فيها، فقد دفعتهم غريزة البقاء إلى تطوير مقدرتهم على الرؤية، ليقرروا مسبقاً ما يمكنهم رؤيته، وما عليهم حجبه لعظيم هوله. فهم يعيشون في سوبرماركت ضخم، حيث يتوافر هنا كل ما يمكن أن يتخيله المرء من أنواع المخدرات. ما من مادة تقدم إلى السوق الأوروبية من دون أن تعبر سيكونديغليانو. لو كانت المخدرات لاستهلاك سكان نابولي وكامبانيا وحسب لكانت نتائج الإحصاءات غاية في السخافة. ولكنا وجدنا مدمنَين على الكوكايين، وواحد على الهيروين في كل عائلة. وذلك من دون الأخذ بعين الاعتبار حتى الحشيشة، والماريجوانا، والهيروين، وكوبرت، والمخدرات الخفيفة،

والحبوب، التي ما زال البعض يطلق عليها اسم مثيرات النشوة، لكن في الواقع هناك 179 نوعاً منها، وهي سلع رائجة للغاية في سيكونديغليانو، حيث يدعونها ملفات X أو التذكار أو الحلوى. هناك أرباح هائلة تجنى من وراء الحبوب، فإنتاجها يكلف يورو واحد، وتباع بالجملة بمبلغ يتراوح بين 3 و5 يورو، ثم يعاد بيعها ثانية في ميلانو، روما، أو في أجزاء أخرى من نابولي بقيمة 50 إلى 60 يورو للقطعة الواحدة، وفي سكامبيا تباع بمبلغ يقارب 15 يورو.

من خلال تجاوز القيود التي تفرضها سوق المخدرات التقليدية، أدركت سيكونديغليانو أن الكوكايين هو الحد الجديد. فبفضل سياسات الجماعة الاقتصادية الجديدة، أصبحت المادة التي كانت حكراً على النخبة فقط، في متناول الجميع الآن. ووفقاً لما ذكرته مجموعة أبيله للتحليل، فإن 90 بالمئة من مستخدمي الكوكايين هم من العمال والطلاب. إذ لم يعد استخدام الكوكايين يقتصر على الرغبة بالانتشاء، بل ليشمل أعمالاً في كل الأوقات: الاسترخاء بعد العمل لوقت إضافي، ولتجديد الطاقة والإقبال على العمل بجدّ، عوضاً عن مجرد مصارعة الإنهاك، ولقيادة الشاحنة طوال الليل، ولتحافظ على التركيز التام في أثناء العمل على الحاسوب، ولتستمر وتستمر من دون توقف، ولتعمل لأسابيع من دون أي استراحة من أي نوع. إنه مذيب للتعب، مسكن للألم، ومجدّد للسعادة. لم تعد المخدرات وسيلة للإدخال في حالة ذهول وخدر وحسب، بل أصبحت الآن ملاذاً. ولتلبية هذه الرغبة توجب على نظام الإتجار بها أن يصبح أكثر مرونة، وأن يكون بعيداً عن الإجرام ووحشيته. لقد توجب تحرير المؤونة والبيع. وكانت جماعة ديلاورو هي السبّاقة في الإقدام على هذه الوثبة في نابولي. بصورة تقليدية، تفضل الاتحادات الإجرامية الإيطالية أن تبيع المخدرات بمقادير كبيرة، عوضاً عن الكميات الصغيرة أو المتوسطة،

غير أن ديلاورو قرر أن يبيع كميات متوسطة كي يؤسس لتجارة المخدرات بحجم صغير مما سيجذب زبائن جداً قادرين على إدارة أعمالهم باستقلالية، وأن يكونوا أحراراً بالتصرف في البضاعة، وأن يضعوا تسعيرتهم الخاصة لها، ويروجوا لها في المكان وبالطريقة التي يختارونها. أي شخص يمكنه الدخول إلى السوق وبأي كمية يشاء، من دون الحاجة إلى وسطاء من الجماعة. من الأعمال واسعة الانتشار تجارة نوسترا، وتجارة ندرانيتا، إنما يتوجب عليك أن تعرف تسلسل الرتب. ولكي تتعامل معها يجب أن يقدّمك أعضاء من الجماعة أو من المؤسسات الفرعية. إنهم يصرون على معرفة المكان الذي ستتجول لتبيع فيه، وما سيكون عليه التوزيع. لكن الأمور ليست كذلك في تنظيم سيكونديغليانو، فالقاعدة هنا تستند إلى سياسة عدم التدخل، بل ومنح التصريح الكامل. إنه تحرير شامل ومطلق: دع السوق تنظم نفسها بنفسها. وهكذا فخلال وقت لا يذكر استطاعت سيكونديغليانو أن تجذب كل من هو متشوق لأن يؤسس لنفسه عملاً صغيراً في تجارة المخدرات بين أصدقائه، وكل من يريد أن يشتري بمبلغ 15 يورو ويبيع بمبلغ 100 يورو ليغطي مصاريف الإجازة، أو تكاليف الحصول على شهادة الماجستير، أو ليسدد رهناً عليه. وطبعاً إن هذا التحرير المطلق للسوق أدى إلى خفض الأسعار. ففيما عدا أسواق مفتوحة محددة، قد ينتهي الأمر باضمحلال تجارة التجزئة.

هناك الآن ما يسمى بالدوائر: دائرة الأطباء، دائرة الملاحين، دائرة الصحفيين والموظفين الحكوميين. إن الطبقة الاجتماعية المتوسطة والطبقة الدنيا هما الطبقتان الأنسب لنظام توزيع غير رسمي ومتحرر إلى أقصى درجة. فالتبادل يتم فيهما بصورة ودية وكأنه يتم في حفلة، بعيداً كل البعد عن التركيبة الجنائية. كما أنهما مثاليان لإقصاء تحمل المسؤولية المعنوية المفرطة، فلا بائع بثياب حريرية ينزرع لأيام على

زاوية الشارع في السوق يحميه المراقبون. لا وجود لشيء سوى المنتجات والمال، ومساحة كافية للتبادل التجاري. تشير سجلات الشرطة الإيطالية إلى أن واحداً من أصل ثلاثة اعتقالات تكون حالة انتهاك للمرة الأولى. وحسب معهد الصحة الأعلى، فإن استهلاك الكوكايين قد حلّق إلى مستويات هي الأعلى في تاريخه، مرتفعاً بنسبة 80 بالمئة من عام 1999 إلى عام 2002. والأعداد التي تلجأ إلى SERT، والتي تعني الإصلاحيات الإيطالية لمتعاطي المخدرات، تتضاعف كل عام. إن تمدد السوق يحدث بصورة هائلة. وحراثة المواسم المعدلة جينياً، والتي تسمح بأربعة محاصيل سنوياً، قد قضت على مشكلة تأمين المؤونة الكافية. غياب المنظمة السائدة الوحيدة يقع في مصلحة المشاريع المتحررة. لقد قرأت في إحدى الصحف أن المغني روبي ويليامز، المعروف بإدمانه على الكوكايين، كان مغرماً بالقول إنّ "الكوكايين هو الطريقة التي تشعرك بأنك تملك الكثير من المال" لقد عادت إليَّ هذه الكلمات عندما سمعت بعض الأطفال في حي "كاسه سيليستي يغنون المدائح للمنتج والمكان: "إن وجد كوكايين "كاسه سيليستي"، فمعنى ذلك أن لا قيمة للمال"

"كاسه سيليستي"، والتي تستمد اسمها من اللون الأزرق الشاحب الذي كان للمنازل يوماً، هي منطقة تمتد على طول فيا ليميتون دارزانو، وقد أضحت واحدة من أرقى أسواق الكوكايين الأوروبية. ووفقاً للتحريات، لقد كان جينارو مارينو مكاي هو من جعل السوق مربحة بهذا الشكل، فهو رجل الجماعة البارز في هذه المنطقة. وليس هذا فحسب، فلشدة ما تروق طريقته في إدارة الأمور لباولو ديلاورو، فقد منحه حق امتياز على سوق المخدرات المحلية. أما مكاي فهو يعمل بشكل مستقل، وكل ما عليه فعله هو دفع أجر شهري للجماعة. لقد كان جينارو وأخوه غايتانو يعرفان باسم آل مكاي، لأن

والدهما كان شبيهاً بزيب مكاهان، والتي يلفظها الإيطاليون مكاي، في البرنامج التلفزيوني "كيف فتح الغرب؟" وهكذا أصبحت العائلة بأكملها تدعى مكاي عوضاً عن مارينو. كان غايتانو قد فقد كفيه عام 1991 في الحرب ضد بوكاس، وهي عائلة جماعة تاكولو، وذلك عندما انفجرت قنبلة يدوية كان يحملها. وكبديل عنهما أصبح لديه الآن طرفان اصطناعيان خشبيان صلبان مطليان باللون الأسود. لأجل هذا تجد برفقة غايتانو مكاي رفيقاً دائماً، أقرب ما يكون إلى مساعد شخصي يحل محل يديه، لكن عندما يريد غايتانو أن يوقع على وثيقة ما فإنه يثبت قلماً بإحكام في كفه الاصطناعي، ويجعل من القلم نقطة ثبات وترى قسمات وجهه وعنقه تلتوي، ليخرج بطريقة ما، بتوقيع خال إلا من التواء بسيط جداً.

وفقاً لمكتب النائب العام لمكافحة المافيا في نابولي، فإن جيني مكاي يدير المخازن والبيع المتجول للمخدرات على حدٍّ سواء. فأسعار الموردين مرتبطة إلى حد كبير بقدرتهم على إيجاد مخزون احتياطي، وغابة الإسمنت تلك، ومئات الآلاف من سكان سيكونديغليانو هم مصدر قوة ثمين للغاية. لأن جماهير الناس أولئك، ببيوتهم، وممارستهم لحياتهم اليومية يشكلون درعاً عظيماً حول مخازن المخدرات. تُعد سوق كاسه سيليستي مسؤولة عن التراجع في أسعار الكوكايين. عادة ما تتراوح تلك الأسعار بين 50 و60 يورو للغرام الواحد، ويمكن أن ترتفع حتى 100 أو 200 أيضاً، أما هنا فقد انخفضت الأسعار إلى مبلغ يتراوح بين 25 إلى 50 يورو، ومع ذلك فإن النوعية لا تزال عالية الجودة. لقد تكشّف من تقارير مكتب DDA، أن جيني مكاي واحد من أكثر الإيطالين موهبة في مجال تجارة الكوكايين، فقد استطاع أن يسيطر على نمو أُسّي وغير متوازٍ. فقد كان يمكن لأسواق المخدرات المفتوحة أن تؤسس في بوسيليبو، باريولي، أو بيراران جميعها أحياء

أنيقة في نابولي، روما، وميلان على الترتيب، لكن عوضاً عن ذلك لقد تم إنشاؤها في سيكونديغليانو. لأن أجور العمال في أي مكان آخر كانت لتضحي مرتفعة للغاية. أما هنا فالافتقار الجدي لفرص العمل، واستحالة إيجاد وسيلة لكسب العيش، عدا عن الاغتراب، عاملان يؤديان إلى أجور منخفضة، بل غاية في الضآلة. حقيقة ليس الأمر بلغز، وما من ضرورة للاستعانة بعلم الاجتماع الخاص بالفقر، ولا بالتفسيرات ما وراء الطبيعية المرتبطة بالأقليات المعزولة. فالمنطقة التي تصدر سلعاً بقيمة 300 مليون يورو سنوياً، وهذا من نشاط عائلة واحدة فقط، لا يمكن أن تكون منطقة معزولة. إنها منطقة تعمل فيها عشرات الجماعات وتجني أرباحاً بمستويات يمكن مقارنتها فقط، إن تناولنا الأمر بلباقة، بمستوى الأوساط المالية العليا. فالعمل شديد الدقة، وسلسلة الإنتاج باهظة للغاية. إن كلّف كيلو الكوكايين المنتِج 1000 يورو، ففي الوقت الذي يصل فيه إلى بائع الجملة، يكون قد وصل ثمنه إلى 30,000 يورو. وبعد أن يغشّ بالإضافات لأول مرة، تصل كمية من 30 كيلو إلى 150، أي ما قيمته في السوق 15 مليون يورو تقريباً. ومع نسبة إضافات أكبر يمكن أن تضاعف الكمية نفسها لتصبح 200. غش الكوكايين أمر أساسي يستخدم فيه: الكافيين، والغلوكوز، والمانيتول، والباراسيتامول، والليدوكايين، والبينزوكايين، والأمفيتامينز، لكن في حالات الضرورة يستخدم حتى التالك والكالسيوم المخصص للكلاب. هذا الخليط يحدد النوعية، فالخليط السيئ يجلب الموت والشرطة والاعتقال، ويعيق شرايين التجارة.

هنا أيضاً كانت جماعات سيكونديغليانو تتفوق على الجميع، وهذه ميزة ثمينة تملكها. فقد كان هناك من يُطلَق عليهم اسم الزوار: إنهم مدمنون على الهيروويين، اتخذوا تسميتهم هذه من مسلسل تلفزيوني

كان يعرض في الثمانينيات، وكانت شخصياته تلتهم الفئران، ولها قشور خضراء لزجة تحت ما كان يبدو أنه كبشرة الإنسان الطبيعية. كان هؤلاء الزوار يُستخدمون كخنازير غينيا للاختبار، إنهم حيوانات بشرية لاختبار ما إذا كانت الخلطة خطرةً، وما الارتكاسات التي تسببها، وإلى أي درجة يجب تخفيف البودرة. وعندما يحتاج المختبر إلى المزيد من الحيوانات للاختبار، تخّفض عندها الأسعار من 20 يورو وقد تصل نزولاً إلى 10 يورو للجرعة. وينتشر الخبر، ويتوافد الزوار من أماكن بعيدة جداً كمارشيه، ولوكانيا للحصول على بضع جرعات. فسوق الهيرويين في انهيار، وأعداد المدمنين في تراجع. ومن بقي منهم أصبحوا مستميتين لدرجة أنهم يترنحون صعوداً ونزولاً إلى الباصات والقطارات. يركبون كمتطفلين، يسيرون لأميال، فالحصول على أرخص هيروين في القارة يستحق بذل كل ذلك الجهد. يقوم الأشخاص المسؤولون عن الخلط في الجماعة بحشد الزوار، وإعطائهم جرعة مجانية، والانتظار. وفي مكالمة هاتفية تضمنها أمر حجز وقائي صادر عن محكمة نابولي في آذار من عام 2005، نسمع شخصين يتحدثان عن تنظيم اختبار للقطع. ففي البداية كان الاتصال لتحضير الأمور:

- هل بإمكانك إعطائي خمس جرعات لفحص الحساسية؟

ثم يتحدثان ثانية بعد قليل:

- هل جرّبت الآلة؟

مكتبة الرمحي أحمد

- نعم...

من الواضح أنهما يعنيان الاختبار.

- نعم، ماماميا، تروبو بيللو، إننا الأفضل يا صديقي، البقية سينطفئون جميعاً.

إنهما مبتهجان لأن الحيوانات لم تمت، بل على العكس لقد استمتعت بها كثيراً. الخلطة الجيدة تضاعف من المبيعات، وإن كانت

حقاً ذات جودة عالية، فقريباً سيكون الطلب عليها شديداً في السوق العالمية، قاضية بذلك على كل منافسة.

بعد أن قرأت هذه المحادثة الهاتفية فقط تمكنت من فهم مشهد كنت قد شهدته سابقاً. لم أستطع تصديق عينيّ حينها. لقد كان ذلك في ميانو، ليس بعيداً كثيراً من سكامبيا، حيث تم جمع عشرات الزوار أو ما يقرب من ذلك، في فسحة قرب هنغارات للتخزين. أما بالنسبة إليَّ، فأنا لم ينته بي المطاف هناك صدفة. إنني أثق بأن الطريق المؤدي إلى الفهم الحقيقي، والوصول إلى قعر الأمور، هو من خلال استنشاق الأنفاس الحارة للواقع، ولمس قاعدته. إنني غير مقتنع بأنه من الضروري أن يكون المرء هناك ليعرف مجرى الأمور، لكن ذلك أمر جوهري لكي تتعرف الأشياء عليك أنت. حضر رجل حسن الهندام، يرتدي بزة بيضاء، وقميصاً أزرق قاتماً، وينتعل حذاءً رياضياً جديداً، فضّ على غطاء السيارة قطعة قماش من جلد الظباء، تحوي بضع حقن في داخلها. تدافع الزوار شاقين طريقهم بالأكواع ليصلوا إليه. كان المشهد يبدو كواحد من تلك المشاهد التي يعرضونها في نشرات الأخبار عندما تصل شاحنة محملة بالطحين إلى إفريقيا، المشهد ذاته يتكرر عاماً بعد عام. غير أن أحد الزوار بدأ بالصياح:

"لا، لن آخذها حتى وإن قدمتها إلي... أنت تريد قتلنا..."

كل ما استلزمه الموقف هو شخص واحد يعبر عن شكوكه، كي يتراجع الجميع تواً. انتظر الرجل الذي جاء بالحقن، لم يبد عليه التوق لإقناع أي منهم. لقد كان الهواء مملوءاً بالغبار من وطء أقدام الزوار وهم يتجولون حول المكان. وبين الحين والآخر كان الرجل يقوم ببصق الحبيبات الرملية التي استقرت على أسنانه. وأخيراً توجه إليه أحدهم، كانا اثنين في الواقع، وكانا يرتجفان وعلى حافة الانسحاب حقاً. كانت شرايين ذراع الشاب مملوءة بعلامات الحقن، لذا فقد خلع

حذاءه، لكن حتى باطنا قدميه كانا تالفين من كثرة الحقن. فتناولت الفتاة حقنة، ووضعتها بين أسنانها، وفكت أزرار قميصه ببطء وكأنه يحوي مئة زر، ثم وخزته في حلقه. كانت الحقنة تحتوي على الكوكايين، وسيظهر سريعاً ما إن تدخل مجرى الدم إن كانت الخلطة جيدة أم مؤذية، أو أثقل مما يجب، أو إن كانت رديئة النوعية. وبالفعل بعد فترة وجيزة بدأ المدمن يترنح، وفمه يزبد قليلاً عند زوايا شفتيه. لقد سقط أرضاً وهو يتشنج بعنف، ثم تمدد مغلقاً عينيه، وتصلب من دون حراك. عندها قام الرجل ذو البدلة البيضاء بإجراء اتصال على هاتفه المحمول:

"يبدو ميتاً بالنسبة إليَّ... حسناً، حسناً، سأحاول إجراء تدليك له..."

ثم أخذ يسحق صدر الشاب بحذائه، رافعاً ركبته وهاوياً عليه بثقل ساقه، لقد كان يجري بحذائه تدليكاً لقلبه. إلى جانبه كانت الفتاة تهذر بشيء ما. كانت الكلمات عالقة بين شفتيها لا تكاد تبان: "إنك تقوم به بشكل خاطئ، هذا خطأ. أنت تؤلمه... وبكل ما يمكن لخيط من المعكرونة المبتلة أن يملك من قوة، حاولت أن تدفعه بعيداً عن جسد رفيقها، غير أن الرجل كان مشمئزاً، وشبه خائفاً منها ومن جمع الزوار عموماً، فصاح:

"لا تلمسيني... أنت مثيرة للقرف... لا تجرئي على الاقتراب مني... لا تلمسيني، وإلا أطلقت النار

لقد تابع ركله لصدر الشاب، ثم وضع قدمه على قفصه الصدري، وقام بإجراء مكالمة ثانية:

"لقد رحل... آه، نعم، المنديل... انتظر، دعني أرى"

أخرج منديلاً ورقياً من جيبه، رطّبه، ونشره على شفتي الشاب. فحتى أضعف نفس يمكن أن يحدث في المنديل ثقباً، ليدل على أن

الشاب ما زال على قيد الحياة. كان إجراءً وقائياً للحيلولة دون لمس الجثة. وأجرى الرجل اتصالاً للمرة الأخيرة:

"إنه ميت. علينا أن نخففها"

عاد الرجل إلى سيارته. في هذه الأثناء، لم يتوقف السائق ولا حتى لثانية عن الوثب في مقعده ككرة مرتدة إلى الأعلى والأسفل، وكأنه يرقص على أنغام موسيقية صامتة. وعلى الرغم من أنني لم أستطع سماع أي صوت، إلا أنه كان يتصرف وكأن الأنغام كانت تعزف بمنتهى الصخب. وفي غضون بضع دقائق، تحرك الجميع بعيداً عن الجثة هائمين في رقعة الغبار تلك. كان الشاب لا يزال ممدداً على الأرض، ورفيقته تنشج إلى جواره. حتى بكاؤها كان عالقاً بين شفتيها، وكأن التعبير الصوتي الوحيد الذي كان الهيرويين يسمح به هو ما يشبه عويل الحصان.

لم أستطع أن أفهم لماذا، لكن الفتاة نهضت، أرخت سروالها، ثم قرفصت فوق رأسه تماماً، وبالت على وجهه، فالتصق المنديل الورقي على أنفه وفمه. مر وقت قصير بدا بعدها أنه يستعيد حواسه، ومسح وجهه بيديه كما يفعل المرء عندما يخرج من تحت الماء. أقسم إنني لو لم أكن في غاية الذهول من جراء ما حدث، لكنت صرخت بملء صوتي "يا الله!" لكنني بدلاً من ذلك أخذت أسير الهوينا جيئة وذهاباً، وهو ما أفعله عندما يتعذر عليّ فهم أمر ما، أو عندما لا أدري ماذا أفعل. حينها أحتل بعصبية مساحة من الفراغ. لا بد أن حركتي قد جذبت انتباههم، إذ أخذ الزوار يقتربون مني آخذين بالصراخ علي. لقد ظنوا أنني على صلة بالرجل صاحب الحقن، فاستمروا بالصياح قائلين: "أنت... أنت... لقد أردت أن تقتله"

لقد حاموا حولي، غير أنهم تفرقوا ما إن أسرعت في خطاي. ثم عادوا ولحقوا بي رغم ذلك قاذفين نحوي بأشياء قذرة التقطوها عن

الأرض. أنا لم أفعل شيئاً، لكن إن لم تكن مدمناً على المخدرات فلا بد إذاً أنك بائعها. وفجأة ظهرت شاحنة. كانت العشرات منها تخرج من المستودعات طيلة الصباح. توقفت الشاحنة بالقرب مني، وصدر منها صوت منادياً باسمي، لقد كان باسكال. فتح الباب وجعلني أثب إلى جواره. لم يكن باسكال في هذه اللحظة بمثابة الملاك الحارس الذي ينقذ الشخص المفضل لديه، بل كنا أقرب إلى جرذين يجريان في البالوعة نفسها، ويجران بعضهما من ذيليهما.

حدجني باسكال بنظرة متجهمة كالأب الذي كان قد توقع كل ما حدث. تلك الابتسامة الساخرة قالت كل شيء، فلا حاجة إلى إضاعة الوقت في توبيخي. عوضاً عن ذلك أخذت أحدق في يديه. لقد أصبحتا أكثر حمرة، أكثر تشققاً، ومفاصله أكثر يباساً، وكفاه تفتقران إلى الدم. هذه الأصابع التي اعتادت رفاهية التعامل مع الحرير والمخمل تواجه صعوبات في التأقلم مع عشر ساعات من العمل خلف مقود القيادة. كان باسكال يتحدث إلي، إلا أنني لم أستطع نزع صورة الزوار من رأسي. إنهم قرود، بل أقل من القرود، إنهم حيوانات كريهة تجرب قطعة من المخدرات التي ستوزع في كل أنحاء أوروبا، لذا فهم لا يستطيعون المجازفة بقتل أحدهم هناك. حيوانات نتنة بشرية، تُستخدم كيلا يلاقي الناس حتفهم في روما، ونابولي، وأبروزي، ولوكانيا، وبولونا، وكي لا تقطر أنوفهم دماً، وكي لا تمتلئ أفواههم زبداً. أما الزائر الميت في سيكونديغليانو، فلن يكون سوى بائس آخر يمر موته من دون تحقيق. بل إنه يستحق على الأكثر أن يرفع عن الأرض، وأن يمسح القيء والبول عن وجهه، ثم يدفن. في مكان آخر كنت لتجد لموته عواقب كتشريح الجثة، وكالتحقيق، أما هنا فموته تقابله كلمة واحدة: جرعة مفرطة.

كانت شاحنة باسكال تتجه إلى الطريق الذي يربط بين الضواحي

الشمالية لنابولي. أكواخ، ومستودعات، ومكبات نفايات، وخرداوات صدئة تناثرت في المكان، والقمامة كانت ملقاة في كل مكان، فلا وجود لمجمعات صناعية هنا. قد تشم الرائحة النتنة لدخان المصانع، لكن من دون أن ترى أي مصنع، بل منازل متناثرة على طول الشوارع، وساحات تتميز إحداها بوجود مشرب فيها. إنها صحراء مشوشة ومهملة. لقد أدرك باسكال أنني لم أكن مصغياً إليه، لذا فقد داس على الفرامل فجأة، ومن دون أن يقف تماماً، وكانت تلك مجرد انتفاضة خفيفة كافية لأن تهزني. ثم نظر إليَّ وقال: "ستسوء الأمور في سيكونديغليانو... فيتشياريلا موجود في إسبانيا ومعه أموال الجميع. عليك أن تقلع عن المجيء إلى هنا، إنني أستطيع أن أشعر بالتوتر في كل مكان، حتى الإسفلت كان سيتفلّت من الأرض، ويفرّ من هنا لو استطاع"

لقد قررت أن أتابع ما سيحدث في سيكونديغليانو. وكلما ازداد باسكال إصراراً على أن الأمور ستكون في غاية الخطورة، كلما ازددت اقتناعاً أنه من المستحيل عليّ ألاّ أحاول فهم عناصر الكارثة. والطريق للوصول إلى الفهم كان معناه أن أكون جزءاً من الأمر بطريقة ما. لم يكن لدي أي خيار، فحين تتعلق المسألة بي كانت تلك هي الطريقة الوحيدة لأفهم بها الأشياء. الحيادية، وإحداث مسافة تسمح بالموضوعية، كلاهما زاويتان في تناول الأمور، لم أتمكن يوماً من العثور عليهما لأقف فيهما.

رفاييل آماتو أفاتشيريللا، أي "المرأة العجوز"، المدير التنفيذي في المستوى الثاني للجماعة، والمسؤول عن سوق المخدرات الإسبانية كان قد فرّ إلى برشلونة ومعه أموال ديلاورو. أو على الأقل هذا ما كان يقال. أما الحقيقة فهي أنه قد أخفق في تسليم النصيب المتوجب

عليه للجماعة. وهذه بحد ذاتها طريقة يبرهن من خلالها بأنه، على الأقل، لم يعد يشعر بأنه مرؤوس وتابع للأشخاص الذين يريدون إبقاءه تحت إمرتهم، وبأنه صاحب مرتب شهري. كان ذاك انشقاقاً رسمياً. وقد شمل وحسب حتى اللحظة إسبانيا، التي كانت دوماً تحت سيطرة الجماعات التالية: كاسالسي من كاسيرتا في أندلسيا، نوفوليتا من مارانو في الجزر، و\الانفصاليين في برشلونة. كان ذاك الاسم هو الذي أطلقه أول المخبرين عن الجريمة على رجال ديلاورو الذين كسروا الطوق، لكن كل من في سيكونديغليانو كان يدعوهم الإسبان. وبوجود قائدهم في إسبانيا فقد أخذوا يهيمنون ليس على تجارة التجوال فحسب، بل على حركة الإتجار بالمخدرات كذلك، كون مدريد تعد عقدة اتصال حاسمة بالنسبة إلى الكوكايين القادم من كولومبيا والبيرو. وفقاً للتحقيقات، فقد كان رجال أماتو يستعملون حيلةً بارعةً لتحريك كميات ضخمة من المخدرات ألا وهي: شاحنات النفايات. كانوا يضعون القمامة في الأعلى، والمخدرات في الأسفل. إنها وسيلة ناجعة للإفلات من الرقابة، فما من أحد سيوقف شاحنة نفايات في منتصف الليل.

وفقاً للتحقيقات، فإن كوسيمو ديلاورو شعر بأن المديرين لديه قد أخذوا يدفعون المبالغ بكميات أقل فأقل للجماعة. كان يفترض إعادة استثمار الأرباح في الرهانات، غير أن كميات كبيرة من تلك الأرباح كانت تحجب. والرهانات هي الاستثمارات التي يقوم بها المديرون عند شرائهم كميات وافرة من المخدرات برأس مال مصدره ديلاورو. \الرهان: يأتي هذا المصطلح من التجارة العشوائية وعالية التحرر للكوكايين والحبوب، حيث لا وجود لمقياس أو يقين. فلا يسع المرء سوى أن يراهن، كما في لعبة الروليت الروسية. إن راهنت

على 100,000 يورو، وكانت الأحوال جيدة فستحصل بعد أربعة عشر يوماً على 300,000 يورو. إنني كلما صادفت أرقاماً أسّية بهذا الشكل، أستعيد في ذاكرتي دوماً ما قاله جيوفاني فالكون، لمجموعة من طلابه: "لكي تفهموا تماماً إلى أي حد تجارة المخدرات مربحة، تأملوا كيف أن ألف لير إيطالي يستثمر في المخدرات في أول شهر أيلول، يصبح مئة ألف مليون في الأول من آب من العام التالي لقد سُجِّل مثاله هذا في مئات من الكتب المدرسية.

لا زالت الأرباح التي سلمها مديرو ديلاورو فلكية، لكنها كانت تقل بشكل تصاعدي. وعلى المدى الطويل فإن ممارسة من هذا النوع ستقوّي البعض وتضعف البعض الآخر. وفي آخر الأمر، ما إن تجمع المجموعة قوة تنظيمية وعسكرية كافية فإنها ستدفع بباولو ديلاورو بعيداً. ولن تكون تلك الدفعة مجرد منافسة صلبة، بل ستكون عنيفة من النوع الذي لا تقوم لك بعده قائمة، دفعة تحوي رصاصاً في داخلها. لهذا فقد أصدر كوسيمو أوامره بأن يخضع الجميع لنظام الرواتب. لقد أرادهم جميعاً أن يعتمدوا عليه. لقد كان قراره هذا معاكساً للقرارات التي صنعها والده دائماً، لكنه كان ضرورياً لحماية عمله، وسلطته، وأسرته. لا مزيد من اللّين مع الجميع. لم تعد لهم الحرية في تقرير كم سيستثمرون، وأي نوع وأي نوعية من المخدرات سيطرحون في الأسواق، ولا مزيد من الحرية والاستقلالية داخل الشركة المتعددة المستويات. موظفون ذوو رواتب، ذاك ما سيؤول إليه الجميع. بعضهم كان يقول إن الرواتب ستصل إلى 50,000 يورو شهرياً، وهو مبلغ استثنائي، ولكنه مع ذلك يبقى راتباً. وسيحصر دور الجميع في أدوار تابعية، انتهى حلم المغامرات التجديدية في العمل، واستبدل بوظيفة مدير. ولكن الثورة الإدارية لم تتوقف عند هذا. يشهد المخبرون

أن كوسيمو فرض أيضاً انقلابا في الأجيال. فقام بتجديد فوري في هيئة الإدارة العليا، فلا منصب مديرين تنفيذيين لمن هم فوق سن الثلاثين. فالسوق لا تمنح امتيازات للعنصر البشري، بل إنها لا تمنح امتيازات لشيء، وعليك أن تسلب نجاحك بالقوة. فأي رابطة، مهما كانت نوعيتها: العاطفة، والقانون، والحقوق، والحب، والمشاعر، أو الدين، كلها تعتبر تنازلاً في مضمار المنافسة، وعائقاً في طريق النجاح. هناك متسع لكل ذلك، لكن الانتصار الاقتصادي والسيطرة يأتيان أولاً. لقد كان الزعماء الأكبر سناً يطاعون بدافع الاحترام، حتى عندما كانوا يأتون بأفكار عفّ عليها الزمن، أو حتى حين كانوا يصدرون أوامر غير فعالة. كان لأوامرهم قيمة، بسبب عمرهم بالذات. والعمر، قبل أي شيء آخر، هو ما كان يمكن أن يهدد قيادة سلالة باولو ديلاورو.

إذاً فقد أصبحوا الآن جميعاً في مستوى واحد، دون أخذ أمجاد الماضي أو الخبرات السابقة، بعين الاعتبار، ودون أن يدين أحد بالاحترام لأحد. على كل شخص أن يثبت جدارته عن طريق قوة عروضه، وقدراته الإدارية، أو شخصيته القيادية. كانت فرق سيكونديغليانو العسكرية قد ابتدأت بتحرير قواها قبل حدوث الانفصال، لكن الأمور كانت آخذة بالتخمر حينذاك. وكان واحداً من أول أهدافهم هو فيرديناندو بيزارو، المعروف كذلك باسم باتشيتيللا، أو العم دُمّل، تيمناً بالشخصية قصيرة القامة، والصلعاء، المتردّدة في برنامج عائلة آدم. كان بيزارو "راس ميليتو. و"راس مصطلح يستخدم للشخص الذي يملك قوة عظيمة، إنما غير مطلقة، والذي ما زال خاضعاً لسيطرة نفوذ أعلى منه ألا وهو الزعيم. أقلع بيزارو عن العمل الفعليّ كقائد منطقة لدى ديلاورو. لقد أراد أن يدير أمواله الخاصة، وأن يتّخذ قرارات محورية هامة، لا إدارية فحسب. لم تكن ثورته تلك تقليدية، لم يرد ترقية فحسب، بل أراد أن يصبح شريكاً جديداً وذا استقلالية. لكن المشكلة كانت في أنه

قد رقّى نفسه. جماعات ميليتو شديدة الضراوة، وإقليمها هو المصانع السرية التي تصنع أحذية عالية الجودة لنصف دول العالم، هي التي تولد الأموال النقدية للمرابين. غالباً ما يقوم أصحاب المعامل السرية بدعم الرجل السياسي الذي سيضمن لهم أقل ما يمكن من الإجراءات التنظيمية في العمل، أو الذي يضمن القائد الإقليمي الذي يؤدي إلى انتخابه. لم يكن أفراد جماعات سيكونديغليانو يوماً عبيداً للسياسيين، كما أنهم لم يرغبوا مطلقاً في إنشاء مواثيق مبرمجة معهم. لكن وجود الأصدقاء في منطقة كهذه لأمر حيوي.

إن الشخص الذي كان الرجل السياسي الداعم لبيزارو أصبح هو نفسه يمثّل الموت المتربص به. فقد طلبت الجماعة من ألفريدو سيكالا، وهو المحافظ السابق لميليتو، والقائد المحلي لحزب مارغاريتا الوسطي اليساري، المساندة في قتل بيزارو. ووفقاً لتحقيقات نابولي DDA، فقد زودهم سيكالا بمعلومات دقيقة عن تحركات بيزارو. عند قراءة التسجيلات الهاتفية لا يتولد لديك الشعور بأنهم كانوا يخططون لجريمة قتل، بل تشعر ببساطة بأنها عملية تناوب بين القادة. وفي النهاية، كان الأمر كذلك حقيقة، فعلى العمل أن يستمر. ولما كان قرار بيزاور بالاستقلالية يحمل المتاعب في طياته، لذا كان لا بد من إنجاز الأمر وبأي وسيلة كانت. عندما توفيت والدة بيزارو، فكر الأعضاء في جماعة ديلاورو في الذهاب إلى الجنازة وإطلاق الرصاص على كل شخص وعلى كل شيء، ليقضوا بذلك على بيزارو، وعلى ولده، وأبناء عمومه وأقربائه، والجميع. لقد كانوا هناك وعلى أهبة الاستعداد، إلا أن بيزارو وابنه لم يظهرا. ومع ذلك فقد استمرت التخطيطات المفصّلة لتحضير كمين له. حتى إن الجماعة أرسلت بفاكسات إلى مؤسساتها الفرعية، تبلغها فيها بما كان يحدث، وبما يتوجب القيام به:

"لم يبق أحد من سيكونديغليانو، لقد أرسلهم بعيداً جميعاً... إنه

يخرج فقط يومي الثلاثاء والسبت، برفقة أربع سيارات... يجب عليكم عدم التحرك لأي سبب كان. لقد أرسل العم دمّل رسالة قال فيها إنه بمناسبة ذكرى الفصح يريد 250 يورو مقابل كل متجر، وإنه ليس بخائف من أحد، وأنهم سيقومون بتعذيب سيفييرو هذا الأسبوع"

إنها استراتيجية يتم تنسيقها عبر الفاكس، وموعد للتعذيب يؤشر له على التقويم، تماماً كما لو كان فاتورة، أو طلبية، أو حجز طيران. كانت التقارير عن نشاطات الخائن قد ذكرت كالتالي: لدى بيزارو أربع سيارات مرافقة، وهو يغتصب 250 يورو شهرياً. سيفييرو، سائق بيزارو المخلص، سيعذب ربما ليقرّ بالطرقات التي ينوي أن يسلكها رئيسه في المستقبل. لكن قائمة الفرضيات الموضوعة لقتل بيزارو لا تنتهي هنا، فهم يدرسون إمكانية الذهاب إلى منزل ابنه، حيث "لن يوفروا أحداً" ثم تأتي مكالمة هاتفية من قاتل قد سمع أن بيزارو قد أظهر نفسه للعلن ليبرهن عن نفوذه وسلامته. ويقول القاتل موبخاً نفسه، نادماً على إضاعة فرصة مثالية كتلك:

"اللعنة عليه، إننا نفوت الفرص هنا، لقد كان في محل البيتزا طوال الصباح"

لا شيء مخفي، بل كل شيء يبدو واضحاً وصافياً، محبوكاً في النسيج اليومي. إلا أن المحافظ السابق لميليتو شيفشي بإسم الفندق الذي يختفي فيه بيزارو مع عشيقته حيث يذهب ليفرغ الضغط بكل أنواعه. فأنت يمكنك الاعتياد على كل شيء: وعلى العيش في منزل مطفأ الأضواء كيلا يعلم أحد بوجودك، وعلى الخروج وبرفقتك أربع سيارات، وعلى الانقطاع عن القيام بالمكالمات الهاتفية أو تلقيها، وعلى الامتناع عن حضور جنازة أمك ذاتها. أما ألا تتمكن من لقاء عشيقتك، فلا، إذ ستشعر بأن هذا الأمر مهزلة، وأنه النهاية لكل قوتك.

في 26 نيسان عام 2004، كان بيزارو موجوداً في فندق فيلا

غويليا، في الطابق الرابع، ويقضي وقتاً حميماً مع عشيقته. يصل أفراد الفرقة الضاربة مرتدين سترات رجال الشرطة. لم يقم البواب حتى بسؤال رجال الشرطة المزعومين عن شاراتهم قبل تسليمهم مفتاح الغرفة الممغنط. أخذوا يقرعون الباب بعنف. كان بيزارو لا يزال في ملابسه الداخلية عندما سمعوا خطوه وهو يقترب من الباب وبدأوا بإطلاق النار. اخترقت طلقتان ناريتان الباب واستقرتا في جسده. وانهمر المزيد من الطلقات لتنسف الباب بأكمله، ومن ثم قضوا عليه نهائياً بطلقة في رأسه. رصاص وشظايا دقت في لحمه. إنه من الواضح الآن كيف ستفسّر تلك المذبحة: كان بيزارو هو الأول، أو لنقل واحداً من الأوائل، الذين اختبرت جماعة ديلاورو قوتها به. قوة قادرة على فتح أبواب جهنم على أي امرئ يجرؤ على كسر التحالف، أو على الإخلال باتفاق عمل. أما الانفصاليون فقد بدت استراتيجيتهم غير واضحة تماماً، ولا يمكن فهمها بسهولة. كان الهواء مشحوناً بالتوتر، لكنهم كانوا كمن ينتظر شيئاً ما، إشارة تكون بمثابة إعلان للحرب. أتت هذه الإشارة في 20 تشرين الأول عام 2004، بعد بضعة أشهر من مقتل بيزارو: فقد وجد فولفيو مونتانينو، وكلاوديو ساليرنو مقتولين بأربع عشرة طلقة. ووفقاً للتحقيقات التي أجريت فقد كانا كلاهما مخلصين للغاية لكوسيمو، وكانا مسؤولين عن عدة أسواق مخدرات. وبما أن محاولتهما إيقاع كوسيمو وأبيه في الشرك ومن ثم التخلص منهما، باءت بالفشل، كان هذا القتل إيذاناً ببدء الأعمال العدائية. لقد أطلق العنان للصراع، فبمواجهة الجثث والموت، لا شيء يمكن عمله سوى القتال. لقد قرر جميع القادة التمرد على أبناء ديلاورو ومنهم: روزاريو باريانته، رافاييل أبينانته، بالإضافة إلى المديرين الجدد رافاييل آماتو، جينارو مارينو مكاي، أركانجيلو أبيته، وجياكومو ميغلياتشو. أما آل ديلوسيا، جيوفاني كورتيس، إنريكو دافانزو، وعدد كبير جداً من

المناصرين فقد حافظوا على إخلاصهم لديلاورو. كانوا شباناً ممن وعدوا بترقيات، ومكاسب، وبتقدم اقتصادي واجتماعي في مراتب الجماعة. لقد تولى أبناء باولو ديلاورو، كوسيمو، وماركو، وسيرو القيادة. من المرجح أن كوسيمو أدرك أنه يخاطر بحياته أو بقضاء فترة في السجن، أو باعتقالات وأزمات اقتصادية. إنما عليك أن تختار: إما أن تنتظر أن تنهزم ببطء أمام نمو جماعة غريمة لك في وسطك الاجتماعي، أو أن تحاول أن تنقذ عملك، أو على الأقل مخبأك. فالهزيمة الاقتصادية تعني كذلك الهزيمة الجسدية المباشرة.

ها هي الحرب. لا أحد يعلم كيف سيكون القتال فيها، لكن الجميع على يقين من أنها ستكون طويلة ورهيبة وهي الحرب الأقسى التي شهدتها جنوب إيطاليا منذ عشر سنوات. جماعة ديلاورو كانت أقل عدداً، وأكثر ضعفاً، وكانت الأبعد عن التنظيم. في الماضي كان أفرادها دائماً يردون بعنف على الانشقاقات الداخلية التي تنشأ من طريقتهم المتحررة في الإدارة، والتي فهمها بعض الناس خطأً على أنها إيذان بالحكم الذاتي، وبإنشاء عملهم المستقل. لكن بالنسبة إلى جماعة ديلاورو، فالحرية التي تعطى لك، لا تخوّلك الافتراض بأنك أصبحت تملكها. في عام 1992 قامت الفئة الحاكمة بحل فرقة منشقة قام بها أنتونيو روكو، رئيس موغنانو، وذلك بعد أن دخل أفرادها المشرب مسلحين بالأسلحة الرشاشة والقنابل اليدوية. لقد قتلوا حينها خمسة أشخاص، أما روكو فقد تحول إلى شاهد لدى الحكومة لينجو بجلده. وبناء على المعلومات التي قدمها، فقد وضعت الولاية قرابة المئتين من الأشخاص الذين يستهدفهم ديلاورو تحت الحماية. لكن ذلك لم يحدث فرقاً، وإدارة الاتحاد لم تتأثر بشهادة روكو.

لكن هذه المرة، بدأ القلق يغزو نفوس رجال كوسيمو ديلاورو، عندما نشر أمر الحبس الموقت الذي أصدرته محكمة نابولي في

7 كانون الأول عام 2004. اثنان من الشركاء هما لويجي بيترون، وسلفاتور تامبورينو، يتحدثان عبر الهاتف عن إعلان الحرب الذي أتى بصورة مقتل مونتانينو، وساليرينو.

بيترون: "لقد قتلوا فولفيو"

تامبورينو: "آه...

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

بيترون: "أوتفهم؟"

إن استراتيجية المعركة، والتي يزعم تامبورينو أن كوسيمو ديلاورو هو من أملاها بهذا الشكل، بدأت تتوضح معالمها. وهي تقضي بالقضاء عليهم واحداً تلو الآخر. اقتلهم حتى لو اضطررت من أجل ذلك إلى استخدام القنابل.

تامبورينو: "حتى القنابل، أتسمع؟ هذا ما قاله كوسيمو. قال: "الآن سأنهي أمرهم واحداً تلو الآخر... سأقضي عليهم بأبشع طريقة... جميعهم..."

بيترون: "المهم أن يدعم الناس هذا الأمر، أن يعملوا لأجله..."

تامبورينو: "جينو، هناك الملايين منهم هنا. إنهم أولاد. جميعهم... أولاد... الآن سأخبرك ما الذي ينوي فعله ذلك الرجل..."

لقد كانت استراتيجية جديدة: أحضر أولاداً جدداً، ورقّاهم إلى مرتبة جنود. وحوّل عملية الإتجار بالمخدرات التي تجري بسلاسة، وكذلك الاستثمارات والهيمنة الإقليمية، إلى آلة للقتال. الصبية الذين يعملون في محال الأطعمة المعلبة ودكاكين الجزارين، والميكانيكيون، والندلاء، والأولاد العاطلون عن العمل سيصبحون هم قوة الجماعة الجديدة وغير المتوقعة. إن موت مونتانينو سيطلق سلسلة طويلة ودموية من الهجوم والهجوم المعاكس، موت يليه المزيد من الموت. كمين أو

كمينان يومياً، نصبت بداية لمناصري الجماعة، ثم لأقربائهم، أضف إلى ذلك حرقاً للبيوت، وضرباً للناس، والشبهات تتطاير حول الجميع.

تامبورينو: "كوسيمو في غاية الهدوء، كل واشرب وأَحِبّ، ذاك ما قاله. ماذا باستطاعتنا أن نفعل... لقد حدث ذلك، وعلينا المضي قدماً الآن"

بيترون: "لكنني لن أشعر بالرغبة في الطعام بعد الآن، إنني آكل فقط كي أضع شيئاً ما في معدتي..."

على الرغم من ذلك، يجب ألاّ يبدو الأمر بالقتال، يائساً. فمن الأساسي أن يظهروا كالفائزين. هم كجيش في الشركة، فكل من يبدو عليه أنه يواجه المتاعب، وكل من يهرب، أو يختفي، أو ينسحب يكون قد خسر من فوره. كل واشرب وأَحِبّ، كما لو أن شيئاً لم يحدث، بل كما لو أن شيئاً لا يحدث الآن. غير أن بيترون وتامبورينو كانا فزعين حقاً، فهما لا يعلمان كم من الشركاء قد انضما إلى الإسبان، وكم منهم بقوا إلى جانبهم.

تامبورينو: "وكيف سنعلم كم منهم رست قرعتهم على الآخرين... إننا لا نعلم!"

بيترون: "آه! كم عدد الذين انقلبوا علينا؟ الكثير منهم بقوا معنا، توتور!... إنني لا أفهم، أولئك ألا يحبون آل ديلاورو؟"

تامبورينو: "لو أنني كنت كوسيمو، أتعلم ما كنت سأفعل؟ كنت سأبدأ بقتلهم جميعاً. ولو كانت لديّ شكوك... كنت سأباشر بتدميرهم كلهم... أتفهمني؟"

اقتلهم جميعاً. كل واحد منهم. حتى وإن كانت لديك شكوك حولهم، أو كنت لا تعلم إلى أي طرف ينحازون، أو حتى إن كانوا متورطين أصلاً. أطلق الرصاص! إنهم قذارة، لا شيء سوى قذارة.

فبمواجهـة الحـرب، والخطر، والهزيمة، يصبح الحلفاء والأعداء قابلين للتبادل وتغيير الأدوار. إنهم ليسوا أفراداً بعد الآن، إنهم عناصر اختبار تختبر قوتك عليهم، وتعبر عنها عن طريقهم. المجموعات، والحلفاء، والأعـداء سـتتضح مواقفهـم فـي ما بعد. لكن بدايـة، على إطلاق النار أن يبدأ.

فـي 30 تشـرين الأول مـن عـام 2004، ظهـر رجال ديلاورو أمام منـزل سـلفاتور دي ماجسـتريس، وهـو رجـل في العقد السـادس من عمره، ومتزوج من والدة بياجيو إسبوسيتو، أحد الانفصاليين الإسبان، وكانـت غايتهـم معرفـة مـكان اختباء إسبوسـيتو. كان على الديلاوريين أن ينقضوا عليهم جميعاً قبل أن يتسـنى لهم تنظيم أنفسـهم، وقبل أن يدركوا أنهم هم الأكثرية. لذلك فقد كسروا ذراعي ماجستريس وساقيه بهراوة، وحطموا أنفه. مع كل ضربة كانوا يسـألونه عن معلومات عن ابن زوجته، لكنه لا يجيب، وعدم استجابته تلك كانت تحرضهم على ضربة أخرى. لقد سـددوا إليه الركلات بقسـوة، كان عليه أن يعترف، لكنـه لـم يفعـل. لربمـا كان لا يعرف حقاً أين يختبئ إسبوسـيتو. وبعد شهر مات من العذاب.

في 2 تشرين الثاني، يقتل ماسيمو غالديرو في موقف للسيارات، في حين كان يفترض أنهم سيقتلون أخاه جينارو، الذي يُزعم أنه صديق لرفاييـل آماتـو. فـي 6 تشـرين الثانـي، يقتـل أنتونيـو لانديـري في فيا لابريـولا، ولأجـل الوصـول إليه قاموا بفتح النار على كامل المجموعة التي كان برفقتها، متسـببين بجروح خطيرة لخمسـة من أفرادها. كانوا علـى مـا يبـدو يتاجـرون بالكوكايين، ولحسـاب جينارو مـكاي. وعلى أي حال، فقد اسـتجاب الإسـبان لهذه الأعمال، ففي 9 تشـرين الثاني اسـتطاعوا التملص من سلسـلة الحواجز الطرقية ليتركوا سـيارة فيات بونتـو بيضـاء اللـون في فيا كوبـا بيريللو. كان الوقت عصراً عندما عثر

عليها رجال الشرطة ووجدوا بداخلها ثلاث جثث كانت تعود لستيفانو مايستو، ماريو مايستو، وستيفانو ماوريللو، وضعت في المقاعد الأمامية، والمقاعد الخلفية، وفي مؤخرة السيارة، حيثما بحثوا كانوا يجدون جثة. في 20 تشرين الثاني، يذبح رجال ديلاورو بياجيو ميغلياتشيو. ذهبوا إلى معرض السيارات حيث يعمل، "إن هذا سطو مسلح"، هذا ما قالوه وهم يطلقون النار على صدره. كان عمه جياكومو هو المستهدف بهذا الفعل. ورد عليهم الإسبان في اليوم نفسه بقتل جينارو إمولو، وهو والد أحد أكثر الأشخاص ولاء لديلاورو، وهو متهم بكونه مشاركاً في الذراع العسكري للمنظمة. دومينيكو ريكو وسلفاتور غاغلياردي، كانا كلاهما مقربين إلى رفاييل أبينانته وقد كانا في متجر للتبغ في 21 تشرين الثاني عندما أجهز عليهما الديلاوريون. بعدها بساعة يُذبح فرانسيسكو تورتورا: يسافر القتلة إليه بالسيارة عوضاً عن الدراجات النارية، يردونه قتيلاً، يرفعون جثته كالكيس، ويأخذونها إلى ضواحي كاسافاتور، حيث يشعلون النار في السيارة والجثة معاً متخلصين بذلك من مشكلتين في آن واحد. في منتصف ليلة 22 تشرين الثاني، يعثر أفراد الشرطة على سيارة محروقة، مجرد سيارة أخرى محروقة.

استطعت أن أضع يدي على مذياع يلتقط ترددات أجهزة رجال الشرطة، كي أكون على اطلاع على مستجدات الصراع. ولأصل بالتالي على متن دراجتي الفيسبا إلى مكان الحدث بشكل متزامن تقريباً مع فرق الشرطة. لكنني في تلك الليلة غفوت. أصبحت إيقاعات الطقطقة، والصرير الحاد الصادر عن مقر الشرطة الرئيسي، بمثابة أغنية تهدهد لي لأنام. لذا فإن مكالمة هاتفية كانت هذه المرة هي التي أيقظتني لتخطرني بما حدث. عندما وصلت إلى موقع الحدث، وجدت سيارة قد أُحرقت أحشاؤها تماماً بفعل النيران. لقد نضحوها كاملة بالبنزين، مفرغين غالونات منه في كل أرجائها، بنزين على المقاعد الأمامية،

وبنزين على المقاعد الخلفية، وعلى الإطارات وعلى مقود القيادة. عندما وصل رجال الإطفاء كانت ألسنة اللهب قد خمدت، والنوافذ قد انفجرت. لا أعلم تماماً ما الذي دفعني إلى الإسراع بتهور باتجاه هذا الهيكل الذي كان سيارة. كانت الرائحة فظيعة، كرائحة البلاستيك المحروق. بعض الناس كانوا يتحركون في الجوار، ورجل شرطة ومعه مشعل كهربائي يحدق داخل الهيكل المعدني، ويرى جثة، أو شيئاً ما يشبهها. فيتقدم رجال الإطفاء ليفتحوا الأبواب ويزيلوا الجثة والاشمئزاز يرتسم على وجوههم. أحد أفراد الشرطة يشعر بالغثيان ويميل متكئاً على الحائط ويتقيّأ كل وجبة المعكرونة والبطاطا التي تناولها قبل بضع ساعات. كل ما تبقى هو جذع متصلب أسود، جمجمة مسودّة، وساقان مسلوختا الجلد بفعل اللهب. لقد التقطوها من الذراعين، ووضعوها أرضاً بانتظار عربة نقل الجثث.

عربة الموت تلك تدور باستمرار. أراها تجول في أنحاء سكامبيا وتور أنونزياتا، وتجمع الجثث لأناس قتلوا، وتراكمها. تملك كامبانيا النسبة الأعلى في جرائم القتل في إيطاليا، وواحدة من أعلى النسب في العالم. ويكفيك لتفهم رمز هذا المكان، أن تلتقط صورة لإطارات عربات نقل الجثث، لقد بليت حتى أصبحت ملساء، حوافها مقضومة، وأسطحها الجانبية قد تحولت إلى رمادية. ترجّل الرجال من العربة، وباشروا العمل بقفازاتهم الشبكية القذرة والتي استعملوها آلاف المرات. زلقوا الجثة إلى داخل كيس من تلك الأكياس السوداء التي تستعمل عادة للجنود الموتى. كانت تبدو كأحد الأشكال التي تنبثق من رماد فيزوف بعد أن يصب علماء الآثار الجص في الفراغ الذي خلفته الجثة.

حتى ذلك الحين احتشد جمع من الناس حول العربة، غير أنهم كانوا جميعاً صامتين كأن لا وجود لهم. لم نكن نجرؤ حتى على التنفس بعمق. بعد انطلاق حرب كامورا، أقلع الكثير من الناس عن

وضع الحدود لما يمكن لهم تحمّله. الآن قدموا ليشاهدوا ما الذي قد يواجههم فيما بعد. في كل يوم يتعلمون ما الذي يمكن حصوله بعد ذلك، وما الذي يتوجب عليهم احتماله أيضاً. إنهم يأخذون الدروس، يذهبون إلى منازلهم، ويتابعون حياتهم. يبدأ رجال الشرطة بأخذ الصور، أما العربة فتغادر وهي تحمل الجثة. أما أنا فقد ذهبت إلى مقر الشرطة الرئيسي، إذ لا بد لهم أن يدلوا بشيء بشأن هذه الحادثة. كان بعض الصحفيين المعتادين مع عدد من أفراد الشرطة في غرفة التحقيقات الصحفية. وبعد قليل بدأت التعليقات: "إنهم يقتلون بعضهم بعضاً، وكلما زادوا في ذلك كان أفضل!"؛ وتعليق ثانٍ: "انظر كيف تكون نهايتك إن أصبحت كاموريّاً"؛ "لقد تمتعت بجني المال، الآن تمتع بكونك ميتاً أيها الحقير إنها التعليقات المعتادة إلا أنها كانت أكثر اشمئزازاً وسخطاً. وكأن الجثة كانت حاضرة أمامهم وكان لدى الجميع شيء ما ليقذفه في وجه صاحبها: هذه الليلة التي قد أُفسدت، وهذه الحرب التي لا تنتهي، وتلك المواقع العسكرية التي تنبع في كل زاوية من نابولي. يحتاج الأطباء إلى الكثير من الوقت للتعرف على الجثة. أحدهم يعطيهم اسم رئيس أحد الأحياء الذي اختفى قبل بضعة أيام. إنها جثة واحدة من العديد من الجثث التي تراكمت في مخزن بارد في مشفى كارداريللي، وهي تنتظر أسوأ اسم يمكن أن تحصل عليه. لكنهم يعلنون أنه ليس هو.

لقد اكتشفوا إلى من تعود الجثة. غطى أحدهم فمه بيده، وازدرد الصحفيون ريقهم بصعوبة بالغة بعد أن جفت أفواههم. أما رجال الشرطة فهزوا رؤوسهم وحدقوا بأطراف أحذيتهم. انقطعت التعليقات الغاضبة وغطاها شعور بالذنب. كانت الجثة تعود إلى غيلسومينا فيرديه، وهي امرأة في الثانية والعشرين من عمرها خطفت، وعذّبت، وقتلت برصاصة في مؤخر عنقها أطلقت عليها من مسافة قريبة لدرجة أنها

خرجت من مقدمة جمجمتها، ثم ألقيت في السيارة التي هي سيارتها، وأشعلوا النيران فيها. سبق للمرأة أن واعدت جينارو نوتورنو، وهو شاب كان قد قرر في البداية أن يبقى مع الجماعة، لكنه انتقل لاحقاً إلى صفوف الإسبان. وهي كانت قد خرجت معه لبضعة أشهر في السابق. لكن أحداً ما شاهدهما يتعانقان، وربما يركبان دراجة فيسبا، أو جالسين في سيارة معاً. كان قد حكم على جينارو بالموت، غير أنه تمكن من الفرار. فمن يدري أين اختفى، إذ لربما كان حتى في كراج قريب من المكان الذي قتلوا فيه غيلسومينا، وهو لم يشعر بضرورة حمايتها لأنهما لم يعودا على علاقة معاً. أما بالنسبة إلى الجماعة فكان عليها أن توجه ضربتها، وخارطة الفرد لدى الجماعة ترتسم من خلال معارفه، وأقربائه، وحتى ممتلكاته. خارطة يمكن أن تكتب فوقها الرسائل، وأفظع أنواع الرسائل. فالعقاب ضروري لأن نجاة أحد بجلده دون عقاب قد يمنح شرعية لخيانات أو انشقاقات جديدة، وفي هذا مخاطرة كبيرة. لذا فاضرب بأسوأ صورة يمكن تخيلها. تلك هي الأوامر، وكل ما عداها لا يعني شيئاً. وهكذا، فقد ذهب المخلصون للديلاورو إلى غيلسومينا، ووجدوا عذراً للقائها، أمسكوا بها، وأوسعوها ضرباً بوحشية، وعذّبوها وسألوها عن مكان جينارو، لكنها لم تجب، ربما لأنها لم تكن تعلم، أو ربما لأنها كانت تفضل أن تتحمل هي كل ما كان يمكن أن يفعلوه به. لذا فقد أجهزوا عليها. ربما كان الكاموريون الذين أرسلوا للقيام بهذا الأمر تحت تأثير جرعة من الكوكايين، أو ربما كانوا بحاجة إلى أن يكونوا صاحين للإحاطة بأدق التفاصيل. لكن أساليبهم في إزالة كل أنواع المقاومة، وفي إبطال كل نفس من أنفاس الإنسانية، باتت معروفة تماماً. لقد بدا لي أن إحراق الجثة كان وسيلة لإخفاء آثار التعذيب. كان بإمكان جسد الشابة المشوه نتيجة التعذيب أن يُحرّض على نوبة غضب حاقد في الجوار، وعلى

مكتبة الرمحي أحمد

الرغم من أن الجماعة لا يمكنها أن تدعي حصولها على موافقة الناس على ما يحصل، إلا أنها لا تريد في نفس الوقت استفزاز عدائهم لها. لذا كان الحرق، حرق كل شيء. فموتها ليس شديد الوطأة بأكثر من أي موت آخر خلال زمن الحرب. لكنه أمر غير محتمل أن تتخيل كيف عذبت، وكيف قتلت. فتنفست بعمق وبصقت البلغم الجاثم في صدري لأحجب عني تلك الصور.

غيلسومينا فيرديه، أو مينا كما كانت تدعى في الجوار، وكما دعتها الصحف عندما أخذت تلاطفها بمشاعر الشفقة والشعور بالذنب التي جاءت على هذا النحو: لقد كان من السهل عدم تمييز لحمها عن أولئك الذين يقتلون بعضهم بعضاً، أو، لو أنها ما زالت على قيد الحياة، التفكير فيها على أنها رفيقة كاموري، وواحدة من كثيرات يسعين وراء المال والشعور بالأهمية الذي يمنحهن إياه ذلك، إنها مجرد سنيورة أخرى تستمتع بثراء زوجها الكاموري. إلا أن ساراسينو، أو العربي، كما كان جينارو نوتورنو يدعى، كان قد بدأ للتو مشواره نحو الثراء. فقد يتقاضى 1000 أو 2000 يورو إن وصل إلى مكانة رئيس منطقة محلي، أو مشرف على الباعة. وكان عليه أن يسلك طريقاً طويلاً ليصل إلى هنا. أما تعويض الإقدام على القتل فهو 2500 يورو، وفي حال أردت الاختفاء لأن الشرطة بصدد اعتقالك، فستغطي الجماعة مصاريفك لشهر في شمالي إيطاليا، أو بعيداً خارجها. لربما حلم جينارو بأن يكون زعيماً، وبأن يحكم نصف نابولي ويستثمر في كل أنحاء أوروبا.

إن توقفت لبرهة وأخذت نفساً عميقاً سيتسنى لي بسهولة أن أتخيل لقاءهما. على الرغم من أنني لن أميز وجهيهما، على الأغلب أنهما التقيا في مشرب عادي كأحد تلك المشارب اللعينة التي تجدها في ضواحي المدن الجنوبية، والتي يدور حولها وجود الجميع، بدءاً

من الأطفال وحتى من هم في التسعين من عمرهم والمصابين بإعتام عدسة العين. أو لربما التقيا على حلبة رقص، وتمشيا بعدها في ميدان بليبيسيتو، وتبادلا القبل قبل الذهاب كل إلى منزله. ثم التقيا بعدها أيام السبت ليتناولا البيتزا في الريف، وأيام الأحد عندما يقفل الباب بعد الغداء في الوقت الذي يغلب الجميع النعاس، وهم منهكون لكثرة ما تناولوا من طعام. وهكذا دواليك، تماماً كما يحدث دائماً وللجميع. ثم ينضم جينارو إلى صفوف التنظيم، وسيكون ذلك قد تم حين ذهب إلى صديق كاموري له، ووصل إلى تقديم نفسه إلى الديلاوريين، ثم بدأ العمل لديهم. أتصور أن تكون الفتاة قد علمت، وحاولت إيجاد عمل آخر له. فهذا ما يحدث عادة في هذا المكان، حيث تبحث الفتيات في كل مكان عن فرص لأصدقائهن. ولكنها ربما قد تكون نسيت أمر مهنة جينارو، ففي النهاية كانت مهنة كأي مهنة أخرى. سيتسنى لك أن تقود سيارة، وأن تقوم بتوصيل بعض الرزم، وهذه الأشياء الصغيرة التي تبدأ بها كل الأمور. أشياء لا قيمة لها لكنها تتيح لك الفرصة بأن تحيا وتعمل، وفي بعض الأحيان تسمح لك حتى بأن تشعر بالإنجاز والتقدير والرضا. ومن ثم تنتهي علاقتهما.

ومع ذلك، كانت تلك الأشهر القليلة كافية، كافية لأن تربط غيلسومينا بجينارو. لأن تصبح ممن يُقتفى أثرهن وتُكنّ لهن العاطفة. حتى إن كانت علاقتها بجينارو قد انتهت قبل أشهر خلت، فهذا لا يهم. كل هذا مجرد ضرب من التخمين والأوهام، أما الحقيقة التي تبقى فهي أن فتاة قد عذّبت وقتلت لأنها شوهدت تعانق أو تقبل أحدهم قبل عدة أشهر في مكان ما في نابولي. إنه أمر يكاد يستحيل تصديقه، لقد كدحت غيلسومينا كثيراً، شأنها شأن الجميع هنا. فكثيراً ما كانت تضطر النساء الشابات والزوجات إلى إعالة أسرهن بأنفسهن لأن العديد من الرجال كانت تقع في اليأس لسنوات. حتى الناس

الذين يعيشون في سيكونديغليانو - العالم الثالث- لديهم أرواح. فالبقاء دون عمل لسنوات يغيرك، وتقتلك فكرة أن تعامل بصورة مزرية من قبل من هم أعلى منك مرتبة في العمل، أو واقع أن تكون دون عقد عمل، ودون مال، أو أنك تتحول إلى وحش. ففي تلك المرحلة تكون حقاً على الحافة، قريباً من النهاية. لذا، فشأن جميع الأخريات، عملت غيلسومينا في ثلاثة أعمال معاً على الأقل، لتدخر ما يكفيها من المال، وتعطي نصفه لعائلتها. كما أنها تطوعت للمساعدة في رعاية كبار السن. وهو أمر أخذت الصحف تحاول التفوق على بعضها في الثناء عليه، كما لو كانت تتنافس على إعادتها إلى الحياة.

في الحرب يصبح من المستحيل الإبقاء على علاقات أو روابط الحب. فأي إحساس قد يصبح عنصر ضعف. إن الزلزال العاطفي الذي يحدث في حياة الشبان الذين يصبحون أفراداً في الجماعة يمكن استشفافه في المكالمات الهاتفية التي يعترضها رجال الشرطة. كتلك التي جرت بين فرانسيسكو فينوسا وصديقته آن، والتي دونت في أمر الاعتقال الذي أصدره مكتب النائب العام لمكافحة المافيا في نابولي في شباط من عام 2006. كانت المكالمة الأخيرة قبل أن يتغير الرقم، وقبل أن يفر فرانسيسكو إلى لازيو. بداية لقد أرسل رسالة قصيرة عبر جهازه المحمول إلى أخيه، يحذره فيها من الخروج إلى الشارع لأنه مستهدف هناك:

"مرحباً أخي. أحبك. لا تخرج لأي سبب كان، حسناً؟"

ثم كان على فرانسيسكو أن يتصل بصديقته ليخبرها أنه ذاهب بعيداً، ليشرح لها كم هي معقدة حياة رجل ينتمي إلى التنظيم:

"إنني في الثامنة عشرة الآن... هؤلاء الأشخاص لا يمزحون... إنهم يرمونك بعيداً... يقتلونك، آن!"

غير أن آن عنيدة، فهي تريد أن تصبح عنصراً في الشرطة، تريد أن تغير حياتها وتجعل فرانسيسكو يغير حياته أيضاً. إنه لا يعترض على الأقل بخصوص طموح آن المهني، لكنه يشعر أنه قد كبر في السن على تغيير مسيرة حياته.

فرانسيسكو: "لقد أخبرتك، إنني سعيد لأجلك... لكن حياتي مختلفة... وأنا لست بصدد تغيير حياتي

آن: "أوه، برافو، هذا ممتاز... حسناً، ابق تماماً على حالك!"

فرانسيسكو: "آن، آن... لا تكوني هكذا..."

آن: "لكنك في الثامنة عشرة، وبإمكانك أن تتبدل بسهولة... لم استسلمت منذ الآن؟ أنا لا أدري..."

فرانسيسكو: "إنني لست مغيراً حياتي، ولا لأجل أي شيء في العالم"

آن: "صحيح، لأنك بأفضل حال كما أنت"

فرانسيسكو: "لا يا آن، إنني لست بخير هكذا، لكننا في هذه اللحظة في الحضيض، وعلينا استعادة الاحترام الذي فقدناه... في السابق عندما كنا نتجول في الحي، لم يكن أحد يجرؤ على النظر في وجوهنا... أما الآن فالجميع يرفعون رؤوسهم عالياً أمامنا"

بالنسبة إلى فرانسيسكو المنتمي إلى الإسبان، كانت أعظم إهانة أن لا تُرهب قوتهم أحداً. لقد عانوا من خسارات متعددة، لذا فقد أصبح الآن كل من في الجوار ينظر إليهم على أنهم مجموعة من القتلة عديمي القيمة، وكاموريون فاشلون، وهذا لا يطاق. عليه أن يبدي رد فعل حتى لو كان ثمنه حياته. آن بدورها تحاول أن توقفه، أن تجعله يشعر أنه ليس محكوماً بكل هذا مسبقاً. فتقول له:

آن: "لست مضطراً لأن ترمي نفسك في خضم تلك المعمعة، بإمكانك أن تحيا وتكون بخير...

فرانسيسكو: "لا، أنا لا أريد أن أغير حياتي..."

هذا الانفصالي الشاب يرتعد خوفاً من أن يلاحقها الديلاوريون، لكنه يحاول طمأنتها مجدداً عبر إخبارها بأنه صادق الكثير من الفتيات لذا فلن يربط أحد بينهما. ولكن الرومانسية التي في داخله تتحرك فيعترف لها بأنها الوحيدة التي أغرم بها، فيقول:

فرانسيسكو: "لقد اعتدت أن أخرج مع ثلاثين امرأة معاً في الحي، لكنني الآن معك وحدك..."

أما آن فشأنها شأن كل فتاة، بدا أنها قد نسيت كل المخاوف من الانتقام، وأخذت تفكر فقط في الكلمات الأخيرة التي قالها فرانسيسكو فتجيبه:

آن: "أود أن أصدقك"

تستمر الحرب. ففي 24 تشرين الثاني من عام 2004 يقتل سلفاتور أبينانته بطلقة في وجهه. إنه ابن أخ رفاييل أبينانته، رجل من الإسبان، وواحد من قادتهم، وينتمي إلى مارانو، من مقاطعة نوفوليتا. فلأجل المشاركة الفاعلة في سوق سيكونديغليانو، قام رجال مورانو بنقل العديد من أعضاء التنظيم مع عائلاتهم إلى حي مونتي روزا، وبالتالي فإن رافاييل أبينانته متهم بكونه قائد مجموعة المافيا هذه، المزروعة في قلب سيكونديغليانو. لقد كان واحداً من أكثر الشخصيات البارزة في إسبانيا، حيث كان قائداً لمنطقة كوستا ديل سول. في عملية ضخمة تمت في عام 1997، صودر فيها 2500 كيلو من الحشيشة، و1020 كيلو من حبوب الإثارة، و1500 كيلو كوكايين، أثبتت السلطات حينها أن اتحاد أبينانته ونوفوليتا في نابولي كان يدير تقريباً جميع عمليات الإتجار بالمخدرات الكيميائية في إسبانيا وإيطاليا. وبعد مقتل سلفاتور أبينانته، كانت هناك مخاوف من أن تتدخل جماعة نوفوليتا، وأن يكون

لدى كوسا نوسترا ما تقوله بشأن صراع سيكونديغليانو. لكن شيئاً لم يحصل، على الأقل لا شيء يحمل طابع العنف. لقد فتح عناصر النوفوليتا حدودهم للانفصاليين، متيحين لهم فرصة الهرب، كان هذا هو الانتقاد الذي صرح به رجال كوسا نوسترا في كامبانيا تجاه حرب كوسيمو. وفي 25 تشرين الثاني، أردى الديلاوريون أنتونيو إسبوسيتو قتيلاً في متجر البقالة خاصته. عندما وصلت إلى مكان الحدث، كانت جثته لا تزال ملقاة هناك، وسط قوارير المياه وعلب الحليب. لقد رفعه اثنان من سترته وقدميه، ووضعاه في كفن معدني. وبعد أن انطلقت عربة نقل الجثث، ظهرت امرأة في المتجر، أخذت تلتقط علب الحليب عن الأرض، وتنظف الدم الذي ارتشق على زجاج برادات اللحم المثلج. لقد تركها رجال الشرطة وشأنها، فقد سبق لهم أن جمعوا الأدلة التي يحتاجون إليها من آثار الرصاصات، والبصمات، أما جميع المعلومات الأخرى فقد سجلت عبثاً في الدفاتر. لقد عملت تلك المرأة طيلة الليل لتعيد الأمور إلى نصابها في المتجر. وكأن إصلاح المكان من شأنه أن يلغي ما حدث، وكأن إعادة علب الحليب إلى الرف، أو تسوية أكياس المأكولات السريعة، يمكنها أن تحوّل ثقل الموت الذي حصل، وأن تحصره في تلك الدقائق وحدها التي حصل خلالها الكمين.

في هذه الأثناء انتشرت إشاعة في سكامبيا بأن كوسيمو ديلاورو يعرض 150,000 يورو مقابل معلومات أساسية عن مكان تواجد جينارو مارينو مكاي. كانت مكافأة ضخمة، ولكن ليست ضخمة كفاية بالنسبة إلى إمبراطورية اقتصادية كتنظيم سيكونديغليانو، لقد كانت تلك رغبة ماكرة في إظهار عدم إعطائهم قيمة كبيرة لعدوهم، لكن أحداً لا يبتلع الطعم. لقد وصلت الشرطة هناك أولاً، حيث كان جميع القادة الانفصاليين الذين ما زالوا في المنطقة مجتمعين

في الطابق الثلاثين من بناء موجود في فيا فراتيللي سيرفي. وكإجراء وقائي فقد صفوا صفائح معدنية كدرع في سلم المبنى، ونصبوا أبواباً مدعمة بالمعدن بالإضافة إلى قفص يحكم إغلاق أعلى الدرج. حين أحاطت الشرطة بالمبنى، تحوّل ما كان قد صمم لحمايتهم من هجمات عدوهم النهائية، إلى شرك حكم عليهم بالجلوس فيه، عاجزين عن الإتيان بأي فعل، بينما كانت المطحنة تقطّع الحواجز المشبّكة، وتدك الأبواب الفولاذية. وبانتظار أن يتم القبض عليهم، ألقوا خارج النافذة بحقيبة ظهر تحوي رشاشاً أتوماتيكياً، وبضعة مسدسات، وقنابل يدوية. وفي أثناء سقوطها أطلق الرشاش الرصاص، ما أدى إلى أن تمس إحدى تلك الطلقات رقبة شرطي كان يقوم بحراسة المبنى، وكأنها كانت تداعب مؤخر عنقه. أصبح الرجل غاية في العصبية إلى حد أنه قفز وهو غارق في العرق، وأخذ يعاني من نوبة قلق عنيف، ويتنفّس بطريقة عصبية، فالموت بسبب طلقة مرتدة بصقها رشاش أوتوماتيكي ألقي به من الطابق الثلاثين، هو سيناريو للأحداث لا يضعه المرء في حسبانه عادة. أخذ الرجل يتحدث إلى نفسه بطريقة شبه هذيانية، موجهاً الإهانات إلى الجميع، مغمغماً بأسماء، وملوحاً بيديه وكأنه يحاول طرد البعوض من أمام وجهه:

"لقد سربوا المعلومات. لم يكن باستطاعتهم الدخول إلى هنا، فسربوا إلينا المعلومات وأرسلونا إلى هنا عوضاً عنهم... لقد خُدعنا، إننا ننقذ حياة هؤلاء الأشخاص هنا. فلنتركهم وليحزوا أعناق بعضهم بعضاً. فليدقوا أعناق الجميع، لِمَ نهتم نحن بحق الجحيم؟"

وأشار عليّ زملاؤه بأن أغادر المكان. في تلك الليلة ألقوا القبض في المنزل الذي في فيا فراتيللي سيرفي على أركانجيلو أبيته، وشقيقته آن، وماسيميليانو كافاسو، وسير ماوريللو، وصاحب مينا فيرديه السابق جينارو نوتورنو، وعلى رفاييل نوتورنو. لكن السبق الحقيقي كان في

اعتقالهم زعيم الانفصاليين جينارو مارينو مكاي. وإذ كان الهدف الرئيسي في الصراع، هو آل مارينو، فقد أشعلوا النار في ممتلكات جينارو ومنها: مطعم أوركيديا في فيا دياكونو في سيكونديغليانو، ومخبز يقع في كورسو سيكونديغليانو، ومطعم للبيتزا في فيا بييترو نيني في أرزانو، بالإضافة إلى منزله، وهو على شكل بيت ريفي روسي يقع في فيا ليميتون دارزانو. ففي إقليمه المعزز بالإسمنت، ذي الشوارع المتهالكة، والمجارير المعيقة للحركة، وأضواء الشوارع المتقطعة، اقتطع زعيم كاسه سيليتي لنفسه زاوية حوّلها إلى مأوى جبلي. لقد بنى فيلا من الخشب الثمين، وزرع في المساحة المحيطة بها نخيلاً ليبياً من النوع الأغلى ثمناً. لقد قال أحدهم إنه قد سافر إلى روسيا في رحلة عمل، فوقع في غرام الداتشا، وهو المنزل الريفي الذي استضيف فيه. ما من شيء في ذلك الوقت، وما من أحد كان يمكنه أن يمنع جينارو من أن يبني داتشا خاصة به في قلب سيكونديغليانو. لم يكن هذا دليلاً على مدى قوة عمله فحسب، بل كان كذلك وعداً بالنجاح لكل صبيانه الذين إن عرفوا كيف يتصرفون، فقد يتمكنون يوماً ما من الحصول على رفاهية كهذه، حتى وإن كانت في ضواحي نابولي، وحتى إن كانت على الساحل الأكثر قتامة للبحر الأبيض المتوسط. والآن كل ما تبقى من الداتشا هو هيكل إسمنتي وعوارض خشبية متفحمة. أما غايتانو أخو جينارو، فقد عثرت عليه الشرطة في غرفة في لاسيرتوسا، وهو فندق مترف فخم في ماسا لوبرينس. فلكي لا يعرض سلامته للخطر، فضل أن ينأى بنفسه عن الصراع بطريقة غير اعتيادية، وبأن يدخل في جحر هذه الغرفة المتاخمة للبحر. وعندما وصلت عناصر الشرطة، قال لهم المساعد الشخصي لغايتانو، وهو ينظر إليهم ببرودة ملأت عينيه: "لقد أفسدتم عطلتي

غير أن القبض على الإسبان لا يوقف نزف الدماء. فيقتل

جوزيبيه بينتشفينا في 27 تشرين الثاني، وفي يوم 28 يطلقون النار على ماسيمو دي فيليس، وفي الخامس من كانون الأول كان دور إنريكو مازاريللا.

يسبب التوتر نوعاً من الحواجز بين الناس، ففي الحرب لا يمكنك السماح لنظرك بأن يشت. فكل وجه، فعلاً كل وجه يجب أن يشير إلى شيء ما، وعليك أنت أن تحل شيفرته، وأن تحدده بعينيك، وبصمت. عليك أن تعلم تماماً، أي المتاجر تدخل، وأن تكون واثقاً من صحّة كل كلمة ستنطق بها. وقبل أن تقرر الذهاب في نزهة سيراً على الأقدام مع أحدهم، أنت بحاجة إلى أن تعلم من هو. يجب عليك أن تكون أكثر من متيقن، وأن تزيل كل احتمال لأن يكون بيدقاً على رقعة شطرنج الصراع. فأن تتمشى إلى جانبه، وتتحدث إليه سيعني أنك تشاركه الميدان. في الحرب تتضاعف عتبة تنبه الحواس جميعها، وكأن درجة تلقيك للأمور تصبح أكثر حدة، فتحلّل الأشياء بصورة أعمق، بل وتشمها بشكل أكثر كثافة، على الرغم من أن كل هذه الحيل ستذهب إلى العدم عندما يصدر الأمر بالقتل. فعندما يقومون بضربتهم، لا يقلقهم من سينقذون، ومن سيدينون. في تسجيل لمكالمة هاتفية أجراها روساريو فوسكو، والذي يزعم أنه قائد إقليم لدى الديلاورو، بدا فيها الرجل متوتراً بشكل ملحوظ على الرغم من أنه كان يحاول أن يبدو مقنعاً بالنسبة إلى ابنه:

"لا يمكنك الخروج مع أي كان، يجب أن يكون هذا واضحاً بالنسبة إليك. فكما كتبت لك، استمع إلى والدك، وإن أردت الخروج والتنزه مع فتاة ما فلا بأس بذلك، لكن فقط لا تستطيع تمضية وقتك متجولاً مع الشبان، لأننا لا نعلم مع من هم، أو إلى أي فرقة ينتمون. وإن أرادوا أن يفعلوا بهذا الشخص شيئاً وأنت قريب منه، فسيقضون عليك أنت أيضاً. أنت تفهم الآن ما هي المشكلة، والدك ينصحك

فاستمع إليه...

المشكلة تكمن في أنه ما من أحد يتحمل أن يظن الآخرون أنه غير معني بما يحصل. فلن يكون كافياً أن تعتقد أن الطريقة التي تحيا بها حياتك ستحميك من كل خطر. ولم يعد كافياً بعد الآن أن تقول "إنهم يفنون بعضهم" فخلال صراع كامورا، حتى البنيان الأكثر صلابة معرض للخطر، ويصبح وكأنه سياج رملي يتلاشى تحت وطأة تيار مائي متدفق بقوة نحوه. إنك ترى الناس يحاولون المضي في حياتهم دون أن يلحظهم أحد. أن يقلصوا حضورهم في هذا العالم إلى أدنى درجة ممكنة، فيرتدون ثياباً غير واضحة الألوان، وتتبرج النساء تبرجاً خفيفاً. لكن هذا ليس كل شيء، فحتى الشخص الذي يعاني من نوبات الربو يلزم منزله لأن لا قدرة له على الجري إن تطلب الأمر ذلك. لكنه في النهاية يجد عذراً ما ليخرج من المنزل، يخترع دافعاً لذلك لأنك حين تحبس نفسك في منزلك سيبدو ذلك وكأنه إقرار منك بأنك مذنب في شيء ما، والله أعلم بماذا! وهو على أي حال اعتراف بأنك خائف. حتى النساء يمتنعن عن انتعال الأحذية ذات الكعوب العالية لأن الركض فيها صعب للغاية. حين تكون الحروب غير معلنة رسمياً، ولا تقر بها الحكومات، ولا يسجلها المراسلون الإعلاميون، عندئذ فلا أحد يتلفظ بمخاوفه. إنها تختبئ تحت جلدك، وتعطيك شعوراً بالانتفاخ شبيهاً بالذي ينتابك بعد تناولك وجبة ضخمة، أو بعد ليلة أمضيتها في احتساء الشراب الرخيص. ذاك خوف لا يتفجر على صفحات الجرائد أو في اللوحات الإعلانية، فلا وجود لاجتياحات، ولا لسماء تتلبد بالطائرات. إنها حرب تشعر بها في داخلك، تكاد تشبه الرُّهاب. أنت لا تعلم إن كان يجدر بك إظهار خوفك أم إخفاؤه، إذ ليس باستطاعتك أن تقرر ما إن كنت تبالغ في تصوير الموقف أم في الحقيقة تبخس من تقدير الواقع. ليس هناك صفارات إنذار لتحذرك،

ومع ذلك فأكثر المعلومات تضارباً تجد طريقها للانتشار بين الجميع. إنهم يقولون إن حرب كامورا تدور بين العصابات، وإنهم سيجهزون على بعضهم بعضاً، لكن في الواقع ما من أحد يستطيع أن يعرف الحدود الفاصلة بين من هم، ومن ليسوا هم. حتى عربات الجيب التابعة للشرطة، والحواجز الطرقية التي يقيمونها، وطائراتهم العامودية التي تحوم فوق رأسك طوال الوقت، جميعها لا تريحك، بل تكاد تبدو وكأنها تقلّص من ساحة المعركة. إنها لا تمنحك شعوراً بالاطمئنان، بل تنقص من الفضاء من حولك، تحيط بك وتزيد من حصر الصراع في منطقة محددة، حتى لتشعر وكأنك واقع في الشرك جنباً إلى جنب مع الآخرين، وتصبح حرارة الشخص الذي إلى جانبك عبئاً لا يحتمل.

لقد اعتدت أن أركب دراجتي الفيسبا عبر حجب التوتر القاتمة هذه. وكان تفتيشي في سيكونديغليانو يتم على الأقل عشر مرات يومياً. ولو أنهم وجدوا معي ولو حتى مطواة صغيرة لأجبروني على ابتلاعها. في البداية توقفني الشرطة، ثم جنود من الجيش، وأحياناً الشرطة المالية كذلك، ومن ثم الديلاوريون، والحراس الإسبان. وجميعهم يملكون السلطة المطلقة ذاتها، ويستخدمون الإيماءات الآلية ذاتها والعبارات المتماثلة. بالنسبة إلى ضباط قوى الأمن فهم يلقون نظرة على رخصة قيادتي ثم يفتشونني، أما الحراس فيفتشونني أولاً ثم يطرحون عليّ الكثير من الأسئلة، مصغين إلى أدنى تقلب في اللهجة كيما يكتشفوا مواطن الكذب. وعندما يحمى وطيس الصراع، يفتش الحراس الجميع، ويقحمون رؤوسهم في كل سيارة، ويفهرسون الوجوه، ويتأكدون من تجرّد الجميع من السلاح. فبداية يقترب منك \الموتوريني، ثم الذي يفتش حتى روحك، ثم الدراجات النارية، وأخيراً تتعقبك السيارات.

لقد رفع الأطباء شكوى فحواها، أنه كان عليهم الترجل من عربة

الإسعاف قبل أن يتمكنوا من مساعدة أحد ما، أياً كان، ليس المصاب بعيار ناري فحسب، لكن حتى السيدة المسكينة المسنّة التي انكسر عظم حوضها، أو من كان ضحية لنوبة قلبية، وذلك خضوعاً للتفتيش، وترك الحراس يتأكدون من أنها عربة إسعاف فعلاً لا عربة لإخفاء الأسلحة، والقتلة، أو الهاربين. فشعار الصليب الأحمر غير متعارف عليه في حروب كامورا، وما من جماعة قامت بتوقيع اتفاقيات جنيف. فحتى سيارات الجيش التي لا تحمل علامة معرضة هي للخطر. فحين اعتقد خطأ أن بعض الضباط المتخفين بثياب مدنية هم من الغرماء، انطلقت الرصاصات لتشق سيارتهم، وتجرح عدداً منهم. بعد هذه الحادثة ببضعة أيام، ظهر أمام الثكنات صبي يحمل حقيبة تحوي ثيابه الداخلية، وقد كان يعرف تماماً ما عليه فعله في أثناء اعتقاله. لقد اعترف بكل شيء مباشرة، ربما لأن العقاب الذي ينتظره جراء إطلاقه النار على الجنود، كان أسوأ بكثير مما سيلقاه في السجن، أو ربما أن الجماعة على الأرجح قد وعدته بأن تدفع له مستحقاته، بالإضافة إلى نفقاته القانونية، ما جعله يسلم نفسه، وذلك لتجنب إشعال فتيل أي صراعات شخصية بين الرجال ذوي البزات الرسمية، والكاموريين. وما إن أصبح داخل الثكنة، حتى أعلن الصبي من فوره ومن دون تردد: "لقد ظننتهم من الإسبان، لذا فقد أطلقت النار عليهم"

في 7 كانون الأول، استفقت ثانية على رنين الهاتف في منتصف الليل. لقد كان مصور صديق لي يتصل ليخبرني عن الغارة. لم تكن أي غارة، بل هي الغارة التي كان السياسيون المحليون والوطنيون يطالبون بها كرد على ذاك الصراع المستعر.

سيكودنيغليانو محاطة الآن بآلاف الضباط. منطقة واسعة، لقبها تيرزو موندو، كانت تحكي كل شيء. شأنها شأن الكتابة المرسومة

على الحائط قرب مدخل الشارع الرئيسي والتي تقول: "العالم الثالث، ممنوع الدخول" إنها عملية إعلامية ضخمة، وكل من سكامبيا، ميانو، وبيسينولا، وسان بييترو أباتيرنو، وسيكونديغليانو، جميعها ستغزوها جموع الصحفيين، وأطقم المحطات التلفازية. بعد عشرين عاماً من الصمت، ستحيا كامورا فجأة من جديد. غير أن الافتقار إلى الاهتمام المتواصل والثابت معناه أن أدوات التحليل قديمة وبالية. وكأن الدماغ كان في حالة سبات منذ عشرين عاماً وهو يبدأ الآن فقط بالصحو. وكأن رفاييل كاتولو ما زال يتعامل مع كامورا، كما لا يزال منطق المافيا التي تفجر الطرقات السريعة لتقتل القضاة. أما اليوم فقد تغير كل شيء ما عدا أعين المراقبين، مهما كانوا متمرسين. من بين أولئك الذين ألقي القبض عليهم كان سيرو ديلاورو، أحد أبناء الزعيم باولو ديلاورو، والذي يذكر البعض أنه محاسب الجماعة. لقد حطم الجنود الباب، مفتشين الجميع وموجهين بنادقهم إلى وجوه الفتية الموجودين هناك. كان كل ما تمكنت من رؤيته هو ضابط يصرخ على فتى كان يوجه سكيناً نحوه بأن يلقي سكينه، قائلاً:

"ألقها! ألقها! الآن! الآن! ألق بها!"

يلقي الفتى السكين، فيركلها الضابط بعيداً، وبينما تقفز السكين عن اللوح تنطوي شفرتها على مقبضها، لقد كانت سكيناً بلاستيكية من سكاكين شخصيات سلاحف النينجا. في هذه الأثناء كان الآخرون يفتشون، ويصورون، وينقبون في كل مكان. لقد هدمت الكثير من المعاقل، ونقبت جدران الإسمنت المسلح لتظهر المخدرات المخبأة تحت السلالم. أما البوابات التي تغلق أجزاء كاملة من الشارع فقد أطيح بها لتكشف عن مستودعات المخدرات.

مئات النساء تدفقن إلى الشوارع، ليضرمن النار في حاويات القمامة، ويرمين أغراضاً على سيارات الشرطة. لقد كانوا يعتقلون

أبناءهن، وأبناء إخوتهن، وجيرانهن، وجميع رؤسائهن في العمل. إلا أنني لم أشعر من قسمات وجوههن أو حتى من كلماتهن الغاضبة، وأوراكهن الملفوفة بإحكام في سراويلهن الرياضية التي تبدو على وشك الانفجار بأن هذا التصرّف كان مجرد نوع من التماسك بين المجرمين، بل كان ينبع من فكرة أن سوق الإتجار بالمخدرات كانت تزود معظم قاطني سيكونديغليانو بموارد الدعم لحياتهم، بالرغم من أنها بقيت في الحدود الدنيا. الوحيدون الذين يعرفون الثراء، ويجنون مكاسب أسّية، هم رجال الأعمال في الجماعة. الباقون كافة، أولئك الذين يعملون في البيع، والتخزين، والإخفاء، والحماية جميعهم لا يحصلون على أكثر من رواتبهم العادية، على الرغم من أنهم يخاطرون بالاعتقال، وتمضية شهور بل وسنوات في السجن. كانت وجوه النساء كأقنعة من الغضب العارم. غضب له مذاق حموضة المعدة. غضب كان بمثابة دفاع عن إقليمهنّ، واتهام موجه ضد أولئك الذين لطالما اعتبروه غير موجوداً وتائهاً، وكأنه مكان عليهم نسيانه.

إن انتشار الجنود الضخم هذا لتطبيق القانون ونشر النظام يبدو وكأنه عملية ملفّقة. وصولهم المفاجىء هذا، وفقط بعد حوادث موت لا حصر لها، وفقط بعد أن عذبت فتاة محلية وأحرقت، كان بالنسبة إلى النساء هنا مضرجاً بالسخرية. فالاعتقالات والبلدوزرات لم تأت لتغير مجرى الأمور، بل لتساعد كل من يحتاج الآن إلى القيام بالاعتقالات وهدم الجدران. وكأن أحداً ما قد غير بشكل مفاجئ مقولات التفسير وأصبح الآن يعلن أن حياتهم جميعاً غير صحيحة. لكن بالنسبة إلى النساء فهن يعلمن تماماً أن كل شيء هنا غير صحيح، ولم يكنّ ذلك بحاجة إلى طائرات مروحية أو عربات مصفحة لتذكرهن بذلك، بل وحتى تلك اللحظة كان هذا الخطأ هو النمط الأساسي لحياتهنّ، وصيغة النجاة لديهنّ. إضافة إلى أنه وبعد هذا الانفجار الذي سيكون

كفيلاً فقط بتعقيد حياتهن، ما من أحد سيلقي بالاً ويبذل أي جهد حقيقي لتحسين الأوضاع. ولذلك تدافعت هذه النسوة بدافع الحرص على منعزلهن المنسي وحياتهن غير الصحيحة، مطاردات أولئك الذين أصبحوا بغتة مدركين لوجود الظلام في هذا المكان.

يجلس الصحفيون متربصين بانتظار سياراتهم، فهم يحرصون على ألا تطأهم أحذية الجنود. ولا يبدأون بتغطية الغارة إلا حين ينتهي كل شيء. وفي نهاية العملية أضحى ثلاثة وخمسون شخصاً مكبلين بالأغلال، وأصغرهم كان في الربيع التاسع عشر من عمره. جميعهم كبروا في الحقبة الجديدة لنابولي، في الأبعاد السياسية الجديدة التي ظهرت في نهايات 1990، والتي كان يفترض بها أن تبدل مصير الناس. كانوا كافة يعلمون ما يتوجب عليهم القيام به عندما قيدهم الجنود وحمّلوهم في عربات السجن: عليهم الاتصال بهذا المحامي أو ذاك، والانتظار إلى حين يصل الراتب الذي تدفعه الجماعة إلى أُسَرهم في الثامن والعشرين من كل شهر، ومع علب المعكرونة لزوجاتهم وأمهاتهم. أما الرجال الذين لديهم أبناء مراهقون فمخاوفهم هي الأكبر، لأنهم لا يعلمون الآن ماهية الدور الذي سيسند إلى أبنائهم. لكن، لن يكون لهم أي رأي أو قول في هذا الموضوع.

مكتبة الرمحي أحمد

وبعد انتهاء الغارة، لم تعرف الحرب أي هدنة. ففي 18 كانون الأول، يلقى باسكال غالاسو، المسمى تيمناً وهو أحد أكثر الزعماء نفوذاً في التسعينيات، يلقى مصرعه خلف منضدة إحدى الحانات. في 20 كانون الأول يقتل فينسينزو إيورو في مطعم للبيتزا. وفي يوم 24 يقتلون جوزيبيه بيزيللا، البالغ من العمر أربعةً وثلاثين عاماً. لقد حاول الاحتماء في إحدى الحانات إلا أنهم أفرغوا فيه مشطاً كاملاً من الذخيرة. ومن ثم كان هنالك فترة توقف لأجل ذكرى الميلاد،

فصمتت مدافع الحرب. لقد أرادوا إعادة تنظيم صفوفهم، وإرساء بعض القواعد، واختراع استراتيجيات لهذه الصراعات شديدة الاضطراب. في 27 كانون الأول يقتل إيمانويل ليون برصاصة في رأسه، كان عمره 21 عاماً. وفي 30 كانون الأول يجهز الإسبان على أنتونيو سكافورو، وهو في السادسة والعشرين من العمر، ويصيبون ولده برصاصة في ساقه. كان ذنبه أنه من أقرباء رئيس منطقة كاسافاتور لدى الديلاورو.

كان أكثر الأمور تعقيداً هو في فهم كيف كان ممكناً للديلاوريين أن يشنوا حرباً ويربحوها. أن يوجهوا ضربتهم، ثم يختفوا. أن يحتجبوا بين الناس، ويضيعوا بين الأحياء. لقد أصبحت مناطق لوتو تي، ولي فيليه، وباركو بوستال، ولي كاسه سيليستي، ولي كاسه دي بوفي، وتيرزو موندو جميعها كالأدغال، كغابات مطرية من الإسمنت المسلح، حيث يسهل الاختفاء، والاندماج بين الجموع. لقد فقد الديلاورو قياداتهم العليا كافة، ورؤساء المناطق، ومع ذلك تدبروا أمر شن حرب طاحنة دون أن يعانوا من خسائر حقيقية. كانت الحال كما لو أن حكومة أطاح بها انقلاب وأصبحت دون رئيس، قد قررت أن الطريقة التي تضمن لها حفظ قوتها وحماية مصالحها هي في تسليح صبية المدارس، وسحب سعاة البريد، والخدم المدنيين، والموظفين في الدوائر الحكومية، لمنحهم إذن الدخول إلى مركز القوة الجديدة، عوضاً عن إحالتهم إلى مرتبة أعضاء عاديين.

عبر جهاز تنصت زرع في سيارة أوغو ديلوسيا، وهو شخص عظيم الولاء للديلاورو والقاتل المزعوم لغيلسومينا فيرديه، تم الاستماع إلى محادثة تضمنها في أمر قضائي صدر في كانون الأول من عام 2004، جاء فيها:

"إنني لا آتي بحركة دون أن تأتيني الأوامر، هكذا أنا!"

الجندي المثالي يعرض طاعته الكاملة لكوسيمو. ومن ثم يعلق

على حادثة قد جرح فيها أحدهم، فيقول:

"كنت لأقتله، ما كنت لأكتفي بإطلاق النار على ساقه. لو كنت هناك لتناثر دماغه كقطع اللب، أتعلم!... دعنا نستخدم الحي التابع لي، إن الأحوال هادئة هناك وستتمكن من العمل..."

أوغاريللو، كما هو معروف في منطقته، لم يكن مطلقاً ليجرح فحسب، بل كان ليقتل.

"برأيي إننا أصبحنا الوحيدين الآن، فلنجتمع كلنا معاً... جميعنا في مكان واحد... خمسة في أحد البيوت... خمسة في بيت آخر، وخمسة في ثالث. وأنت ترسل في طلبنا فقط عندما تحتاج إلى أن نذهب لننسف رأس أحدهم!"

إن أوغاريللو يقترح أن يكوّنوا فرقاً ضاربة، أو فرقاً من الصيادين كما يدعوهم الكاموريون. رجال يختبئون في منازل آمنة ولا يغادرونها البتة إلا لأجل القيام بضربة جديدة. غير أن محادثه بيترون لا يبدو مسترخياً بقدره هو، إذ يجيب:

"صحيح، لكن إن انتهى الأمر بأحد هؤلاء السفلة إلى إيجاد مكان أحد الصيادين، إن حدد موقعنا ولاحقنا فسيسحقون رؤوسنا... دعنا على الأقل نقتل البعض منهم بعد، قبل أن نموت، أتفهم ما أعنيه؟ على الأقل دعني أمحو أربعة، أو خمسة منهم من الوجود!"

إن الوضع المثالي من وجهة نظر بيترون يتمثل في قتل أولئك الذين لا يعلمون أن أمرهم قد كشف:

"أبسط طريقة لقتلهم هي عندما يكونون مع الرفاق، تدعوهم إلى سيارتك، ثم تجهز عليهم جميعاً"

إنهم يفوزون لأن فرص الإيقاع بهم عندما يوجهون ضربتهم أقل حظاً، وأيضاً لأنهم يتوقعون ماهية مصيرهم. ولكن قبل أن تحل

نهايتهم، عليهم أن يوقعوا أكبر عدد من الخسائر لدى العدو. إنهم يتعاملون بمنطق الكاميكاز، لكن دون تفجيرات. إنها الاستراتيجية الوحيدة التي توفر أي فرصة للربح عندما تكون ضمن الأقلية. فهم يضربون مباشرة دون انتظار، وحتى قبل تشكل الصيادين.

في 2 كانون الثاني من عام 2005، أقدموا على قتل كريسنزو مارينو، والد مكاي. وجد مرمياً بلا حراك في سيارته وكانت الموديل الأغلى من سمارت. إنها طريقة غير مألوفة لقتل رجل في الستين من عمره، لربما ظن أنها ستخدع المراقبين. لقد وجهوا إليه طلقة واحدة في وسط جبهته تماماً، فجرى خط دم رفيع إلى أسفل وجهه. ربما ظن أنه لن يكون خروجه لثانية فقط بالأمر الخطير، مجرد دقائق معدودة، لكنه كان كذلك. في اليوم ذاته، قتل الإسبان سلفاتور بارا في مشرب في كازافاتور. لقد كان ذاك في اليوم الذي وصل فيه كارلو أزيغليو سيامبي، رئيس الجمهورية الإيطالية، إلى نابولي ليسأل المدينة أن تستجيب، وتقدم كلمات التشجيع المؤسساتية، وتعبر عن دعمها للولاية. في ذلك اليوم حدثت ثلاثة كمائن في ساعات زيارته.

في الخامس من كانون الأول، لقيت كارميلا أتريس حتفها برصاصة في وجهها. إنها والدة الانفصالي فرانسيسكو بارون أووروسو، أي الروسي، والذي ذكرت التحقيقات أنه مقرب من آل مكاي. ولأنها لم تكن تغادر منزلها، فقد استخدموا طفلاً كطعم، قام برن الجرس. وبما أنها تعرفه فلم يخطر ببالها وجود أي خطر، لذا فقد نزلت السلالم وفتحت له الباب، وإذا بأحدهم يلصق ماسورة المسدس في وجهها. لقد تدفق الدم والدماغ من رأسها كما لو كان بيضة مكسورة.

عندما وصلت مسرح الجريمة في كاسه سيليستي، لم تكن الجثة قد غطيت بعد. كان الناس يخوضون في دمها وهم يمشون، مخلّفين آثاراً لأقدامهم في كل مكان. ابتلعت ريقي بصعوبة، محاولاً تهدئة

معدتي. كارميلا أتريس لم تهرب على الرغم من أن الآخرين حذروها. لقد كانت تعلم أن ابنها من الإسبان، لكن حرب كامورا مترعة بالكثير من عدم اليقين من شيء، لا شيء محدد، ولا شيء واضح، والأشياء لا تصبح حقيقية إلا عندما تحصل فعلاً. ففي ديناميكية القوى، تلك القوى المطلقة، لا وجود لشيء ما لم يكن ملموساً. ولذلك فالفرار، والبقاء، والهروب، والمعلومات تبدو كلها كخيارات معلقة، وبالغة الغموض. وكل نصيحة يمكن أن يتلقاها المرء، ستجد توأماً معاكساً لها تماماً. الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يجعلك تقرر هو حدوث أمر ملموس، لكن حينها عندما يحصل فعلاً، كل ما بإمكانك فعله هو القبول بذاك القرار.

عندما تموت في الشارع، تصبح محاطاً بصخب هائل، فليس صحيحاً أنك تموت وحدك. الكثير من الوجوه غير المألوفة ستحيط بك، وتقترب منك حتى أنفك، وتلمس ذراعيك وساقيك للتأكد من أنك ميت حقاً أم أن الوضع يستحق استدعاء سيارة إسعاف. جميع الوجوه لأولئك الذين جروحهم خطيرة، أو أولئك الذين يصارعون الموت، جميعها تتشاطر الخوف نفسه، والعار نفسه. قد يبدو ذلك غريباً، لكنك ترى في لحظة الموت نوعاً من العار والإذلال. يدعونه هنا لو سكورنو، إنه شبيه بعض الشيء بأن تكون عارياً في العلن. ذاك هو الإحساس المرافق لإصابتك بشكل قاتل في الشارع. بالنسبة إليَّ، لم أعتد يوماً مشاهدة ضحايا جرائم القتل. أما الممرضون ورجال الشرطة فجميعهم يبقون هادئين وجامدين، يقومون بالإجراءات التي حفظوها عن ظهر قلب بغض النظر عن الشخص الذي يتعاملون معه، وأياً كان ذاك. لقد قال لي سائق عربة جثث شاب مرة: "لدينا جلد يغلف قلوبنا، ويبطن معداتنا" عندما تصل إلى هناك قبل سيارة الإسعاف، من الصعب أن تحول نظرك عن الضحية حتى وإن كنت

تتمنى لو أنك لم ترها في حياتك. لم أفهم يوماً كيف أن هذه هي الطريقة التي يموت بها المرء. لا بد أنني لم أكن قد تجاوزت الثالثة عشرة، عندما شاهدت شخصاً ما مقتولاً، إذ ما زال المشهد حياً في ذهني. إنني أتذكر تلك الحادثة لأنه في طريقي إلى المدرسة يومها واجهت تماماً جثة رجل ميت. لقد كنا خمسة نحمل على ظهورنا حقائبنا المدرسية المملوءة بالكتب، وذاهبين في طريقنا إلى المدرسة عندما مررنا بألفيتا وقد تغربل جسده بالطلقات. كان أصدقائي في قمة الفضول فأسرعوا ليتفرجوا عليه. كانت قدماه مستندتين إلى المقعد ومتجهتين إلى الأعلى. فاستجمع أجرأُنا شجاعته وتقدم ليسأل الجندي عن سبب وجود القدمين في المكان الذي يفترض أن يوجد فيه الرأس. ولم يتردد الضابط بالإجابة، وكأنه لم يدرك كم كان عمر الفتى الذي يسأله، فقال:

"لقد قلبه الرذاذ رأساً على عقب"

على الرغم من أنني كنت مجرد طفل حينها، إلا أنني أدركت أن الرذاذ كان يعني نيران مدفع رشاش. لقد تلقى الكاموري ضربات عديدة لدرجة أنه انقلب، فأصبح رأسه إلى الأسفل وقدماه عالياً في الهواء. وعندما فتح الجندي باب السيارة، سقطت الجثة على الأرض كقطعة جليدية ذائبة. لقد راقبنا الموقف دون أن يزعجنا أحد، ودون أن يقول لنا أحد إن هذا ليس بمشهد للأطفال، ودون أي يد أخلاقية تغطي عيوننا. ما إن رأت ليندا، وهي فتاة من مجموعتنا، الجثة وهي تنزلق من خلف مقود السيارة حتى أجهشت بالبكاء واختبأت خلف اثنين من الصبية. كان بكاؤها مخنوقاً إنما كافياً لأن يسمعه ضابط شاب بثياب مدنية، والذي أمسك بالقتيل من شعره وبصق في وجهه ثم استدار إلينا وقال:

"لا، لِمَ البكاء؟ لقد كان هذا الشخص حقيراً حقاً. لم يحصل

شيء، كل شيء على ما يرام، لم يحدث شيء فلا تبكي

منذ ذلك الحين، وأنا أجد صعوبة في تصديق تلك السيناريوهات التي تروى عن شرطة البحث الجنائي الذين يضعون القفازات في أيديهم، ويطأون بلطف الأرض، حذرين من ألا يغيروا موضع أي دليل أو غلاف طلقة. عندما أصل إلى جثة ما قبل سيارة الإسعاف، وأحدق إلى اللحظات الأخيرة لحياة شخص يدرك أنه ملاقٍ حتفه، تتبادر إلى ذهني دوماً رواية قلب الظلام، والمشهد الذي تسأل فيه المرأة التي أحبت كورتز صديقه مارلو عن آخر كلماته. ويكذب مارلو إذ يجيبها أن كورتز كان يسأل عنها، بينما في الواقع هو لم يتفوه بأي كلمات عذبة أو أفكار غالية، بل ردد ببساطة: "الرعب". يطيب لنا أن نعتقد أن الكلمات الأخيرة لشخص ما ستنقل بشكل مطلق أفكاره الأكثر أهمية، والأكثر جوهرية، وأنه يموت وهو يعبر عن السبب الذي لأجله كانت الحياة تستحق أن تعاش، لكن الأمر ليس كذلك. عندما تحتضر، فلا تتفوه بشيء سوى ما يعبّر عن الخوف. فالجميع، أو على الأقل معظمهم يرددون الشيء ذاته في جملة بسيطة مبتذلة وملحة: "أنا لا أريد أن أموت" وترى وجوههم مركبة على وجه كورتز وهي تعبر عن العذاب، والاشمئزاز، ورفض الانتهاء بهذه الطريقة المروعة، في أسوأ العوالم على الإطلاق. إنه الرعب.

بعد مشاهدتي للعشرات من ضحايا جرائم القتل، ملوثين بدمائهم التي تختلط بالقذارة، مطلقين الروائح التي تصيب المرء بالغثيان، والذين تحيطهم النظرات الفضولية أو المهنية اللامبالية، وينأى عنهم الناس وكأنهم نفايات خطرة، أو يرمونهم بتعليقات مترافقة بصرخات مهتاجة، بعد كل هذا وصلت إلى حقيقة يقينية واحدة، إلى فكرة في غاية البساطة لدرجة أنها تنحو نحو البلاهة، وهي أن الموت بغيض.

لدى جميع الناس في سيكونديغليانو، حتى الأطفال الصغار منهم،

فكرة شديدة الوضوح عن كيفية الموت، وعن أفضل وسيلة لذلك. كنت على وشك مغادرة مسرح جريمة كارميلا أتريس عندما سمعت مصادفة صبيين يتحدثان، وبنبرة بالغة الجدية، إذ قال أحدهما:

- أريد أن أموت كهذه السنيورة. بانغ بانغ في الرأس، وينتهي كل شيء.

- ولكن في وجهك؟ لقد أطلقوا النار في وجهها، وهذا هو الأسوأ!

- لا، إنه ليس كذلك. وأضف أنه سواء أكانت الطلقة في الوجه أم من الخلف، فلا فرق، ولكن عليها أن توجّه حتماً إلى الرأس!

أقحمت نفسي في حديثهما بدافع الفضول، وأخذت أوجه إليهما الأسئلة، محاولاً إبداء رأيي في الموضوع: "أليس من الأفضل أن تكون في الصدر؟ طلقة واحدة في القلب وينتهي كل شيء؟"

إلا أن الصبي كان يفقه في ديناميكية الألم أكثر مني بكثير، فشرح لي بتفصيل شديد وبخبرة احترافية عالية، التأثير الذي تحدثه الرصاصات، فقال:

"كلا، ففي الصدر تؤلم أكثر بكثير، كما سيستلزمك عشر دقائق حتى تموت. فعلى رئتيك أن تمتلئا دماً، في الوقت الذي تكون فيه الرصاصة كالإبرة المتقدة التي تثقب وتتلوى في داخلك. من المؤلم كذلك أن تصاب في ذراعك أو قدمك، لكن الإصابة في الصدر هي كعضة أفعى شريرة لا تغادرك. الإصابة في الرأس هي الأفضل لأنك لن تبول على نفسك أو تتغوط في سروالك، ولن تنتفض وتتلوى على الأرض لنصف ساعة".

لقد راقب وشاهد الكثير، أكثر بكثير من مجرد جثة واحدة. أن تتلقى الرصاصة في رأسك فهذا الأمر ينقذك من الارتعاد خوفاً، أو

من التبول في سروالك، أو من نزّ الروائح الكريهة لأحشائك خارجة من الثقوب التي أحدثتها الرصاصات في معدتك. لقد واصلت سؤاله لأستزيده عن تفاصيل الموت والقتل. وجهت إليه كل سؤال يمكن تصوره، عدا السؤال الوحيد الذي كان يجب عليّ أن أطرحه، وهو: لم كان طفل في الرابعة عشرة من عمره يفكر في الموت إلى هذا الحد؟ لكنه لم يخطر ببالي ولا حتى للحظة. لقد قدّم إلي الصبي نفسه من خلال لقبه، بيكاتشو، إحدى شخصيات مسلسل الأطفال الكرتوني البوكيمون. كان شعره الأشقر وشكله القصير القوي الممتلئ هما ما أكسباه هذا اللقب. لقد أشار بيكاتشو إلى رجلين كانا ضمن الحشد الذي تجمع حول المرأة الميتة، ثم خفض بيكاتشو صوته وهو يقول:

"أترى هذين الاثنين، إنهما من قتل بوبيتا"

كانت كارميلا أتريس تعرف باسم بوبيتا. لقد حاولت أن أنظر مباشرة في وجهيهما، لقد بدَوا منفعلين وكانا يرتجفان، ويحركان رأسيهما وأكتافهما يمنة ويسرة في محاولة للحصول على منظر أفضل للجثة بينما كان رجال الشرطة يغطونها. لقد قتلاها دون أن يغطيا وجهيهما، ثم ذهبا ليجلسا في مكان قريب، تحت تمثال الأب بيو. وما إن بدأ الناس بالتجمع حول الجثة حتى عادا ليلقيا نظرة. لقد تم القبض عليهما بعد بضعة أيام، وتبيّن أنهما من أولئك الرجال المدربين على نصب كمين لامرأة لا تحمل أذى، وقتلها وهي في ثياب نومها ومرتدية خفها المنزلي. إنهما تاجرا تجزئة لبيع المخدرات تحوّلا إلى جنديين قاتلين. وكانت هذه الجريمة هي محاولتهما الأولى في القتل. كان أصغر أفراد هذه الجماعة في السادسة عشرة، وأكبرهم في التاسعة والعشرين، والقاتل المفترض بينهم كان في الثانية والعشرين. عندما تم إلقاء القبض عليهم، شاهد أحدهم أضواء الكاميرات وعدسات التصوير

التلفزيونـي فبـدأ يضحـك، وأخـذ يغمـز الصحفيين بعينه. لقـد اعتقلوا كذلك الفتى الذي استخدم كطعم، ابن السادسة عشرة، ذاك الذي قرع الجرس كي تنـزل المرأة لتفتح الباب. السادسة عشرة، كان أيضاً عمر ابنـة كارميـلا أتريـس، التـي سـرعان ما أدركت ما حدث حين سـمعت صوت الطلقات، فأسرعت إلى الشرفة لتطمئن ثم أخذت بالبكاء. ولقد ذكـر المحققـون كذلـك أن منفذي الجريمة عادوا إلى مسـرح الجريمة ثانية. لقد كانوا في غاية الفضول. كان الأمر بالنسبة إليهم كمن يحملق في فيلمه الخاص. فيلم شارك فيه بداية كممثل، ومن ثم كمتفرج. لا بد أنها حقيقة ما يقال عن أنك لا تملك ذاكرة دقيقة عن أفعالك عندما تطلق النار على أحدهم، لأن هؤلاء الصبية قد عادوا يدفعهم الفضول ليشاهدوا ما اقترفته أيديهم، وليعرفوا أي نوع من الوجوه كانت تملك الضحية. سألت بيكاتشو إن كان هؤلاء من صيادين ديلاوريين، أو إن كانوا على الأقل يريدون أن يصبحوا كذلك، فضحك وقال:

"صيادون! ألا يتمنون ذلك؟ إنهم مجرد مزعجون صغار، لكنني شاهدت صياداً حقيقياً"

لم أعلم إن كان بيكاتشو يقول ذاك الهراء ليؤثر فيّ، أم أنه كان يضع فقط أجزاء مما سـمعه عن سـكامبيا جنباً إلى جنب، لكن قصته كانت دقيقة على الرغم من ذلك. كان حديثه متحذلقاً ودقيقاً إلى درجة أزالت كل الشكوك، وبالنسبة إليه فقد كان مسروراً لرؤية تعابير الذهول على وجهي بينما كان يتحدث.

أخبرني بيكاتشو أنه كان يملك كلباً اسمه كاريكا، وقد سمّي بإسم لاعب الهجوم البرازيلي الذي يلعب في فريق نابولي الذي يضمّ أبطال إيطاليا. اعتاد ذلك الكلب الخروج إلى مدخل المبنى. وفي أحد الأيام اشتمّ رائحة تشير إلى شخص ما في الشقة المقابلة التي تكون في العادة فارغة، فبدأ بخدش الباب، وما هي إلا لحظات حتى انطلقت دفعة من

الرصاص منفجرة من خلف الباب، ومصيبة إياه بشكل مباشر. روى لي بيكاتشو القصة مع مؤثرات صوتية كاملة:

"رات - تات - تات - تات... ويموت كاريكا من فوره. والباب - بانغ - يفتح سريعاً"

جلس بيكاتشو على الأرض وتظاهر بأنه يحتضن مدفعاً رشاشاً، مقلداً الحارس الذي قتل كلبه. ذاك الحارس الذي يجلس دوماً خلف الباب، ويضع وسادة خلف ظهره، وقدماه مشبوكتان ومائلتان على أحد الجانبين. إنها وضعية غير مريحة لتمنع المرء من النوم. ولكن الأهم من ذلك أنك حين تجلس في الأسفل تضمن أنك، في حال تبادل إطلاق النار ستنسف أياً يكن على الطرف الآخر من الباب دون أن تصاب أنت بدورك. أخبرني بيكاتشو أنهم، وكوسيلة للاعتذار عن قتل كلبه، منحوا عائلته حفنة من المال، ودعوه للدخول إلى الشقة التي كان يختبئ فيها عدد من الصيادين. لقد تذكر كل شيء عن الغرف الخاوية إلا من الأسرة، وطاولة، وتلفاز.

كان بيكاتشو يتكلم بسرعة ويومئ بحماس واصفاً وضعيات الرجال وحركاتهم. لقد كانوا متوترين ومجهدين، وكل واحد منهم كان يضع أناناساً حول رقبته. والأناناس هي القنابل اليدوية التي يحملها القتلة، وقال بيكاتشو إن سلة مملوءة بها كانت قرب النافذة. لطالما كان لجماعة كامورا ولع خاص بالقنابل. فتجد مستودعات الجماعة في كل مكان مملوءة بالقنابل اليدوية، والقنابل المضادة للدبابات، ويستقدمونها جميعها من أوروبا الشرقية. كما ذكر بيكاتشو أن الرجال أمضوا ساعات في اللعب بألعاب الفيديو، فتحداهم وتمكن من أن يغلبهم جميعاً. ولأنه كان دائم الفوز فقد وعدوه أنهم يوماً سيأخذونه معهم ليطلق النار حقيقة.

في واحدة من الأساطير المحببة التي يتم تداولها في الحي أن

أوغو ديلوسيا كان مهووساً بلعبة وينغ إلفن، وهي لعبة الفيديو الأشهر في كرة القدم. وتبعاً لما ذكره المخبرون، فإنه في أربعة أيام، لم يرتكب ثلاث جرائم قتل فحسب، بل لعب بطولة كرة قدم كاملة من خلال لعبة الفيديو.

يسرد بينتيتو بيترو إسبوسيتو، المعروف باسم كوجاك، حادثة أكثر من مجرد أسطورة. لقد ذهب إلى أحد المنازل حيث كان أوغو ديلوسيا ممدداً على سرير بمواجهة التلفاز، وأخذ يعلق على الأخبار قائلاً:

"لقد أنجزنا قطعتين أخريين! وهم أنجزوا قطعة في تيرزو موندو!"

كان التلفاز هو الوسيلة المثلى لمتابعة مجريات الحرب دون الاضطرار إلى القيام بمكالمات هاتفية خطرة. ومن هذا المنطلق، فقد كان الاهتمام الإعلامي الذي جلبته الحرب إلى سكامبيا في مصلحة الطرفين المتحاربين كليهما. لكن ما صدمني حتى أكثر من ذلك، هو كلمة قطعة، المصطلح الجديد لجريمة القتل. حتى بيكاتشو استخدمها، فكان يتحدث عن القطع المنجزة من قبل الديلاوريين والأخرى المنجزة من قبل الانفصاليين. هذا التعبير، أن "إنجاز قطعة"، جاء من عقود العمل أو طريقة العمل بالقطعة. لقد أصبح قتل إنسان موازياً لتصنيع شيء ما، ولم يكن مهماً ما هو، إنه مجرد قطعة.

ذهبنا بيكاتشو وأنا لنتمشى، وأخذ يخبرني عن الصبية في الجماعة، والذين يمثلون القوة الحقيقية للديلاورو. سألته عن مكان تواجدهم، فعرض عليّ أن يأخذني إلى محل للبيتزا حيث يتواجدون فيه مساء. أراد أن يبرهن لي أنه يعرفهم جميعاً. بداية، التقينا صديقاً لبيكاتشو كان جزءاً من التنظيم لفترة من الزمن. كان بيكاتشو يحترمه كثيراً ووصفه بأنه واحد من الزعماء. صبية التنظيم كانوا يعتبرونه قدوتهم لأنه أوكل

بمهمة تزويد اللاجئين بالطعام، وحتى القيام بالتسوق لعائلة ديلاورو، أو هذا ما كان يدعيه. كانوا يدعونه تونينو كيت كات لما عرف عنه من التهامه لمقادير كبيرة من أصابع الحلوى. وقد اتّخذ كيت كات موقف الزعيم الصغير فعلاً، لكنني أظهرت له شكّي به، فلما ضاق ذرعاً بالإجابة عن أسئلتي، رفع قميصه كاشفاً لي عن صدره. جذعه بالكامل كان مرقطاً بكدمات دائرية الشكل، بدوائر بنفسجية في وسطها كتل صفراء وخضراء لأنابيب شعرية دموية مسحوقة.

- ما الذي أقدمت عليه؟

- إنها السترة.

- أي سترة؟

- السترة المضادة للرصاص.

- إن السترة لا تتسبب بهذه الكدمات، أليس كذلك؟

- كلا، لكن هذه الباذنجانات هي الطلقات التي تلقيتها.

كانت الكدمات - الباذنجانات - هي ثمرة طلقات المسدس التي أوقفتها السترة قبل إنش واحد من اختراقها للجسد. حتى يدربوا الصبية على عدم الرهبة من الأسلحة، كانوا يلبسونهم سترات مضادة للرصاص، ثم يطلقون النار عليهم. عندما تقف بمواجهة سلاح ما، فإن السترة وحدها لا تكفي لإقناعك بعدم الفرار، فالسترة ليست لقاحاً ضد الخوف. الطريقة الوحيدة التي يمكن بها تخدير كل خوف لديك هي في معرفة كيفية تحييد الأسلحة وجعلها دون مفعول. لقد أخبرني الصبية أنهم قد أخذوهم إلى الأرياف الواقعة بعد منطقة سيكونديغليانو، ثم جعلوهم يرتدون السترات تحت كنزاتهم القطنية، ومن ثم كانوا يفرغون عليهم واحداً تلو الآخر نصف مشط من العيارات النارية. ووصفوا لي الأمر: "عندما تضربك الطلقات، تسقط على الأرض، ولا تقدر على التنفس، وتتلهف للحصول على الهواء، لكن لن يمكنك أن

تأخذ شهيقاً. إنك فقط لن تقدر، كما لو أنك تلقيت لكمة على صدرك. وتشعر بأنك تموت... لكنك تعود ثانية. وهذا هو الأمر المهم، أنك بعد أن تصاب، تقف وتعود ثانية" لقد تم تدريب كيت كات والآخرين على تلقي الضربات، لقد رُوّض على أن يموت، أو بالأحرى أن يموت تقريباً.

تدرج الجماعة الصبية في صفوفها بمجرد أن يصبحوا قادرين على الولاء لها، وبأعمار تتراوح بين الثانية عشرة والسابعة عشرة. الكثير منهم هم أبناء أو إخوة لأعضاء في الجماعة، بينما قدم الآخرون من عوائل لا دخل ثابت لها. إنهم عناصر جيش كامورا النابوليّ الجديد، سُحبوا من مركز المدينة القديمة، من حي سانيتا، وفورسيلا، وسيكونديغليانو، وسان غايتانو، وكوارتيري سبانولي، وبالونيتو. إنهم يجنَّدون عبر أعضاء في الجماعة ذوي مهارات عالية في التنظيم، وهناك جيش كامل منهم. والمكاسب بالنسبة إلى الجماعة متعددة: فالصبي يتقاضى نصف أجر الشخص البالغ ذي الرتبة المتدنية، ونادراً ما كان يتوجب عليه إعالة والديه، وليس لديه مسؤوليات أسرية أو ساعات محددة، ولا يحتاج إلى أن يدفع له في الموعد المحدد بدقة، وفوق كل شيء، لديه الإستعداد لأن يكون في الشارع في جميع الأوقات. هناك مدى كامل من الأعمال والمسؤوليات. فهم يبدأون ببيع المخدرات الخفيفة، كالحشيشة بشكل خاص. يتوزّع الصبية بشكل دائم تقريباً في أكثر الشوارع ازدحاماً، وهم أيضاً يمنحون موتورينو بشكل دائم تقريباً. ثم يشقون طريقهم للارتقاء إلى مرتبة الإتجار بالكوكايين، والذي يروجونه في الجامعات وخارج الملاهي الليلية، وأمام الفنادق، وداخل محطات قطارات الأنفاق. هؤلاء البائعون الصغار أساسيون لمرونة اقتصاد الإتجار المتجول بالمخدرات لأنهم أقل لفتاً للأنظار. فهم يقومون بالعمل ما بين شوط كرة القدم وجولة على الموتورينو،

وكثيراً ما يقومون بتسليم البضاعة مباشرة إلى منزل الزبون. وعادة لا تدعهم الجماعة يقومون بالأعمال نهاراً، بل في الواقع إنهم يستمرون في الذهاب إلى مدارسهم، والسبب في ذلك يعود جزئياً إلى أنهم إن انقطعوا عن المدرسة فسيصبح من الأسهل التعرف إليهم. بعد الشهرين الأولين يتجول الصبية المنضمون إلى الجماعة وهم يحملون الأسلحة للدفاع عن أنفسهم من جهة، ولإثبات وجودهم من جهة أخرى. وهم يتعلمون استعمال هذه الأسلحة الأوتوماتيكية والنصف أتوماتيكية في مكبات القمامة خارج البلدة، أو في كهوف تحت الأرض في المدينة. ومنح هذه الأسلحة بحد ذاته يعد ترقية في ميدان العمل، ووعداً باحتمال الارتقاء إلى قمة الجماعة.

وعندما يثبتون جدارتهم وإمكانية الاعتماد عليهم، ويفوزون بثقة رئيس المنطقة المطلقة، عندها يأخذون على عاتقهم دوراً في تنفيذ مهام تتجاوز إلى حدٍّ كبير تلك المنوطة بالبائع، إنهم يصبحون مراقبين. يحرص المراقبون على التأكد أن جميع الشاحنات التي تفرغ البضائع في محال السوبرماركت، والمتاجر، ودكاكين الأطعمة المعلبة على طول الشارع الموكل إليهم، هي جميعها التي فرضتها الجماعة. ويقومون بالتبليغ عن أي محل يستخدم موزعاً مختلفاً عن ذاك الذي تم اختياره سلفاً. كذلك فإن وجود المراقبين في مواقع البناء أساسيٌّ للغاية. فكثيراً ما تتعاقد شركات الإنشاء بعقود جانبية مع شركات كامورا، لكن في بعض الأحيان يخصص العمل لشركات ليست هي المرشحة من قبل الجماعة. وللكشف عما إذا كان العمل يعطى إلى شركات خارجية، تقوم الجماعات بمراقبة المواقع بشكل مستمر، وبطريقة لا ترقى إلى الشك، إذ توكل تلك المهمة إلى الصبية الذين يراقبون عن كثب، فيتفقدون الأمور، ومن ثم يرفعون تقاريرهم إلى رئيس المنطقة، والذي يوجههم بدوره إلى ما يجب فعله إن تجاوز

أحد المواقع الخطوط الموضوعة. هؤلاء الأعضاء الفتيّون يتصرفون بل ويتحمّلون مسؤوليات الكاموريين البالغين. إنهم يبدأون مستقبلهم المهني صغاراً ومن ثم يترقّون في المراتب، وصعودهم هذا في مراكز القوة يغير بصورة جوهرية البنية الجينية في الجماعات. فرؤساء المناطق الصغار، والصبية الزعماء يتحولون إلى محاورين قساة ولا يمكن التوقع بأفعالهم، إنهم يتبعون منطقاً يحول دون فهم ضباط القانون وعناصر مكافحة المافيا للقوى المحركة لديهم. فالوجوه دائمة التجدد وغير مألوفة. وباتباع سياسة إعادة التنظيم التي سنّها كوسيمو، أصبحت أقسام كاملة من سوق المخدرات تدار من قبل أولاد في الخامسة عشرة والسادسة عشرة، والذين يعطون الأوامر لرجال في الأربعين والخمسين من عمرهم دون أن يشعروا بذرة من الحرج أو عدم الكفاءة. لقد وضعت الشرطة أجهزة تنصت في سيارة واحد من أولئك الصبية، وهو أنتونيو غاليوتا لانزا، وسجلت حديثه عن حياته كبائع مخدرات، مع خلفية موسيقية صاخبة تصدح من مسجل السيارة:

"كل يوم أحد مساء أجني ثمانمئة أو تسعمئة يورو، وإن كان عمل البائع يعني أنك تتعامل مع الكراك، والكوكايين، وأنك معرّض لحكم بخمسمئة سنة في السجن"

الآن يحاول صبية التنظيم الحصول على كل ما يرغبون به بالحديد، كما يسمون مسدساتهم. والرغبة بالحصول على الهاتف المحمول أو بستيريو، أو بسيارة، أو بموتورينو، تتحول بسهولة إلى القتل. إنه ليس مستغرباً أن تسمع الجنود الصغار عند نقاط الدفع في السوبرماركت أو المتاجر يقولون أشياء من قبيل "إنني أنتمي إلى تنظيم سيكونديغليانو"، أو "إنني أنتمي إلى تنظيم كوارتييري" إنها كلمات سحرية تتيح للصبية أن يخرجوا من المتجر حاملين ما أرادوا وتحت أنظار أي كان، وما من صاحب متجر سيجرؤ على مطالبتهم بدفع ما

يتوجب عليهم.

في سيكونديغليانو أخذت البنية الجديدة صفة عسكرية. لقد أخذني بيكاتشو وكيت كات لمقابلة نيللو، وهو طاهي بيتزا في المنطقة، وكان مسؤولاً عن إطعام صبية التنظيم بعد انتهاء مناوباتهم. وبعد وصولنا مباشرة، دخلت مجموعة إلى مطعم نيللو، لقد كان يبدو عليهم الإرباك والخرق بكنزاتهم المنتفخة بسبب السترات المضادة للرصاص التي تحتها. لقد ركنوا \الموتورينو الخاص بهم إلى رصيف المشاة، ودخلوا دون أن يلقوا التحية على أحد. لقد بدوا بطريقتهم في المشي وصدورهم المحشوة المنتفخة، كلاعبي كرة قدم. وجوه طفولية، تتراوح أعمار أصحابها بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة، وتحمل لدى بعضهم بوادر لحية. لقد أتاح لي بيكاتشو وكيت كات الفرصة للجلوس معهم، ولم يبد على أحدهم أنه يمانع. لقد كانوا يأكلون، وفوق كل شيء يشربون الماء، ومشروبات الكوكا كولا والفانتا الغازية. كانوا يعانون من عطش لا يصدق، حاولوا إطفاءه حتى في أثناء تناولهم للبيتزا. فقد طلبوا زجاجة من زيت الزيتون، وأخذوا يصبون كميات كبيرة منه في البيتزا قائلين إنها جافة أكثر من اللازم. لقد كان كل شيء يجف في أفواههم، من لعابهم إلى كلماتهم. لقد أدركت من فوري أنهم كانوا خارجين لتوهم من مناوبة ليلية كحراس مراقبين، وأنهم قد تناولوا حبوباً. لقد أعطوهم حبوب النشوة MDMA كي يبقوا يقظين، وليحولوا دون توقفهم عن عملهم لتناول الطعام مرتين يومياً. فعلى أي حال، و خلال الحرب العالمية الأولى رخّص مصنّع العقاقير الألماني ميرك، استخدام حبوب MDMA للجنود في الخنادق، هؤلاء الجنود كان يشار إليهم باسم مينشن ماتيريال، أي المادة البشرية، وذلك لمساعدتهم في التغلب على الجوع، والبرد، والرعب. كما استخدمت لاحقاً من قبل الأميركيين في عمليات تجسسية، والآن يتلقى هؤلاء

الجنود الصغار جرعتهم من الشجاعة المصطنعة والمقاومة المغشوشة. لقد أخذوا يقطعون شرائح من البيتزا ويمتصونها حتى بدت الأصوات الصادرة عن طاولتهم وكأنها أصوات أناس كبار في السن يرتشفون حساءهم. واستمر الصبية بالتحدث، وطلب قوارير الماء. ومن ثم، قمت بعمل كان يمكن أن أعاقب عليه بشكل عنيف، لكن كونهم كانوا أطفالاً، فإنني استشعرت إمكانية النجاة بجلدي منه. صحيح أنهم كانوا محشوين بصفائح الرصاص، لكنهم أطفال على الرغم من ذلك. لقد وضعت مسجلة على الطاولة، ووجهت كلامي إليهم جميعاً بصوت عال، محاولاً النظر في عيني كل واحد منهم:

فورزا، هيا تحدث إلى هذه، بح بما يحلو لك"

لم تصدم إيماءتي أياً منهم ولم يعتبروها غريبة، ولم يخطر على بال أي منهم أنهم كانوا يجالسون جاسوساً للشرطة، أو صحفياً. قذف أحدهم ببضع شتائم إلى المسجلة، ثم شجعت أسئلتي أحد الصبية فبدأ بسرد تاريخه المهني، وبدا أنه لا يطيق صبراً ليخبرني به:

"عملت بادئ الأمر في مشرب، وكنت أجني مئتي يورو شهرياً، أضف إليها خمسيناً من البقشيش، لكنني لم أكن أحب العمل. كنت أريد أن أعمل في المرأب مع أخي، لكنهم لم يقبلوني هناك. أما في التنظيم فإنني أجني ثلاثمئة يورو أسبوعياً، وإن كان بيعي وفيراً فإنني أحصل على نسبة عن كل كمية من الحشيشة، ويمكن أن أحصّل حتى الثلاثمئة وخمسين يورو أو الأربعمئة، وطبعاً عليّ أن أقتل نفسي لأجل هذا العمل، لكنهم في النهاية يعطونني المزيد دوماً"

وبعد وابل من المحاولات ومن ثم النكوص ثانية لولدين أرادا التسجيل، تابع المدعو ساتور بينهما الكلام، واسمه هذا دمج بين اسمي ساسا وتوتور اللذين هما صيغتا تصغير لسلفاتور، فقال:

"قبل أن أخرج لأعمل في الشارع أزعجني عدم امتلاكي

لموتورينو، وأنه كان يتوجب عليّ التجول على قدمي، أو استقلال الباص. إنني أحب هذ العمل، فالجميع يحترمني، وبإمكاني الإقدام على أي فعل أشاء، أما الآن فقد منحوني الحديد وأصبح لزاماً عليّ البقاء هنا طوال الوقت، في تيرزو موندو وكاسه ديبوفي. دائماً في المكان نفسه، ذهاباً وإياباً، وأنا لا أحب هذا".

وابتسم لي ساتور، ومن ثم ضحك بصوت عال إلى المسجلة، وقال:

"أخرجوني من هنا! قل هذا للزعيم!"

لقد أُعطوا الحديد - المسدس - ومعه إقليم محصور للعمل ضمنه. وبدأ كيت كات بالتحدث إلى المسجلة، وفمه ملتصق بفتحات مكبر الصوت لدرجة أن حتى أنفاسه تم تسجيلها، وأخذ يقول:

"أريد أن أفتتح شركة مجددة، أو مستودعاً، أو حتى متجراً. سيكون على التنظيم أن يعطيني المال لأبدأ به، بعدها سأهتم أنا بالباقي، وبمن أريد أن أتزوج. فأنا أريد الزواج لكن ليس بواحدة من هنا على أي حال، بل بعارضة، سمراء البشرة أو بألمانية"

تناول بيكاتشو أوراق لعب من جيبه، وبدأ أربعة منهم اللعب، أما البقية فقد نهضوا وتمطوا، لكن لا أحد منهم أزال السترة الواقية للرصاص. واصلت طرح أسئلتي على بيكاتشو عن الصيادين، لكنه كان قد بدأ يضيق ذرعاً بإلحاحي. لقد أخبرني أنه كان في منزل للصيادين قبل عدة أيام، غير أنهم قد جردوا المكان من كل شيء، ولم يبق سوى جهاز MP3 كانوا يستمعون من خلاله إلى الموسيقى في أثناء إنجازهم للقطع، وأصبح الآن يتدلى من عنقه. اخترعت حجة لأطلب إليه أن يعيرني إياه لبضعة أيام، فضحك بيكاتشو، وكأنه يتغاضى عن إهانتي له بظنّي أنّه غبي ليقوم بإعارة الأشياء، لذا فقد اشتريته. نقدته 50 يورو مقابل مشغل النغمات، فوضعت السماعتين في أذني من فوري. لقد

أردت أن أعرف ما هي خلفيات الصيادين الموسيقية. كنت أتوقع أن أسمع موسيقى الراب، أو أسيد روك، أو هيفي ميتال، لكن بدل كل هذا كان شريطاً مستمراً من الموسيقى النابوليّة الحديثة، والبوب. في أميركا يضخ القتلة العزيمة في أنفسهم عبر الراب، أما في سيكونديغليانو فهم يذهبون للقتل وأغاني الحب تصدح في آذانهم.

أخذ بيكاتشو يخلط الأوراق، وسألني إن كنت أرغب بالمشاركة، غير أنني لطالما كنت لدرجة ميؤوس منها غير بارع في لعب الورق، لذا فقد غادرت الطاولة. كان الندلاء في محل البيتزا في عمر مماثل لعمر صبية التنظيم، وكانوا ينظرون إليهم بإعجاب لكنهم لم يجرؤوا حتى على خدمتهم، بل كان صاحب المكان هو من يقوم بخدمتهم بنفسه. أن تعمل كصبي يؤدي المهام التي تطلب منه، أو نادلاً، أو في موقع بناء، جميع هذه الأعمال تعتبر هنا أموراً مهينة. إضافة إلى الأسباب اللامتناهية لانعدام العقود، ولانعدام أيام العطل أو الإجازات المرضية، والعمل لعشر ساعات يومياً كحد وسطي، كل هذا لا يترك مجالاً للأمل بأن تتمكن من تحسين وضعك. التنظيم يمنحك على الأقل الوهم بأن التزامك سيلقى التقدير، وأن بناءك لمستقبل مهني أمر ممكن. فالشريك في الجماعة لا يمكن أبداً أن ينظر إليه على أنه صبي مهمات صغيرة، والفتيات لن يشعرن مطلقاً أن من يتودد إليهن شخص فاشل. هؤلاء الصبية المحشوون، هؤلاء الحراس بمظهرهم السخيف، الذين يبدون كدمى تجسد لاعبي كرة القدم الأميركية، لم يكونوا يحلمون بأن يصبحوا كآل كابون، بل كفلافيو برياتور، لا أن يكونوا مجرد مقاتلين مسلحين بل مستثمرين تتأبّط أذرعهم العارضات الجميلات، لقد أرادوا أن يصبحوا رجال أعمال ناجحين.

في 19 كانون الثاني من عام 2005 قتل باسكال بالاديني البالغ

من العمر خمسةً وأربعين عاماً، بثماني طلقات اخترقت صدره ورأسه. بعدها ببضع ساعات يصاب في ساقيه أنتونيو أوليتا البالغ من العمر تسعة عشر عاماً. غير أن تاريخ 21 كانون الثاني بدا أنه نقطة تحول. لقد انتشر النبأ سريعاً دون الحاجة إلى مكتب صحفي، لقد ألقي القبض على كوسيمو ديلاورو. ووفقاً لمكتب النائب العام لمكافحة المافيا في نابولي، فإن كوسيمو هو أمير العصابة، وزعيم المذبحة. كان هو قائد الجماعة. حسبما ذكره شهود عيان، لقد كان كوسيمو يختبئ في حفرة مساحتها أربعون متراً مربعاً وينام على سرير بحالة سيئة. ووريث اتحاد إجرامي قادر على جمع 500,000 يورو يومياً من المخدرات وحدها، ومن امتلك فيلا قيمتها 5 مليون يورو في قلب واحدة من أفقر بقاع إيطاليا، آل به المآل إلى الاختباء في حفرة نتنة ضيقة، ربما لم تكن تبعد كثيراً عن قصره المنيف.

لقد ظهرت هذه الفيلا من العدم في فيا كوبا ديل آركو، قرب منزل عائلة الديلاورو. كانت هذه الفيلا بيت مزرعة أنيقاً من القرن الثامن عشر، أعيدت هيكلته كفيلا من بومبيه، بالمطرية(*)، وبالأعمدة، والتزيينات الجصية، وبالأسقف المستعارة، والسلالم الفخمة. لم يكن أحد يعلم بوجوده، ولم يكن أحد يعرف من هم مالكوه الرسميون. بالنسبة إلى رجال الشرطة فلقد كانوا يحققون في الأمر، أما بالنسبة للسكان في الحي فلم يكن لديهم أدنى شك، لقد كانت لكوسيمو. اكتشف المحققون الفيلا عن طريق الصدفة، فبعد أن قوضوا الجدران السميكة المحيطة بها، صادفوا بعض العمال الذين سرعان ما فروا ما إن شاهدوا بزات الشرطة الرسمية. لقد أخرت الحرب العمل في الفيلا، ذاك القلب الذهبي للجسد المضمحل لصناعة البناء في سيكونديغليانو،

(*) المطرية: بركة داخلية في فناء البيوت الرومانية القديمة لجمع مياه المطر. (المترجمة إلى العربية).

وأعاقت عمليةَ فرشها بالأثاث واللوحات التي تليق بأمير.

عندما سمع كوسيمو وطء أقدام الجنود وقعقعة أسلحتهم، لم يحاول الهرب، بل حتى إنه لم يحمل سلاحاً، وبدلاً من ذلك توجه إلى مرآة، بلّل مشطه، وسرّح شعره رافعاً إياه عن جبهته إلى الخلف، وربطه كذيل الحصان عند مؤخر عنقه، تاركاً حلقات شعره تنسدل على رقبته. كان يرتدي كنزة قطنية من نوع بولو داكنة اللون، ومعطفاً مطرياً أسود اللون. وهكذا، بثياب جعلته أشبه بمهرج الجريمة، وبمحارب الليل، نزل كوسيمو ديلاورو السلالم منتفخ الصدر. قبل سنوات كان قد تعرض إلى سقوط مشؤوم من دراجته النارية، كان نتيجته أن أصبح أعرجَ في إحدى قدميه. لكنه حسب حتى حساب عرجه، فبينما كان ينزل السلالم كان يتكئ على ذراع الجندي الذي كان يرافقه، وذاك كيلا يكشف عن عجزه، وليتابع مشيه بطريقة طبيعية. إن السادة العسكريين الجدد في اتحادات نابولي الإجرامية لا يقدمون أنفسهم على أنهم رجال الحي الأشداء، ولا يحملون النظرة الجنونية المحملقة في أعينهم مثل رافاييل كوتولو، ولا يشعرون بالحاجة إلى التكلف مثل زعيم كوسا نوسترا أو لوسيانو ليجيو، أو يظهرون كما في الرسوم الكاريكاتورية للوسيانو المحظوظ، وآل كابون. Matrix , Pulp Fiction The Crow, هذه الكتب جميعها تعطي فكرة أوضح عما يريدون، ومن يكونون. إنهم نماذج يمكن للجميع تمييزها، ولا تحتاج إلى الكثير من الوساطة. يفوق المشهد رموز الغمزات المبهمة، أو مجموعة الأساطير المتميزة التي تروى عن أحياء الجريمة سيئة السمعة. نظر كوسيمو مباشرة في عدسات التصوير، أمال ذقنه إلى الأسفل، وأبرز جبهته مائلاً بها إلى الأمام. إنه لم يدع نفسه يكتشف بالطريقة التي اكتشف بها جيوفاني بروسكا الذي كان يرتدي سروالاً رثاً من الجينز، وقميصاً تغطيه بقع من صلصة السباغيتي، وهو ليس

مرتعداً كذلك مثل توتو رينا، الذي حمّل سريعاً في طائرة مروحية، ولا بدا عليه أنه أخذ على حين غرة، ولم تكن نظرة ناعسة تكسو وجهه مثل جوزيبيه ميسو، زعيم حي سانيتا. كوسيمو ليس هكذا، لقد تربى في عالم أعمال استعراضي، وهم يعلم كيف يظهر للملأ على المسرح. لقد ظهر كالمحارب الذي كبا لأول مرة، كان التعبير المرتسم على وجهه يقول إن هذا هو الثمن الذي يتوجب عليه دفعه لكونه يملك الكثير من الحماسة والشجاعة. وكان يتصرف ليس كمن اعتقل لتوه، بل ببساطة كمن ينتقل إلى المقر الرئيسي. كان يعلم المخاطر عندما قدح زناد هذه الحرب، لكن لم يكن لديه أي خيار: إما الحرب أو الموت. لقد أراد لاعتقاله أن يبدو دليل إثبات على انتصاره، ورمزاً على شجاعته التي تترفع عن أي نوع من أنواع الدفاع عن النفس طالما أنها تصون نظام العائلة.

لقد شعر الناس في الحي بمعداتهم وهي تزبد، فانطلقوا في ثورة قلبوا فيها السيارات رأساً على عقب قاذفين قنابل المولوتوف. لم يكن هذا الهجوم الهستيري ليمنع الاعتقال كما قد يبدو عليه الأمر، وإنما للتخلص من أي فعل انتقامي مقبل، لمحو أي أثر للشك، وليعلم كوسيمو أن ما من أحد قد خانه، وما من أحد قد ثرثر، وأن هيروغليفيات مخبأه لم تحل شيفرتها بمعونة أي منهم. هذه الثورة كانت بمثابة شعيرة اعتذار، تهدف إلى توسيع جوقة إنشاد تجريدية يريد الناس في الحي تشكيلها من السيارات المحروقة، ومكبات النفايات المستخدمة كحواجز طرقية، ومن الدخان الأسود المتصاعد من الإطارات المحروقة. فلو أن كوسيمو شك بهم، لن يتسنى لهم الوقت لحزم أمتعتهم حتى قبل أن يهوي الفأس معلناً إدانة أخرى لا ترحم.

بعد أيام فقط على اعتقاله، أخذت نظرة كوسيمو المتغطرسة المحدقة

في عدسات التصوير، تطل من شاشات الأجهزة الخلوية لعشرات الأولاد في تور أنونزيتا، وكواترو، ومارانو. إنها مجرد استفزازات، وإيماءات مبتذلة من حماقات المراهقين. لكن كوسيمو كان يعلم أن عليه التصرف بهذه الطريقة كي يعرفه الناس كرئيس لهم، وكي يلامس قلوبهم. عليك أن تعرف كيف تربح شاشة التلفاز والصحف، وكيف تربط شعرك كذيل حصان. إن كوسيمو يمثل وبكل وضوح النموذج الجديد للمستثمرين المغامرين في التنظيم، وصورة البرجوازي الجديد الذي تحرر من كل القيود، تحفزه الرغبة المطلقة بالسيطرة على كل زاوية من السوق، وأن تكون له اليد الطولى في كل مجال، وأن لا يتخلى عن أي شيء. فالاختيار لا يعني الحد من مجال فعاليتك، أو حرمانك نفسك من جميع الخيارات الأخرى. ليس بالنسبة إلى شخص يعتبر أن الحياة هي المكان الذي تخاطر فيه بخسارة كل شيء لأجل أن تربحه جميعه في النهاية. وهذا يعني أن تأخذ بالحسبان إمكانية أن يلقى القبض عليك، وتنتهي بشكل سيئ، أن تموت، لكنه لا يعني أن تستسلم. أن تريد كل شيء الآن وأن تحصل عليه في أقرب وقت ممكن، هذا هو كوسيمو ديلاورو وهذه هي القوة التي يرمز إليها.

الجميع، وحتى أولئك الذين ينتبهون إلى أنفسهم، يقعون في فخ التقاعد، ويكتشفون عاجلاً أم آجلاً أنهم قد خدعوا، أو ينتهي بهم الأمر بتمضية عمرهم برفقة ممرضة بولندية. لم يتوجب عليك الموت غماً وأنت تبحث عن عمل سيقتلك في النهاية، أو ينتهي بك الأمر عاملاً بدوام جزئي في الردّ على المكالمات الهاتفية؟ سيتحول إلى مستثمر ومغامر حقيقي، ذاك الذي يتعامل في كل شيء، وينشئ عملاً حتى من اللاشيء. سيقول إرنست يونغر إن العظمة تتكون من التعرض إلى العاصفة، وسيقول زعماء كامورا الشيء نفسه. عليك أن تكون مركزاً لكل فعل، أي مركزاً للنفوذ، وأن تستخدم كل شيء كوسيلة وهذه

نفسها هي التي تكوّن النتائج. وأيّ شخص يقول إن هذا لاأخلاقي، وإن الحياة لا يمكن أن تعاش دون أخلاق، وإن الاقتصاد له حدود وعليه أن يكون طيعاً لقواعد محدودة، هو مجرد شخص لم يكن يوماً قادراً على الإدارة، وشخص لطالما غلبته السوق. الأخلاق هي حدود الفاشلين، وحماية المهزومين، إنها التبرير لأولئك الذين لم يستطيعوا المقامرة بكل شيء ومن ثم الفوز بكل شيء. للقانون دساتير ثابتة، على عكس العدالة. العدالة أمر آخر؛ إنها مبدأ مجرد يشمل الجميع. وقدرة المرء على تقبل هذا المبدأ تعتمد على تفسيره له، فإما أن يغفر لكل إنسان أو يدينه، فمثلاً: كل رجل من رجال الدين مهما علا أو انخفض شأنه، وكل رجل من الثوريين والرجعيين، هو مذنب بالخيانة، والقتل، وارتكاب الآثام. مذنب بأنه تقدّم في السن وفارق الحياة، وبأنه أصبح مهملاً ومهزوماً. كل منهم مذنب في عيون المحكمة العالمية للأخلاق التاريخية، ومغفور له في محكمة الضرورات. فالعدالة والظلم لهما في الواقع دلالة واحدة، إما النصر أو الهزيمة، وهو أمر إما نفعله أو نتحمله. فإن أخطأ في حقك شخص ما، وعاملك بشكل سيئ، فهو يرتكب إذاً مظلمة تجاهك، أما إن كانت معاملته هذه بدافع نية حسنة، فيصبح عندها عادلاً معك. هذه هي مصطلحات التطور الواجب استخدامها عند مراقبة الجماعات، وهذه هي معايير الأحكام، وهي كافية، وعليها أن تكون كذلك لأنها الطريقة الوحيدة الواقعية لتقييم العدالة، أما الباقي بمجمله فهو ثانويّ. هذا هو المنطق الذي يصوغ القواعد الاقتصادية. ليس الكاموريون هم من يلاحقون الصفقات، بل الصفقات هي التي تلاحق الكاموريين. منطق الأعمال الإجرامية والزعماء يتفق مع أشد أشكال الليبرالية الحديثة عدوانية. فالأوامر التي تملى أو تفرض على الجميع نابعة من العمل، ومن الربح، ومن الانتصار على المنافسة بكل أشكالها. وأي شيء آخر يعتبر عديم القيمة، وأي شيء آخر لا وجود

له. ستدفع حياتك أو حريتك ثمناً كي تكون قادراً على اتخاذ القرارات بشأن حياة أو موت الجميع، وبشأن الترويج لمنتج معين، وبالتلاعب بشريحة من الاقتصاد، وبالاستثمار في الأسواق الأكثر تقدماً. وكي تكون هذه السيطرة لك لعشر سنوات، أو لسنة، أو حتى لساعة واحدة، لا تهم المدة. ما يهم هو أن تحيا، أن تكون القائد بحق، أن تربح في ميدان تنافس السوق، وأن تحدق إلى الشمس بملء عينيك كما فعل زعيم فورسيلا، رفاييل غيوليانو، متحدياً إياها من زنزانته، مظهراً أن ما من شيء قادر على أن يعميه حتى ذاك النور العظيم الساطع. رفاييل غيوليانو، الذي قام بكل قسوة ببرش الفلفل الحار على نصل سكين قبل أن يطعن بها قريب لأحد أعدائه، ليجعله يشعر بآلام مبرحة حارقة بينما كان النصل ينغرس إنشاً تلو الآخر في لحمه. كانوا يخشونه في السجن لا لوحشيته بل للتحدي الذي يغشي نظرته، تلك التي تحدق مباشرة إلى الشمس. المهم أنك رجل أعمال، وأنك تعلم أن قدرك هو الانتهاء مقتولاً أو في السجن ومع ذلك أن تشعر برغبة عديمة الرحمة في الهيمنة على إمبراطوريات اقتصادية قوية وغير محدودة. الزعيم يعتقل أو يقتل، لكن النظام الاقتصادي الذي ولّده يبقى، بل ويستمر في التهجين والتطور والتحسن، وإنتاج الأرباح. إن عقلية هؤلاء الليبراليين الساموراي الذين يعرفون أنه عليك أن تدفع المقابل للحصول على ذاك النفوذ المطلق، لخصت في رسالة كتبها صبي في معتقل جوفينايل، وسلمها لأحد الكهنة، وتمت قراءتها خلال أحد المؤتمرات. لا زلت أحفظها عن ظهر قلب:

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

جميع من أعرفهم إما أنهم ماتوا أو سجنوا. أريد أن أصبح زعيماً. أريد أن أمتلك محال السوبرماركت، المتاجر، المصانع، والنساء. أريد مستودعات في كل أنحاء العالم.

وبعدها أريد أن أموت، أريد أن أموت كرجل، كشخص يمسك بزمام القيادة بحق. أريد أن أقتل.

هذا هو نبض الاستثمار الإجرامي الجديد، والدفع الجديد للاقتصاد: أن تكون مهيمناً مهما كان الثمن. أن تحصل على النفوذ قبل أي شيء. فالانتصار الاقتصادي أغلى من الحياة ذاتها، حياة أيٍ كان، بما فيها حياتك أنت.

لقد أخذوا يطلقون على صبية التنظيم اسم الموتى المتكلمين. ففي تسجيل صوتي لمحادثة تضمّنها أمر اعتقال أصدره مكتب النائب العام لمكافحة المافيا في شباط عام 2006، تسمع صبياً يشرح من هم رؤساء الأحياء في سيكونديغليانو، فيقول:

"إنهم فتية صغار، إنهم الموتى المتكلمون، الموتى الأحياء، الموتى الماشون... إنهم يقتلونك دون أن يفكروا في الأمر مرتين، فتشعر أنك دائماً في عداد الأموات"

رؤساء أحياء من الأولاد، كاميكاز الجماعة الذين يندفعون إلى حتفهم لا لأجل عقيدتهم بل لأجل المال والسلطة، يندفعون أياً كان الثمن، فقط للدفاع عن النمط الوحيد للحياة الذي يجعلها جديرة بأن تعاش.

تم العثور على جثة غيوليو راجيرو مساء 21 كانون الأول، في الليلة ذاتها التي تم فيها القبض على كوسيمو ديلاورو. سيارة محروقة، وجثة مقطوعة الرأس في مقعد السائق، بينما وضع الرأس في المقعد الخلفي. لم يكن قد فصل عن الجسد بضربة نظيفة من فأس صغيرة، بل بمطحنة معدنية: ذاك النوع من المنشار الدائري الذي يستخدمه عمال لحام المعادن في الصقل. إنها أسوأ أداة يمكن للمرء استخدامها،

وبالتالي فإنها الخيار الأوضح. في البداية تقطع اللحم ومن ثم تكسر العظم إلى شظايا. لا بد أنهم أدوا المهمة في المكان نفسه لأن الأرض كانت مكسوة برقائق من اللحم التي بدت وكأنها معدة حيوان مجتر. لم تكن التحقيقات قد بدأت بعد، إلا أن جميع من في المنطقة بدوا مقتنعين بأنها كانت رسالةً، ورمزاً. كوسيمو ديلاورو لم يكن ليهتدى إليه دون إخبارية عنه، ففي عقول الجميع كانت تلك الجثة فاقدة الرأس تعود للخائن. فوحده من يبيع زعيماً يمكن أن يعاقب بأن يمزق إرباً بهذه الطريقة. لقد صدر الحكم حتى قبل أن تبدأ التحقيقات، وليس مهماً حقاً إن كان الحكم صحيحاً أم أنه يطارد وهماً. لقد نظرت إلى تلك السيارة والرأس المهجورين في فيا هوغو برات دون أن أترجل عن دراجتي الفيسبا. كنت أستطيع سماع الأحاديث عن الطريقة التي أحرقوا بها الجثة والرأس المفصول، بأن ملأوا الفم بالبنزين، ووضعوا فتيلاً بين الأسنان، وأشعلوا النار فيه كي ينفجر الوجه بكامله. وهنا أدرت دراجتي، وانطلقت بعيداً.

عند وصولي إلى مسرح الجريمة في 24 كانون الأول 2005، كان يستلقي ميتاً على الأرض. وكان حشد من جنود الشرطة يطوفون في المكان بعصبية، أمام المتجر الذي حصل فيه الكمين، كمين آخر. علّق شاب قلق مما يجري وهو يمر بالمكان قائلاً: "ميتة في كل يوم، ذاك هو مقطع اللازمة في نابولي توقف، قام برفع قبعته للميت الذي لا يراه حتى، ثم تابع طريقه. لقد دخل القتلة المتجر ومسدساتهم جاهزة في أيديهم. كان واضحاً أنهم لم يأتوا إلى هنا ليسرقوا بل ليقتلوا، ليعاقبوا. لقد حاول أتيليو الاختباء خلف المنضدة، كان يعلم أن ذلك لن يجدي نفعاً، لكنه ربما كان يرجو أن يظهر لهم أنه أعزل، وأنه لم يكن متورطاً، وأنه لم يفعل شيئاً. ربما أدرك أن هذين الاثنين كانا

جنديين في حرب كامورا التي يشنها آل ديلاورو. لقد أطلقا النار عليه مفرغين خزاني رصاصهما في جسده، وبعد أداء الواجب غادرا المتجر - بهدوء كما ذكر الناس - كأنما اشتريا لتوهما جهازين محمولين، ولم يقدما على قتل إنسان. أتيليو رومانو ملقى على الأرض، والدماء في كل مكان. لقد بدا وكأن روحه قد تلاشت من خلال الثقوب التي غربلت جسده. عندما ترى هذه الكمية من الدماء على الأرض، فإنك تبدأ بتلمس نفسك، لتتفقد ما إذا كنت قد جرحت، وما إذا كان هذا الدم الذي تنظر إليه هو دمك أنت. وتنشأ لديك هلوسات عصبية فتحاول أن تتيقن من أنك لم تصب بطريقة ما دون أن تنتبه. ومع ذلك، لا يمكنك تصديق أن كل هذا الدم يوجد في شخص واحد، فأنت واثق من أنه يوجد أقل من ذلك بكثير داخلك. وبعد أن تتحقّق من أنك لم تكن أنت من فقد كل ذلك الدم، تظل تشعر بالفراغ داخلك. فأنت نفسك تتحول إلى نزف، بقدميك اللتين تصبحان ضعيفتين، ولسانك المبيض، ويديك، وكلها تذوب في تلك البحيرة الكثيفة. تتمنى لو أن أحداً ينظر في بياض عينيك ليخبرك إن كنت مصاباً بفقر دم، وتريد أن تطلب نقل دم لك. ستتمنى لو أن معدتك كانت مسترخية كي تتمكن من أكل شريحة لحم، فقط لو كنت تستطيع أن تصل بها إلى هناك دون أن تتقيأ. عليك لزاماً أن تغلق عينيك وتحاول ألا تتنفس، فرائحة الدم المتخثر الشبيهة بالحديد الصدئ قد اخترقت الجص الذي على الجدران. عليك حتماً أن تغادر، أن تخرج من هناك وأن تتنشق بعض الهواء قبل أن يبدأوا برمي نشارة الخشب على الدم، لأن الرائحة المركبة من الاثنين رهيبة لدرجة ستجعلك ودون شك تتقيأ.

لم أستطع أن أفهم بدقة السبب الذي دفعني إلى أن أظهر مرة أخرى في موقع الجريمة. غير أنني كنت واثقاً من أمر واحد فقط: ليس مهماً وضع مخطط لما حدث كي نعيد بناء أحداث الدراما الرهيبة التي تجلت

للعيان، فدراسة بقايا الطلقات، ودوائر الطبشور المرسومة حول الجثث كلعبة الدحل عند الأطفال، جميعها ستكون بلا جدوى. ما يتوجب فعله بدلاً من ذلك هو محاولة فهم ما إذا كان يتبقى شيء، وربما هذا ما كنت أريد تتبعه، إنني أحاول أن أفهم ما الشيء الإنساني الذي بقي، أن أرى إن كان ثمة طريق أو نفق حفرته دودة الوجود يمكن له أن يقود إلى حل، إلى جواب يضفي شيئاً من المنطق على ما يحدث.

كانت جثة أتيليو لا تزال مسجاة على الأرض عندما وصلت عائلته. كانتا امرأتين، ربما أمه وزوجته، لا أدري. كانتا تمشيان كتفاً إلى كتف، متشبثتان ببعضهما وهما تقتربان. إنهما الوحيدتان اللتان لا تزالان تأملان أن لا يكون الأمر كما يبدو. إنهما تفهمان كل شيء تماماً، لكنهما تحيطان بعضهما بذراعيهما، لتؤازرا بعضهما في الثواني التي تسبق مواجهتهما المأساة. وفي هذه الثواني تحديداً، في الخطوات التي تمشيها الأمهات والزوجات باتجاه الجثة المكومة على الأرض يستشعر المرء بالإيمان غير العقلاني، والمجنون، وعديم الجدوى الذي ينطوي عليه توق البشر. أولئك الذين يأملون، ويأملون، وتسعى نفوسهم وراء بارقة أمل في أن يكون في الأمر خطأً ما، خطأ في الشائعات، أو سوء فهم لدى ضابط الشرطة الذي أتى ليبلغهم عن الكمين وجريمة القتل اللذين حدثا. وكأن تعلقهم بعناد بإيمانهم هذا يمكنه في الواقع أن يغير مجرى الأحداث. في تلك اللحظة يضحي ضغط دم الأمل في ذروته. لكن ما من شيء يمكن فعله، إذ تكشف الصرخات والعويل قوة الجاذبية التي يملكها الواقع والتي تشدهم إليه، أتيليو على الأرض. لقد عمل في متجر للهواتف، وكذلك في مركز اتصالات ليجني بعضاً من المال الإضافي. إنه وزوجته نتاليا لم ينجبا أطفالاً بعد، ربما لم يكن لديهما وقت لذلك، أو ربما كان نقص الموارد هو ما يمنعهما، أو ربما أنهما كانا ينتظران أن تحملهما الفرصة

إلى مكان آخر. كان العمل يستهلك أيامهما، وعندما استطاعا أخيراً أن يدخرا شيئاً من المال، ظن أتيليو أنها ستكون فكرة جيدة أن يدخل في مجال العمل الذي قاده إلى حتفه. إلا أن المالك الآخر كان يمت بصلة قربى بعيدة إلى باريانته، زعيم باكولي الذي كان كولونيلاً لدى آل ديلاورو ثم انقلب ضدهم. أتيليو لم يكن يعلم أو ربما لم يكن مقدراً أبعاد الخطر، فهو يثق بشريكه، وكان يكفيه أن يكون رجلاً يعمل ليؤمّن عيشه، بل ويعمل بجد أيضاً. ففي النهاية أنت لا تختار قدرك في هذا المكان، فالحصول على عمل يبدو كامتياز، كشيء تتمسك به ما إن تحصل عليه. إنك تشعر بأنك محظوظ، وحتى إن كان ذلك يعني أن تعمل ثلاث عشرة ساعة متواصلة يومياً، وتحصل على نصف يوم الأحد كعطلة فقط، وأن الألف يورو التي تتقاضاها شهرياً تغطي بالكاد رهن منزلك. أياً كانت الطريقة التي حصلت بها على العمل، فعليك أن تكون شاكراً وألا تطرح الكثير من الأسئلة، لا على نفسك ولا على قدرك.

غير أن أحداً ما كانت لديه شكوكه، لذا أصبحت جثة أتيليو رومانو مضافة إلى جثث أولئك الأشخاص الذين قتلهم جنود كامورا في الأشهر الأخيرة. الجثث كانت متماثلة لكن أسباب الموت هي التي اختلفت حتى وإن كان الموتى قد سقطوا في الحرب ذاتها. الجماعات هي التي تقرر من تكون أنت، وما الدور الذي تلعبه في لعبة المخاطر هذه. تحسم تلك الأدوار بمنأى عن رغبات الأفراد. فعندما تخرج الجيوش إلى الشوارع يصبح من المستحيل التحرك وفقاً لأي قوى محركة سوى تلك التي تفرضها استراتيجيتها الخاصة، وهم من يقررون ما هو المعنى، وما هي الدوافع والأسباب. وفي تلك اللحظة، كان المتجر الذي عمل فيه أتيليو يمثل اقتصاداً مرتبطاً بالإسبان، وأحد المتاجر الذي كان لا بد من تدميرها.

صعقت نتاليا، أو ناتا كما كان أتيليو يناديها، من المأساة. لم يكن قد مضى على زواجهما سوى أربعة أشهر، لكن أحداً لم يعزيها. لم يحضر رئيس الجمهورية الجنازة، ولم يكن هناك لا وزير ولا محافظ ليربتا على يدها مواسيين. غير أن شبهة ظالمة تحوم حول مقتل أتيليو، شبهة تشكل الموافقة الضمنية على حكم كامورا، ومصادقة جديدة على نشاطات الجماعات. لكن الأشخاص الذين عملوا مع أتيلا، وهو اللقب الذي أطلقوه عليه بسبب إقباله العنيف على الحياة، رفعوا الصلاة على ضوء الشموع في مركز الاتصالات، وأصروا على المسيرة بالرغم من أن جرائم أخرى كانت تحدث خلال الاحتجاجات، وأن الدم لا يزال يصبغ الشوارع. لقد قاموا بمظاهرة، أشعلوا الشموع، وأوضحوا الأمر، وأزالوا كل عار، وقضوا على جميع الشبهات. أتيلا قضى أثناء قيامه بعمله، ولم يكن له أي روابط بكامورا.

في الحقيقة، بعد كل كمين، فإن الشبهات تحوم حول الجميع. فماكينة الجماعة غاية في الكمال، لا وجود للأخطاء، بل فقط للعقوبات. وعلى هذا فقد كانت الجماعة هي من تُصدَّق، لا الأقرباء الذين لا يفهمون كيف حدث ذلك، ولا زملاؤه في العمل الذين يعرفونه، ولا مسيرة حياته كفرد. في هذه الحرب، يُسحق الأفراد البريئون وتتم فهرستهم على أنهم من الأعراض الجانبية لها، أو يوضعون في قائمة المذنبين المحتملين.

في 26 كانون الأول من عام 2004، كان داريو شيريلو البالغ من العمر ستةً وعشرين عاماً، يقود دراجته النارية عندما أطلقت عليه النار في وجهه وصدره وترك ليموت، غارقاً في بركة من دمه الذي غطّى قميصه بشكل كامل. رجل بريء، غير أنه قدم من كاسافاتور، وهي بلدة كان قد طحنها الصراع. أما بالنسبة إلى ظروف مقتله فالغموض والصمت يلفان الحادثة. لا نقش على شاهد قبره، ولا صحيفة معدنية،

ولا تذكار. قال لي رجل مسن بينما كان يقف عند البقعة التي قتل فيها داريو: "عندما يقتل أحد على يد كامورا، فإنك لا تعلم أبداً ما هي حقيقة الأمر ليس للدم اللون ذاته لدى الجميع، فلون دم داريو كان أرجوانياً ضارباً إلى الحمرة، ويتراءى للمرء أنه لا يزال يتدفق. لقد واجهت أكوام نشارة الخشب أوقاتاً عصيبة في امتصاصه بكامله. وبعد قليل تستغل سيارة مارة الفسحة الموجودة لتركن فوق البقعة. كل شيء يصل إلى نهايته، وكل شيء تتم تغطيته. لقد كان مقتل داريو رسالة إلى البلدة، رسالة من اللحم مختومة في ظرف من الدم. كما في البوسنة، والجزائر، والصومال وكما هي الحال في أي حرب داخلية مضطربة، عندما يكون من الصعب تحديد مع أي طرف من النزاع أنت، إذ يكفي أن يتم قتل جارك، أو أي كلب، أو صديقك، أو قريبك. فمجرد تلميح بالقرابة، أو تشابه بدني هو كل ما يحتاج إليه الأمر ليجعل من الشخص هدفاً. ويكفي أن تمشي في شارع محدد لتكتسب مباشرة هوية من الرصاص. ما يهم هو حشد أكبر قدر ممكن من الألم، أو المأساة، أو الإرهاب، والهدف الوحيد من وراء ذلك هو إظهار القوة المطلقة، والسيطرة التي لا تناقش، واستحالة معارضة مصدر النفوذ الحقيقي والحاكم. لدرجة أنك تعتاد التفكير بطريقتهم، فتصبح مثل أولئك الذين يعتبرون مجرد عبارة أو إيماءة بمثابة الإساءة لهم. فلكي تنقذ حياتك، وتتجنب لمس خط التوتر العالي للانتقام، عليك أن تكون حذراً، ويقظاً، وصامتاً. وبينما كنت في طريقي للمغادرة، وبينما كانوا يأخذون أتيليو رومانو، بدأت أفهم، بدأت أفهم السبب في أن ما من لحظة تمر دون أن تطالعني فيها أمي بعينيها الجزعتين، وهي عاجزة عن فهم السبب وراء عدم مغادرتي، لم لا أهرب بعيداً، لم أستمر بالعيش في هذا الجحيم المزمن؟ حاولت أن أسترجع في ذهني كم هو عدد الذين سقطوا، كم عدد الذين قتلوا منذ يوم ولادتي.

غير أنك لست بحاجة إلى أن تحصي عدد الموتى لتفهم ماهية أعمال كامورا، فالقتلى هم الأثر الأكثر وضوحاً، وهم ما يحدث انقلاباً في أحشائك، إلا أنهم يبقون العنصر الأقل كشفاً عن القوة الحقيقية لكامورا. لقد بدأت العد منذ عام 1979 وفيه سقط 100 قتيل. 140 قتيلاً في عام 1980، و110 في عام 1981، و264 في عام 1982، و204 في عام 1983، و155 في عام 1984، و107 في عام 1986، و127 في عام 1987، و168 في عام 1988، و228 في عام 1989، و222 في عام 1990، و223 في عام 1991، و160 في عام 1992، و120 في عام 1993، و115 في عام 1994، و148 في عام 1995، و147 في عام 1996، و137 في عام 1997، و132 في عام 1998، و91 في عام 1999، و118 في عام 2000، و80 في عام 2001، و63 في عام 2002، و83 في عام 2003، و142 في عام 2004، و90 في عام 2005.

الحصيلة هي 3600 قتيلاً منذ ولادتي. لقد قتلت كامورا أكثر مما قتلت المافيا الصقليّة، وأكثر من ندرانيتا، وأكثر من المافيا الروسية، وأكثر من العائلات الألبانية، وأكثر من إجمالي القتلى في حرب العصابات التي شنتها جماعة القوميين الباسك في إسبانيا ETA، والجيش الجمهوري الإيرلندي القومي IRA، وفرقة الحمر العسكرية في إيطاليا، النوى الثورية المسلحة في إيطاليا NAR، والمذابح كافة التي ارتكبتها الحكومة في إيطاليا. قتلى كامورا هم الأكثر على الإطلاق. تحضرني صورة خريطة العالم، من النوع الذي تراه في صحف مثل لو موند ديبلوماتيك، والتي تؤشر إلى أماكن الصراع في العالم بشعلة صغيرة: في كردستان، والسودان، وكوسوفو، وتيمور الشرقية. وتنجذب عيناك إلى شمال إيطاليا، إلى الأجساد التي تتكوم مع كل حرب متصلة بكامورا، بالمافيا، بندرانيتا، بساكرا كورونا يونيتا

في بلغيا، وبباسيليتشي في لوكانيا، لكنك لا ترى أي شعلات صغيرة، ولا مؤشرات على الصراع. هذا قلب أوروبا، إنه المكان الذي يتبلور فيه معظم اقتصاد البلاد. إن استراتيجيات الاستخراج لا تهم كثيراً، ما يهم هو أن مدفع العلف يبقى ملطخاً بالوحل في الضواحي، وعالقاً في كتل من الإسمنت والنفايات، في مصانع السوق السوداء، ومستودعات الكوكايين. ولا أحد يلحظ شيئاً، وكل ذلك يظهر على أنه حرب بين العصابات، حرب الشحاذين. ومن ثم تفهم الطريقة التي يبتسم بها أصدقاؤك الذين هاجروا إلى ميلانو، أو بادوا، وهم يتساءلون عن أي نوع من الأشخاص قد أصبحت. إنهم يقيسونك بأنظارهم من رأسك إلى أخمص قدميك محاولين اكتشاف ما إذا كنت فاشلاً، أم كاموريّاً. أنت تعلم عند مفترق الطرقات أيها قد اخترت، وأي سبيل تسلك الآن، ولا ترى في نهايته ما يبشر بالخير.

لقد عدت إلى منزلي، لكنني لم أستطع الجلوس ساكناً، فخرجت ثانية وأخذت أركض أسرع فأسرع، وركبتاي تتذبذبان في حركة دائرية، وعقباي يقرعان مؤخرتي بعنف، أما ذراعاي فكانتا تجلدان ما حولهما وكأنهما ذراعا دمية. كان قلبي يخفق بعنف، ولساني وأسناني غارقين في اللعاب. كنت أشعر بالدم وهو يجعل الأوردة تنتفخ في رقبتي، ومن ثم يفيض في صدري. كنت منقطع الأنفاس، أستنشق كل ما أقدر عليه من الهواء ثم أزفره بحدة، كما الثور. أخذت أركض ثانية، تجمدت يداي، واشتعل وجهي بالحرارة، أما عيناي فكانتا مغمضتين. لقد شعرت بأنني امتصصت كل الدم الذي شاهدته على الأرض، وكأن كل ذلك الدم الذي كان يتدفق خارجاً مندفعاً من صنبور مكسور، كان يُضخ الآن عبر جسدي.

لقد ركضت إلى الشاطئ وتسلقت الصخور. كان السديم ممتزجاً بالظلام حتى تعذر عليّ تمييز أضواء السفن التي تعبر الخليج. كانت

المياه تترقرق، والأمواج قد بدأت ترتفع. بدت وكأنها تحجم عن لمس مستنقع ساحة القتال، لكنها مع ذلك لم تنسحب إلى الدومات البحرية البعيدة في البحر المفتوح. لقد كانت ثابتة في الماء، وهي تقاوم بعناد، وبثبات مستحيل، وتتعلق بقممها الزبدية. إنها ساكنة وقد فارقها اليقين بالمكان الذي ينتهي فيه البحر.

بعد بضعة أسابيع، يبدأ المراسلون الصحفيون بالتوافد. وبغتة، ستنبض الحياة من جديد في كامورا، في المنطقة التي اعتقدوا أنها لم تكن تحوي سوى العصابات ونشالي الحقائب. وفي غضون بضع ساعات، تصبح سيكونديغليانو مركز الانتباه. مراسلون خاصون، مصورون صحفيون لأهم وكالات الأنباء، بل وحتى موقع دائم خاص بوكالة الأنباء البريطانية BBC. بعض الأطفال أخذت صورهم إلى جانب مصور يحمل آلة تصوير تلفزيونية عليها شعار CNN. تشعرهم آلات التصوير بأنهم قد نقلوا إلى مركز الجاذبية الأرضية، ويبدو بأن الاهتمام الإعلامي يمنح هذه المناطق وللمرة الأولى وجوداً واقعياً. فبعد عشرين عاماً من الإهمال، تضع مذابح سيكونديغليانو كامورا في بؤرة الاهتمام. أما الحرب، فمن باب الاحترام لوجود الصحفيين، فهي تقتل بسرعة. ففي أقل من شهر تراكم عشرات وعشرات من الضحايا، وكأن ذلك كان مقصوداً بحيث يحصل كل مراسل على حادثة موت خاصة به، وهكذا يكون النجاح للجميع.

زمرة من الصحفيين المتدربين يرسلون إلى هنا لاكتساب الخبرة. آلات التصوير والميكروفونات نبتت في كل مكان لإجراء لقاءات مع مروجي المخدرات، ولالتقاط لمحة عن مشاريع فيله الوعرة متعددة الزوايا. حتى إن عدداً من المتدربين تدبروا مقابلات مع باعة مخدرات مزعومين، وقاموا بتصويرهم من الخلف. جميعهم تقريباً ينفحون شيئاً

من المال إلى مدمني الهيرويين الذين يغمغمون لهم بقصصهم. مراسلتان شابتان جعلتا المصور يلتقط صورتهما أمام سيارة محروقة، كتذكار لأول حرب تعملان فيها كمراسلتين. قام صحفي فرنسي بالاتصال بي ليسألني إن كان يجب أن يرتدي سترة واقية من الرصاص عند ذهابه لالتقاط صور لفيلا كوسيمو ديلاورو. لقد أصبحت ترى أطقماً من الإعلاميين يتجولون في كل مكان ملتقطين الصور، وآخذين لقطات تلفزيونية، وكأنهم كانوا يستكشفون غابة تحول كل ما فيها إلى موقع مسرحي للأحداث. هناك من الصحفيين من كان يتنقل برفقة حراس شخصيين. وكانت هذه أسوأ طريقة يمكن استخدامها في سيكونديغليانو وهي أن تسير والشرطة تواكبك. هذه المناطق ليست بمتعذرة البلوغ، فقوة أسواق المخدرات المحلية تكمن في أنها تضمن وصولاً ميسّراً للجميع. أما الصحفيون الذين يتجولون بصحبة الحراس، فلن يتمكنوا من تسجيل أكثر مما يستطيعون العثور عليه أصلاً مطبوعاً في أي وكالة أنباء. فهم كمن يجلس في مكتبه أمام شاشة الحاسوب لكن الفرق أنه هنا يتحرك.

أكثر من مئة مراسل في أقل من أسبوعين. فجأة أصبح لسوق المخدرات الأوروبية وجوداً. حتى الشرطة انهالت عليها الطلبات، فالجميع يريدون لهم دوراً في العمليات، يريدون أن يروا على الأقل بائعاً واحداً وهو يقبض عليه، أو منزلاً واحداً وهو يفتش. الجميع يريد، في دقائق بثه الخمس عشرة أن يدرج صوراً لأغلال وأسلحة رشاشة مصادرة. لقد ابتدأ كثير من الضباط بتحرير أنفسهم من حشود المراسلين والمحققين والصحفيين، وذلك بأن جعلوهم يصورون رجال شرطة في ثياب مدنية وهم يأخذون وضعيات باعة المخدرات. فبهذه الطريقة كانوا يعطونهم ما يودون الحصول عليه دون إضاعة الكثير من الوقت. أسوأ قصة ممكنة في أقصر وقت ممكن عن أم الشرور وقمة

الرعب. أذيعوا للعلن المأساة، مأساة الدم والأحشاء، وطلقات الرشاش والجماجم المسحوقة والأجساد المحروقة. إن أسوأ ما يذيعونه هو مجرد فضلات السوء الحقيقي. يعتقد الكثير من المراسلين أنهم قد وجدوا البيئة المنغلقة والمنعزلة لأوروبا في سيكونديغليانو، والمكان الذي يرتع فيه البؤس المطلق. لكن لو أنهم لم يهربوا لكانوا أدركوا أنهم ينظرون إلى دعائم الاقتصاد، إلى كنز مخفي، إلى الظلمة التي منها يستمد قلب السوق النابض طاقته.

قدم مراسلو التلفاز اقتراحات لا يمكن تصديقها. فبعضهم طلب إليَّ أن أضع آلة تصوير تلفزيونية دقيقة في أذني بينما أتجول في شوارع محددة قائلين: "أنت تعلم أيها نعني"، وكنت أتبع من وصفوهم بقولهم: "أنت تعلم من" لقد راودتهم أحلام بأن يجعلوا من سكامبيا برنامجاً في تلفاز الواقع مع لقطات لجرائم قتل أو صفقات بيع مخدرات. ولقد سلمني أحد كتاب النصوص قصة مترعة بالموت والدماء، حيث تصوّر أن شيطان القرن الجديد قد ظهر في تيرزو موندو. لقد دعتني فرق عمل تلفزيونية إلى عشاءات مجانية كل مساء لمدة شهر، طرحت عليّ خلالها عروضاً سخيفة في محاولة لجمع المعلومات. لقد نشأت خلال الصراع صناعة حقيقية من المرشدين، والمحللين الرسميين، والمخبرين، والكشافة الهنود، وذلك كقوات احتياطية لكامورا في سيكونديغليانو، وسكامبيا. طور الكثير من الأطفال تقنيات خاصة، بحيث كانوا يتجولون في المنطقة التي يتجمع فيها المراسلون، متظاهرين بأنهم من الباعة أو المراقبين، وبمجرد أن يستجمع أحد شجاعته ليقترب منهم، فإنهم يعلنون استعدادهم للكلام، ولشرح الأوضاع، ولأخذ الصور. ولم ينسوا تحديد أجورهم مباشرة: 50 يورو لقصتهم، و100 يورو لجولة في سوق المخدرات المفتوحة، و200 يورو للدخول إلى منزل أحد التجار الذين يقطنون في مشاريع فيله.

لكي تفهم دورة الذهب لا يمكنك الاكتفاء بالنظر إلى شذراته أو حتى إلى المنجم فحسب، بل عليك أن تبدأ في سيكونديغليانو، ومن هناك تقتفي آثار الإمبراطوريات التي كونتها الجماعات. لقد وضعت حروب كامورا البلدات التي تحكمها العوائل على الخريطة: فمثلاً المناطق البعيدة في كامبانيا، هي أرض الفقر، والأقاليم التي يدعوها البعض الغرب الإيطالي البعيد، حيث تروي أسطورة مقيتة بأنه يحوي من الأسلحة الرشاشة أكثر مما يحوي من الشوك. لكن وراء العنف الذي يندلع في لحظات معينة، فإن هذه المناطق تنتج ثروات أسيّة الضخامة، والتي لا يرون منها إلا مجرد ومضات سحيقة. إلا أن شيئاً من هذا لا يتم بثه، فالتغطية الإعلامية تُعنى بالنواحي الفنية في الأحياء النابولية الفقيرة.

في 29 كانون الثاني قتل فينسينزو ديجينارو. وفي 31 كانون الثاني قتلوا فيتوريو بيفيلاكوا في محل لبيع الأطعمة المعلبة. وفي الأول من شباط، ذبح كل من جيوفاني أورابونا، وجوزيبيه بيزون، وأنتونيو باتريزيو. لقد استخدموا في قتلهم استراتيجية قديمة غير أنها فعالة، وهي بأن يتظاهر القتلة بأنهم أفراد شرطة. لقد كان جيوفاني أورابونا لاعب الهجوم في فريق ريال كاسافاتور لكرة القدم. لقد كان الثلاثة يتمشون عندما أوقفتهم سيارة عليها صفارة الشرطة وهي تدوي. وترجل منها رجلان يحملان شارتي رجال شرطة فلم يحاول الرجال الثلاثة الفرار أو إظهار مقاومة. كانوا يعلمون كيفية التصرف، لذا فقد سمحوا لهما بوضع الأغلال في أيديهم، ودخلوا معهما السيارة طوعاً. إلا أن السيارة توقفت فجأة وأجبروا على الخروج منها. ربما لم يدرك الثلاثة الأمر مباشرة، لكن كل شيء توضح مع رؤيتهم للمسدسات. لقد كان ذلك كميناً وهذان الرجلان هما من الإسبان وليسا برجلي شرطة، بل هما ينتميان إلى الجماعة الثورية. قُتِل اثنان من الرجال بطلقة في

الـرأس وهمـا راكعـان أرضـاً، فماتـا على الفور. أما الثالث وبالاسـتناد إلى الأدلة في مسرح الجريمة، فقد حاول الهرب. لكن يديه المقيدتين خلف ظهره لم تساعداه على الحفاظ على التوازن فوقع أرضاً، ونهض ثانية ثم وقع من جديد، فأمسك به القاتلان وحشرا مسدساً أتوماتيكياً في فمه. عندما عثر على جثته، كانت أسنانه متكسرة. لقد دفعته غريزته إلى العض على ماسورة المسدس محاولاً قضمها.

في 27 شباط وصل الخبر من برشلونة بإلقاء القبض على رفاييل آماتـو. كان يلعـب الـورق فـي أحد الملاهي محاولاً تجريد نفسـه من بعـض المـال. لقـد تمكّـن أفراد الديلاورو من ابن عمه روسـاريو بأن أحرقـوا منـزلـه. ووفقـاً لاتهامـات هيئة الحكام فـي نابولي، كان آماتو القائد الجماهيري المحبوب للإسـبان. لقد نشـأ في فيا كوبا ديلاركو، في الشـارع ذاته الذي عاش فيه باولو ديلاورو وأسـرته. أصبح آماتو مديراً مهماً عندما بدأ بأعمال الوساطة في تجارة المخدرات، ومعالجة شؤون استمارات الرهانات. ووفق ما ذكر في تحقيقات وكالة مكافحة المافيا وما ذكره بينتيتي، فقد تمتع بثقة غير محدودة من التجار الدوليين واستورد أطناناً من الكوكايين. عندما ألقى رجال الشرطة الذين كانوا يضعون أقنعة تشبه أقنعة التزلج به أرضاً ووجهه إلى الأسفل، لم تكن هـذه تعـد الكبـوة الأولى فـي حياته المهنية، فقد اعتقـل رافاييل آماتو سابقاً في فندق في كاساندرينو، ومعه نائب آخر وتاجر مخدرات ألباني كبير، والذي سـخر لمسـاعدته مترجماً رفيع المسـتوى، وهو ابن أخ وزير في الدولة.

مكتبة الرمحي أحمد

فـي 5 شـباط، كان دور أنجيلـو رومانـو. وفـي 3 آذار يقتل ديفيد شيارولانزا في ميليتو. كان يعرف قاتليه، وربما كان لديه موعد معهم. لقد قضي عليه بينما كان يحاول الفرار بسيارته.

لكن لم تكن المحاكم ولا الجنود أو عناصر الشرطة بقادرين على وضع نهاية لهذا الصراع. قوى القانون يمكن لها أن تبطئ من وتيرة الأمور بأن تسجن بعض الكاموريين، لكنها ليست بقادرة على إيقاف العنف. وبينما كانت الصحافة بدورها تلاحق تقارير الجرائم، وتتعثر بتأويلات المواقف وتقييماتها، إذا بصحيفة نابولية تخرج بخبر عن ميثاق بين الإسبان والديلاورو، وعن معاهدة سلام موقت تمت بوساطة من جماعة ليتشياردي. فجماعات سيكونديغليانو الأخرى كانت تتوق إلى الوصول إلى اتفاق، كما كانت بقية اتحادات كامورا ربما تتوق إليه كذلك. لقد كان أفرادها يخشون أن يكسر الصراع جدار الصمت الذي يغلف نفوذهم. إنه لأمر حاسم أن يعود العالم القانوني إلى تجاهل عالم الجريمة. لم تكتب المعاهدة ليلاً من قبل زعيم ذي شخصية آسرة وهو يقبع في زنزانة السجن، ولم تُدَر بشكل سري بين الأطراف المعنية، بل نشرت في مقالة لسيمون ديميو في صحيفة كروناتشه دي نابولي، في 27 حزيران من عام 2005، وظهرت في أكشاك الصحف لتكون في متناول الجميع ليقرأوها ويعوها. وها هي بعض النقاط التي ذكرت في المعاهدة المنشورة:

1. يطالب الانفصاليون بإعادة الممتلكات التي أخليت ما بين تشرين الثاني وكانون الثاني إلى أصحابها، حيث إن حوالى الثمانمئة شخص كانوا قد أرغموا من قبل قوى الديلاورو الضاربة على مغادرة منازلهم.

2. لقد تم كسر طوق احتكار الديلاوريين لسوق الإتجار بالمخدرات، ولا عودة إلى ذلك. لذا فلا بد من تقسيم الأقاليم بإنصاف، فتكون المقاطعة للانفصاليين ونابولي للديلاورو.

3. بإمكان الانفصاليين استخدام قنواتهم الخاصة لاستيراد المخدرات،

فهم ليسوا مطالبين بعد الآن بالاعتماد على الوسطاء الديلاوريين.

4. الثأر الشخصي منفصل عن الأعمال. بمعنى آخر، فإن العمل أهم من الشؤون الخاصة. فإن كان هناك في المستقبل حركة ثأر متصلة بالصراع، فهي لن تعيد إشعال فتيل العداوات بل تبقى في حدود الأمور الخاصة.

لا ريب في أن زعيم زعماء سيكونديغليانو قد عاد. لقد شوهد في كل مكان، من بلغيا إلى كندا. والمخابرات السرية كانت تعمل على مدى أشهر لاعتقاله. باولو ديلاورو لا يترك ولا حتى أصغر أثر مرئي له، تماماً كنفوذه قبل الصراع. ويبدو أنه قد أجريت له عمليات جراحية في عيادة في مرسيليا، وهي العيادة ذاتها التي عولج فيها زعيم كوسا نوسترا برناردو بروفينزانو. لقد عاد ليوقّع صك السلام أو ليضع حداً للأضرار. إنه هنا، يمكنك أن تشعر بحضوره، فقد تغيرت الأجواء. الزعيم الذي كان مفقوداً لعشر سنوات، والذي "كان يجب عليه أن يعود حتى وإن كان يخاطر بإمكانية سجنه"، كما قال أحد الشركاء عبر الهاتف. الزعيم الذي لا يعرف حتى شركاؤه وجهه. ناشد أحدهم الزعيم ماوريزيو برستيري قائلاً: "أتوسل إليك دعني أراه لثانية، لثانية واحدة فقط، سألقي نظرة واحدة ثم أذهب"

لقد ألقي القبض على باولو ديلاورو في فيا كانونيكو ستورناولون في 16 أيلول من عام 2005. كان يختبئ في منزل فورتونتا ليغوري المتواضع، وهي زوجة أحد الشركاء من المراتب الدنيا. بيت مجهول، لا يميزه شيء، يماثل البيت الذي كان ابنه كوسيمو مختبئاً فيه. من الأيسر أن تموّه نفسك في غابة الإسمنت، في منزل يصعب تصنيفه، حيث لا يلاحظك أحد، ولا يتكلم عنك أحد. تتيح البيئة المتحضرة لك غياباً كاملاً، والاختباء في المدينة يوفر لك هوية مجهولة بشكل أعظم منه

في ملجأ تحت الأرض. لقد كاد باولو ديلاورو أن يعتقل في ذكرى ميلاده. لقد كان تحدياً كبيراً أن يعود إلى منزله ليتناول العشاء مع أسرته في حين كانت نصف شرطة أوروبا تسعى في أثره، لكن أحدهم حذره في الوقت المناسب. إذ عندما وصل جنود الشرطة إلى منزله، وجدوا المائدة معدة ومكانه فارغاً. أما هذه المرة فقد كانت وحدة العمليات الخاصة من الجنود ROS متأكدة، كان الضباط قلقين لدى اقتحامهم المنزل في الرابعة فجراً، بعد مراقبة دامت طول الليل. من جهته لم يكن الزعيم يبدي أي رد فعل، بل قام في الواقع بتهدئتهم قائلاً:

"تعالوا إلى الداخل... إنني هادئ... ما من مشكلة"

عشرون سيارة هي التي رافقت ديلاورو بالإضافة إلى أربع دراجات نارية كانت تسير في المقدمة لتضمن أن كل شيء تحت السيطرة. أخذ موكب السيارات ينهب الطريق، والزعيم راكب في العربة المدرعة. كانت هناك ثلاث طرقات محتملة للوصول إلى الثكنة: أن يقطع فيا كابوديمونت ومن ثم ينعطف مسرعاً عبر فيا بيسينا وبيازا دانته، لسد كل منفذ إلى كورسو سيكونديغليانو، وللوصول إلى الطريق السريع المتجه إلى فوميرو. أو إن كان الوضع بالغ الخطورة، ستحطّ مروحية لتقله عبر الجو. دلت الدراجات النارية على عربة مشبوهة على طول الطريق. كان الجميع يتوقع كميناً، لكن اتضح أنه بلاغ كاذب. أوصل الموكب ديلاورو إلى الثكنة في فيا باسترينغو، في قلب نابولي. وظهرت طائرة مروحية حطّت على الأرض مثيرة الغبار والأوساخ من أرض الساحة المزهّرة، وأخذت زوبعة من النفايات تتطاير في المكان مع أكياس النايلون، والمناديل الورقية، والجرائد!

ليس هناك أي خطر على الإطلاق، لكن من الضروري الإعلان عن اعتقاله بشكل مدوٍ، لإظهار أنهم تمكنوا من الإمساك بمن لا يمسك، أنهم قد اعتقلوا الزعيم. فعندما وصلت العربات والسيارات

المصفحة إلى الثكنة، ورأى الجنود أن المراسلين قد تجمعوا مسبقاً عند المدخل، عندها فتحوا أبواب السيارات وجلسوا فوقها وكأنها سروج. لقد أثاروا جلبة كبيرة وهم يلوحون مهددين بمسدساتهم، ويضعون الأقنعة، ويرتدون سترات خاصة بالجنود. بعد اعتقال جيوفاني بروسكا، أراد كل جندي أو شرطي أن يتم تصويره في تلك الوضعية. فبالنسبة إلى هؤلاء الجنود كان ذلك مكافأة على الليالي الطويلة من الانتظار في أماكن المراقبة، وارتياحاً من أسر فريستهم أخيراً، ودهاء أهل العلاقات العامة إذ هم يعلمون أن صورة كهذه ستجد طريقاً إلى صدر الصفحات الأولى. أما باولو ديلاورو فلم يخرج للملأ عند مغادرته الثكنة بالعجرفة التي أظهرها ابنه كوسيمو، بل انحنى ووجهه إلى الأرض، عارضاً رأسه الأصلع فقط لآلات التصوير. لعل ذلك كان وسيلة لحماية نفسه. فأن تلتقط صورته مئات العدسات من كل زاوية ممكنة، وأن تقوم بتصويره عشرات الكاميرات التلفازية فإن ذلك من شأنه أن يعرض وجهه على كل إيطاليا، ربما مسبباً بذلك أن يتعرف إليه جيران ما كانوا يشكون به قبلاً، وبالتالي يبلغون السلطات عن رؤيتهم له، أو عن سكنه بالقرب منهم. فمن الأفضل عدم إغراء التحقيقات على المضي قدماً، ومن الأفضل عدم الكشف عن طرائقه السرية. غير أن البعض قد فسروا رأسه المنخفض على أنه انزعاج بسيط من أضواء الكاميرات المنهالة عليه. انزعاج من اعتباره وحشاً للعرض.

وبعد عدة أيام، أحضر باولو ديلاورو إلى المحكمة، في الغرفة 215. لقد اتخذ مكانه ضمن جمهور من العموم مؤلف من الأقرباء. كانت الكلمة الوحيدة التي نطق بها هي "حاضر"، وكل ما تبقى كان يعبر عنه دون كلام: إيماءات، وغمزات، وابتسامات كانت هي العبارات الصامتة التي استخدمها للتواصل من خلال قفصه. وكلها تعبر عن التحيات، والاستجابات، والطمأنة. تراءى لي وكأن باولو ديلاورو كان يحدق إليَّ،

لكنه في الحقيقة كان يتبادل النظرات مع رجل رمادي الشعر يجلس خلفي، لقد نظرا إلى بعضهما بضع ثوان ومن ثم غمزه الزعيم.

بعد أن علم الناس بخبر اعتقاله، أراد كثيرون منهم، كما هو واضح، القدوم لتحية الزعيم الذي لم يتمكنوا من مقابلته لسنوات بسبب اختبائه. لقد كان باولو ديلاورو يرتدي سروالاً من الجينز، وكنزة داكنة اللون، وينتعل حذاء باتشيوتي، وهي الماركة التي ينتعلها جميع مديري الجماعات المحلية. لقد نزع عنه سجانوه أغلاله، وجلس في قفص خاص به وجده. النخبة من جماعات نابولي الشمالية كانت مجتمعة في قاعة المحكمة تلك: رفاييل أبينانته، وإنريكو دافانزو، وجوزيبيه كريسكولو، وأركانجيلو فالينتينو، وماريا برستيري، وماوريزيو برستيري، وسلفاتور بريتي، وفينسينزو ديلاورو، ووزع الرجال التابعون للزعيم، وأولئك الذين كانوا يدينون له بالولاء سابقاً على قفصين، واحد لموالي الديلاورو، والآخر للإسبان. كان بريستيري هو الأكثر أناقة بينهم، بسترته الزرقاء، وقميصه الأزرق القطني الداكن، وكان كذلك الأول في التوجه إلى الزجاج الواقي الذي يفصلهم عن الزعيم. لقد تبادلا التحية والترحاب، ومن ثم انضم إليهما إنريكو دافانزو، وقد تمكنوا حتى من أن يهمسوا لبعضهم شيئاً عبر شقوق الزجاج المضاد للرصاص. كثير من المديرين لم يروه لسنوات، وابنه فينسينزو لم يره منذ عام 2002، عندما ذهب للاختباء في تشيفاسو في بيدمونت، وحيث تم اعتقاله في عام 2004.

لم أرفع عينيّ مطلقاً عن الزعيم، فكل واحدة من إيماءاته وتعابير وجهه كانت تشكل مادة تكفي لملء صفحات كاملة من التفسيرات، ولإرساء قواعد جديدة للغة الجسد. وتجلى للعيان حوار غريب صامت بين الأب وابنه، فقد أشار فينسينزو بسبابته اليمنى إلى الإصبع التي يضع فيها خاتم الزواج في اليد اليسرى كأنما ليسأل أباه عن خاتمه،

فيمرر الزعيم يديه على جانبي رأسه، ثم يقلد حركة الإمساك بمقود السيارة، وكأنه يقود. لا يمكنني فك شيفرات إيماءاتهما، لكن التأويل الذي قدمته الصحف هو أن فينسينزو قد سأل والده عن سبب عدم وضعه لخاتم الزواج، فشرح له والده أن الجنود قد أزالوا عنه كل ذهبه. وبعد كل الإيماءات، وتعابير الوجه، والشفاه السريعة الحركة، والغمزات، والأيدي على الزجاج المضاد للرصاص، يتأمل باولو ديلاورو في ابنه ويبتسم، ويقبلان بعضهما عبر الزجاج. عند نهاية جلسة الاستماع، يطلب محامي الزعيم أن يتم السماح للاثنين بالعناق. وعندما سمح لهما بذلك، وقف سبعة من رجال الشرطة لحراستهما.

قال فينسينزو لوالده: "تبدو شاحباً"، فأجابه أبوه وهو ينظر مباشرة في عينيه: "هذا الوجه لم يرَ نور الشمس لسنوات وسنوات"

كثيراً ما يقبض على اللاجئين وقد أصبحوا في حالة يأس. هروبهم المتواصل يبرهن عن استحالة الاستمتاع بثرواتهم، مما يزيد التقارب بينهم وبين رؤساء أركان الحرب لديهم، ويصبح هذا الأمر هو المقياس الحقيقي الوحيد لنجاحهم الاقتصادي والاجتماعي. فمع وجود نظام الحماية المحكم، والحاجة المرضية المهووسة إلى التخطيط لكل خطوة، ومع تمضيتهم معظم حياتهم مختبئين في غرفة ما، وهم ينظمون وينسقون شؤون مصالحهم، يضحي الزعماء اللاجئون أسرى لأعمالهم الخاصة نفسها. ثم تسرد امرأة في قاعة المحكمة فصلاً من الفترة التي كان ديلاورو فيها مختبئاً، لقد بدت شبيهة بعض الشيء ببروفيسورة بشعرها الذي يميل إلى اللون الأصفر أكثر منه إلى الأشقر، وبمنابت سوداء اللون، أما صوتها فكان خشناً وثقيلاً. لقد حدثتني عن الوقت الذي كان فيه باولو ديلاورو لا يزال يتنقل في سيكونديغليانو، وإن كان ذلك متلازماً مع تخطيط لأدق الجزئيات. لقد بدت وكأنها تأسف للمصاعب التي يواجهها. لقد أسرّت لي أن ديلاورو يملك

خمس سيارات جميعها لها اللون نفسه، والطراز نفسه، وحتى رقم اللوحة ذاته. وعندما كان يريد أن يذهب إلى مكان ما، كان يرسل السيارات الخمس معاً على الرغم من أنه كان، بديهياً، أن يستقل واحدة منها فقط. وكان لسياراته جميعها مرافقة، ولم يكن أحد من رجاله يعلم على وجه التحديد في أي منها هو. عندما تغادر كل سيارة الفيلا يصطف الرجال خلفها لمرافقتها، وهذه طريقة مضمونة لتجنب الخيانة حتى في أبسط وجوهها، والتي قد تتجلى في مجرد إعطاء الإشارة بأن الزعيم على وشك التحرك. لقد سردت المرأة كل هذا بلهجة من يرثي بعمق لمعاناة وعزلة رجل كان عليه دائماً أن يفكر في أنه على وشك أن يقتل. وبعد موجة من الإيماءات والعناقات شبيهة برقصة الترانتيلا الشعبية الإيطالية، وبعد التحيات والغمزات بين أناس يشكلون أشد البنى ضراوة في نابولي، أصبح الزجاج المضاد للرصاص الذي يفصل الزعيم عن بقية الرجال، مملوءاً بأنواع مختلفة من العلامات: علامات للأيدي، لطخات دهنية، وخيالات لقبلات.

بعد أقل من أربع وعشرين ساعة على اعتقال الزعيم، عثر على فتى بولندي في طرقات أرزانو وهو يرتعد كريشة في مهب الريح بينما كان يناضل ليلقي بصرة هائلة في القمامة. كانت الصرة عبارة عن جثة، جثة تالفة معذبة ومشوهة إلى أسوأ درجة. يبدو مستحيلاً أن تعامل جثة ما بهذه الطريقة، فلو أنه قد أجبر على ابتلاع لغم انفجر بعدها في أحشائه، لكان ذاك الانفجار أحدث خراباً أقل من هذا. كانت الجثة عائدة إلى إدواردو لا مونيكا، على الرغم من أن ملامحه لم تعد مساعدة على تمييزه. شفتاه وحدهما كانتا سليمتين، أما بقية وجهه فكان بمجمله قد سحق. كان جسده كالغربال من كثرة الثقوب التي فيه، وقد شكل الدم عليه قشرة تغطيه. لقد أوثقوه وعذبوه

بمضرب شائك مملوء بالمسامير، عذبوه ببطء ولساعات طويلة. كل ضربة كانت تحدث ثقوباً جديدة، مخترقة لحمه ومحطمة عظمه عندما كانت تلك المسامير تدق في جسده ومن ثم تقتلع ثانية. لقد قطعوا أذنيه، واجتثوا لسانه، وكسروا رسغيه، واقتلعوا عينيه بمفك، كل ذلك بينما كان لا يزال حياً، صاحياً، وواعياً لما يحدث. ومن ثم ليقضوا عليه فقد حطموا وجهه بمطرقة، ونحتوا بالسكين إشارة متصالبة على شفتيه. كان يفترض أن تلقى جثته في مكب القمامة ليعثر عليها متعفنة هناك. كانت الرسالة المحفورة على جسده غاية في الوضوح للجميع. إننا نقطع الأذنين اللتين سمعت بهما عن مكان اختباء الزعيم، ونحطم الرسغين اللذين مددتهما لتأخذ المال مقابل دمه، ونقتلع العينين اللتين رأيت بهما، ونجتث اللسان الذي تكلمت به. إننا نحطم الوجه الذي خسرته في نظر التنظيم مذ فعلت فعلتك، وشفتاك سنختمهما وإلى الأبد ستغلقان على العهد الذي خنته. لقد كان لإدواردو لا مونيكا سجل نظيف، غير أن كنيته كانت مثقلة، لانتمائه إلى واحدة من الأسر التي حولت سيكونديغليانو إلى مقاطعة لكامورا، وإلى منجم ذهب للأعمال. وهي العائلة التي خطا معها باولو ديلاورو أولى خطواته. إن مقتل إدواردو لا مونيكا يماثل مقتل غيوليو راجيرو، فكلاهما مزقا إرباً، وعذبا بدقة شديدة، بعد ساعات وحسب من القبض على الزعيم. لقد جلدا، وضربا، وقطّعا إلى أجزاء، وسلخ جلدهما. لم تشاهد جرائم القتل التي تحمل هذه الرمزية الدموية المتعمدة منذ سنوات، منذ نهاية عهد كوتولو، الذي ذاع صيت قاتله المفضل باسكال بارا أونيمال - أي الحيوان - لقتله فرانسيس توراتيللو في السجن بأن اقتلع قلبه من صدره بيديه العاريتين، ومن ثم قضمه. لقد بادت هذه الأساليب، إلا أن صراع سيكونديغليانو أعاد إحياءها، محولاً كل إيماءة، وكل إنش من الجسد، وكل كلمة إلى وسيلة تواصل وإرسال الرسائل في الحرب.

عقد مؤتمر صحفي أعلن فيه ضباط العمليات الخاصة أن اعتقال باولـو ديـلاورو جـاء كنتيجـة لتعرفهم إلى العضو في الجماعة الذي قام بشـراء نـوع السـمك المفضـل لدى باولـو ديلاورو، البيزونا، أو سـمك الأبراميس ذي الرقط الزرقاء. لقد بدت القصة أنها محسوبة بدقة لتحطم صورة الزعيم الأعلى نفوذاً والذي يسيطر على مئات من الحراس، لكنه لا يسـيطر على خطيئة الشـره للطعام بل يقع بسـببها فريسـة للاعتقال. مـا مـن أحـد في سـيكونديغليانو صدق قصة السـمكة، ولا حتى لدقيقة واحدة. لقد اسـتنتج الكثيرون أن SISDE، وكالة الاسـتخبارات الوطنية الإيطالية، كانت وحدها المسؤولة عن عملية الاعتقال. وقد أكدت قوى الأمن أن SISDE قد تدخلت بالفعل، لكن وجودها في سيكونديغليانو كان صعب الملاحظة للغاية. في شذرات من أحاديث كانت تدور في مشرب، التقطت تلميحاً لشيء بدا قريباً إلى حدٍّ بعيد من الفرضيات التي طرحها العديد من المراسلين، وهي أن SISDE قد وضعت العديد من الناس في المنطقة على جدول رواتبها مقابل المعلومات، أو مقابل عدم تدخلهم. إنك تسمع رجالاً يرتشفون الكابتشينو أو الإسبريسو خاصتهم مع قطعة من الكرواسان ويقولون أشياء من قبيل:

"بما أنك تتقاضى المال من جيمس بوند...

لقد سمعت في تلك الأيام مرتين ذكر العميل 007، بطريقة ماكرة أو تتضمن التلميح لشيء. لقد كانت مرجعيات تلك الأحاديث غير ذات قيمة أو أكثر سـخافة من أن تتيح لي فرصة الخروج بأي استنتاجات، لكنها في الوقت ذاته كانت شاذة لدرجة يصعب تجاهلها.

ربما كانت اسـتراتيجية المخابرات السـرية تتلخص بالتعرف إلى أولئـك الذيـن كانوا عملياً مسـؤولين عـن المراقبين، ومن ثم تجنيدهم ليقومـوا بجعـل تمركـز الحراس في مناطق أخـرى كيلا يكونوا قادرين على إطلاق إنذار يسمح للزعيم بالفرار. لقد أنكرت عائلة إدواردو لا

مونيكا أن يكون متورطاً في هذا الأمر بأي شكل ممكن، مؤكدين أنه لم يكن يوماً من التنظيم بل وكان يخشى الجماعات وأعمالها. ربما دفع لفرد آخر في عائلته ليقوم بالمهمة، لكن التعذيب الجراحي يظهر بأن المقصود كان هو بشكل خاص، أكثر منه رسالة تصل إلى شخص آخر عبر جسده هو.

في أحد الأيام لاحظت وقوف مجموعة من الناس ليس ببعيد عن المكان الذي عثر فيه على جثة إدواردو لا مونيكا. أشار أحد الصبية إلى إصبع خاتم الزواج، ولمس رأس الإصبع، ثم حرك شفتيه دون إصدار أي صوت. وفجأة مرّت في ذهني صورة الإيماءات التي قام بها فينسينزو ديلاورو في قاعة المحكمة: تلك الإشارة الغريبة غير المألوفة، بأن يسأل أباه عن خاتم الزواج، وأن يكون ذلك سؤاله الأول له بعد غياب سنوات لم يره فيها. الخاتم - أنيللو - والذي يصبح باللهجة النابولية أنييللو. تلك رسالة يقصد بها الإشارة إلى أنييللو لا مونيكا، مؤسس وممثل الأسرة، وإصبع خاتم الزواج، والتي ترمز إلى الإخلاص أو الولاء. وبالتالي فهناك من خان العهد، وكأنه كان يشير إلى منبت العائلة التي خانته، العائلة المسؤولة عن اعتقاله، وإلى الشخص الذي تكلم.

لسنوات خلت في الحي كانت عائلة لا مونيكا تدعى أنييللي، تماماً كما كان أفراد عائلة جيونتا ديتوره أنونزياتا يدعون فالانتيني تيمناً بالزعيم فالانتينو جيونتا. وحسب التصريح الذي أدلى به كل من بينتينو، التائب، أنتونيو روكو، ولويجي غيوليانو، فإن الذي تخلص من أنييللو لا مونيكا لم يكن سوى الابن باولو ديلاورو. صحيح أن رجال لامونيكا جميعهم يحتلون منازل في جماعة ديلاورو، غير أن هذا القتل الأثيم يمكن أن يكون العقوبة. فهو رسالة أكثر عنفاً من مجرد انفجار بسيط لطلقة مسدس، وانتقام لذاك الموت الذي حدث منذ عشرين عاماً، فالانتقام وجبة تكون في أحسن حالاتها عندما تقدم باردة. إنها

ذاكرة بعيدة، بعيدة الأمد للغاية. ذاكرة تتشاطرها على ما يبدو جماعات سيكونديغليانو التي نهضت لاحقاً لتتولى زمام السيطرة، وعلى الأقليم نفسه الذي يحكمونه. إلا أنها تستند إلى الإشاعات، والفرضيات، والشبهات، ومقدمة لنتائج كاعتقال مثير، أو جثة مشوهة، ودون أن تأخذ على أي حال طابع الحقيقة الصرف. حقيقة يتوجب أن تكون على الدوام عصية على التفسير، كالكتابات الهيروغليفية التي ستدرك أنه من الأفضل أن تترك دون فك شيفراتها.

لقد عادت سيكونديغليانو إلى إيقاعها الاقتصادي المألوف. المديرون الإسبان والديلاوريون جميعهم كانوا في السجن. وبدأ رؤساء أحياء جدد يبرزون، إنهم مديرو صبية كانوا يخطون خطواتهم الأولى صعوداً في سلسلة القيادة. وخلال بضعة أشهر لم تعد كلمة صراع تستخدم، وحل محلها كلمة فيتنام.

"ذاك الشخص هناك... لقد كان في فيتنام... لذا فعليه أن يبقى ساكناً الآن"

"بعد فيتنام ترى الجميع خائفين هنا..."

"هل انتهت فيتنام أم لا؟"

أجزاء غير مكتملة من جمل، كان مجندو الجماعة الجديدة يقولونها في أحاديثهم عبر هواتفهم المحمولة. ففي 8 شباط من عام 2006 تمكن رجال الشرطة من اعتراض محادثات ساعدتهم على النجاح في القبض على سلفاتور ديلاورو، ابن الزعيم الذي يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً والذي كان لديه جيش صغير من تجار المخدرات الصغار. حقاً لقد خسر الإسبان المعركة، لكن يبدو أنهم قد تمكنوا من الوصول إلى هدفهم في الاستقلالية، من خلال اتحاد يحكمونه بأنفسهم ويديره فتية صغار. لقد اعترضت الشرطة رسالة

قصيرة SMS، أرسلتها فتاة إلى رئيس سوق مخدرات شاب كان قد اعتقل في أثناء الصراع، ثم عاد إلى استئناف نشاطه بمجرد إخلاء سبيله، ذكرت فيها: "حظاً طيباً في عملك، وفي عودتك إلى الحي، إنني متحمسة لانتصاركم، تهانينا!"

الانتصار الذي تحدثت عنه كان عسكرياً، والتهاني كانت ترسلها لمحاربته مع الجانب الصحيح، فصحيح أن الديلاورو في السجن، إلا أنهم قد حقنوا دماء العائلة، وأنقذوا عملها.

هدأت الأمور فجأة بعد المفاوضات التي أجرتها الجماعة، وبعد الاعتقالات التي حدثت. فأخذت أتجول في سيكونديغليانو التي كانت مستنزفة، ومداسة، ومصورة فوتوغرافياً، ومصورة تلفازياً، ومظلومة من قبل الكثير من الناس الذين أساؤوا إليها، لقد كانت سيكونديغليانو مرهقة من ذلك كله. وتوقفت أمام الصور الجدارية الزيتية التي بجانب فيليس بيغناتورا، كانت لوحات جدارية أضفت على الإسمنت شيئاً من النور وجمالاً غير متوقع. وبغتة ودونما إنذار، تفجرت السماء بألعاب نارية، أخذ الأثير يرجع صداها المحموم على شكل انفجارات متلاحقة. أطقم وكالات الأنباء الذين كانوا قد أخذوا في تفكيك عدتهم ومغادرة مراكزهم بعد اعتقال الزعيم، هرعوا عائدين لينظروا ما الذي كان يحدث. لقد توقعوا مادة غالية لبثهم الأخير من هنا: وهي احتفالات تتضمن مبنيين سكنيين بأكملهما. لقد أداروا ميكروفوناتهم، وأضواء كاميراتهم، واتصلوا بالمحررين كي يعلنوا عن تقرير خاص عن احتفال الإسبان بالقبض على باولو ديلاورو. لقد تقدمت وسألت عما كان يحدث، فأجابني صبي بدا أنه سعيد بسؤالي، قائلاً: "إنه بيبينو، لقد خرج من الغيبوبة" وقصة بيبينو تتلخص بأنه في السنة الماضية عندما كان في طريقه إلى العمل على عربته الآيب ذات العجلات الثلاث والتي كان يقودها إلى السوق، بدأت عربته تنحرف عن اتجاهها، ثم

انقلبت. الطرقات في نابولي قابلة للتحلل بفعل الماء، فبعد ساعتين من المطر تبدأ صخور الرصف البركانية بالعوم، ويتحلل الإسفلت كما لو كان مخلوطاً بالملح. لقد أحضروا جراراً من الريف ليستعيد العربة من الجرف الذي انتهت إليه، أما بيبينو فقد عاني من أذى شديد في جمجمته. وبعد عام من الغيبوبة استفاق، وفي غضون بضعة أشهر سمح له بالعودة إلى منزله. ولذا فقد كان أهل الجوار يحتفلون بعودته، فأطلقوا الألعاب النارية الأولى في اللحظة التي ترجل فيها من السيارة واستقر في كرسيه المتحرك. لقد أخذ الأطفال صوراً لهم وهم يربتون على رأسه الحليق، لكن أمه حمته من القبلات والعناق المفرطين بسبب وضعه الدقيق. وعليه فقد اتصل المراسلون بمكاتبهم ثانية وألغوا التقرير، فأغنية الحب التي تغنيها أسلحة من عيار 38، والتي كانوا يأملون بتسجيلها قد تلاشت في ضوضاء حفل أقيم لطفل قد خرج من الغيبوبة. اتجهوا إلى فنادقهم، في حين تابعت أنا طريقي إلى منزل بيبينو، فقد شعرت ببهجة تشدّني إلى حفلة كانت أبهج من أن تفوت. شربت نخب استعادة بيبينو لصحته مع جيرانه طوال الليل، فالحفلة كانت ممتدّة إلى السلالم والمدخل، والبيوت مشرعة الأبواب، والطاولات تحفل بما لذ وطاب، وليس مهماً لمن كانت تعود تلك المنازل. لقد لعبت دور الساعي على دراجتي الفيسبا، أنقل زجاجات الشراب والكوكا كولا من مشرب ليلي إلى منزل بيبينو.

في تلك الليلة كانت سيكونديغليانو صامتة ومنهكة، وقد خلت من المراسلين، والطائرات المروحية، كما خلت من عبء المراقبين والحراس. كان صمت يخيم عليها يجعلك ترغب بالنوم، بالطريقة ذاتها التي تنام فيها على الشاطئ وقت العصر، متمدداً على الرمل، ويداك تحت رأسك، وذهنك صافٍ تماماً.

النساء

لقد بدا وكأن رائحة تفوح مني ويتعذر عليّ تحديدها. إنها كتلك الرائحة التي تخترق ملابسك عندما تذهب إلى أحد محال المأكولات المقلية والذي عندما تغادره، تأخذ هذه الرائحة بالتلاشي تدريجياً، فتصبح أقل قدرة على ملاحظتها إذ تمتزج بسموم عوادم السيارات. بإمكانك أن تغتسل عدداً لا يحصى من المرات، وأن تنتقع لساعات في حوض استحمام غني بالأملاح والزيوت المعطِرة الثقيلة، إلا أنك لن تستطيع التخلص منها. وذلك ليس لأنها تكون قد اخترقت لحمك، كما هي الحال مع رائحة تعرّق المغتصب، بل لأنك تدرك أنها موجودة أصلاً في داخلك. وكأنها تنبعث من غدة هاجعة أخذت بالإفراز بشكل مفاجئ، وقد زاد في تنشيطها إحساس مبعثه الحقيقة أكثر منه الخوف. وكأن شيئاً ما في جسدك له القدرة على إخبارك عن اللحظة التي أخذت تفكّر خلالها في الحقيقة، مدركاً إياها بكل حواسك، ودون أي وسيط. إنها ليست بحقيقة مسرودة عليك أو منقولة إليك أو مصورة، بل هي حقيقة موجودة وهي تسلم نفسها إليك: إنها حقيقة إدراك المنحى الذي تجري وفقه الأمور، والطريق الذي يسلكه الحاضر. ما من طريقة في التفكير يمكنها أن تصادق على صحة ما رأيته. فبعد أن حدقت بملء عينيك إلى حرب جرت في كامورا، تتورم ذاكرتك بالكثير من الصور التي تستعيدها على انفراد حين تفيض عليك جميعها دفعة واحدة، مشوشة وممتزجة ببعضها. إنك لا تستطيع الوثوق

بعينيك، فما من أبنية مهدمة بعد حرب كامورا، وسرعان ما تمتص نشارة الخشب الدم. إن الأمر يبدو كما لو كنت أنت الوحيد الذي يرى أو يعاني، كما لو كان أحد ما على استعداد لأن يوجه إليك إصبعه ويقول: "ليس هذا حقيقياً"

ضلال حرب الجماعات، يتمثل في مصادر القوة التي تتجابه مع بعضها، والاستثمارات التي تفضي ببعضها إلى الهلاك، والمضاربات المالية التي تبيد بعضها بعضاً. سيوجد دوماً مبرراً يستمد منه العزاء، ويعطي أهمية لما يحدث يبعد بها الخطر، ويجعل الصراع يتراءى بعيداً بينما هو يحدث في الواقع على عتبة بابك. وهكذا تستطيع أن تصنف الأمر كله في خزائن ملفات المنطق التي تبنيها لنفسك تدريجياً. لكن هذا الأمر لا ينطبق على الروائح، إذ لا يمكن تنظيمها في وحدات، بل إنها تتباطأ كأثر أخير لميراث تجربة خاسرة. تعلق الروائح في أنفي، رائحة الدم ونشارة الخشب، ورائحة عطر ما بعد الحلاقة التي يضعها الجنود الفتيان على خدودهم الحليقة، ولكن تطغى رائحة الأنثى فوق كل رائحة أخرى، وهي الروائح الثقيلة لمزيل العرق ومثبتات الشعر، إلى رائحة العطور العابقة.

تشكل النساء دوماً جزءاً من القوى المحركة في الجماعة. ففي صراع سيكونديغليانو، لم تكن مجرد حادثة أن تُقتل امرأتان بوحشية تدَّخر عادة للزعماء فقط، وأن تتدفق المئات من النساء إلى الشوارع للحيلولة دون القبض على الحراس وباعة المخدرات، وهن يشعلن النار في حاويات القمامة، ويجذبن أفراد الشرطة الوطنية الإيطالية من أكواعهم. لقد شاهدت فتيات يتراكضن كلما برزت آلة تصوير متلفز، ويرمين أنفسهن بابتسامات عريضة أمام العدسات، ويغنّين أغاني قصيرة ويطلبن إجراء مقابلات معهن، ويحمن حول المكان في محاولة لرؤية الشعار الموجود على آلة التصوير كي يعرفن أي قناة هي التي تصورهن.

إذ لا يعلم المرء ما قد يحدث، فلربما رآهن أحدهم ودعاهن ليكن في أحد البرامج. في هذا المكان لا تأتي الفرصة اتفاقاً، بل يتوجب عليك انتزاعها بأسنانك، أو شراؤها، أو التنقيب عنها. لا بد أنها موجودة هنا، في مكان ما، بطريقة ما. فلا شيء متروك للصدفة. وحتى العثور على رفيق لا يترك للّقاء العرضي، أو لقدر الوقوع في الحب. فكل طريقة لانتزاع الرفيق هي نتيجة براعة في التخطيط. والفتيات اللواتي لا يطورن خطة معينة، يخاطرن بارتكاب أشياء عابثة خطيرة. فالجميع يود وضع أيديهم عليهن، وأفواههم تسيل لعاباً. فالجمال يستخدم كطعم لذا فإنهن يظهرن بسراويلهن الضيقة، وقمصانهن القطنية الملتصقة بأجسادهن. وفي بعض الأماكن يكون الجمال فخاً من النوع الأكثر إرضاء وإسعاداً. لكنك إن استسلمت، وسعيت إلى متعتك الآنية، فإنك لن تعلم ما قد يقابلك. فالفتاة ستتفوق على غيرها إن استطاعت أن تحمل الرجل الأفضل على التودد إليها. وما إن توقعه في شركها، حتى تتمسك به، وتتحمله، وتسد أنفها وتزدرده، غير أنها ستبقيه بكليّته لنفسها. شاهدت مرة، حين مررت أمام إحدى المدارس، فتاة تترجل عن دراجة نارية. كانت تتحرك ببطء لتتيح للجميع الوقت اللازم ليلحظوا الدراجة، والخوذة، وقفازي الدراجة، وجزمتها ذات الرأس المدبب الذي بالكاد لامس الأرض. فما كان من حارس المدرسة الذي عمل فيها لفترة طويلة ورعى أجيالاً مرت بها، إلا أن ذهب إليها وقال: "فرانس، ما جيه فاي آموره؟ ومع أنجيلو؟ تعلمين أن الأمر سينتهي به في بوجيورياله، أليس كذلك؟"

إن عبارة فاي آموره" هنا لا تعني ممارسة الحب، بل الدخول في علاقة ثابتة أو الخطبة. كان أنجيلو قد انضم مؤخراً إلى النظام، ولم يكن يبدو عليه أن ما يفعله يقتصر على أداء المهمات الصغيرة، لذا فقد استنتج الحارس أنه في نهاية المطاف سيدخل سجن بوجيورياله.

وعوضاً عن الدفاع عن رفيقها، كان جواب فرانسيسكا حاضراً: "وما هي المشكلة، ما دام يعطيني المخصصات الشهرية؟ إنه يحبني حقاً"

المخصصات الشهرية، هي نجاحها الأول. فإن آلت الحال برفيقها إلى السجن ستكون قد كسبت لنفسها مرتباً: إنه المال الذي تدفعه الجماعة إلى عوائل أعضائها. فإن كان لدى العضو رفيقة هو جاد بشأنها، فسيذهب المال إليها، على الرغم من أن الوضع الأمثل من باب التأكد فقط وهو أن تكون حاملاً. ليس بالضرورة أن تكون متزوجة به، بل يكفي وجود طفل حتى وإن كان في طريقه للقدوم إلى هذه الحياة. أما إن كانت مخطوبة، فهناك خطر أن تتقدم عليها فتاة أخرى، لربما كان يحتفظ بها جانباً ولم تعلم بشأنها قبلاً. في هذه الحالة إما أن يقرر رئيس الحي أن يقسم المال بين الاثنتين، وهو عرض يحمل في حد ذاته مخاطر حدوث توتر بين أسرتي الفتاتين، أنه قد يدع الأمر للعضو ليقرر إلى أي منهما سيذهب المبلغ. وفي معظم الأحيان يستقر الأمر على إعطاء المال بدلاً من ذلك إلى أسرته، مما يحل المعضلة بإتقان. وفي النهاية تبقى شهادة الزواج وولادة الأطفال هما ما تمنحان ضمانات موثوقة. ولتجنب ترك آثار في حسابات الناس المصرفية، يتم غالباً تسليم المال باليد بوساطة من يطلق عليه اسم "الغواصة"، وذلك لأنه ينزلق دوماً في أسفل الشوارع دون أن يدع أحداً يراه على الإطلاق. فهو يسلك طرقات مختلفة على الدوام للوصول إلى المنزل ذاته، كمن يظهر فجأة على سطح الماء كي يضمن ألا يتبعه أحد، إنها احتياطات يأخذها كي لا يُبتز، أو كي لا يتعرض للسرقة، أو للخطر. يتولى الغواصة رواتب أعضاء الجماعة الذين هم من المستويات الدنيا، بينما يتعامل المديرون مباشرة مع الخزنة، فيطلبون القدر الذي يحتاجون إليه من المال، وفي الوقت الذي يحتاجون إليه فيه. والغواصون ليسوا جزءاً من التنظيم ولا يصبحون أعضاء فيه، لذا

فهم لا يستطيعون استغلال الفرص المناسبة للارتقاء ضمن صفوفه. إنهم دوماً وعلى الأغلب من المتقاعدين، فهم كاتبو الحسابات، أو المحاسبون في المتاجر، الذين يعملون لدى الجماعات ليزيدوا من معاشهم التقاعدي، وليكون لديهم سبب للخروج من المنزل بدل أن يتسمّروا أمام التلفاز. ينقر الغواصة الباب في الثامن والعشرين من كل شهر. يضع حمله من الأكياس البلاستيكية على المائدة، ثم يستخرج الظرف الذي يحمل كنية العضو الميت أو المسجون، من الرزمة المحشوة داخل سترته، ويسلمها إلى الزوجة، أو إلى الابن الأكبر سناً في حال غيابها. كما أنه كذلك يحضر الطعام في غالبية الأحيان: من اللحم المقدد، إلى الفاكهة، والباستا، والخبز والبيض. وتعلن عن وصوله أصوات الأكياس وهي تحتك بالجدار، والوقع الثقيل لخطواته على الدرج، إنه يذهب دائماً إلى المتاجر ذاتها ليشتري كل شيء دفعة واحدة، ثم يقوم بجولاته وقد أحنت الأحمال قامته كما البغل. وعلى هذا فيمكنك أن تأخذ فكرة عن عدد زوجات المسجونين أو أرامل الكاموريين الذين يقطنون في شارع معين بحسب الدرجة التي يكون الغواصة مثقلاً بها.

كان دون سيرو هو الرجل الغواصة الوحيد الذي تعرفت إليه. لقد عاش في مركز المدينة القديمة، وكان يقوم بإيصال الرواتب إلى الجماعات التي كانت أوضاعها تتردّى هنا وهناك، غير أنها أصبحت في تحسن مطّرد نظراً إلى المناخ المزدهر. لقد عمل مع جماعات في كوارتييري سباغنوليا، وفورسيلا لبضع سنوات، ومن ثم انتقل بشكل متقطع إلى حي سانيتا. لقد تميز دون سيرو ببراعته في تحديد المنازل، والشقق التي تقع في الأدوار التحتية، وفي الأبنية التي لا تحمل أرقام شوارع، وفي البيوت المقتطعة من زوايا سلالم المباني، لدرجة أن سعاة البريد الذين ما انفكوا يضيعون في متاهة شوارع نابولي،

كانوا يلجأون إليه في بعض الأوقات، فيعطونه الرسائل ليسلمها هو إلى التابعين له. حذاء دون سيرو، بنتوءاته التي أحدثها إبهامه الكبير، وبسافلته التي كانت مهترئة عند الكعبين، يشكل شعار الغواصة، ورمز المسافات التي قطعها من شوارع نابولي الخلفية وهضابها، والتي كانت تطول أكثر عند ارتيابه بأنه ملاحق أو أن هناك من قد يسطو عليه. أما سروال دون سيرو فقد كان نظيفاً لكن غير مكوي. كان قد فقد زوجته سابقاً، وصديقته المولدافية كانت حقاً أصغر بكثير من أن تشغل نفسها بهذه الأمور. هو رجل من النمط الجبان، نظره موجّه نحو الأرض باستمرار حتى عندما كان يتحدث إليَّ. لقد اصطبغ شاربه باللون الأصفر من النيكوتين، وكذلك إصبعاه الوسطى والسبابة في يده اليمنى. يقوم الغواصة كذلك بإيصال المخصصات الشهرية إلى الرجال الذين حطّ رحال نسائهم في السجن. إنه لأمر مهين بالنسبة إليهم تسلم مال زوجاتهم، لذا فإن الغواصة يذهب عادة إلى منزل الأم ويدع لها مهمة توزيع المال على عائلة السجينة. بهذه الطريقة يتجنب الغواصة التأنيبات القاسية الزائفة، والصرخات على السلالم، والتمثيل المسرحي الذي يقوم به الرجل عندما يطرده خارج المنزل، لكن دون أن ينسى أولاً مع ذلك مطلقاً أن يحصّل الظرف منه. بحكم طبيعة عمله، يسمع الغواصة كل أنواع الشكاوى من زوجات الأعضاء: زيادة في الأجرة، والفواتير العالية، والأبناء الذين ينقطعون عن المدرسة، أو الذين يريدون الالتحاق بالجامعات. إنه يستمع إلى كل مطلب، وإلى كل الأقاويل عن الزوجات الأخريات اللاتي يحصلن على أموال أكثر لأن أزواجهن كانوا أكثر ذكاء فتسلقوا السلم إلى مراتب أعلى في الجماعة. بينما كانت النساء تبثه شكواها، كان تعليق الغواصة يقتصر على تكرار كلمتي: "أعلم، أعلم" إنه يتركهن ليروحن عن أنفسهن، وفي النهاية يقدم إحدى الإجابتين، فإما أن يقول: "إن الأمر ليس عائداً

إليَّ"، أو "إنني أحضر المال وحسب، ولست من بيده زمام القرار" الزوجات بدورهن يدركن تماماً أن الغواصة لا يملك أي قرار، لكنهن يأملن أنه في حال تابعن سيل شكواهن، فسينطق بشيء ما عاجلاً أم آجلاً أمام أحد رؤساء الأحياء، والذي قد يقرر بدوره أن يزيد من مخصصاتهن أو أن يمنحهن خدمات أكبر. لقد اعتاد دون سيرو على قول: "أعلم، أعلم"، لدرجة أنه كان يترنم بها كلما تحدثت معه، وأياً كان موضوع الحديث. ولقد أوصل المال للمئات من عائلات كامورا، وكان يمكنه أن يخط بيانياً أجيالاً من أسماء الزوجات والصديقات بالإضافة إلى الأزواج الذين كانت نساؤهم في السجن، ولم يكن ذلك بمثابة تأريخ لانتقاد الزعماء والسياسيين، فدون سيرو كان قليل الكلام وكئيباً، فقد أفرغ رأسه من كل كلمة كان قد سمعها، وتركها تتلاشى دون أن يرجع صداها. بينما كنا نتحدث، جرّني معه من أول نابولي إلى آخرها. وعندما افترقنا، ركب الحافلة ليعود إلى المكان الذي انطلقنا منه. كل ذلك كان جزءاً من استراتيجيته في تضليلي عن اتباع أثره، وليحول بيني وبين أي فكرة يمكن أن أكوّنها عن مكان سكنه.

تعتبر الكثير من النساء الزواج من كاموري بمثابة تلقي قرض ما، أو نيل مصدر للربح. وإن كان القدر والموهبة في صفهما فسيثمر ذلك المصدر ويصبحن هن زوجات لمستثمرين، أو مديرين، أو حتى جنرالات، ويسيطرن على نفوذ غير محدود. أما إن ساءت الأمور، فكل ما سيتبقى لهن هو ساعات زيارة في غرف انتظار السجن. وإن انهارت الجماعة وعجزت عن دفع الحصة الشهرية، فسيتوجب عليهن عندها استجداء وظيفة خادمة - متنافسات بذلك مع المهاجرات - كي يتمكنّ من دفع أتعاب المحامين، ووضع ما يؤكل على المائدة. تسبك التحالفات على أجساد نساء كامورا، اللواتي تستقطب وجوههن وتكشف

عن قوة العائلة. وعندما يكنّ بين الملأ، يمكن التعرف إليهنّ من خلال أوشحتهن السوداء في الجنازات، وصرخاتهن في أثناء الاعتقالات، والقبلات اللاتي يرسلنها إلى رجالهن في قاعات المحاكم.

إن الصورة النمطية للمرأة في كامورا هي صورة الأنثى التي لا تأتي بأي فعل سوى أن تكون صدى لآلام ورغبات رجالها، أكانوا إخوة، أو أزواجاً، أو أبناء. لكن الأمر ليس كذلك في الواقع، فالتحول الذي طرأ على كامورا في السنوات الأخيرة عنى كذلك تحولاً في دور المرأة من صورة الأم والمعينة في أوقات الأزمات، إلى مديرة جادة تشغل نفسها بشكل حصري تقريباً بإدارة أشغالها وبالأمور المالية، بينما تفوض أعمال القتال، والتجارة غير المشروعة إلى الآخرين.

أنّا مازا هي إحدى الشخصيات التاريخية التي تعطي المثال على ذلك. إنها أرملة عراب أفراغولا، وقد تزعمت واحدة من أشدّ منظمات الأعمال الإجرامية نفوذاً، وكانت واحدة من أوائل النساء اللواتي جرّمن لعلاقتهن بجرائم تتصل بالمافيا. لقد أفادت أنّا مازا من الميزات التي خلفها زوجها جينارو موتشيا، والذي قتل في السبعينيات. أرملة كامورا السوداء، وهو الاسم الذي أصبحت تعرف به، كانت العقل المدبر في جماعة موتشيا لأكثر من عشرين عاماً. كانت لها موهبة في مد نفوذها إلى كل مكان. في التسعينيات، وعندما فرضت عليها المحكمة الانتقال إلى الشمال قرب تريفيزو، حاولت حتى في عزلتها التامة، أن تعزز شبكة نفوذها فأقامت وفقاً للتحقيقات اتصالات مع مافيا برينتا. لقد كانت متهمة بتسليح ابنها ذي الاثني عشر ربيعاً مباشرة بعد مقتل زوجها، وذلك لينتقم ويقتل الشخص الذي أعطى الأمر بموته، إلا أن الأدلة لم تكن كافية ضدها فأطلق سراحها. لقد كان لأنّا مازا الأسلوب الإداري لحكم الأقلية، وكانت تقارَن إلى درجة كبيرة بالثورة المسلحة. وكان لها السيطرة على إقليمها بأكمله، لقد اتّبعها السياسيون، والتمسوا

دعمها. كانت أنّا مازا الرائدة، أما قبلها فقد كانت هناك فقط بوبيتا ماريسكا. وهي المرأة الجميلة، والقاتلة الحاقدة التي أصبحت شهيرة في إيطاليا في الخمسينيات عندما قررت، وهي حامل في شهرها السادس، أن تثأر لموت زوجها باسكالون إينولا.

أنّا مازا لم تكن مجرد حاقدة، لقد أدركت أن الاعوجاج الزمني لزعماء كامورا سيتيح لها التمتع بحصانة محجوبة عن النساء. إنه تخلف جعلها منيعة ضد الكمائن، والحسد، والصراعات. صبرها وتصميمها العنيفان في الثمانينيات والتسعينيات جعلا من عائلة موتشيا، واحدة من أهم الجماعات في مجال أعمال البناء. لقد أبرم أفرادها العقود، وتحكموا بمقالع الحجارة، وفاوضوا على شراء أراض مناسبة للإعمار. كافة مناطق فراتاماجيور، وكريسبانو، وسانت أنتيمو، وفراتامينور، وكايفانو كانت تحت سيطرة رؤساء محليين مرتبطين بالموتشيا. أصبحت جماعة موتشيا في التسعينيات إحدى دعائم النوفا فاميليا، والتي هي الاتحاد الرئيسي في مواجهة منظمة كامورا الجديدة لرفاييل كوتولو. ولكن، وبدافع من عدم رغبتهم في الوقوف بموقف السياسيين الذين طالما قدموا لهم هم المساعدة والدعم، أو بدافع من عدم رغبتهم بالظهور كالسرطان داخل النظام الذي دعموه ولعبوا فيه دوراً فعالاً، وإن يكن إجرامياً، بسبب كل ذلك، فقد قرروا التحول إلى شاهد دولة. كان باسكال غالاسو، زعيم بوجيومارينو، أول شخص، من الذين كانوا يتمتعون بمكانة رفيعة على مستوى الأعمال والمستوى العسكري، قام بالتعاون مع السلطات في التسعينيات. لقد كشف كل شيء: الأسماء، والاستراتيجيات، والتمويل. ومقابل هذا كان على الحكومة أن تقوم بحماية أملاك العائلة، وإلى حدٍّ ما أملاكه هو. لقد باح غالاسو بكل ما يعلم. فما كان من عائلة موتشيا، ودُون كل من في الاتحاد الكونفدرالي، إلا أن أخذت على عاتقها مهمة إسكاته، وإلى

الأبد. فمن خلال إفشائه لبضعة أشياء مختارة، كان يمكن لغلاسو أن يقضي على جماعة الأرملة في ساعات معدودة. لقد حاولوا رشوة حراسه الشخصيين ليدسوا له السم، كما خططوا للقضاء عليه بواسطة سلاح مضاد للدبابات. بعد هذه المحاولات الفاشلة التي خطط لها الرجال، قررت أنّا مازا التدخل. لقد استشعرت أن اللحظة قد حانت لاتباع استراتيجية جديدة: الانفصام. وهو مفهوم كانت قد استوحته من الإرهاب الذي مارسته فرقة الحمر العسكرية في السبعينيات. حيث فصل المقاتلون أنفسهم عن تنظيماتهم المسلحة، لكن دون إعلان التوبة، أو الكشف عن أي أسماء، ودون توجيه الاتهام إلى المحرضين أو مرتكبي الجرائم. لقد كانت مسألة ضمير، محاولة تجريد الموقف السياسي من شرعيته، وكان التبرؤ منه كافياً لأن يتيح للمرء تخفيفاً للحكم الصادر بحقه. لقد اعتقدت مازا أن هذه ستكون الطريقة المثلى لإزالة تهديد بينتيتي، أي التائب، وفي الوقت نفسه لجعل الأمور تبدو وكأن الجماعات غير مرتبطة بالحكومة. سيتمكنون بذلك من إقامة بعد إيديولوجي عن كامورا، مستفيدين من أحكام السجن المخففة، ومن التحسن في الأوضاع، دون الكشف عن الأساليب، أو الأسماء، أو الحسابات البنكية، أو الحلفاء. ما كان بعض المراقبين يعدونه إيديولوجية لكامورا، لم يكن بالنسبة إلى الجماعات أكثر من عمليات اقتصادية وعسكرية لمجموعة عمل. الجماعات كانت في طور التغيير: فالبلاغة الإجرامية، والهوس الكوتولي لوضع سلوكيات كامورا كافة في إيديولوجية ومذهب فكري، كلها قد استهلكت نفسها. الانفصال له أن يزيل خطر البينتيتي المميت، والذي على الرغم من التناقضات المتأصلة يبقى نقطة الارتكاز الحقيقية للهجوم على كامورا. لقد استوعبت الأرملة الإمكانيات الكاملة لهذه الخدعة، فقام ولداها بالكتابة إلى أحد رجال الدين معلنان رغبتهما بإصلاح نفسيهما، وكمبادرة رمزية لتأكيد ذلك،

كان من المفترض أن تترك سيارة مملوءة بالأسلحة أمام دار عبادة في أسيرا. إنه نزع للأسلحة، تماماً كما فعلت المنظمة القومية للإيرلنديين IRA، مع الإنكليز. إلا أن كامورا ليست بمنظمة للاستقلاليين أو نواة مسلحة، والأسلحة ليست مصدر قوتها الحقيقي. فتلك السيارة لم يتم تركها يوماً كما اتفق، واستراتيجية الانفصال التي تكونت في رأس امرأة زعيمة أخذت تفقد جاذبيتها تدريجياً. فلم يُسمع بها في البرلمان، أو المحكمة، حتى إنها فقدت مساندة الجماعات لها. فقد أصبح البيتيتي أكثر عدداً، وأقل فائدة. والأمور الكبيرة التي باح بها غالاسو في أثناء التنصل من العدة العسكرية للجماعة، تركت خطط أفراد الجماعة السياسية وأعمالهم سليمة تقريباً ودون أن تمس. تابعت أنّا مازا بناء كامورا على أساس تحكمه المرأة: فالمرأة هي مركز القوة الحقيقي، والرجال هم الجنود، والوسطاء، والمديرون الذين كانوا ينفذون توجيهات المرأة فقط. أما القرارات الهامة، العسكرية والاقتصادية منها، فكانت عائدة إلى الأرملة السوداء.

لقد أصبحت نساء الجماعة مديرات، ومستثمرات، وحارسات. لقد كنّ أفضل في مجال العمل، لأنهنّ أقل ولعاً بعروض التفاخر بالقوة، وأقل تشوقاً للصراعات. إيماكولاتا كابون كانت واحدة من نساء الجماعة اللواتي يدعين سيدات على الانتظار، وقد تمكنت من شق طريقها المهني عبر السنوات. لقد كانت عرابة تيريسا ابنة أنّا مازا. لم تكن إيماكولاتا تملك المظهر الوقور لأنّا مازا ذات الشعر المغطى بقلنسوة، والخدود الممتلئة، بل كانت دقيقة البنية، ومهووسة بالأناقة الجادة، فكان شعرها الأشقر على الدوام مصففاً بإتقان، ولا شيء في مظهرها كان يمت إلى الكامورية الغامضة بصلة. وبدل أن تبحث هي عن رجال يسبغون عليها سلطتهم، قام الرجال بربط أنفسهم بها والتمسوا حمايتها. لقد تزوجت من جورجيو ساليرنو، وهو كاموري

متورط في محاولات إعاقة بينتيتو غالاسو، وقد تورط لاحقاً مع أحد أعضاء جماعة بوكا في سانت أنتيمو، وهي عائلة ذات تاريخ قوي مقارب لتاريخ كوتولو، نالت شهرتها بفضل أخ زوج إيماكولاتا، أنتونيو بوكا. لقد عثر في جيبها على دفتر عناوين كان يحوي اسم الشخصية التلفازية إنزو تورتورا الذي سبق أن اتهم ظلماً بأنه كاموري. كانت الجماعة تمر بأزمة إدارية في العهد الذي نهضت فيه إيماكولاتا. كان السجن وبينتيتي أمران يمثلان تهديداً لعمل واجتهاد الليدي أنّا، غير أن إيماكولاتا راهنت بكل شيء على الإسمنت، كما أنها أدارت مصنعاً للقرميد في مركز أفراغولا وبوصفها مديرة أعمال فقد عملت كل ما في وسعها لتربط نفسها بجماعة كاسالسي، الجماعة الأقوى في مجال أعمال البناء محلياً وعالمياً. ووفقاً لتحقيقات مكتب DDA في نابولي فقد قادت إيماكولاتا كابون شركات عائلة موتشيا إلى القمة ثانية في مجال تجارة الإنشاءات. وفي هذا المجال حصلت على تعاون شركة MOTRER، أحد أهم الأسماء في آليات الحفر والبلدوزرات في جنوبي إيطاليا. كانت التقنية التي أرستها خالية من الأخطاء، وحسبما جاء في التحقيقات فقد حصلت على موافقة أحد السياسيين المحليين الذي كان يمنح العقود إلى أحد رجال الأعمال، والذي بدوره أيضاً كان يحيلها بشكل باطني إلى الليدي إيماكولاتا. لقد التقيتها مرة واحدة على ما أظن، بينما كانت تدخل إلى سوبرماركت في أفراغولا كان حراسها عبارة عن نساء شابات يتبعنها في سيارة من نوع سمارت. وهي السيارة ذات المقعدين التي تملكها جميع نساء كامورا، لكن بالحكم على سماكة أبوابها فلا بد أن السمارت خاصتها كانت مصفحة. يطيب لنا أن نتخيل الحارسات من الإناث وكأنهن من لاعبي قوى الأجسام، وكل عضلة فيهن منتفخة كعضلات الرجال، بأفخاذ ناتئة، وعضلات عضد متضخمة، وأعناق كجذوع الشجر. غير أنه لم يكن

في الحارسات اللواتي شاهدتهن أي شيء من جماعة أمازون، تلك التي تشكّلت من المقاتلات الإغريقيات. فإحداهن كانت قصيرة، بمؤخرة كبيرة ومترهلة، وشعر مصبوغ بلون فاحم السواد. أما الأخرى فكانت نحيلة، هشة، وظاهرة العظام. لقد صدمت بحقيقة ارتدائهن للون الأصفر المشع، المماثل للون السيارة، فالسائقة كانت تضع نظارة شمسية صفراء، والبقية كن يرتدين قمصاناً قطنية صفراء براقة. هذا الأصفر لا يمكن اختياره من قبلهن جميعاً بمحض الصدفة، كما لا يمكن أن يكون تركيبة تم الاتفاق عليها. إنها لمسة احترافية. فذاك الأصفر كان كلون البزة التي ارتدتها أوما ثورمان وهي تقود دراجتها النارية في *Kill Bill*، "اقتل بيل"، وهو فيلم لكوينتين تارانتينو ظهرت فيه النساء للمرة الأولى كنجمات قاتلات من الدرجة الأولى. إنه كذلك الأصفر ذاته الذي ارتدته أوما ثورمان في صورة الإعلان للفيلم مع سيفها الساموراي وهو يقطر دماً. أصفر منقوش على شبكية العين لديك وربما على حليماتك الذوقية أيضاً. أصفر غير حقيقي لدرجة أنه يصبح رمزاً. فالعمل الناجح يجب أن يملك صورة ناجحة. لا شيء متروك للصدفة، ولا حتى لون السيارة أو اللباس الموحد للحراس. لقد أرست إيماكولاتا المثل الذي أضحت جميع نساء كامورا على اختلاف مراتبهن يحتذينه، فأردن حارسات شخصيات من النساء اللواتي اهتممن بأناقتهن وبالصورة التي يعطينها.

لكن شيئاً ما كان على غير ما يرام، لربما أنها تعدت على مقاطعة شخص آخر، أو أنها كانت تبتز أحدهم. ففي آذار من عام 2004 قتلت إيماكولاتا كابون في سانت أنتيمو، بلدة زوجها. كانت حينها دون رفقة حارساتها، ولربما ظنت أنها ليست عرضة لأي خطر. لقد تم إعدامها في وسط البلدة، وكان قاتلوها يسعون وراءها سيراً على الأقدام. وفي اللحظة التي أحست فيها أن هناك من يلاحقها سارعت بالجري. لقد

ظن الناس أن هناك من انتزع منها حقيبة يدها وأنها تقوم بمطاردة اللصوص. إلا أن حقيبتها كانت لا تزال على كتفها. إيماكولاتا كابون ضمت حقيبتها إلى صدرها وهي تركض، كان ذاك رد فعل غريزي منعها من التخلي عن الشيء الذي جعل النجاة بحياتها أكثر صعوبة. لقد دخلت متجراً للطيور الداجنة، إلا أن القاتلين وصلوا إليها قبل أن تتمكن من الاختباء خلف المنضدة. طلقتان في مؤخر عنقها: تلك كانت الطريقة التي تم بها خرق التحريم القديم العهد في عدم التعرض للنساء. جمجمة حطمها الرصاص، ووجه غارق في بركة من الدم: كان هذا هو التوجه الجديد لكامورا. لا فرق بين رجال ونساء، ولا قوانين شرف مفترضة. لكن امرأة موتشيا الحاكمة لطالما تحركت ببطء. كانت دوماً على استعداد لأن تقوم بأعمال ضخمة، مسيطرة على إقليمها عبر استثمارات شديدة الدهاء ومفاوضات مالية من النخب الأول، ومحتكرة صفقات الأراضي، ومتجنبة الصراعات والتحالفات التي يمكن أن تتدخل في أعمال العائلة.

إن جميع مجمعات IKEA الأضخم في إيطاليا، يتربع الآن على أرض تسيطر عليها شركات موتشيا، كذلك ستكون عليه حال موقع إنشاء أكبر قطار سريع في جنوبي إيطاليا. في تشرين الأول من عام 2005، حُلَّ ولعدد لا يحصى من المرات، مجلس بلدية أفراغولا بسبب تسلل كامورا إليه. والاتهامات كانت من النوع الثقيل، إذ إن مجموعة من أعضاء المجلس البلدي في أفراغولا كانوا قد طلبوا من رئيس هيئة تجارية معينة، أن يوظف ما ينوف على 250 شخصاً تربطهم علاقات أسرية مقربة بجماعة موتشيا.

لقد حُلَّ المجلس البلدي كذلك جزئياً بسبب إعطائه تصريحات بناء غير قانونية. كما كان هناك أبنية هائلة الضخامة على أرض تعود ملكيتها للزعماء، وحديث عن إنشاء مشفى على أرض حازت عليها

الجماعة بينما كان المجلس البلدي لا يزال بالكاد يناقش الأمر. أرض تم شراؤها بالزهيد، لكن ما إن أصبحت موقعاً لمشفى حديث حتى بيعت بسعر فلكي يساوي 600 بالمئة من سعرها الأصلي. وهو ربح، وحدهن نساء موتشيا، كنّ قادرات على تحقيقه.

هناك نساء من أمثال آنّا فولارو عملن في الخنادق ليدافعن عن مصالح الجماعة وممتلكاتها. إنها ابنة أخ زعيم جماعة بورتيشي، لويجي فولارو. كانت آنّا في التاسعة والعشرين من عمرها عندما جاءت الشرطة لتضع يدها على عمل آخر من أعمال العائلة، وهذه المرة كان مطعماً للبيتزا. فنضحت نفسها بالبنزين، وأشعلت عود الثقاب. ولتتأكد من عدم تمكن أحد من إطفاء اللهب أخذت تركض بهيجان في المكان، ثم اصطدمت أخيراً بالجدار. لقد تحول لون الجص مكان الاصطدام إلى اللون الأسود، تماماً كالذي يحدث عند حصول حريق كهربائي. آنّا فولارو أحرقت نفسها حية لتحتج على استيلاء الشرطة على ممتلكات حصّلت عليها أصلاً بطريقة غير شرعية، وتعتبرها هي نتيجة للمسار الطبيعي للأعمال.

يميل المرء للاعتقاد بأن النجاح العسكري في عالم الإجرام يقود إلى تبوؤ مكان في مجال الأعمال، لكن الحال ليست كذلك على الدوام. فخذ مثلاً الصراع الذي حدث في كوينديشي، وهي مدينة في مقاطعة أفيلينو تحملت لسنوات طويلة الشيء الكثير من وجود جماعتي كافا وغرازيانو، ومن صراعهما المتواصل الخانق. فقد كانت العائلتان في صراع أبدي، والنساء هن اللواتي كن يمثلن القوة الاقتصادية الحقيقية. فعندما دمر زلزال عام 1980 لاورو فالي، أعطت المئة بليون لير التي انصبت عليها كتمويل لمشاريع إعادة الإعمار، الفرصة لرجال أعمال كامورين من الطبقة المتوسطة لينهضوا. لكن الذي تكشّف في كوينديشي كان مختلفاً مع ذلك عن ذاك الذي كان يجري في بقية

كامبانيا: فالصراع لم يكن نزاعاً بسيطاً، بل عداء بين أسرتين أسفر عن قرابة الأربعين جريمة قتل وحشية، نثرت الحداد بين المجموعتين المتنازعتين، وأوجدت كرهاً لا يفنى استشرى كوباء في العائلة وأصاب أجيالاً من القادة فيها. كانت البلدة تراقب ما يحدث بأسى وعجز بينما استمر المتنازعون في إفناء بعضهم الآخر. في السبعينيات كانت عائلة كافا جماعة فرعية ومتضامنة في غرازيانو، ابتدأت المعارك فيما بينها خلال الثمانينيات إثر خلافات على العقود والرشاوى العائدة من الموارد المالية لإعادة الإعمار بعد الزلزال. لقد أتاحت تلك المبالغ للعائلتين فرصة تأسيس إمبراطوريتين صغيرتين في مجال الإنشاءات، وكلتاهما كانت إدارتهما بأيدي النساء. في أحد الأيام، عندما كان محافظ البلدة في مكتبه، وكان انتخابه قد تم بدعم من عائلة غرازيانو، طرقت بابه مجموعة من مغاوير الكافا. لم يفتحوا النار عليه مباشرة، بل أعطوه الفرصة ليفتح النافذة، ويتسلق السطح، ثم ينجو بجلده عن طريق سطوح المنازل. لقد أنتجت جماعة غرازيانو خمسة محافظين، لقي اثنان منهما حتفهما قتلاً، بينما الثلاثة البقية أقالهم الرئيس الإيطالي من مناصبهم لعلاقتهم بكامورا. لكن اللحظة التي تراءت فيها بشائر التغيير في مسار الأمور، كانت عندما تم انتخاب الصيدلانية الشابة أولغا سانتانيلو كرئيسة للبلدية. فوحدها امرأة صلبة تستطيع التصدي لنساء كافا، وغرازيانو. وهذا ما حاولت فعله، فقد عملت كل ما باستطاعتها لتغسل قذارة تسلط الجماعة، لكنها لم تفلح. ففي الخامس من أيار لعام 1998، غمر فيضان مروع لاورو فالي بأكملها محولاً البيوت إلى إسفنج امتص الماء والطين، ومحولاً الأرض إلى برك موحلة لزجة، والشوارع إلى قنوات عديمة النفع أو الاستخدام. لقد غرقت أولغا سانتانيلو في ذلك الفيضان، وكان الوحل الذي خنقها بمثابة مكافأة مضاعفة للجماعات: إذ كان الفيضان بالنسبة إليهم يعني المزيد من

الإعانـات الماليـة، وتعاظمـاً في قوة الجماعـات. بعدها انتخب أنتونيو سينيسكالشـي محافظاً، وأعيد انتخابه بالإجماع بعد أربع سـنوات. بعد انتصاره الانتخابي الأول، قام سينيسكالشـي ومعه مستشـاروه ومؤيدوه المفوّضون بالسـير من مركز الاقتراع إلى حي بروسـاغرو، مارين أمام منـزل أرتورو غرازيانو الذي كان يدعى غواغليون أو الصبي. لم يوجّه التحيـة لغواغليـون، بل لنسـاء غرازيانو، اللواتي اصطففن على الشـرفة وفقاً لتدرجهن في السن بينما قدم لهن المحافظ الجديد إجلاله، يمكن فعل ذلك الآن بعد أن محا الموت بشكل مؤكد وجود أولغا سانتانييلو. وفـي عـام 2002، اعتقـل أنتونيـو سينيسكالشـي في حملة شـنها مكتب DDA في نابولي. فتبعاً لمكتب المدعي العام لمكافحة المافيا النابوليّة، اسـتخدم المحافظ أموال إعادة الإعمار ليعيد تشـييد الشوارع والأسوار حول الفيلا؛ المخبأ لعائلة غرازيانو.

لقد تناثرت الفلل حول كوينديشي. أما مخابئها السرية، والطرقات المعبـدة، وأنـوار شـوارعها فقـد تـم دفع تكاليفها من قبـل البلدة. هذه الأعمـال العامـة سـاعدت آل الغرازيانـو وجعلت منهـم قوة منيعة على الهجمات والكمائن. لقد عاش ممثلا العائلتين متمرسين خلف أسوار لا يمكن تخطيها، وتحت مراقبة على مدار الأربع والعشرين ساعة.

ألقي القبض على زعيم الجماعة بياجيو كافا في مطار نيس وهو يستعد للصعود إلى طائرة متجهة إلى نيويورك. ومع وجود بياجيو وراء الأسوار، انتقل كل نفوذه إلى زوجته وابنته. وحدهن النساء هن اللواتي كن يظهرن في البلدة، إذ لم تكن النساء هن العقول المدبرة والمديرة في الخفاء للعمليات فحسب، بل أصبحن أيضاً الرمز الرسمي الممثل للعوائل، ووجوه السلطة وأعينها. فعندما كانت العائلتان المتخاصمتان تلتقيـان فـي الشـارع كانتـا تتبـادلان النظـرات الضاريـة، والتحديقـات الشـديدة، إنها لعبة سـخيفة القصد منها اختبار من سـيرخي نظره أولاً.

وكان التوتر عالياً في البلدة. لقد أدركت نساء كافا أنه قد حان الوقت للتسلح، للانتقال من نساء أعمال إلى قاتلات. فأخذن يتدربن في مداخل الشقق، رافعات صوت الموسيقى عالياً ليغطي على صوت المسدسات وهي تفرغ ذخيرتها في أكياس من الجوز، جمعت من أملاكهن الريفية. خلال الانتخابات المحلية لعام 2002، بدأت ماريا سكيبيللي، وميشلينا كافا وابنتاها، كلاريسا ذات الستة عشر ربيعاً، وفيليسيتا ذات التسعة عشر ربيعاً، بدأن جميعهن بالتنقل وهن مسلحات. وفي منطقة فيا كاسيسه واجهت سيارة نساء الكافا، الأودي 80، سيارة لنساء غرازيانو وبداخلها ستيفانيا، وكيارا غرازيانو اللتان تبلغان العشرين والواحد والعشرين عاماً. وبدأت نساء كافا بإطلاق النار، إلا أن نساء غرازيانو وكما لو كنّ جاهزات لهذا الموقف، ضغطن على المكابح بشدة، ثم عكسن اتجاههن وأطلقن العنان للسيارة بالفرار. حطمت رصاصات كافا النوافذ، واخترقت هيكل السيارة، لكن دون إصابات. عادت الفتاتان إلى فيلاهما وهما في حالة هستيرية، فقررت والدتهما أنّا سكيبيللي، وزعيم الجماعة لويجي سلفاتورغرازيانون عميد الأسرة ذو السبعين عاماً، قررا أن ينتقما لهذا الهجوم. فانطلقوا جميعاً في سيارتهم الألفا روميو، تتبعهم سيارة مصفحة، تحمل أربعة أشخاص ببنادق ورشاشات أتوماتيكية. لقد قاموا باعتراض سبيل سيارة الكافا الأودي، ثم أخذوا يصطدمون بها بعنف لعدة مرات، في حين سدت السيارة المصفحة بداية الطريق الجانبي، ثم المخرج الأمامي، مانعة عنها بذلك أي فرصة للفرار. أما نساء الكافا، فخوفاً من إيقاف الشرطة لهن بعد إطلاقهن غير المثمر للرصاص، كنّ قد تخلصن من أسلحتهن، لذا فعندما وجدن سيارة تسد الطريق، انحرفن ورفسن أبواب السيارة ليفتحنها ثم حاولن الهرب سيراً على الأقدام. فخرج الغرازيانو من سيارتهم، وأمطروهن بوابل من الرصاص، رصاص لم يوفر أرجل، ولا

رؤوس، ولا أكتاف، ولا صدور، ولا خدود، ولا أعين نساء الكافا. في غضون ثوان كنَّ قد سقطن أرضاً، وقد تطايرت أحذيتهن، وأقدامهن ارتفعت في الهواء. عامل الغرازيانو الجثث بلا رحمة كما يبدو، غير مدركين أن إحداهن كانت لا تزال على قيد الحياة. في الواقع، لقد نجت فيليسيتا كافا. وقد عثر في حقيبة إحدى نساء الكافا على قارورة صغيرة تحوي أسيداً، فلعلهن كن ينوين بالإضافة إلى إطلاق النار على خصومهن، أن يسكبن الأسيد على وجوههن.

إن النساء أكثر قدرة على مواجهة الجريمة بصفتها أمر لحظي فقط، أو أنها تعبر عن رأي شخص ما، أو أنها خطوة يتخذها المرء ثم سرعان ما يعدل عنها. نساء الجماعة يعبرن عن هذا بمنتهى الوضوح. إنهن يشعرن بالإهانة وبالحط من قدرهن إن دعين كاموريات أو مجرمات، وكأن كلمة المجرم هي مجرد حكم يطلق على فعل معين، لا طريقة موضوعية في التصرف أو السلوك. في حقيقة الأمر، وعلى عكس الرجال، فإنك لا تجد على الإطلاق حتى الآن ولا زعيمة أنثى واحدة في كامورا قد تابت، ولا واحدة.

إرمينيا غويليانو، كانت تعرف باسم سيليسته للون عينيها اللتين كانتا بزرقة السماء. ولطالما قدمت كل ما بوسعها لحماية ممتلكات الأسرة. وحسبما توصلت إليه التحقيقات، كانت الشقيقة الجميلة والمتفاخرة لزعماء فورسيلا، كارمن ولويجي، هي بذاتها صاحبة القرار في الاستثمارات العقارية والمالية. كان لسيليسته مظهر المرأة النابوليّة النموذجي، وامرأة كامورا المتمدنة: شعر أشقر بلاتيني، وعينان باردتان شاحبتان غارقتان في كحل أسود. لقد أدارت الجوانب الاقتصادية والقانونية للجماعة. في عام 2004 تمت مصادرة أملاكها المتعلقة بالأعمال وقد بلغت 28 مليون يورو كانت هي رئة الجماعة الاقتصادية. كانت لديهم سلسلة من المتاجر في نابولي والمناطق

المحيطة، بالإضافة إلى شركة تمتلك علامة تجارية أصبحت مرغوبة بفضل ذكاء الجماعة من جهة، وبفضل فرض وجود أفرادها، والحماية الاقتصادية التي لديهم من جهة أخرى. علامة ذات امتياز أن تكون لشبكتها ستاً وخمسين نقطة بيع في إيطاليا، وطوكيو، وبوخارست، وليشبونة، وتونس.

ولدت جماعة غويليانو في فورسيلا، الجزء الضعيف من نابولي، في حي لفته أسطورة الكاسباه، الجزء الأوسط العفن من مركز المدينة القديمة. كان آل الغويليانو هم القوة المهيمنة في الثمانينيات والتسعينيات. لقد برزوا شيئاً فشيئاً من قلب الفقر والحرمان ومرّوا بكل الأشكال من التهريب، إلى الدعارة، إلى الابتزاز الذي يغطي مناطق بمنازلها، إلى عمليات السطو المسلح، محدثين سلالة حاكمة ضخمة من أبناء العموم، وأبناء الأخوة، والعموم، والأقرباء. وعلى الرغم من أنهم قد بلغوا قمة نفوذهم في أواخر الثمانينيات، فإن قدراتهم لم تتلاشَ بعد. حتى هذه الأيام، كل من يريد أن يشتغل في مركز المدينة عليه أن يقتسم مع الغويليانو. هذه الجماعة لا تزال تعيش تحت وطأة الرعب من العودة إلى الفقر، لا تزال تشعر بأنفاسه الثقيلة تلفح مؤخر رقبتها. واحدة من أكثر التعبيرات التي توضح مقت ملك فورسيلا، لويجي غويليانو، لحالة الفقر التي كانوا فيها، سجلها المراسل إنزو بيريز، وفيها قال: "إنني بطبيعتي أحب المناظر، غير أنني لا أطيق فقر الرعاة!"

إن وجه قوة كامورا الأبرز يصبح أنثوياً بشكل متزايد، لكنه يصبح كذلك أيضاً بالنسبة إلى اللواتي تسحقهن ضربات تلك القوة. أناليسا دورانته، ذات الأربعة عشر ربيعاً علقت في اشتباك في فورسيلا في 27 آذار من عام 2004. الرابعة عشرة، الرابعة عشرة، تكرار هذا الرقم يجعلك تحس وكأن اسفنجة مشبعة بماء مثلج تجري على طول

عامودك الفقري. لقد حضرت جنازة أناليسا دورانته. وصلت إلى دار العبادة مبكراً، فلم تكن الورود قد أوصلت هناك بعد، إلا أن رسائل التعزية، والدموع، والذكريات التي تفطر القلب مع رفاقها في الصف، كلها علّقت في جميع أرجاء المكان. لقد قُتلت أناليسا. ففي إحدى الأمسيات الحارة، وربما كانت الأمسية الأولى الحارة حقاً في موسم الأمطار التي لا تنقطع، قررت أناليسا الذهاب إلى منزل صديقتها التي تقطن في الطابق السفلي من مبناها نفسه. لقد صبغتها سمرة الشمس المحببة، وكانت ترتدي ثوباً جميلاً ملفتاً للنظر وملتصقاً بجسدها المنسجم المثير. أمسيات كهذه كانت تبدو وكأنها مخصصة لملاقاة الشبان، والرابعة عشرة هو العمر الذي تبدأ فيه فتاة من فورسيلا بانتقاء صديق تعبر معه كل الطريق التي تؤدي بهما في النهاية إلى الزواج. في الرابعة عشرة تبدو الفتيات في أحياء الطبقة العاملة في نابولي وكأنهن نساء ذوات خبرة بوجوههن المطلية بمساحيق التجميل الثقيلة، وصدورهن التي تحولت إلى بطيخات صغيرة منتفخة بفعل صِدارات رافعة خاصة، وأحذيتهن المدببة الرأس والعالية الكعبين. لا بد أن يكنّ موهوبات في السير على الحبل المشدود كي يتمكنّ من اجتياز شوارع نابولي المرصوفة بالحجارة البازلتية والبركانية، عدوة كل أشكال الأحذية النسائية الأنثوية. لقد كانت أناليسا جميلة بل جميلة للغاية. وكانت تستمع إلى الموسيقى مع صديقتها وابنة عمها، وكن ثلاثتهن يركزن أبصارهن على الفتيان وهم على متن دراجاتهم النارية، والذين كانوا بدورهم يؤدون حركات بالتوازن على العجلة الخلفية فقط، حارقين إطارها، ومجربين مطاردات خطرة بين الناس والسيارات. إنها لعبة التودد ببدائيتها ودوماً هي ذاتها. تعشق فتيات فورسيلا الاستماع إلى أنغام الموسيقى الحديثة، وهو نمط من الألحان يحقق مبيعات كبيرة في أحياء نابولي العاملة، بالإضافة إلى باليرمو،

مكتبة الرمحي أحمد

وباري. جيجي داليسيو هو المغني الأفضل بلا منازع، فقد تمكن من كسر طوق الانتشار لزمن محدود ليصل بأغانيه إلى كل مكان في إيطاليا، بينما كان الآخرون، المئات منهم، مجرد أسماء وشخصيات محلية لها شعبيتها فقط في حي ما، أو مبنى، أو شارع، فترى لكل شخص مغنيه الخاص. ولكن فجأة، وبالكاد عندما بدأت الموسيقى تصدح بنغمة عالية، إذا براكبي دراجتين يمران وهما يدوسان على الصمام لأقصى درجة، ساعيين في أثر أحد الأشخاص. بينما هو يهرب وقدماه تلتهمان أرض الرصيف. لم تفهم أناليسا وصديقتها وابنة عمها ما يحدث، فقد ظنن أن الشبان يمازحون بعضهم بعضاً، ولربما كان في الأمر تحد بينهم. ثم انطلق الرصاص. طلقات أخذت ترتد في كل مكان، وإذا بأناليسا تتهاوى على الأرض وقد أصابتها طلقتان. ويتبعثر الجميع هرباً، وتأخذ الرؤوس بالظهور على الشرفات التي تبقى أبوابها دوماً مشرعة كي تبقى أسماع أصحابها مع ما يحدث في الشارع. وانطلقت الصرخات، سيارة الإسعاف، السباق إلى المشفى، وجميع أهل الحي يملأون الشوارع فضولاً وقلقاً وتلهفاً.

كانت حقيقة ما حدث مرتبطة بآل غويليانو. إن اسم سلفاتور غويليانو هو اسم مهم، اسم لو أنك كنت تحمله لتراءى لك مباشرة بأنه يسمك كقائد. لكن هنا في فورسيلا، ليست ذكرى اللص الصقلي الذي كان يحمل ذاك الاسم هي من تعطي الرجل السلطة، فغويليانو كانت كنيته من قبيل المصادفة فقط. وقد زاد الطين بلة قرار لوفيجينو غويليانو بأن يتكلم، لقد تاب وخان بذلك جماعته ليتجنب حكماً مؤبداً بالسجن. لكن وكما يحدث كثيراً في الحكم الديكتاتوري المطلق، فعندما يُزال رأس ذاك الحكم، يبقى رجل واحد هو من يستطيع أن يحل محله. لذلك وعلى الرغم من العار الذي حملوه، بقي آل الغويليانو هم الوحيدين القادرين على المحافظة على العلاقات

مـع مهربـي المخـدرات من جهة، وفرض عمليـة الحماية لها من جهة أخـرى. لكـن بمـرور الوقت ضاقت فورسـيلا ذرعاً بكل ذلك، فهي لا تريد أن تحكمها عائلة شـائنة بعد الآن، ولا تريد المزيد من الشـرطة والاعتقالات. وعلى كل من يرغب بأخذ مكانهم أن يثبت نفسه بشكل رسمي وأن يبرهن أنه هو المسيطر، عليه أن يستأصل شأفة آل غويليانو بأن يسـحق وريثهم الجديد، سـلفاتور غويليانو، ابن أخ لوفيجينو. كان ذاك هو المسـاء المختار لفرض السـيطرة الجديدة بشـكل رسـمي، من خـلال قتـل سـليل تلـك العائلـة الـذي كان قد بدأ برفع رأسـه، ولترى فورسيلا بزوغ فجر السيادة الجديدة. لقد كانوا بانتظاره، وعندما تمكنوا مـن تحديـد مكانـه، أدرك سـيلفاتور، الذي كان يمشـي هادئاً، فجأة أنه قد أصبح في مرمى نظرهم. فانتفض مسـرعاً، القتلة قريبون منه، أخذ يبحـث عـن زقـاق ينعطف فيه، وبـدأت الطلقات بالتطاير. على الغالب المرجح أن غويليانو ركض عبر الفتيات الثلاث مستخدماً إياهن كدرع، وفي غمرة الاضطراب سـحب مسدسـه وبدأ بإطلاق النار. وبعد بضع ثـوان انطلـق هاربـاً ثانيـة، وعجـز القتلة عن الإمسـاك بـه. أربع أرجل فقط ركضت إلى داخل المدخل تبحث عن مكان تختبئ فيه. وتتلفت الفتاتـان، لتجـدا أن أناليسـا ليسـت معهما. فتعودان إلـى الخارج ثانية، وكانت هناك، ممدة على الأرض، دماؤها في كل مكان، ورصاصة قد استقرت في رأسها.

في الجنازة، تمكنت من الاقتراب من حيث كانت أناليسا مسجّاة في نعشـها. لقد وقف رجال الشـرطة بزيهم الرسـمي عند زوايا النعش الأربـع، فـي تعبير رسـمي لكامبانيا عن الإجـلال لمصاب عائلة الفتاة. كان النعش مغطىً بالورود البيضاء، وقد وضع معها جهاز هاتف خلوي بالقرب من القاعدة، كان جهازها. كان والد أناليسـا يئن بأسـى وغيظ، يغمغـم شـيئاً مـا، يثب حول المـكان، ويهز قبضتيه وهما داخل جيوبه.

لقد اقترب مني، على الرغم من أنه كان لا يوجه حديثه إليَّ بالذات، قائلاً: "والآن ماذا؟ ماذا الآن؟" عندما ينفجر سيّد العائلة بالبكاء، تأخذ جميع النسوة في العائلة بالعويل، يضربن صدورهن، وأجسادهن تهتز إلى الأمام والخلف مصدرات صرخات عالية الحدة. وعندما يتوقف عن البكاء، يرون الصمت بين النسوة كافة من جديد. كانت المقاعد مملوءة بالفتيات، من صديقات، وبنات عموم وأخوال، ومن بنات الجيران. كن يقلدن إيماءات وحركات أمهاتهن، كيف يحركن رؤوسهن يمنة ويسرة بأسى، ويهتفن المرة تلو المرة: "إن هذا غير ممكن! إنه مستحيل!" لقد شعرت الفتيات أنهن قد أعطين دوراً مهماً، وهو بث السلوى والمواساة. وعلاوة على ذلك، كن ينضحن كبرياء. فجنازة ضحية لكامورا هي البداية بالنسبة إليهنّ، وهو أمر يماثل بدء الطمث، أو أول علاقة حميمة. فكما هي الحال مع أمهاتهن، فإن هذه المناسبة تسمح لهن بأخذ دور فعال في حياة الحي. كاميرات الأخبار توجهت إليهن، وكذلك المصورون، وكل شيء تراءى لهن أنه قد وجد لأجلهن فحسب. كثيرات من هؤلاء الفتيات هن اللواتي سيتزوجن قريباً من كاموريين. سواء أكانوا تجار مخدرات أو رجال أعمال، قتلة أو مستشارين. والعديد منهن سيحملن بأطفال سيقتلون في المستقبل، أو أنهن سيقفن في الصف الطويل أمام سجن بوجيورياله ليحملن الأخبار والنقود إلى أزواجهن. لكن الآن، هن لا يزلن مجرد فتيات صغيرات بسواد الحداد. صحيح أنها جنازة، لكن جميعهن قد ارتدين ثيابهن بعناية: ملابس ذات خصر منخفض يبين تحتها السير الجلدي لملابسهن الداخلية، إنها رائعة. لقد كن يبكين صديقتهن، وهن يعلمن أن موتها هذا سيجعل منهن نساءً. وعلى الرغم من الألم، فقد كن يتطلعن إلى هذه اللحظة. طفقت أفكر في العودة الأبدية لقوانين الحياة على هذه الأرض، في آل غويليانو الذين وصلوا إلى قمة نفوذهم

قبـل أن تولـد أناليسـا حتى، عندمـا كانت والدتها لا تزال طفلة صغيرة تلعب مع قريناتها اللواتي أصبحن لاحقاً زوجات لآل غويليانو وأفراد جماعتهـم، واللواتـي كبـرن واسـتمعن إلى موسـيقى داليسـيو، وأطلقن هتافات التشـجيع لمارادونا، لاعب كرة القدم الذي لطالما متع نفسـه بكوكاييـن الغويليانـو وحفلاتهـم، إنهـا لا تنسـى صورة دييغـو أرماندو مارادونا وهو قابع في حوض لوفينجينو المحاري الشكل. وبعد مضي عشـرين عاماً، تلقى أناليسـا مصرعها في مطاردة لواحد من الغويليانو، وقـد تلقـت الرصـاص بينما كان ذاك الغويليانـو يرد على إطلاق النار، مسـتخدماً إياهـا كـدرع بشـري، أو لعلـه كان يركـض مـاراً بجانبهـا. الانحـراف التاريخـي نفسـه للطلقـة قـد حدث، ويبقى ذاتـه إلى الأزل، معمراً، ومأساوياً، ومستمراً.

لقد أصبحت دار العبادة مكتظة حتى الآن، وما زال أفراد الشرطة والجنـود متوتريـن مـع ذلك. لـم أفهم، إنهم هائجـون وقلقون وفاقدو الصبـر دون داع. لكنني عندمـا سـرت مبتعـداً عـن دار العبادة أدركت السـبب. كانت سـيارة الجنود تفصل حشـد الجنازة عن مجموعة من الأفـراد الذيـن تتجلـى عليهـم مظاهـر الغنـى، راكبيـن دراجـات ناريـة باهظـة الثمـن، وسـيارات ذات غطاء يطـوى، أو دراجات بخارية قوية، السكوتر. إنهم آخر أعضاء جماعة غويليانو، والموالون لسلفاتور. لهذا كان الجنود والشرطة يخشون مواجهة بين الطرفين تفتح أبواب جهنم. لحسن الحظ، لم يحدث شيء من هذا القبيل، غير أن لوجودهم معنىً عميقاً، إنه يعلن للملأ أنه ما من أحد يستطيع الهيمنة على وسط نابولي دون موافقتهم، أو على الأقل دون وساطتهم. لقد أظهروا للجميع أنهم هناك، وأنهم على الرغم من كل شيء ما زالوا هم الرؤساء.

وخـرج التابـوت الأبيـض من دار العبـادة، والجماهير تقترب منه لتلامسـه، بعضهم فقد الوعي، وبعضهم أطلق صرخات وحشـية تصم

الآذان. عندما مر النعش تحت منزل أناليسا، حاولت أمها، التي لم تستطع حمل نفسها على حضور مراسيم الجنازة، حاولت أن تلقي بنفسها من الشرفة. إنه المشهد المأساوي المعتاد، ولأكون واضحاً تماماً، إن طقوس النواح وعروض الحزن ليست تخيلية أو مفتعلة، بل على العكس تماماً. لكنها مع ذلك تظهر الحواجز التي ما تزال حتى الآن معظم نساء نابولي تعيش رهينتها، والتي تفرض عليهن الخضوع إلى سلوك رمزي معين للإعلان عن أساهن وجعله قابلاً للتميز من قبل المجتمع بأسره. هذه المعاناة المسعورة، على الرغم من أنها واقعية بشكل رهيب، إلا أنها تحافظ على خاصيات الأحداث النابوليّة المثيرة.

لقد حافظ الصحفيون على مسافة تفصلهم عما يحدث. أنتونيو باسولينو وروزا روسو إيرفولينو - رئيس إقليم كامبانيا، ومحافظ نابولي - كانا مذعورين، فقد كانا يخشيان أن ينقلب الحي ضدهما، إلا أنه لم يفعل، فالناس في فورسيلا قد تعلموا كيف ينتفعون من السياسة، ولا يريدون أي أعداء. بعض الناس أخذوا يصفقون لقوات الأمن وحفظ النظام، ما أثار حفيظة بضعة صحفيين، إذ كيف يُهتف لعناصر قوات الأمن في حي كامورا. يا لسذاجتهم! ذاك التصفيق كان يقصد به الاستفزاز إذ انضوى على أنهم يعتبرون وجود الشرطة أفضل من الغويليانو.

وحاول بعض أطقم المصورين جمع روايات لشهود عيان، فاقتربوا من سيدة مسنة يبدو عليها الضعف، قبضت على الميكروفون مباشرة وأخذت تصرخ فيه "إنّه خطأُهم... سيقضي ولدي خمسيناً عاماً خلف القضبان! السفاحون!" لقد أصبح الكره تجاه البينتيتي مذاعاً على العلن. وتتكاثف الحشود وترتفع حدة التوتر. أن تدرك أن فتاة قد ماتت لأنها قررت أن تستمع إلى الموسيقى مع صديقاتها في مدخل بنايتها

في إحدى الأمسيات الربيعية، إنه لأمر يجعل معدتك تهتاج. إنني أشعر بالغثيان، لكن عليّ أن أحافظ على هدوئي، وأن أفهم، على افتراض أن هذا أمراً ممكناً. لقد ولدت أناليسا في هذا العالم، وعاشت فيه. لقد أخبرتها صديقاتها عن جولاتهن على متن الدراجة النارية مع شبان من الجماعة، لعلها كانت ستقع في غرام أمير غني، وجميل الطلعة، يشق طريقه في التنظيم، أو ربما كانت ستقع في غرام شاب طيب كادح ينقصم ظهره طيلة النهار لأجل أجر تافه. وربما كان قدرها هي نفسها أن تعمل لعشر ساعات يومياً في مصنع سري لمحافظ النقود، مقابل 500 يورو شهرياً. لقد كان منظر البشرة المصبوغة للأشخاص الذين يعملون في الجلود يؤثر في أناليسا، فكتبت في يومياتها "للفتيات اللاتي يصنعن المحافظ أيدٍ سوداء اللون على الدوام، وهن يقبعن في المصنع صامتات طيلة النهار. إن أختي مانو معهن كذلك، لكن رئيسها على الأقل يعفيها من العمل حين تشعر بأنها ليست على ما يرام" أناليسا تحولت إلى رمز للفجيعة لأن مأساتها انتهت بأكثر الوجوه فظاعة وجوهرية، ألا وهو: القتل. غير أنه في هذا المكان، لا تمضي دقيقة لا يتراءى فيها عمل الأحياء كحكم مؤبد. عقاب ينبغي أن يكفر عنه الإنسان بوجود بري، وسريع، وعنيف على هذه الأرض. أناليسا مذنبة لأنها ولدت في نابولي، لا أكثر ولا أقل. بينما كان جسدها يحمل بعيداً في نعشه الأبيض، قام أحد رفاقها في الصف بالاتصال بهاتفها الخلوي. كان الرنين المنبعث من النعش هو موسيقى الموتى الحديثة. نغمات موسيقية، وألحان عذبة، ولكن لا أحد يجيب.

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

القسم الثاني

كالاشنكوف

مررت إصبعي عليه، حتى إنني أغمضت عينيّ وأنا أقتفي الطول بأكمله من قمته إلى قاعدته، وأظافري تتتبّع كل فتحة فيه، وكان بعضها كبيراً كفاية لتدخل فيه إصبعي بأكملها. لقد لامست جميع النوافذ بتلك الطريقة، ببطء بداية ثم باهتياج، ممرراً يدي على سطحها بكل طريقة ممكنة، وكأن إصبعي دودة جزعة تجول على الزجاج، وتتسلق الأخاديد دخولاً وخروجاً، وتشق طريقها لتستقر في الفتحات. فعلت هذا دواليك إلى أن جرحت إصبعي. مررتها على الزجاج فخلّفت أثراً رطباً وأحمر قانياً. وفتحت عيني على ألم مباغت، ألم حاد وفجائي. كانت الفتحة مملوءة بالدماء، فتوقفت عن التصرف كالأحمق، وبدأت أمتص الدماء النازفة من جرحي.

إن الفتحات التي يشكلها سلاح AK-47 الرشاش في الزجاج المضاد للرصاص مثالية. إنها ترتطم بعنف، لتحفر وتشق طريقها كسوس الخشب الذي يقضم الأنفاق داخل الخشب. عندما تتطلع إليها عن بعد، ترى أثراً غريباً لما تحدثه الطلقات في الزجاج المضاد للرصاص، وكأن فقاعات صغيرة قد تشكلت في قلب الزجاج بين طبقات البلاستيك الصناعي. نادراً ما يبدل أي صاحب متجر نوافذه بعد أن ترشق بالرصاص. بعضهم يحقن الصدوع بمادة السيليكون، أو يغطيها بشريط لاصق أسود. لكن معظمهم يتركها على حالها. فواجهة متجر زجاجية مضادة للرصاص قد تكلف ما يصل إلى 5000 يورو،

لذا فمن الأفضل الإبقاء على التزيينات المشوهة. بالإضافة إلى احتمال أنها قد تشكل إغراء للزبائن الفضوليين ليقفوا ويسألوا عما حدث، وليتبادلوا الحديث مع صاحب المتجر، ولعل الأمر ينتهي بشرائهم شيئاً ما إضافياً. فعوضاً عن استبدال الواجهات المتضررة فإنهم بالأحرى ينتظرون أن تتهاوى تحت وطأة الوابل القادم من الطلقات. فعندها يقوم التأمين بتغطية النفقات، لأنه إذا وصل المالك هناك في الصباح الباكر، وجعل البضائع تختفي كلها، عندها يصبح ذاك هجوماً مسلحاً بقصد السرقة.

إن إطلاق النار على واجهة أحد المتاجر لا يكون دوماً بقصد الترهيب، ولا بقصد توجيه رسالة يخطها الرصاص، إنه ليس أكثر من مجرد حاجة. فعندما تصل شحنة جديدة من أسلحة الكلاشنكوف، يجب أن يتم اختبارها للتأكد من صلاحيتها. بإمكان كامورا طبعاً أن تجربها بأمان بعيداً في الريف، أو أن تطلقها على السيارات القديمة المصفحة، أو على بعض الصفائح المعدنية التي يمكن أن تبتاعها لتطيّرها إلى قطع صغيرة، لكن لا، بدلاً من ذلك، إنهم يطلقون على المتاجر، بنوافذها، وأبوابها، ومصاريعها المعدنية، كإثبات على أن لا وجود لشيء لا يمكن أن يخصهم، وأن كل شيء في الواقع ممنوح من قبلهم، فهو جزء من الاقتصاد الذي يتحكمون به هم وحدهم. إنه مجرد من امتياز خاطف لا أكثر، ويمكنهم استرجاعه في أي وقت. كما أن هناك منفعة إضافية، وهي أنه في حال استبدال الزجاج، فإن جميع شركات الزجاج المحلية، ذات الأسعار الممتازة على ارتباط بالجماعة. وبالتالي، فإنه كلما ازداد الزجاج المكسور، كلما ازدادت أرباحهم.

كان ما يقارب الثلاثين قطعة من سلاح AK-47 قد وصلت في الليلة الفائتة من أوروبا الشرقية، من مقدونيا، في رحلة سريعة يسيرة من عاصمتها سكوبيه إلى غريسيغنانو دافيرسا، وملأت مرائب سيارات

كامورا بالرشاشات، وبنادق الهواء المضغوط. وما إن سقط الستار المعدني، حتى اجتمع أعضاء من كامورا بقادة الأحزاب الشيوعية المنهارة. لقد جلسوا إلى طاولة المساومة، ممثلين الغرب الصامت ذا النفوذ، والقدرة. بإدراكها للأزمة، أمّنت الجماعات مستودعات ذخيرة كاملة من دول أوروبا الشرقية، من رومانيا، ومن بولونيا، ويوغوسلافيا سابقاً، دافعين مبالغ تساوي مجموع رواتب الأمناء، والحراس، والمسؤولين عن الحفاظ على الموارد العسكرية، لسنوات قادمة. باختصار، إن الجماعة قد مولت بذلك جزءاً من دفاعات هذه الدول. لقد تبين أن أفضل وسيلة لإخفاء الأسلحة هي وضعها في ثكنات. وهكذا، فبوجود مستودعات ذخيرة دول أوروبا الشرقية تحت تصرفهم، لم يعد الزعماء مضطرين إلى الاعتماد على السوق السوداء، حتى في حال الإنقلابات في القيادة، أو الصراعات الداخلية، أو الأزمات. هذه المرة حمّلت الأسلحة في شاحنات تابعة لحلف الناتو، كانت مسروقة من مرائب أميركية. فبفضل الكتابة التي على جانبها لم تواجه الشاحنات أي متاعب في تنقلها في جميع أرجاء إيطاليا. إن قاعدة الناتو في غريسيغنانو دافيرسا تبدو كعملاق صغير وعصي على الدخول. طابور من الإسمنت المسلح أسقط في وسط السهل، وقد بني من قبل آل كوبولا، شأنه في ذلك شأن كل شيء آخر هنا. إنك تكاد لا ترى الأميركيين على الإطلاق، حتى نقاط التفتيش نادرة. تتمتع شاحنات الناتو بالحرية المطلقة، لذا فعندما دخلت البلدة، توقف سائقوها في الساحة لتناول الفطور، وبينما كانوا في المشرب يغمسون الكرواسان الذي طلبوه في فنجان من الكابوتشينو، أخذوا يستعلمون عن مكان يستطيعون العثور فيه على "بضعة مهاجرين ليقوموا ببعض التفريغ السريع" والجميع يعلم المقصود بكلمة سريع. فصناديق البنادق أثقل بقليل فقط من صناديق الطماطم، والفتيان الأفارقة الذين يرغبون بعمل

إضافي بعد انتهاء عملهم في الحقول، سيحصلون على 2 يورو مقابل كل صندوق، وهذا يساوي أربعة أضعاف ما يحصلون عليه من نقلهم لصناديق الطماطم والتفاح.

قرأت مرة في مجلة للناتو تصدر لأهالي الموظفين العسكريين في بلدان ما وراء البحار، مقالة قصيرة موجهة إلى الأشخاص الذين هم على وشك أن يتم تعيينهم في غريسيغنانو دافيرسا. فترجمتها، ودونتها في دفتر يومياتي كيلا أنساها، وقد جاء فيها:

"لكي تفهم المكان الذي ستُفرز إليه قريباً، عليك أن تتخيل نفسك في فيلم لسيرجيو ليون. إنه كالغرب الأميركي البعيد. يقوم أحدهم بإصدار القرارات، وهناك نزالات بالأعيرة النارية، وقوانين صحيح أنها غير مكتوبة إلا أنها لا تُخرق كذلك. ومع ذلك فلا تخف، إذ إن أقصى حدود الاحترام والضيافة تمنح لأهل البلدة، وللقوات العسكرية الأميركية. لكن بالرغم من هذا، لا تغادرنّ المجمع العسكري إلا لضرورة"

ذاك الكاتب الأميركي قد علمني شيئاً عن المكان الذي أحيا فيه.

في ذلك الصباح، كانت نشوة غريبة تتجلى على ماريانو. كان مهتاجاً بحق، وهو يتجرع المارتيني في أول النهار.

- ما الذي يحدث؟

تساؤل طرحه الجميع. لكن ماريانو لم يجب، وكأن الأمر كان غاية في الوضوح بالنسبة لهم.

ثم نطق ماريانو فقال: "أريد أن أذهب لمقابلته. لقد قيل لي إنه لا يزال حياً، لكن أهذا صحيح؟"

- ما هو الصحيح؟

- كيف تمكّن من فعلها؟ سأستخدم الوقت المتاح لي في إجازتي

لأذهب وأقابله.

مكتبة الرمحي أحمد

- من؟ ماذا؟

- أتدرك كم هو خفيف الوزن؟ ودقيق أيضاً! قبل أن تلاحظ ذلك، تكون قد أطلقت عشرين أو ثلاثين طلقة... إنه مذهل!

لقد كان ماريانو منتشياً، فأخذ ساقي المشرب ينظر إليه بالطريقة التي ينظر فيها إلى فتى بعد علاقته الحميمة الأولى، ذاك تعبير لا تخطئه العين. ثم أدركت سبب ابتهاجه. لقد أطلق ماريانو النار من سلاح AK-47 لأول مرة في حياته، وكان متأثراً للغاية بهذه البدعة لدرجة أنه أراد أن يلتقي الرجل الذي اخترعها. بميخائيل كالاشنكوف لم يطلق ماريانو النار على أحد بتاتاً، فقد أُدخل إلى الجماعة ليتولى توزيع ماركات معينة من القهوة في منطقة الحانات. لقد كان فتياً، وحاصلاً على شهادة في الاقتصاد، وكان مسؤولاً عن الملايين من عملة اليورو نظراً إلى أن عدداً كبيراً من الحانات، ومن موزعي القهوة كانوا يريدون الدخول في الشبكة التجارية للجماعة. لقد أراد رئيس الحي التأكد أن جميع رجاله، حتى أولئك الذين يحملون شهادة جامعية - أي رجال الأعمال كما الجنود في المراتب الدنيا - عليهم جميعاً أن يتقنوا إطلاق النار، لذا فقد سلموه سلاح AK-47. وخلال الليل قام ماريانو بتفريغ مخزنه على واجهة إحدى الحانات، مختاراً إياها بشكل عشوائي. لم يكن تصرفه هذا بمثابة أي نوع من الإنذار، لكن حتى وإن لم يكن هو يعلم سبب إطلاقه النار على هذه النوافذ تحديداً، فمن المؤكد أن المالكين قد أتوا بتفسير مقنع لذلك. فهناك باستمرار سبب يجعلك تشعر بأنك المخطئ. لقد تحدث ماريانو عن السلاح بلهجة شخص خطر ومحترف. AK-47 هو اسم بسيط نوعاً ما، حيث يشكل الحرفان AK اختصاراً لكلمتين روسيتين هما *avtomat Kalashnikova* أي الكلاشنكوف الأوتوماتيكي. والرقم 47 يشير إلى

السنة التي اختير فيها كالسلاح الرسمي للاتحاد السوفياتي. فكثيراً ما ترمّز الأسلحة بأسماء، وحروف، وشيفرات يقصد بها إخفاء طاقتها المميتة، إنها رموز انعدام الرحمة. أما في حقيقة الأمر، فهي تصنيفات مبتذلة خصصها أحد الضباط المساعدين، NCO، الذين يفهرسون الأسلحة الجديدة، قام بها تماماً كما يقوم بتأدية الأمور الأساسية الأخرى في عمله. تتميز أسلحة AK-47 بأنها خفيفة الوزن وسهلة الاستخدام، وتستلزم فقط صيانة بسيطة. قوتها تكمن في حجمها: فهي ليست صغيرة كالمسدسات بحيث تفقد معها قوة الإطلاق الكافية لتحصيل النتائج، ولا هي كبيرة بحيث يصبح التعامل معها صعباً أو يكون ارتدادها قوياً أكثر من اللازم. كما أن تنظيفها وتركيبها سهلان للغاية لدرجة أن القوات المسلحة في الاتحاد السوفياتي السابق دربت طلاب المدارس للقيام بهذا في غضون دقيقتين كحد وسطي.

آخر مرة سمعت فيها صوت إطلاق رشاش كانت قرب الجامعة في سانتا ماريا كابوا فيتير منذ عدة سنوات، إنني لا أذكر بالضبط مكانه، لكنني متأكد من أنه كان عند مفترق طرقات. فقد قامت أربع سيارات بسد الطريق أمام عربة سيبستيانو كاتيرينو، وتم القضاء عليه بسمفونية من أسلحة AK-47. لطالما كان كاتيرينو مقرباً إلى أنتونيو بارديلينو، زعيم رؤساء كاسيرتا كامورا خلال الثمانينيات والتسعينيات. وعندما قتل بارديلينو وتغيرت القيادة، استطاع كاتيرينو أن يفر هارباً من المجزرة. طيلة ثلاثة عشر عاماً اختبأ في منزله، وكان ينسل خارجاً ليلاً فقط، مستخدماً سيارات مصفحة إن غامر بالتجول خارج أسوار منزله، ومبتعداً عن سان شيبريانو دافيرسا، مسقط رأسه. لقد ظن أنه بعد سنوات من الصمت قد حاز على الثقة من جديد، وأن الجماعة الغريمة قد عفت عما مضى ولن تهاجم قائداً سابقاً قديماً مثله. لذا فقد بدأ بإنشاء جماعة جديدة في سانتا ماريا كابوا فيتير، وهي المدينة الرومانية

القديمة التي أصبحت تحت سيطرته. عندما وصل مدير الشرطة في بلدة كاتيرينو إلى مسرح الجريمة، نطق بشيء واحد فقط وهو: "لقد نالوا منه بشدة حقاً!" في هذا المكان، تقاس المعاملة التي تحصل عليها بمقدار عدد الرصاصات التي يضعونها في جسدك. فإن أجهزوا عليك برقة أي بطلقة يتيمة في الرأس أو المعدة، فهي إذاً عملية بدافع الضرورة، عملية استئصال جراحي، ودون ضغينة. أما عندما يفرغون أكثر من مئتي طلقة في سيارتك وما ينوف على الأربعين طلقة في جسدك فهذه إذاً وسيلة لمحو وجودك عن هذا الكوكب بشكل مطلق. لكامورا ذاكرة طويلة جداً، وهي قادرة على الصبر بشكل لا حدود له. ثلاثة عشر عاماً، أي 156 شهراً، تتطلب أربعة رشاشات AK-47، و200 طلقة. أي كل طلقة تقريباً مقابل شهر انتظار. حتى الأسلحة في أماكن معينة لها ذاكرة، فتحتفظ بالكره والإدانة ثم تلفظهما حين تحين اللحظة المناسبة.

في ذلك الصباح، عندما مررت بأصابعي على زخارف المسدس، كنت واضعاً حقيبة على ظهري، وفي طريقي للذهاب إلى منزل ابن عمي في ميلانو. إنه لأمر غريب كيف أن أياً كان ذاك الذي تتحدث معه، وأياً كان موضوع الحديث، فما إن تذكر بأنك ستغادر المكان حتى تتلقى كل أنواع التهاني، والتمنيات الطيبة، وكل الاستجابات الحماسية لخبرك هذا مثل: "أحسنت صنعاً، هذا خير ما تقوم به، كنت لأرحل أنا أيضاً" ليس عليك أن تزودهم بأي تفاصيل، أو أن تشرح لهم ما ستقوم به، فأياً كان السبب فسيكون أفضل من كل الأسباب التي لديك لتبقى في الجوار. عندما يسألني الناس عن المكان الذي قدمت منه، فإنني لا أجيب على الإطلاق. كنت أود أن اقول "من الجنوب"، إلا أن هذا يبدو متكلفاً أكثر مما ينبغي. وعندما يسألني شخص ما في القطار، أحدق إلى قدمي وأتظاهر بأنني لم أسمع السؤال، لأنني أتذكر دوماً رواية فيتوريني، "أحاديث في صقلية" وإنني لأخشى إن فتحت فمي

أن أتكلم بصوت بطل الرواية، سيلفاتور فيراتو. لكن الأمر لا يستحق كل هذا، ففي حين أن الأوقات تتبدل، إلا أن الأصوات تبقى ذاتها. لكن صادف أنه في ذلك اليوم قابلت امرأة ضخمة بالكاد استطاعت أن تحشر نفسها في مقعدها. لقد صعدت على متن اليوروستار في بولونان، وكانت تتملّكها رغبة عارمة بالكلام لا تصدّق، وكأنها كانت تنوي ملء الوقت به بالطريقة نفسها التي يفعلها جسدها. لقد أصرت على معرفة مسقط رأسي، وماذا أعمل، وإلى أين أنا ذاهب. لقد شعرت بإغراء أن أريها الجروح في أصابعي كجواب وحيد على أسئلتها، لكنني لم أفعل. بدلاً من ذلك أجبتها "أنا من نابولي مدينة تطلق العنان للعديد من الكلمات بحيث إن نطق اسمها وحده يحررك من إضافة أي شيء آخر. مكان يصبح فيه السيئ سيئاً بشكل مطلق، ويصبح الجيد فيه نقاءً مطلقاً. ومن ثم غططت في النوم.

اتصل بي ماريانو باكراً في صباح اليوم التالي. كان متلهفاً، إذ كان بعض رجال الأعمال من الحي يجرون عملية حساسة في روما، وكانت هناك حاجة إلى وجود المحاسبين والمنظمين. في تلك الأثناء، كان البابا يوحنا بولس الثاني مريضاً، ولربما كان قد توفي أيضاً، غير أن الإعلان الرسمي عن وفاته لم يكن قد صدر بعد. لقد طلب إليَّ ماريانو الانضمام إليه، لذا ركبت القطار ثانية وتوجهت إلى الجنوب. في غضون بضعة أيام ستحتاج المتاجر، والفنادق، والمطاعم ومحال السوبرماركت إلى كميات غير اعتيادية لأنواع المؤونة كافة. ستجنى الأطنان من الأموال، فقريباً سيتوافد الملايين من البشر إلى العاصمة، سيعيشون في الشوارع، ويمضون ساعات طويلة على الأرصفة، سيحتاجون جميعهم إلى ما يؤكل ويشرب، أي باختصار سيشترون. بإمكانك أن ترفع الأسعار إلى ثلاثة أضعاف، وأن تبيع طوال الليل والنهار، وأن تعتصر الربح من كل دقيقة تمر. لقد طلبوا معونة ماريانو،

فاقترح عليّ أن أبقى بصحبته، وعرض عليّ شيئاً من المال مقابل هذا العمل. لا شيء يحدث بالمجان، فقد وعدوا ماريانو بشهر إجازة يحقق فيه حلمه بالذهاب إلى روسيا للقاء ميخائيل كالاشنكوف. حتى إنه تلقى ضمانات من أحد الأشخاص الذين ينتمون إلى العوائل الروسية، والذي أقسم بأنه يعرفه. سيتمكن ماريانو من النظر في عينيه، ومن لمس اليدين اللتين اخترعتا سلاحاً بهذه القوة.

وفي يوم جنازة البابا، أضحت روما غاية في الاكتظاظ لدرجة أصبح معها من المستحيل تمييز في أي الشوارع أنت، أو أين هو الرصيف. بحر هائل متلاطم من الأجساد قد غطى الإسفلت، والمداخل، والنوافذ. فيضان من الحمم البشرية تسرب إلى كل مساحة متاحة، وبدا أن حجمه يتضخم مفجراً القنوات التي يجري فيها. بشر في كل مكان. كانوا يحتلون كل مكان، حتى إن كلباً اختبأ مرتجفاً تحت حافلة، وقد أرعبه أن يحتل الفضاء الذي اعتاده، هذا الكم من الأرجل والأقدام. توقفنا ماريانو وأنا على درجات أحد الأبنية، إنه الملجأ الوحيد لنا من جماعة قد قررت أن تعبر عن إخلاصها بأن تغني أغنية صغيرة على مدى ست ساعات متواصلة. لقد جلسنا وأخذنا نتناول الشطائر، وكنت أشعر بالإنهاك، غير أن ماريانو من جهته لم يشعر بالتعب بتاتاً، فالتعويض الذي سيحصل عليه مقابل كل ذرة طاقة يصرفها يشحنه بطاقة جديدة باستمرار.

وفجأة، ينادي أحدهم اسمي، فعرفت من كان حتى قبل أن أستدير، لقد كان والدي. نحن لم نرَ بعضنا منذ سنتين، وعلى الرغم من أننا نسكن المدينة نفسها لكننا لا نتقابل مطلقاً. لقد كان أمراً عصياً عليَّ تصديقه أن نلتقي هنا في متاهة الأجساد هذه في روما. لقد كان والدي شديد الحرج، لم يكن يعلم ما يقوله، أو إن كان بإمكانه أن يحييني بالطريقة التي كان يرغب بها. لكنه كان منتشياً،

تلك النشـوة التي تشـعر بها عندما تنطلق في ذاك النوع من الرحلات الـذي يعـدك بالكثيـر مـن العواطف المكثفة في فتـرة لا تتجاوز البضع سـاعات، إنهـا بمثابـة تجـارب جميلة تعلم أنك لـن تحصل عليها ثانية لأمد طويل، لذا فإنك تحاول أن تمتص كل ما فيها سـريعاً خشـية أن تفوتك المتع الأخرى في غضون الوقت الموجز المتاح لك. لذا فقد قـام والـدي بالاسـتفادة من العروض الجيدة لشـركة الطيـران الرومانية على الرحلات إلى إيطاليا لحضور جنازة البابا، وابتاع التذاكر لصديقته، ولأسرتها. كانت النساء جميعهن يرتدين الخمار، والمسابح تلتف حول معاصمهن. كان من ضروب المستحيلات معرفة في أي شارع كنا، كل مـا أذكـره هـو قطعة قماشـية ضخمـة تتدلى بين مبنييـن، وكتب عليها: "لا تدفع غيرك، ولن يدفعك أحد"، مكتوبة في اثنتي عشـرة لغة. لقد كان أقرباء أبي الجدد سـعداء حقاً بمشـاركتهم في حدث جلل كوفاة البابا. كانوا جميعاً يحلمون بصدور عفو عام عن المهاجرين. فبالنسبة إلى هؤلاء الرومانيين، أفضل طريقة لاكتسـاب جنسـية إيطالية وجدانية فعالـة، وحتـى قبـل الجنسـية القانونية، كانت عن طريق مشـاركتهم في حدث هائل وعالمي، ليعانوا مع الجميع لأجل السبب نفسه. لقد كان والـدي يهيـم بهـذا النفـوذ الذي طالما تمتّـع به هذا الرجل العجوز أي البابـا، وبهـذه الشـعبية دون حيـل واضحة، أو تهديدات، وبالنسـبة إلى والـدي كان هـذا كافيـاً لكسـب إعجابـه. لقـد ركع مع والـدة صديقته علـى الأرض بشـكل عفـوي وأخذا يتلوان الصلـوات. رأيت طفلاً بين الأقرباء الرومانيين، فأدركت على الفور أنه كان طفل والدي وميكاييلا. كنت أعلم أنه ولد في إيطاليا لأجل الحصول على الجنسية الإيطالية، لكنـه عـاش دومـاً في رومانيـا لأن والدته يتوجب عليها التواجد هناك، وكان طوال الوقت ملتصقاً بتنورتها. إنني لم أره يوماً من قبل، لكنني كنت أعرف اسمه، إنه ستيفانو نيكولاي. ستيفانو تيمناً باسم والد أبي،

ونيكولاي تيمناً باسم والد ميكايلا. فأضحى والدي يناديه ستيفانو، ووالدته والأقارب الرومانيون ينادونه نيكو. من الطبيعي أن اسم نيكو سيفوز في النهاية، إلا أن أبي لم يستسلم بعد. وطبعاً كانت أول هدية تلقاها نيكو من والده عند ترجله من الطائرة هي كرة. وهي المرة الثانية فقط التي شاهد فيها أبي ابنه الأصغر، لكنه تصرف كما لو كانا معاً على الدوام. ثم حمله بين ذراعيه وتقدم به نحوي قائلاً:

"سيعيش نيكو هنا الآن، في هذا البلد، بلد والده"

لم أعرف لماذا، تحولت ملامح الصبي الصغير إلى الحزن، وأسقط كرته من يده، فتمكنت من إيقافها بقدمي قبل أن تضيع بين الحشود إلى الأبد.

ودون سابق إنذار، عاودتني رائحة الملح المختلط بالغبار، والإسمنت، والقمامة. رائحة الرطوبة، ذكّرتني بحين كان عمري اثني عشر عاماً وكنت على شاطئ بينيتامار. من المحتمل أنه كان يوم أحد وكنت قد استيقظت لتوي عندما دخل والدي غرفتي وقال:

"هل تدرك أن ابن عمك قد أصبح يعرف كيفية التصويب بالبندقية؟ وماذا عنك؟ أأنت أقل منه؟"

اصطحبني إلى قرية كوبولا الواقعة على الساحل بين نابولي وكاسيرتا. كان الشاطئ منجماً مهجوراً من الأدوات التي أبادها ملح البحر، وغطتها طبقة من الكالسيوم. كان بإمكاني أن أظل هناك لأيام مستكشفاً، ومخرجاً من الأرض الموالج، والقفازات، والأحذية المهترئة، والمجارف المكسورة، لكن لم يؤتَ بي إلى هنا لأجل اللعب بالقمامة. تجول والدي في المكان بحثاً عن أهداف، ويفضل أن تكون زجاجاً. كانت زجاجات شراب بيروني هي الأمثل في نظره، فوضعها صفاً على سطح سيارة محروقة من نوع فيات 127. لقد كانت إحدى العديد من

هياكل السيارات المهجورة هناك، إذ كان الموقع هو ذاك الذي تحرق فيه السيارات التي تستخدم في الفرار ثم تهجر. لا أزال أذكر مسدس والـدي البيريتـا 92FS، لقـد كان مغطـى بالكثير من الخدوش حتى بدا عتيقاً رمادي اللون، ولست أدري لم كان الجميع يشير إليه باسم M9، فأنا دائماً أسـمعهم يطلقون عليه هذه التسـمية فيقولون: "سـأضع M9 بين عينيك، أعليّ أن أخرج مسدسي M9؟ تباً، يتوجب عليّ الحصول على M9" سلمني والدي مسدس البيريتا، وشعرت به ثقيلاً في يدي. قاعدته كانت خشنة كورق السنفرة، وقد التصقت بكفي، وأسنانه الدقيقة خمشـت جلدي. أراني والدي كيف عليّ أن أرفع زر الأمان، وألقّمه، وكيـف أمـد ذراعـي، وأغلق عيني اليمنى، وأحدد الهدف باليسـرى، ثم أصوب.

"روب، على ذراعك أن تكون لينة إنما ثابتة، مسترخية لكن غير رخوة أو ضعيفة... واستعمل يديك الاثنتين"

أغمضـت عينـي وحدبـت بكتفـيّ إلـى الأعلى كما لـو أنني كنت أحاول تغطية أذني بهما، ثم ضغطت على الزناد بكلتا سبابتي وبكل ما أستطيعه من قوة. وحتى اليوم، لا يزال صوت العيارات النارية يزعجني بشكل مقيت. لا بد أن لدي مشكلة ما في طبلة أذني لأنني دوماً أصبح بعد سماعها نصف أصم لبعض الوقت.

قامت عائلة كوبولا ذات النفوذ في مجال الأعمال، ببناء أضخم مجمع مدني في غرب بينيتامار. ثمانمئة وثلاثة وستون ألف متر مربع من الإسـمنت: إنها قرية كوبولا. إنهم لم يطلبوا ترخيصاً، ولم يكونوا بحاجة إلى ذلك. فالحصول على تراخيص للبناء في هذا المكان يجعل من تكلفة الإنتاج خيالية بسبب وجود العديد من الأكف، البيروقراطية التـي يجـب ملؤهـا. لـذا فقـد توجـه الكوبوليـون مباشـرة إلـى مصانع الإسـمنت. ولينشـؤوا مجمعهـم قامـوا باسـتبدال أحـد أجمل شـواطئ

الأناناس المتاخمة للبحر الأبيض المتوسط بأطنان من الإسمنت المسلح. بإمكانك أن تسمع صوت البحر من نظام الاتصال الداخلي في المباني.

عندما نجحت بإصابة الهدف أخيراً لأول مرة في حياتي، شعرت بخليط من الزهو والذنب معاً. أستطيع الآن إطلاق النار، إنني أعرف أخيراً كيف أصيب الهدف. ما من أحد يستطيع إيذائي بعد اليوم. لكنني تعلمت الآن كيفية استخدام آلة مريعة، واحدة من تلك التي لا يمكنك التوقف عن استخدامها ما إن تبدأ في ذلك، تماماً كما في تعلم ركوب الدراجة. لم تكن الزجاجة قد تحطمت كلياً، كانت لا تزال واقفة في مكانها وجانبها الأيمن قد تناثرت أحشاؤه. قفل والدي عائداً إلى السيارة، وبقيت أنا هناك والمسدس في يدي. من الغريب أنني لم أشعر بأنني وحيد، على الرغم من بقايا المعدن والنفايات التي كانت تحيط بي. مددت ذراعي باتجاه البحر، وأطلقت صوبه عيارين ناريين. لم أتمكن من رؤيتهما تصيبان هدفاً، ولربما لم تصلا الماء أصلاً. حينها بدا لي أن إطلاق النار على البحر كان عملاً شجاعاً. وعاد والدي حاملاً بيده كرة قدم جلدية عليها وجه مارادونا، وكانت جائزتي على حسن تصويبي. ثم وكعادته دائماً قرب وجهه من وجهي لدرجة كنت أستطيع معها اشتمام رائحة القهوة في أنفاسه. كان يشعر بالرضا، فعلى الأقل الآن لم يعد ابنه بأقل من ابن أخيه. ثم قمنا بأداء الأنشودة المعتادة، وكانت درسه الخاص الشفهي:

- روبي، ماذا تدعو رجلاً يحمل مسدساً ولا يحمل شهادة جامعية؟

- أدعوه شخصاً عديم القيمة، ومعه مسدس.

- وماذا تدعو شخصاً يحمل شهادة جامعية ولا يحمل مسدساً؟

- أدعوه شخصاً عديم القيمة، ومعه شهادة.

- جيد، والآن ماذا تدعو رجلاً يحمل شهادة ومسدساً؟

- أدعوه رجلاً، بابا!

- برافو روبرتينو!

كان نيكو لا يزال يتعلم المشي. لقد تحدث والدي إليه دون توقف، غير أن الصبي الصغير لم يكن يفهم كلمة مما كان يقول، فقد كان يسمع الإيطالية لأول مرة في حياته، على الرغم من أن والدته كان فطنة كفاية لأن تلده هنا. وسألني والدي: "هل يبدو شبيهاً بك روبرتو؟"

تفحصت في ملامحه عن قرب، وكنت سعيداً لأجله، فهو لم يكن يشبهني على الإطلاق فقلت: "ولا بأي شكل، هذا من حسن حظه!"

وجّه إلي والدي نظرة خيبة الأمل المعتادة الخاصة به، والتي عبرت عن أنني لم أقل يوماً الشيء المناسب، ولا حتى وقت المزاح. لطالما كان لدي الانطباع بأن والدي في حرب مع أحد ما. كما لو كان منهمكاً في معركة تحالفات واحتياطات ومراهنات. فبالنسبة إلى والدي، كانت الإقامة في غرفة بفندق من نجمتين يعادل فقدانه لهيبته. وكأنه كان يتوجب عليه أن يقدم تبريراً إلى كينونة ما، ستقوم بمعاقبته بقسوة إن لم يعش حياته بطريقة أنيقة، ويتمسك بذلك متخذاً موقفاً صارماً وهزلياً في آن معاً.

"روبي، الأناس الأفضل لا يحتاجون أحداً. بالطبع عليهم أن يعلموا كل شيء، لكن عليهم كذلك أن يجعلوا الناس يرهبونهم، إن كنت لا تخيف أحداً، إن لم يكن هناك شخص ما يشعر بالقلق في حضورك، فعندها تكون في النهاية قد فشلت"

لقد أزعجه أننا عندما كنا نتناول الطعام خارجاً، كثيراً ما كان

الندلاء يسارعون إلى خدمة بعض الشخصيات المحلية قبلنا، حتى وإن كانوا قد دخلوا بعدنا بساعة. طعام الزعماء كان يجهز في غضون دقائق من جلوسهم. وعلى الرغم من أن والدي كان يحييهم، لكنه في أعماقه يتمنى لو أنه حصل على الاحترام ذاته. احترام كان معناه يتضمن توليد الحسد ذاته على النفوذ، والخوف ذاته، والثروة ذاتها. كان يقول لي دوماً:

"أتراهم؟ إنهم الأشخاص الذين هم فعلاً في موقع القيادة. إنهم من يقومون باتخاذ القرارات في كل شيء! بعض الأناس يتحكمون بالكلمات، والبعض الآخر منهم يتحكمون بالأشياء. عليك أن تكتشف من هم الذين يسيطرون على الأشياء، في حين تتظاهر بتصديق أولئك الذين يتحكمون بالكلمات. إنما في داخلك، عليك دائماً أن تعلم الحقيقة، فأنت تكون في موقع القيادة فقط حين تتحكم بالأشياء" كان قادة الأشياء، كما يدعوهم والدي، جميعهم جالسين إلى إحدى الطاولات. هؤلاء الذين طالما قرروا مصير هذه المنطقة، يجلسون الآن يتناولون الطعام معاً، ويبتسمون. لكنهم على مر السنين مزقوا بعضهم إرباً، مخلفين في أثرهم آلاف الموتى، كرموز لاستثماراتهم المالية. كان الزعماء يعرفون تماماً كيف يعالجون الإهانة الناجمة عن تلبيتهم قبل الجميع، لقد دفعوا ثمن غداء كل الموجودين، لكنهم قاموا بذلك وهم في طريقهم إلى الخارج كيلا يأتيهم أي شكر أو تملق. دفعوا عن الجميع عدا اثنين، هما البروفيسور إينوتو وزوجته. فالثنائي لم يلقيا التحية، وبالتالي لم يتجرأ الزعماء على دفع حسابهما، وإنما جعلا النادل يحضر لهما زجاجة شراب. يتقن الكاموري الاعتناء بأعدائه الأوفياء، والذين هم دوماً أكثر قيمة من أعداء الخفاء. كلما أراد والدي أن يضرب لي مثالاً سلبياً، كان يستشهد بالبروفيسور إينوتو. لقد كانا معاً في المدرسة. سكن إينوتو في شقة مستأجرة، وقد طرد من

حزبه السياسي، ولا أطفال لديه، إنه دائم الثورة، ورث الملابس. كان مدرساً في المدارس الثانوية، ولا زلت أذكره وهو يتجادل مع الأهل الذين طلبوا مشورته ليدلهم إلى أي من أصدقائه عليهم التوجه ليعطوا دروساً خصوصية لأبنائهم لأجل أن ينجحوا. كان اينوتو بالنسبة إلى والدي، رجلاً محكوماً عليه بالموت، وكان يقول:

- الأمر هو كما لو قرر أحدهم أن يصبح فيلسوفاً، وأحد آخر قرر أن يصبح طبيباً. من منهما برأيك له دور حاسم في حياة البشر؟

- الطبيب!

- أحسنت، الطبيب. لأنه يمكنك حينها أن تكون صاحب القرار بشأن حياة شخص ما، فإما أن تنقذه أو لا. بإمكانك فقط أن تصنع صنيعاً طيباً عندما يكون الصنيع السيئ بمقدورك أيضاً. أما إن كنت بدلاً من ذلك فاشلاً، ومغفلاً، وشخصاً لا يفعل أي شيء، عندها فكل ما يسعك الإتيان به هو العمل الطيب، لكنه في تلك المرحلة لن يكون بأكثر من عمل تطوعي، وشيء كالبقايا. العمل الطيب الحقيقي هو ذاك الذي تفعله بملء إرادتك، رغم قدرتك على فعل العمل السيئ كبديل عنه.

لم أحر جواباً، إذ إنني لم أفهم يوماً ما الذي كان يريد إثباته لي. ولا زلت لا أفهم حتى الآن. لعله هذا هو السبب الذي دفعني إلى دراسة الفلسفة، أي كيلا أضطر إلى اتخاذ قرار يخص أي أحد آخر.

بوصفه طبيباً شاباً، فقد عمل والدي في الثمانينيات مع طاقم سيارة إسعاف، وواجه أربعمئة حالة موت سنوياً. في بعض المناطق وصلت النسبة إلى الخمس حالات قتل يومياً. كانوا يركنون سيارة الإسعاف جانباً بينما المصاب ملقًى على الأرض، فلم يكونوا يستطيعون تحميله على النقالة، إن لم تكن الشرطة قد وصلت بعد. لأنه إن انتشر الخبر، فسيقفل القتلة عائدين، فيلاحقون سيارة الإسعاف، ويوقفونها،

ويصعدون إليها، وينهون عملهم. لقد حدث هذا مرّات كثيرة، لذا تعلم الأطباء والممرضات أن ينتظروا جانباً عودة القتلة لينهوا العملية التي بدأوها. لكن في إحدى المرات، استدعيت سيارة الإسعاف التي يعمل فيها والدي إلى غويليانو، وهي بلدة كبيرة بين نابولي وكاسيرتا، وجزء من إقليم آل مالاردو. لقد وصلوا إلى مسرح الحدث سريعاً، ووجدوا الضحية شاباً في الثامنة عشرة، وربما أصغر من ذلك. كان قد تلقى طلقة في صدره، إلا أن واحداً من ضلوعه قد حرفها عن اتجاهها. كان الفتى يلهث محاولاً استنشاق الهواء، ويصرخ، ويفقد الدماء. كانت الممرضات مرتعبات، وحاولن ثني والدي عن عزمه، غير أنه بأي حال، حمله معه في سيارة الإسعاف. كان من الواضح أن القتلة لم يستطيعوا الحصول على تسديدة جيدة، ومن المحتمل أن تكون دورية من الشرطة قد بعثرتهم هاربين، إلا أنه من المؤكد أنهم عادوا. لقد حاولت الممرضات التأكيد لوالدي قائلات: "دعنا ننتظر، سيعودون حتماً ويجهزون عليه، عندها نأخذه نحن"

لكن والدي لم يستطع الانتظار. لكل شيء وقته، حتى للموت، عمر الثامنة عشرة لم يبد له ملائماً للموت، ولا حتى لجندي كاموري. وضعه والدي في سيارة الإسعاف وأخذه إلى المشفى، ونجا الفتى. في تلك الليلة، توجه القتلة الذين لم يُحكموا إصابة هدفهم كما كان يتوجب عليهم، إلى منزله، أي إلى منزل أبي. لم أكن حاضراً هناك، كنت أقطن لدى والدتي، لكن هذه القصة رويت لي عدداً لا يحصى من المرات، وكانت دوماً تقطع في المكان ذاته من ذاكرتي لدرجة أنني أذكرها كما لو كنت حاضراً وشاهدت بأم عيني كل ما حدث. أعتقد أن والدي قد أُوسع ضرباً بشكل وحشي لدرجة أنه بعدها لم يُظهر وجهه لأحد لمدة شهرين على الأقل. وحتى بعد ذلك بأربعة أشهر، لم يستطع حمل نفسه على النظر مباشرة في عيني أحد. أن تختار أن

تنقذ شخصاً يفترض به أن يموت، معناه أنك ترغب بمشاطرته المصير نفسه، لأنه في هذا المكان لا تكفي إرادتك وحدها لتغيير أي شيء. فليس اتخاذ القرار هو ما سيخرجك من الورطات، ولا اتخاذ الموقف، وليس اختيار ما ستفعله هو ما سيجعلك تحس بأنك تتصرف على أحسن وجه ممكن. فمهما كان ما ستفعله، سيكون خطأً لسبب ما. وهذه هي العزلة الحقيقية.

لقد عاودت الضحكة نيكو الصغير. نظرت إلى ميكاييلا فوجدتها في مثل عمري تقريباً. أعتقد على الأرجح أن الأمر ذاته حدث معها عندما أخبرت الناس أنها راحلة، وأنها مغادرة إلى إيطاليا. الجميع أهدوها على الأغلب، أطيب الأمنيات دون أي استفسار عمّا إذا كانت ذاهبة لتصبح غانية، أو زوجة، أو خادمة، أو عاملة مصنع، ومن غير أن يعلموا أي شيء أكثر من أنها كانت راحلة، فهذا كان طالعاً حسناً بما يكفي. أما نيكو فكان كما هو واضح لا يفكر في شيء، وفمه مثبت بكوب آخر من عصير الفاكهة، كانت أمه قد أعطته إياه لتسمّنه قليلاً. وليسهل أبي عليه مهمة الشرب، وضع الكرة في الأسفل بين قدميه، فما كان من نيكو إلا أن ركلها بعيداً بكل قوته، مرسلاً إياها واثبةً أمام سيقان وأقدام الناس. وركض والدي ليستردها، وكان يعلم أن نيكو يراقبه فأخذ من قبيل المزاح يتظاهر بأنه يربت على الكرة أثناء مروره أمام أحدهم، إلا أن الكرة انفلتت منه بعيداً، وضحك الصغير. لعل مئات الأقدام التي كان يشاهدها جعلته يشعر بأنه في غابة من السيقان والأخفاف، فراق له أن يرى والده - والدنا - وهو يرهق نفسه في ملاحقة تلك الكرة. رفعت ذراعي مشيراً له بالوداع، إلا أن حاجزاً من الأجساد حال بيننا. إنه سيعلق هناك ما لا يقل عن النصف ساعة، ولم يكن هناك جدوى من الانتظار. لقد كان الوقت متأخراً حقاً، وأنا لم

أعد قادراً حتى على تمييز صورة ظله، لقد ابتلعتها معدة الحشود.

لقد تمكن ماريانو فعلاً من لقاء ميخائيل كالاشنكوف. أمضى شهراً وهو يجوب أوروبا الشرقية، وروسيا، ورومانيا، ومولدافيا، كمكافأة من الجماعة. اجتمعت به ثانية في المشرب المعتاد في كازال دي برينشيبه. كان معه كدسة من الصور جمعها مع بعضها برباط مطاطي، كبطاقات بيع لمشاهدة كرة القاعدة. كانت كلها صوراً موقّعة، فقبل عودته إلى الديار طبع مئات النسخ من صورة ميخائيل كالاشنكوف وهو يرتدي بزته في الجيش الأحمر، وصدره يقطر بالميداليات: وسام لينين، ميدالية الشرف من الحرب الوطنية العظمى، وسام النجمة الحمراء، ووسام الراية الحمراء للعمال. أما بالنسبة إلى طريقة لقائه بالجنرال، فقد تم ذلك عبر بعض الروسيين الذين كانوا يقومون ببعض الأعمال مع جماعات كاسيرتا.

عاش ميخائيل تيموفيفتش كالاشنكوف في شقة مستأجرة في إيجافسك، أوستينوف سابقاً، وهي مدينة تقع على سفوح جبال الأورال، والتي لم تكن تظهر على الخريطة حتى عام 1991، وهي إحدى العديد من المواقع التي أبقاها الاتحاد السوفياتي. في البلدة، كان كالاشنكوف هو المحبوب عند الجماهير، كما أصبح نوعاً ما مصدر جذب سياحي للزوار من النخبة، لذا فقد أنشأوا لأجله وحده وسائل اتصال مباشرة من موسكو. وشيدوا فندقاً إلى جوار داره، وهو المكان الذي أقام فيه ماريانو، والذي كان يجني أموالاً طائلة من إيواء معجبي الجنرال الذين كانوا ينتظرون هناك عودته من إحدى جولاته في روسيا، أو فقط يجلسون بانتظار موافقته على استقبالهم. كان ماريانو يحمل كاميرته بيده عندما دخل منزل كالاشنكوف وزوجته، لقد أذن له الجنرال باستخدامها شريطة ألا يعرض الفيلم على الملأ. من الواضح أن ماريانو قد وافق، فهو يعلم تماماً أن الشخص الذي

رتب له هذا اللقاء يعرف عنوانه، ورقم هاتفه، وصورة وجهه. قدم ماريانو لكالاشنكوف مكعباً من بلاستيك الستايرفوم مختوماً بشريط لاصق رسمت عليه رؤوس للجواميس. وأحضر معه في صندوق سيارته صندوقاً مملوءاً بجبنة الموزاريللا بالحليب من أفيرسا مارشيز نفسها.

مكتبة الرمحي أحمد

أراني ماريانو الفيديو الذي صوره لزيارته لمنزل كالاشنكوف، من على الشاشة الصغيرة التي تفتح من جانب كاميرته. كانت الصور تتقافز دون وضوح، وآلية التكبير شوهت صور الأعين والأشياء، والعدسة أخذت تصدر أصواتاً بين الأصابع والمعاصم. كان أشبه بفيلم لرحلة مدرسية، تم تصويره في أثناء العدو والقفز. منزل كالاشنكوف بدا مماثلاً لداتشا منزل زعيم الانفصاليين في أرزانو، جينارو مارينو مكاي. أو لعلها كانت مجرد النسخة الكلاسيكية منها، لكن بما أنها الداتشا الأخرى الوحيدة التي شاهدتها وكانت خاصته، لذا فقد بدت كنسخة مطابقة بالنسبة إليَّ. كانت الجدران مكسوّة بلوحات منسوخة لفيرمير، والأثاث مترعاً بالكريستال والحلي الخشبية. وكل إنش من الأرضيات كان مغطى بالسجاد. في لقطة من اللقطات، غطى الجنرال العدسة بكفه. أخبرني ماريانو أنه خلال تجوله المتسكع في أرجاء المكان ومعه آلة التصوير، ونتيجة لتجرعه جرعة كبيرة من سوء السلوك، قد دخل إلى غرفة لم يرغب الجنرال أن يتم تصويرها تحت أي ظرف كان. في خزانة معدنية صغيرة معلقة على الحائط، تجلى مرئياً بوضوح من خلف الزجاج المدرع، أول نموذج من سلاح AK-47. وهو النموذج الأصلي الذي تذكر الأسطورة أن الجنرال، وكان حينها ضابطاً صغير الرتبة، قد وضع مخططه على قصاصات من الورق، بينما كان في المشفى ليتعافى من جرح أصابه من عيار ناري. كان حينها متلهفاً لابتكار سلاح يجعل من الجيش الأحمر، بجنوده الخائري القوى من الجوع والبرد، جيشاً

لا يقهر. سلاح AK-47 الأول على الإطلاق، مخبأ في مخبأ أمين، كالقرش الأول الذي كسبه العم الشحيح سكرووج ماك دك. ذاك النموذج الشهير الذي يحمل الرقم واحد، يُحفظ في مقام مدرّع. لقد كان نموذجاً لا يقدر بثمن. فكثير من الناس كانوا سيبذلون أي شيء في سبيل تذكار عسكري من هذا النوع. وما إن يموت كالاشنكوف سينتهي الأمر بذاك النموذج إلى العرض للبيع في المزاد العلني بصالة كريستيز، كلوحات تيتيان، ورسومات مايكل آنجلو.

لقد أمضى ماريانو الصباح بطوله في منزل كالاشنكوف. لا ريب في أن الروسي الذي أحضره ذو تأثير كبير على الجنرال كي يعامله بهذه الحفاوة. كانت آلة التصوير ما تزال تسجّل عندما جلسوا جميعاً إلى المائدة، في حين قامت سيدة مسنة ضئيلة الحجم بفتح علبة الموزاريلا، وأخذوا يتناولونها مع الشراب باستمتاع بيّن. أراد ماريانو تسجيل كل شيء، لذا فقد وضع آلة التصوير عند رأس الطاولة. أراد إثباتاً على أن الجنرال كالاشنكوف قد تناول الموزاريلا من مصنع ألبان زعيمه. وفي الخلفية سجلت آلة التصوير قطعة من الأثاث وكانت إطاراتها مغطاة بصور لأطفال. وعلى الرغم من أنني كنت أود أن ينتهي الشريط بأسرع ما يمكن لكوني كنت أشعر بشيء من دوار البحر، إلا أنني لم أستطع كبت فضولي، فسألته:

- ماريانو، ألكالاشنكوف هذا العدد من الأبناء، والأحفاد؟

- إنهم ليسوا أبناءه! إنها جميعها صور أرسلها إليه أناس لأطفال أسموهم تيمناً باسمه، أو أناس أُنقذت حياتهم بفضل كالاشنكوف، أو ربما هم ببساطة معجبون به وحسب.

كما الأطباء الذين يحتفظون على رفوف مكاتبهم بصور للأطفال الذين عالجوهم كتذكارات لنجاحهم المهني، كذلك كان لدى الجنرال

كالاشنكوف في غرفة جلوسه صور لأطفال سمّوا على اسم اختراعه. أحد محاربي العصابات المشهورين في حركة التحرير الشعبية في أنغولا قال مرة لأحد المراسلين الإيطاليين: "لقد أسميت ابني كالاش لأنه مترادف مع الحرية"

كالاشنكوف الذي ولد في العام 1919، هو الآن رجل مرح وفي حالة جيدة على الرغم من تقدمه في السن. تأتيه الدعوات من جميع أرجاء المكان. قبل أن يتقاعد من القوات المسلحة، تقاضى راتب جنرال قيمته 500 روبل، كان يوازي حينها قرابة 500 دولار شهرياً. لو أن كالاشنكوف استطاع أن يسجل اختراعه في الغرب، لكان دون شك أحد أثرى أثرياء العالم. وبسبب الافتقار إلى الأرقام المحددة، فسأقول إن قرابة 150 مليون قطعة من النماذج المتنوعة لسلاح الكلاشنكوف قد تم إنتاجها، وجميعها تستند إلى تصميم الجنرال الأساسي. فلو أنه اكتسب دولاراً واحداً فقط مقابل كل قطعة سلاح، لكان الآن يسبح في بحر من المال. لكن أمر هذه الثروة المفقودة لم يكن يزعجه البتة. لقد أعلن ولادة هذه الصنيعة، وأطلقها إلى الوجود، وهذا بحد ذاته مصدر رضا كافٍ له. لعله في النهاية قد جنى بعض المكاسب، فقد ذكر لي ماريانو أن هدايا المعجبين كانت تصل بين الحين والآخر، كانوا يرسلون له كمية من المال تعبيراً عن احترامهم، آلاف الدولارات تودع في حسابه في البنك، وهدايا ثمينة من إفريقيا، إذ كان هناك حديث عن قناع ذهبي لقبيلة من موبوتو، وظلّة مرصعة بالعاج أرسلها بوكاسا. كما قيل إن قطاراً محملاً بالسيارات وصل من الصين كهدية من دينغ شياوبينغ، الذي وصل إليه خبر ضيق الجنرال من ركوب الطائرات. إلا أن هذه كلها تبقى أساطير، وإشاعات تدور بين الصحفيين الذين لم يتمكنوا من إجراء لقاء مع الجنرال. فهو لا يستقبل أحداً دون أن يقدمه إليه شخص مهم، لذا فإنهم لجأوا من أجل استقصاء الأخبار،

إلى الموظفين في مصنع الأسلحة في إيجافسك.

لقد تميزت ردود ميخائيل كالاشنكوف بالآلية، فهي دائماً الإجابات نفسها، أياً كان السؤال. كانت لغته الإنكليزية التي تعلمها كراشد، سَلِسَة، وكان يستخدمها بمرونة الذي يستخدم مفكاً ليفك البراغي. وليخفف ماريانو من وطأة التوتر الذي يشعر به، أخذ يطرح أسئلة عامة، وعديمة المغزى حول سلاح AK-47. فكان الجواب: "إنني لم أخترع ذاك السلاح لأكسب المال، إنما فقط وحصرياً لهدف الذود عن أرض الوطن في الوقت الذي كانت فيه بحاجة إلى ذلك. لو أنه قدر لي العودة بالزمن إلى الوراء، لكنت فعلت الأشياء نفسها، ولاخترت أن أعيش حياتي تماماً بالطريقة نفسها دون أن أغير فيها قيد أنملة. لقد عملت طيلة حياتي، وحياتي تتجلى في عملي هكذا كان يجيب عن كل سؤال يطرح عليه حول اختراعه.

ما من شيء في العالم، سواء أكان عضوياً أم تركيبياً، معدنياً أم كيميائياً، أنتج موتاً أكثر من سلاح AK-47. لقد قتل أكثر مما قتلت القنابل الذرية التي ألقيت على هيروشيما وناغازاكي، وأكثر من فيروس HIV المسبب للإيدز، وأكثر من وباء ورم العقد اللمفاوية، وأكثر من الملاريا، أكثر من هجمات المتشددين، وأكثر من إجمالي الزلازل التي هزت الكرة الأرضية مجتمعة. إنها كمية أسّية من الأجساد البشرية يستحيل حتى تخيلها. إعلان واحد في أحد المؤتمرات استطاع بالكاد أن يقترب من وصف مقنع للصورة إذ قال: "املأ قارورة بالسكر، وأجعل الحبيبات تنهمر فيها من فتحة صغيرة في زاوية الكيس. وتخيل أن كل حبة سكر، تعادل شخصاً قد قتل بسلاح الكلاشنكوف"

يستطيع سلاح AK-47 أن يطلق النار في أكثر الظروف المزرية على الإطلاق. لن يتعطّل، وسيطلق النار حتى وإن كان متخماً بالأوساخ،

أو مغرقاً بالماء. هو مريح في الحمل، وذو ضغطة زناد خفيفة يستطيع حتى طفل أن يسحبه. الحظ، والخطأ، وعدم الدقة، هي العوامل التي يمكن لها أن تحفظ حياة أحد ما في المعركة، وقد أزالتها جميعها دقة سلاح AK-47 التي منعت الصدفة من أن تلعب دورها. يسهل استخدامه، ويسهل نقله، ويطلق النار بكفاءة تتيح لك أن تقتل به دون أن تكون قد مررت بأي نوع من التدريب، "فبإمكانه أن يحول حتى حماراً إلى مقاتل"، كما قال لوران كابيلا، القائد السياسي الكونغولي المخيف. سلاح AK-47 استخدمته الجيوش في صراعاتها في أكثر من خمسين بلداً خلال الأعوام الثلاثين الماضية. ومن الدول التي أكدت منظمة الأمم المتحدة أن المجازر قد ارتكبت فيها باستخدام سلاح AK-47: الجزائر، وأنغولا، والبوسنة، وبوروندي، وكامبوديا، والشيشان، وكولومبيا، وكونغو، وهايتي، وكشمير، وموزمبيق، ورواندا، وسيراليون، والصومال، وسيريلانكا، والسودان، وأوغندا. ما ينوف على الخمسين جيشاً نظامياً يتم تزويد أفرادها بأسلحة AK-47. وتبقى الإحصائيات عاجزة عن تحديد الجماعات غير النظامية، والجماعات شبه العسكرية، وأيضاً العصابات التي تتسلح به.

في عام 1981 اغتيل أنور السادات بسلاح AK-47، كما اغتيل به الجنرال كارلو ألبيرتو دالا تشيزا في عام 1982، ونيكولاي سيوسيسكو في عام 1989. كما عثر على سلفادور أليندي في بالاسيو دي لا مونيدا وفي جسده رصاصات AK-47. جميع هذه الجثث المتميزة التي حملت توقيع AK-47، تمثل النجوم الأبرز في استعراضه التاريخي. لقد استطاع هذا السلاح أن يشق طريقه حتى إلى أعلام الموزمبيق، ورموز المئات من الجماعات السياسية، من حركة فتح في فلسطين، إلى تنظيم MRTA في البيرو. إنه الدعامة التي تستند إليها أدوار كل من المحررين، والظالمين، والجنود، والإرهابيين، واللصوص، والقوات

الخاصة التي تحمي الرؤساء.

لقد طور سلاح كلاشنكوف عالي الفعالية عبر السنين إلى ثمانية عشر شكلاً مختلفاً، واثنين وعشرين نموذجاً جديداً، ترتكز جميعها على التصميم الأصلي. إنه رمز حقيقي للمشروع الحر، والجودة المطلقة. ويمكنه أن يصبح شعاراً لأي شيء كان، فما دمت تستخدم منتجنا، لا يهم من تكون، وكيف تفكر، ومن أين قدمت، وما هي ديانتك، ومن تناصر، ومن تعارض، خمسون مليون دولار ستشتري حوالى مئتي ألف سلاح. أي أنه وبمعنى آخر، بإمكانك أن تنشئ جيشاً صغيراً بخمسين مليون دولار. فكل ما من شأنه أن يحطم القيود والوساطات السياسية، ويفسح المجال لاستهلاك هائل ونفوذ أسي، هو الفائز في السوق. باختراعه لهذه الأداة العسكرية، أتاح ميخائيل كالاشنكوف لكل سلطة وجماعة مهما كانت صغيرة فرصة الحصول على السلطة والقوة. فبعد اختراع سلاح AK-47 لم يعد باستطاعة أحد أن يقول إن هزيمته مردها نقص في القدرة على الوصول إلى الأسلحة. لقد جعل أي طرفين، يقفان على قدم المساواة في ساحة المعركة: أسلحة لكل شخص، ومجازر للجميع. فلم تعد ساحات المعارك ميادين مقتصرة على الجيوش.

لقد حقق سلاح AK-47 على المستوى العالمي، ما حققته جماعات سيكونديغليانو على المستوى المحلي بتحريرها المطلق للتعاطي مع الكوكايين، والسماح لأي شخص كان بالإتجار بالمخدرات، أو بالتعاطي بها، أو بيعها، وبالتالي تخليص السوق من الوساطة الإجرامية المتسلسلة هرمياً. بالطريقة ذاتها، أتاح AK-47 للجميع بأن يصبحوا جنوداً، فحتى الفتيان الصغار، والفتيات الضئيلات، والناس الضعفاء الذين لا يستطيعون أن يسوقوا دزينة أغنام، أصبحوا جميعاً كجنرالات الجيش. فالمبدأ هو أن تشتري الرشاشات، وتفتح

النار، وتحطم الأشخاص والأشياء، ثم تعود وتشتري المزيد، وما تبقى مجرد تفاصيل. في كل صورة من صوره، يظهر وجه كالاشنكوف صافياً بجبهته المربعة السلافية وعينيه الصغيرتين المغوليتين اللتين أصبحتا مع تقدمه في السن كشقين ضيقين. إنه ينام نوم الرجل الصالح. ويذهب كل ليلة إلى سريره وهو يشعر بصفاء داخلي، إن لم يكن بسعادة أيضاً، واضعاً خفّاه بإتقان جنباً إلى جنب تحت سريره. عندما يكون جدياً، تبدو شفتاه مثبتتان في سترته المعدنية، مثل شفتي ليونارد لورانس غومر بايل. وعندما يبتسم كالاشنكوف، تبتسم شفتاه فقط، أما وجهه فيظل جامداً.

في كل مرة أرى فيها صورة لميخائيل كالاشنكوف، أتذكر ألفريد نوبل. إنه الرجل الذي اشتهر بالجائزة التي تحمل اسمه، لكنه أيضاً "أبو الديناميت" والصور التي التقطت له بعد اختراعه، وبعد أن أدرك الأغراض التي سيطوع لخدمتها هذا الخليط من النيتروغليسرين مع الطين، تظهر رجلاً دمره القلق، تعبث أصابعه بلحيته إلى درجة التعذيب. لربما كان هذا كله محض تخيلات، لكنني حين أنظر إلى صورة نوبل، بحاجبيه المقوسين والنظرة التائهة في عينيه، يتراءى لي وكأنه يقول شيئاً واحداً فقط: "لم أكن أقصد. كانت نيتي تحريك الجبال، وتقويض الصخور، وشق الأنفاق. لم أكن أريد أياً من الذي حدث" بالمقابل، يبدو كالاشنكوف هادئاً دائماً، كمتقاعد روسي تملأ رأسه الذكريات. يمكنك أن تتخيله ورائحة الشراب تفوح من أنفاسه وهو يروي لك عن صديق له أيام الحرب، أو يهمس لك ، بينما تأكلان، عن أيام الشباب وعن صولاته وجولاته في ميدان الغرام دون أن يعرف التعب. وفي تخيلاتي الصبيانية، أرى صورة ميخائيل كالاشنكوف تقول: "كل شيء على ما يرام، هذه ليست مشكلتي. لقد اخترعت بندقية، وليس من شأني التفكير بكيفية استعمال الناس لها" المسؤولية التي تقع عليك

هـي التـي تحددهـا أفعالك، والتي لا تتعداك أنت نفسـك، فضميرك لا تثقلـه إلا أفعـال يديـك وحدهما. وباعتقـادي أن هذا هو أحد العناصر التي تجعل من الجنرال، وبشكل إلزامي، رمزاً في نظر الجماعات في أنحاء العالم أجمع. فميخائيل كالاشـنكوف ليس بتاجر أسـلحة، وليس لـه أي وزن فـي صفقـات الإتجـار بالأسـلحة، ويفتقـر إلـى الشـخصية الجذابة، غير أنه مع ذلك يجسد الخصال الأساسية اليومية التي يجب أن يتحلـى بهـا رجـل السـوق، ألا وهي: أنه يقوم بـكل ما يلزم ليفوز، والباقي ليس من شأنه.

كان ماريانو يرتدي كنـزة ذات قبعة، ويضع حقيبة للظهر كلاهما تحملان شعار كالاشنكوف. لقد بدأ الجنرال بتنويع نشاطاته الاستثمارية، وهـو فـي طريقـه لأن يصبـح رجـل أعمـال موهوب. ما من اسـم كان معروفاً أكثر من هذا الاسـم، لذا فقد قام رجل أعمال ألماني بإطلاق اسـم كالاشـنكوف كعلامة تجارية، وقد راق للجنرال انتشـار اسمه، بل وراقه أيضاً الاستثمار في شركة تصنع مطافئ الحريق.

وفي منتصف قصته، أوقف ماريانو الفيلم فجأة وهرع إلى سيارته، أخرج منها حقيبة سفر عسكرية، وعاد بها إلى المشرب ووضعها على سـطح المنضـدة. لقـد خشـيت أن يكون ماريانو قد فقـد صوابه تماماً، ووصل جنونه بالأسـلحة الرشاشـة إلى درجة جعلته يقود سـيارته عبر أوروبا وفي صندوقها رشـاش AK-47، وهو على وشـك عرضه الآن وأمام أنظار الجميع. لكنه بدلاً من ذلك، قام بإخراج قارورة صغيرة من الكريسـتال كانت فلينتها مثبتة في نهاية الماسـورة، ومملوءة بالشـراب، إلاّ أن طعمهـا كان رديئـاً للغايـة. وبعـد رحلته تلك أصبح كل مشـرب يورد له ماريانو في أفيرسا مارشيز، يبيع شراب كالاشنكوف. وإنني من تلك اللحظة بت أتصور كيف ستصطف نسـخ الكريسـتال على الرف

خلف كل صاحب مشرب من تيفيرولا إلى موندراغون. كان الشريط على وشك الانتهاء، وقد أخذت عيناي تؤلمانني بعد محاولتي لتصحيح حالة قصر النظر فيهما فقد كنت أرمق الفيلم كله وأنا أضيقهما، ومع ذلك كانت اللقطة الأخيرة لا تفوت. شخصان مسنان في خفيهما المنزليين على عتبة منزلهما، يلوحان إلى ضيفهما الشاب وهما لا يزالان يمضغان اللقمة الأخيرة من جبنة الموزاريلا. كانت مجموعة من الأطفال قد تحلقت حولنا، وأخذوا يحملقون بماريانو وكأنه الشخص المختار، وكأنه بطل من الأبطال لمجرد أنه التقى به. إنه شخص قابل ميخائيل كالاشنكوف. ثم نظر إليَّ ماريانو بطريقة وكأنني شريك معه في جريمة ما، وهو أمر لم يجمع بيننا قط. ثم أزال الرباط المطاطي عن كدسة الصور وقلبها جميعها. وبعد أن مر بدزينة منها، أعطاني إحداها، وقال:

"هذه لك. ولا تقل إنك لا تخطر لي على بال"

على صورة الجنرال العجوز كان قد كتب بقلم أسود ذي رأس من اللباد:

"إلى روبرتو سافيانو، مع أطيب تحياتي، أم. كالاشنكوف"

إن مؤسسات البحوث الاقتصادية الدولية في حاجة مستمرة إلى البيانات التي تقدّمها كقوت يومي للصحف والمجلات والأحزاب السياسية. فمثلاً، مؤشر بيغ ماك الشهير يعطي تقديرات للرخاء الاقتصادي الذي ينعم به بلد من البلدان استناداً إلى كلفة شطيرة الهمبرغر من مكدونالدز. ولتقدير وضع حقوق الإنسان في مكان ما من العالم، يعتمد المحللون على سعر سلاح AK-47، فكلما كانت كلفته أقل، كلما كانت الانتهاكات لحقوق الإنسان أكثر، وهذا بحد ذاته مؤشر على تردّي الحقوق المدنية، وعلى انهيار البنيان الاجتماعي. في

غربي إفريقيا يمكن أن تتدنى كلفة AK-47 إلى 50 دولاراً فقط. وفي اليمن، يمكن الحصول على السلاح عن طريق أشخاص آخرين بمبلغ لا يتجاوز الستة دولارات. إن أفضل المصادر لمعرفة تجار الأسلحة هي جماعات كاسيرتا ونابولي، التي بالتضافر مع مافيا كالابريس التي تربطهم بها علاقات مستمرة، إنهم يضعون مخالبهم على مستودعات الأسلحة لدول أوروبا الشرقية الاشتراكية المنهارة.

تدير كامورا شريحة واسعة من سوق الأسلحة الدولية، وبالتالي فهي تستطيع في الواقع أن تحدد سعر مبيع قطع سلاح AK-47. وكنتيجة لذلك فقد أصبحت الحكم غير المباشر لوضع حقوق الإنسان في الغرب. وكأنها تخفض من مشروعية هذه الحقوق شيئاً فشيئاً، وتستنزفها قطرة فقطرة. في ثمانينيات القرن الماضي، كانت المجموعات الإجرامية الفرنسية والأميركية تستخدم M16، وهي بندقية حربية من البحرية الأميركية صممها إيوجين ستونر، ضخمة الحجم، وثقيلة الوزن، ويجب تزييتها وتنظيفها لئلا تصدأ. بينما كانت بندقية AK-47 تستخدم على نطاق واسع في صقليا وكامبانيا، ومن سينيسي إلى كازال دي برينشيبه. وفي عام 2003 كشف رافاييل سبينيللو، بينتيتو من جماعة جينوفيز التي حكمت أفيلينو والمناطق المجاورة، عن العلاقات التي تربط بين الإيتا (ETA) في الباسك، وكامورا. تحالفت جماعة جينوفيز مع عائلتي كافا في كويندیشي، وكاسيرتا. إنها ليست من الجماعات عالية المستوى، لكنها مع ذلك زودت بالأسلحة إحدى المنظمات المسلحة الرئيسية في أوروبا. لقد اختبرت الإيتا (ETA) سبلاً متنوعة للتزود بالأسلحة خلال كفاحها الذي دام ثلاثين عاماً، غير أن جماعات كامبانيا أصبحت وسيطهم ذا الامتياز في هذا الشأن. فوفقاً لما ذكرته التحقيقات التي أجراها مكتب النائب العام في نابولي في عام 2003، فإن مقاتلين في الإيتا (ETA) هما جوزيبيه ميغويل أريتا،

وغراسيا موريللو توريس، أمضيا عشرة أيام في فندق في ميلانو، وهما يتفاوضان على الأسعار والمسالك وكيفية التبادل مع كامبانيا. وفي النهاية توصل الأطراف جميعاً إلى اتفاق. ترسل الإيتا (ETA) الكوكايين عبر مقاتليها، وتستقبل السلاح بالمقابل. كما تعهدت الإيتا (ETA) بأن تخفض بشكل ثابت من سعر السوق للكوكايين الذي تحصل عليه عبر مصادرها داخل الجماعات المشاركة في حرب العصابات الكولومبية، وبأن تغطي التكاليف وتتحمل مسؤولية إيصال المخدرات إلى إيطاليا. كان أفراد الجماعات يفعلون أي شيء للمحافظة على علاقاتهم مع أفراد اتحادات كامبانيا، الذين كانوا على الأغلب الوحيدين القادرين على تزويدهم بمستودعات أسلحة كاملة. لكن الإيتا (ETA) لم تكن تريد سلاح Ak-47 فحسب، بل طلبت أيضاً أسلحة ثقيلة، ومتفجرات قوية، وأهم من ذلك كله انها طلبت قاذفات صواريخ.

لطالما كانت العلاقات متينة بين كامورا ومحاربي العصابات حتى في البيرو، وهو البلد الذي تبناه تجار المخدرات النابوليّين. ففي عام 1994، وبعد مقتل قرابة عشرة إيطاليين في ليمان، طلبت المحكمة في نابولي إذن السلطات في البيرو للقيام بالتحقيقات التي كانت تهدف - وعبر الإخوة رودريغز - إلى كشف العلاقات بين الجماعات النابوليّة ومحاربي العصابات MRTA ذوي العُصبات البيضاء والحمراء على وجوههم. فحتى هؤلاء، كانت لهم صفقات مع الجماعات، على أساس الكوكايين مقابل الأسلحة. وفي عام 2002 ألقي القبض على فرانسيسكو ماغليولو، وهو محامٍ تربطه علاقات مع جماعة مازاريلا. ومازاريلا عائلة ذات نفوذ من سان جيوفاني تيداتشيو ولها مقر إجرامي ثانوي في أحياء سانتا لوسيا وفورسيلا في قلب مدينة نابولي. فبعد أن تعقبوه لمدة سنتين، ولاحقوا أعماله في مصر، واليونان، وإنكلترا، استطاعوا أخيراً أن يتعقبوا مكالمة هاتفية من مقديشو، مصدرها فيلا

الجنرال عيدي أمين، وهو القائد الصومالي الذي ناهض ميليشيا علي المهدي، والذي بالتالي حوّل الصومال إلى جيفة عفنة ممزقة يتوجب دفنها، ودفن النفايات السامة لنصف أوروبا معها. لقد تحركت التحقيقات في علاقة جماعة مازاريلا مع الصومال في اتجاهات مختلفة، وكانت تجارة الأسلحة حتماً أحد الخيوط الرئيسية في هذه التحقيقات. فحتى زعماء الحرب يتحولون إلى حيوانات أليفة عند احتياجهم إلى أسلحة جماعات كامبانيا.

كانت القوة العسكرية المدمرة التي تم الكشف عنها في آذار من عام 2005 في سانت أنستازيا، وهي المدينة التي تقع في سفح جبل فيزوف، مذهلة. تم جزء من ذلك الاكتشاف مصادفة، وجاء الجزء الآخر بسبب افتقار تجار الأسلحة إلى الانضباط، فقد بدأوا بالعراك في الشارع لأن الزبائن والسائقين لم يستطيعوا التوصل إلى اتفاق حول السعر. قام أفراد الشرطة عند وصولهم، بإزالة الألواح الداخلية للشاحنة التي كانت تركن قريباً من مكان الشجار، مكتشفين بذلك أحد أضخم مستودعات الذخيرة المتنقلة التي كانوا قد رأوه على الإطلاق، وكانت تتضمن رشاشات من نوع أوزي بأربعة أمشاط، وسبعة شواحن، و112 طلقة من عيار 380 ورشاشات تشيكية وروسية لها القدرة على إطلاق 950 طلقة في الدقيقة (تسعمئة وخمسون طلقة في الدقيقة كانت هي قدرة الطائرات المروحية الأميركية على الإطلاق في فيتنام). إنها أسلحة تكفي لا لأجل مجرد حلّ النزاعات بين أقطاب عائلة كامورا، على سفوح جبل فيزوف، بل لتمزق إرباً دباباتٍ وفرقاً عسكرية بأكملها. جميعها وصلت للتو من مدينة كراكاو البولندية. إنها أسلحة جديدة تقريباً، ومزيّتة بشكل جيد، كما أن أرقامها لم تمس. فتجارة الأسلحة هي أحدث وسيلة للمناورة على نفوذ الدول الديكتاتورية التي تفرض سيطرتها عبر قدرتها على تحريض العنف. إن

مستودعات أسلحة الجماعة مملوءة بأسلحة الكتف المضادة للدبابات، والقنابل اليدوية، والألغام المضادة للدبابات، والبنادق الرشاشة. ورغم أن الجماعات تستخدم تقريباً، وبشكل حصري أسلحة الكلاشنكوف، وأوزي، والمسدسات الأتوماتيكية، ونصف الأتوماتيكية، إلاّ أن الباقي موجود لبناء قوتها العسكرية، واستعراض قوتها. مع كل تلك الإمكانيات للقتال فإن الجماعات لا تعارض عنف الحكومة الشرعي، هي بالأحرى تعارض احتكاره. على عكس جماعات كوسا نوسترا القديمة، فإن جماعات كامبانيا ليست مهووسة بعقد هدنة. فالأسلحة هي امتداد مباشر للقوى المحرّكة المتعلقة بتسويات رأس المال وبالإقليم، وبمزيج المجموعات التي تبزغ وبالعوائل التي تتنافس. وكأن لها حقوقاً حصرية على مبدأ العنف، وأدواته، وعلى الأجساد التي يفنيها. فالعنف يصبح إقليماً لكامورا، وارتكابك للعنف يؤهلك التحكم بالسلطة ببراعة، إنها سلطة التنظيم. لقد ابتكرت الجماعات أسلحة جديدة صمّمها وركّبها الأعضاء أنفسهم. ففي عام 2004 عثرت عناصر الشرطة على بندقية غريبة الشكل ملفوفة بقطعة قماشية قطنية مغرقة بالزيت، ومخبأة في سانت أنتيمو، شمالي نابولي في حفرة مغطاة بالأعشاب. إنه نوع من السلاح المميت الذي تقوم بإصلاحه وتبديل قطعه بنفسك، والذي يباع بحوالى 250 يورو، وهو مبلغ بسيط بالمقارنة مع كون السلاح نصف الأتوماتيكي يباع كحد وسطي بحوالى 2500 يورو. يتألف سلاح الجماعة من أنبوبين متشابكين يمكن نقلهما بشكل منفصل، لكن ما إن يركّبا مع بعضهما حتى يتحولا إلى سلاح قاتل ذو ماسورة قصيرة للخراطيش، وطلقات كبيرة. لقد صمّم النموذج على طراز لعبة على شكل مسدس ظهرت في الثمانينيات، وكانت تطلق كرات البينغ بونغ عن طريق جذب الجزء الخلفي بشدة، وبالتالي تحرير قوة دفع داخلية. إنه مسدس على شكل لعبة، كذاك الذي يلهو

به آلاف الأطفال الإيطاليين في الحروب الدائرة في غرف جلوسهم. لكن من ذلك النموذج، للعبة الأطفال، انبثق ما يطلق عليه هنا ببساطة اسم أوتوبو، أي الأنبوب. إنه يتألف من أنبوبين، الأول طوله حوالى الأربعين سنتيمتراً، وله قبضة وبرغي معدني كبير يعمل كمزلاج ملتحم من الداخل أما الأنبوب الثاني وله مقبض جانبي، فأبعاده أصغر، ويتسع لخراطيش من عيار 20 ملم، إنه بسيط بشكل لا يصدق، وقوي بشكل رهيب. وله أيضاً ميزة تجاوز التعقيدات التي تظهر عادة بعد استخدامه، فلا ضرورة للإسراع في تدميره بعد القيام بكمين، وكل ما يتوجب عليك فعله، في حال كان هناك تفتيش، هو فصل أجزائه عن بعضها فيصبح على شكل أسطوانتين بريئتين عديمتي الأذى قبل أن يقع هذا السلاح بيد الشرطة، سمعت راعي غنم فقيراً يتحدث عنه. كان ذلك الراعي من أحد تلك الأرواح الهزيلة التي لا زالت تحوم في أجزاء من الريف الذي يطوّق جسور الطريق السريع، والأبنية البشعة التي تشبه ثكنات الضواحي. كانت خرفانه النابوليّة النحيلة، التي تظهر ضلوعها، تمضغ العشب الذي أبلى أسنانها وحول صوفها إلى رمادي. هذا الراعي كان كثيراً ما يجد خرفانه ممزقة إلى قطعتين، قد شقت أجسامها الهزيلة إلى نصفين، ولم تكن مذبوحة ذبحاً. لقد ظن الراعي أنه تحذير أو استفزاز من قبل منافسيه البؤساء ذوو القطعان العليلة. لم يفهم ما يحدث. لقد كان مصنعو الأنبوب وراء ما يحدث، إنهم يجربون قوة السلاح على الحيوانات الضعيفة، والخرفان التي كانت هدفهم الأمثل لاختبار مدى السيطرة على قوة الرصاص وكفاءة السلاح. وهذا أمر يقيسونه بحسب الطريقة التي تتقلب بها الخرفان في الهواء قبل أن تنشطر شطرين كما في ألعاب الفيديو.

يحافظ على مسألة السلاح سراً في أحشاء الاقتصاد، ويختم عليها في بنكرياس الصمت. وفقاً للأرقام التي جمعها معهد ستوكهولم

الدولي لأبحاث السلام SIPRI، فإن إيطاليا تنفق ما مقداره 27 مليار دولار سنوياً على الأسلحة. أي أكثر من روسيا، وضعف ما تنفقه إسرائيل. وإن جمعنا إلى أرقام الاقتصاد المشروع ما يقدره معهد الأبحاث السياسية والاقتصادية والاجتماعية، EURISPES، بحوالى 3.3 مليار دولار من تجارة الأسلحة التي تديرها كامورا، وندرانيتا، وكوسا نوسترا، وساكرا كورونا يونيتا في باغليا، فإننا نتحدث إذاً عن نسبة هائلة من انتشار الأسلحة في العالم أجمع. اتحاد كسالسي هو مجموعة الأعمال الإجرامية الكبرى ذات الأهلية الأفضل لأن تمد بالأسلحة لا جيوشاً من المجموعات فحسب، بل إمبراطوريات بأكملها. ففي عام 1982، وخلال الحرب الإنكليزية - الأرجنتينية على جزر فوكلاند، مرت الأرجنتين بأسوأ عهد لها من العزلة الاقتصادية. لذا قامت كامورا بفتح قنوات التفاوض مع وزارة الدفاع الأرجنتينية، لتصبح القِمع الذي تدفقت من خلاله أسلحة ما كان لأحد آخر أن يبيعها إياها بشكل رسمي. لقد هيأت الجماعات نفسها لحرب طويلة، لكن ما حدث هو أن القتال الذي اندلع في آذار، انتهى بنهاية شهر حزيران. اقتصرت الحرب على بضع طلقات، وبضعة قتلى، وبضع صفقات. حرب إستفاد منها السياسيون أكثر مما استفاد رجال الأعمال، وبالتالي فإنها خدمت الناحية الدبلوماسية أكثر منها الاقتصادية. لم يكن منطقياً لجماعات كاسيرتا أن يبيع أفرادها مخزونهم من الأسلحة بثمن بخس فقط كي يحصلوا على أرباح فورية. في اليوم نفسه الذي أعلن فيه انتهاء الأعمال العدائية بين البلدين بشكل رسمي، تعقبت وكالة الاستخبارات البريطانية محادثة هاتفية عبر القارات بين الأرجنتين وسان شيبريانو دافيرسا. وكانت عبارة عن جملتين فقط، لكنهما كافيتان لفهم قوة عوائل كاسيرتا وإمكانياتها الدبلوماسية.

- ألو؟

- ألو.
- لقد انتهت الحرب هنا، ما الذي يتوجب علينا فعله الآن؟
- لا تقلق، سيكون هناك واحدة أخرى.

تتطلب حكمة إدارة القوة، الصبر الذي كثيراً ما يفتقر إليه أفضل رجال الأعمال. ففي عام 1977 فاوضت جماعة كاسالسي على شراء بعض الدبابات، وقد أبلغت وكالة الاستخبارات الإيطالية أن دبابة ليوبارد مفككة عثر عليها في محطة القطار في فيلا ليتيرنو، وكانت جاهزة لعملية الشحن. تتعامل كامورا بدبابات ليوبارد منذ زمن بعيد. ففي عام 1986 كشفت محادثة تم تسجيلها عن مفاوضات أجرتها جماعة نوفوليتا لشراء دبابات ليوبارد من ألمانيا الشرقية. وحتى خلال الانقلابات في القيادة التي حصلت، ظلت جماعة كاسالسي هي المرجع الدولي في هذا الأمر للجماعات وكذلك لجيوش بأكملها. وقد أشار تقرير صادر في عام 1994 عن وكالة الاستخبارات العسكرية والأمنية الإيطالية SISMI، ومركز التجسس المضاد في فيرونا، إلى أن زيلجكو رازناتوفيتش، الشهير بأركان، كان على اتصال بساندوكان سكيافوني، زعيم جماعة كاسالسي. وأركان الذي عثر عليه قتيلاً في فندق في بلغراد عام 2000، كان أحد أعتى مجرمي الحرب الصربيين، وهو مؤسس حرس الصرب الطوعي، وهي الجماعة القومية التي أبادت القرى المسلمة في البوسنة عن بكرة أبيها. لقد كوّن الطرفان حلفاً، فأركان يطلب السلاح لأجل مقاتليه، وفوق كل شيء يطلبه ليكون لديه إمكانية المراوغة على الحظر الذي فرض على صربيا بسبب طريقة استجلاب رؤوس المال والأسلحة التي كانت تأتي بصورة مقنّعة عبر المساعدات الإنسانية من مشافي المخيمات، والأدوية، والإمدادات الطبية. ووفقاً لوكالة SISMI، فإن صربيا قد دفعت في

الواقع ثمناً للمؤونة التي زودت بها، والتي تقدر بعشرات الملايين من الدولارات، من حسابات مصرفية في النمسا تحوي 85 مليون دولار. ومن ثم تم تسليم المال إلى وحدة متحالفة مع جماعات في صربيا وكامبانيا، قامت بشراء البضائع التي ستقدم كمساعدات إنسانية من الشركات المهتمة بالأمر، وسددت الثمن من مال مكتسب أصلاً عن طريق نشاطات غير شرعية. وهنا يجيء دور جماعات كسالسي، فقد أفسحت المجال أمام عملية غسيل الأموال عن طريق الشركات، والنقل، والبضائع. وفقاً للتقارير، فقد طلب أركان عن طريق وسطائه إلى جماعة كسالسي إسكات المافيا الألبانية التي كان يمكن لها أن تحطم حربه المالية بأن تهاجمه من الجنوب فتعيق تجارة السلاح. فما كان من آل كسالسي إلا أن أشبعوا حلفاءهم الألبان بالأسلحة، متيحين بذلك لأركان فرصة حرب هادئة. بالمقابل قام رجال الأعمال في الجماعة بشراء الشركات، والمتاجر، والمزارع بأسعار مؤاتية. فانتشرت الحركة الاستثمارية الإيطالية على طول صربيا. وقبل دخوله أي معركة، كان أركان يتصل بكامورا. فمن أميركا الجنوبية إلى البلقان، تجري الحروب باستخدامها لأسلحة عوائل كامبانيا.

مكتبة الرمحي أحمد ٩٦

الإسمنت

لقد أمضيت فترة طويلة بعيداً عن كازال دي برينشيبه. إن كانت اليابان عاصمة الفنون الحربية، وأستراليا عاصمة ركوب الأمواج، وسييرا ليون عاصمة الألماس، فإن كازال دي برينشيبه هي عاصمة قوة كامورا الاستثمارية. أن تكون من كازال فذلك يعطيك نوعاً من ضمانة الحصانة في أرجاء نابولي وكاسيرتا. إنه يعني أنك عظيم بوجودك، وكأنك انبعثت مباشرة من قلب وحشية منظمات كاسيرتا الإجرامية. إنك تتمتع باحترام مضمون، من النوع الذي يشبه الخوف الفطري. حتى بينيتو موسوليني أراد أن يزيل عنها هذه الوصمة، هذه العلامة المميزة الإجرامية، فقام بإعادة تعميد سان شيبريانو دافيرسا، وكازال دي برينشيبه ليعطيهما اسم ألبانوفا أي الفجر الجديد. وليفتتح بزوغ فجر العدالة الجديد، فقد أرسل عشرات الجنود ليحلوا المشكلة بالحديد والنار. واليوم، الأثر الوحيد الذي بقي من اسم ألبانوفا هو محطة القطار العتيقة التي يعلوها الصدأ في كاسال.

يمضي بعض الشبان ساعات وهم يلكمون أكياس الملاكمة، أو ويؤدون تمارين الضغط لينحتوا عضلاتهم الصدرية، أو يتناولون مقويات لعضلاتهم. لكن بالنسبة إلى الآخرين، تكفي لكنة أو إيماءة معينة كي تعيد إلى الحياة ذكرى كل تلك الجثث الملقاة على الأرض، والمغطاة بالملاءات. هناك قول قديم يعبر بصورة ممتازة عن المقابل المميت لأسطورة العنف في هذا المكان ألا وهو: "إنك تتحول إلى

كاموري، لكنك تولد كسالسياً" حين تخوض جدالاً مع أحدهم، فإنك ترمقه بنظرات تستعر تحدياً، وفي الثانية التي تسبق اللكم أو الطعن تلقي إليه بفلسفتك في الحياة: "الحياة أو الموت، كلاهما سيان بالنسبة إليَّ!" هناك أوقات يصبح فيها لجذورك ولموطنك منفعة، فأن ترتبط صورتك ذهنياً بالعنف فهو أمر يمكن أن يضفي عليك رونقاً خاصاً. فبإمكانك استخدامه كوسيلة ترهيب مبطنة لتحصل على حسم في شباك تذاكر السينما أو على رصيد دائن من فتاة رعديدة تعمل في إحدى نقاط البيع في السوبرماركت. إلا أن الواقع أيضاً هو أن موطنك يرهقك من كثرة ما يواجهك من تحامل، فأنت لا ترغب على الدوام بأن تقف هناك شارحاً للآخرين أن ليس الكل أعضاء في الجماعة، ولا الجميع بمجرمين، وأن الكاموريين هم بالفعل أقلية. لذا فإنك تذكر اسم بلدة مجاورة مرادفة لموطنك، إلا أنها تلغي وجود أي اتصال بينك وبين المجرمين. فسيكونديغليانو تصبح نابولي بصورة عامة، وتتحول كازال دي برينشيبه إلى أفيرسا أو كاسيرتا. وتتأرجح أنت بين حالين، فإما أنك خجل، أو أنك فخور بأصولك، ويعتمد ذلك على الموقف واللحظة. تماماً كالبزة، في ما عدا تغيير طفيف، وهو أن البزة هي التي تقرر متى ترتديك.

بالمقارنة مع كازال دي برينشيبه، تصبح كورليون كديزني لاند. فكازال دي برينشيبه، وسان شيبريانو دافيرسا، وكاسابيسينا يقطنها حوالى مئة ألف نسمة، إلا أن ألفاً ومئتين منهم تلقوا أحكاماً لصلاتهم مع المافيا. وإن رقماً أكبر من ذلك بكثير ممن اتهموا أو أدينوا بتقديم الدعم أو المعونة في نشاطات المافيا. فمنذ أزمان سحيقة تحملت هذه المنطقة عبء وجود كامورا، فأضحت على شكل طبقة متوسطة يسودها العنف وتقودها جماعتها الدموية المسيطرة. جماعة كسالسي، التي تستمد اسمها من منطقة كازال دي برينشيبه، هي اتحاد

كونفدرالي لجميع عوائل كامورا في منطقة كاسيرتا: كاستيلفولتورنو، وفيلا ليتيرنو، وغريسيغنانو، وسان تامارو، وسيسا، وفيلا دي بريانو، وموندراغون، وكارينولا، ومارشيانيز، وسان نيكولا لا سترادا، وكالفي ريسورتا، ولوشيانو، وعشرات من البلدات الأخرى. مؤسس جماعة كسالسي أنتونيو بارديلينو، كان الأول في إيطاليا الذي استطاع أن يدرك أن الكوكايين سيتفوق على الهيروين على المدى الطويل. ومع ذلك استمر الهيروين بتصدّر لائحة بضائع كوسا نوسترا الأساسية، إلى جانب العديد من عوائل كامورا. وفي الثمانينيات كان مدمنو الهيروين يعدّون مناجم ذهب حقيقية، بينما كان الكوكايين يعتبر مخدراً للنخبة فقط.

لكن أنتونيو بارديلينو أدرك أنه سيجني الكثير من الأرباح بالترويج لمنتج مخدر لم يكن له تأثير سريع قاتل، وكان في الوقت ذاته أقرب إلى خليط للبرجوازيين منه إلى سم للمنبوذين. لذا فقد أسس شركة استيراد وتصدير أخذت تشحن طحين السمك من جنوب أميركا إلى أفيرسا، وقد أخفى في طياته أطناناً من الكوكايين. كان للهيروين نصيبه أيضاً، إذ حزمت شحناته التي باعها بارديلينو إلى جون غوتي في أميركا، في مصافي تحضير قهوة الإسبريسو. في إحدى المرات، تمكنت فرقة مكافحة مخدرات أميركية من مصادرة سبعة وستين كيلوغراماً من الهيروين، إلا أن هذا لم يكن حدثاً كارثياً بالنسبة إلى زعيم سان سيبيريانو دافيرسا. فبعد الحادثة ببضعة أيام قال في اتصال له مع غوتي: "الآن سنرسل ضعف الكمية، وبطريقة مختلفة" من مستنقعات أفيرسا وُلد اتحاد عرف كيف يقف في وجه كوتولو. ووحشية تلك الحرب التي نشبت بينهما لا زالت محفورة في الشيفرة الوراثية لجماعات كاسيرتا. ففي الثمانينيات تمت إبادة عوائل كوتولو في بضع عمليات يفوق عنفها التصور. آل ديماتيوس، وهم أربع نساء

وأربعة رجال، ذبحوا في بضعة أيام، وكان الفرد الوحيد الذي عفت عنه كسالسي هو صبي في الثامنة من العمر. أفراد عائلة سيميون السبعة قتلوا تقريباً في وقت واحد. في الصباح، كانت العائلة موفورة الصحة والحياة والقوة، لكن بحلول ذلك المساء انقرضت، ذبحت. في آذار من عام 1982، وضعت جماعة كسالسي رشاشاً ميدانياً، من ذاك النوع المستخدم في الخنادق، على هضبة في بونته أنيتشينو، وصرعت أربعة من أعضاء كوتولو.

كان أنتونيو بارديلينو شريكاً مع كوسا نوسترا، وله روابط مع تانو بادالامينتي، وكان صديقاً ودليلاً لتوماسو بوسيتا، وتقاسم معه فيلا في جنوب إفريقيا. وعندما تخلص كورليون من سيطرة بادالامينتي - بوسيتا، حاول أيضاً إزالة بارديلينو من الوجود، لكن دون جدوى. خلال فترة نهوض نوفا كامورا أورغانيساتا (منظمة كامورا الجديدة)، حاول الصقليّون أيضاً القضاء على رفاييل كوتولو، فأرسلوا رجلاً يدعى ميمو برونو على متن العبارة من باليرمو، غير أنه أردي قتيلاً ما إن وطئت قدماه خارج المرفأ. لطالما كانت كوسا نوسترا تكن الاحترام، ونوعاً من الرهبة تجاه الكسالسيين، لكن في عام 2002 قام الأخيرون بقتل رفاييل لوبرانو زعيم بيغناتارو باجيوريه قرب كابوا، وكان ذا روابط قوية بكوسا نوسترا - كون توتو رينا قد انتقاه بنفسه بعناية - فخشي الكثيرون أن يؤدي ذلك إلى نشوء عداء مرير بين الجماعتين. أذكر أنني في تلك الفترة، وفي اليوم التالي على الكمين كنت واقفاً أمام كشك للصحف وسمعت البائع يغمغم متذمراً بمخاوفه لأحد الزبائن:

- إن قدم الصقليون إلى هنا أيضاً ليقاتلوا فلن ننعم بالسلام لثلاث سنوات.

- أي صقليين؟ المافيا؟

- نعم، المافيا.

- علـى الصقليـين أن يركعـوا على ركبهم أمام الكسالسـيين، هذا ما يجب أن يكون.

أحد أكثر التصريحات التي صدمتني للغاية كان ذاك الذي أدلى به كارميني سكيافوني، التائب من جماعة كسالسي، في مقابلة أجريت معه عام 2005. لقد تحدث عن كوسا نوسترا كما لو كانت منظمة مستعبدة من قبل السياسـيين، وهي بالتالي غير قادرة على التفكير في الأعمال أو إدارتها، على عكس كاسيرتا الكامورية. فعلى حد زعم سكيافوني، لقـد أرادت المافيـا بشـكل مـا أن تصبح مناهضـة للحكومة، لكن هذه المسألة لم تكن قضية مرتبطة بالأعمال. فلا وجود لمثل هذا النموذج من العمل مع أو ضد الحكومة، بل كل ما في الأمر هو وجود إقليم تؤدي أعمالك فيه مع/ عبر/ أو دون الحكومة:

"لقـد عشـنا مـع الحكومـة. بالنسبة إلينـا يجـب أن تكون الحكومة موجودة، وبالذات هذه الحكومة. إلا أن فلسفتنا في هذا كانت مختلفة عن الصقليين، فبينما قدم رينا من جزيـرة منعزلـة وتصـرف كراعي غنم عتيـق خرج لتوه من بين الجبال، كنا نحن حقاً قد تجاوزنا هذه الحدود وأردنا أن نـزاول حياتنـا مـع الحكومة. وإن قامـت هيئة حكومية مـا بإعاقـة مشـاريعنا، فإنّـا كنـا لنجد شـخصاً آخر يرضى بمساعدتنا. وإن كانت تلك الهيئة على شكل رجل سياسي فإننـا لـن نصـوت له، وإن كان ذا صفة دسـتورية فسـنجد طريقة لخداعه"

كارمينـي سـكيافوني، ابـن عـم سـاندوكان، كان أول مـن كشـف

الغطاء عن شؤون أعمال جماعة كسالسي. وعندما قرر التعاون مع السلطات، كانت إدانة ابنته جيوزيبينا له على فعلته عنيفة، ومميتة أكثر من حكم بالإعدام. لقد طبعت كلماتها المتقدة على صفحات الجرائد، إذ قالت:

"إنه محتال كبير، وكاذب، ومنافق يبيع إخفاقاته للملأ. إنه وحش. لم يكن يوماً أباً لي، إنني لا أعلم حتى ما هي الكامورا"

رجال أعمال، هكذا يعرّف كاموريّو كاسيرتا بأنفسهم. إنهم جماعة تتألف من أصحاب شركات شعارهم العنف، ومن مديرين قتلة، ومن أصحاب أبنية، ومن ملاك أراضٍ. كل منهم له عصبته المسلحة الخاصة، وتربطهم ببعضهم مصالح اقتصادية مشتركة. إن قوة اتحاد كسالسي تمثلت دوماً في قدرته على التعامل مع كميات كبيرة من المخدرات دون الحاجة إلى إرضاء السوق الداخلية. إذ إنّ له حضوراً قوياً في سوق المخدرات الضخمة في روما، لكن دوره الأكثر أهمية يبرز في بيعه للودائع الكبيرة. تشير أفعال مفوضية مكافحة المافيا في العام 2006 إلى أن كسالسيين كانوا يمدون عوائل باليرمو بالمخدرات. وتحالفاتهم مع الجماعات النيجيرية والألبانية عنت أنهم غير مضطرين بعد الآن إلى التورط بشكل مباشر في عمليات المتاجرة وتوزيع المخدرات. لقد تحررت جماعة كسالسي من النشاطات الإجرامية وضيعة المستوى من خلال معاهدات أجرتها مع جماعات في لاغوس وبينين، وتحالفات مع عوائل المافيا في بريستينا وتيرانا، واتفاقات مع المافيا الأوكرانية في ليوبوليس وكييف. في الوقت ذاته، تلقت جماعة كسالسي معاملة خاصة في مضمار الاستثمارات في دول أوروبا الشرقية، وفي صفقات شراء الكوكايين من تجار دوليين كانت قاعدتهم في نيجيريا. لقد حدثت الحروب الجديدة جميعها، وظهر القادة الجدد كلهم إثر

ازدهار جماعة بارديلينو، التي هي أصل قوة كامورا الاستثمارية في هذه المنطقة. أنتونيو بارديلينو، وبعد أن وصل إلى الهيمنة المطلقة على كل القطاعات الاقتصادية المشروعة وغير المشروعة، بدءاً من المتاجرة بالمخدرات، وصولاً إلى الإنشاءات، استقر في سانتو دومينغو مع أسرته الجديدة. وأطلق على أبنائه الكاريبيين الأسماء ذاتها التي حملها أبناؤه في سان سيبيريانو، وكانت طريقته البسيطة والسهلة في تجنب الإرباك. وقد ترك لجام السيطرة في مسقط رأسه، بيد أكثر رجاله ولاء ووفاء. وكونهم قد خرجوا من الحرب مع كوتولو سالمين، فقد طوروا الشركات ووطدوا نفوذهم، متوسعين في كل مكان في شمالي إيطاليا وخارجها. أما ورؤساء اتحاد كسالسي الكونفدرالي فكانوا: ماريو إيوفيني، وفينسينزو دي فالكون، وفرانسيسكو ساندوكان سكيافوني، وفرانسيسكو سيتشيوتو دي ميزانوته بيدوغنيتي، وفينسينزو زاغاريا. في أوائل الثمانينيات، ترأس سيتشيوتو دي ميزانوته وساندوكان العمليات العسكرية للجماعة، غير أنهما في الوقت ذاته كانا رجلي أعمال لهما مصالح واسعة الانتشار، وكانا قادرين على التحكم بوحش الاتحاد المهول، والمتعدد الرؤوس. لقد وجدا أن الزعيم ماريو إيوفيني كان مقرباً أكثر من اللازم إلى بارديلينو، لكنه لم يوافقهما بأي حال على رغبتهما بالاستقلالية. لذا ابتكرا استراتيجية غامضة لكنها فعالة سياسياً. لقد وظفا الطبيعة العدوانية لدبلوماسية كامورا في الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تتيح لهما الوصولَ إلى أهدافهما، ألا وهي: إشعال فتيل حرب داخلية.

كما يروي بينتيتو كارميني سكيافوني، فقد استحث الزعيمان أنتونيو بارديلينو على العودة إلى إيطاليا وتصفية أخ ماريو، ميمي إيوفيني. كان ميمي يملك مصنعاً للمفروشات ولم يكن بصورة رسمية على علاقة بكامورا. لكن الزعيمين ادعيا أنه كثيراً ما كان يقوم بدور مخبر لدى

الشـرطة. وليقنعـا بارديلينـو بزعمهمـا، ادعيـا أنه حتى ماريو نفسـه كان على اسـتعداد للتضحية بأخيه في سـبيل الحفاظ على سـيطرة الجماعة على أسس ثابتة. لقد انجرف بارديلينو مع ادعاءاتهما ودبر مقتل ميمي بينما كان متوجهاً إلى العمل في مصنعه. وتماماً بعد ذلك الكمين اتّجه سيتشـيوتو دي ميزانوتـه وسـاندوكان إلـى ماريـو إيوفينـي ليضغطا عليه ليقوم بتصفية بارديلينو الذي تجرأ على قتل أخيه متذرعاً بالشـائعات. كانت تلك خدعة ذات وجهين، الغرض منها إثارة أحدهما ضد الآخر. ثـم بـدأوا بتنظيـم الأمور. جميع ورثة بارديلينـو اتفقوا على إزالة زعيم الزعماء، وهو الرجل الذي استطاع أكثر من أي شخص آخر في كامبانيا أن يؤسـس نظاماً واسـع النفوذ للأعمال والإجرام. لقد أقنعوا بارديلينو بالانتقـال إلـى الفيـلا البرازيليـة التي يملكها حين زعمـوا أن الإنتربول الدولي في إثره. ذهب ماريو إيوفيني ليقابله في البرازيل في عام 1988 بحجة أنهما بحاجة إلى تسوية أمور أعمال طحين السمك والكوكايين، وفي إحدى الأمسيات، حاول إيوفيني الوصول إلى مسدسه المخبأ في سرواله، ولمّا لم يجده، تناول مضرباً وحطم به جمجمة بارديلينو، ثم دفن صاحبه في حفرة في الشـاطئ. وبما أنه لم يعثر على تلك الجثة إطلاقـاً، انبثقـت أسـطورة تقول إن أنتونيـو بارديلينو ما زال بالفعل حياً يرزق، ويسـتمتع بثروته في جزر أميركا الجنوبية. ما إن تمت العملية، حتى اتصل الزعيم هاتفياً مباشرة بفينسينـزو دي فالكو، ليزف إليه النبأ ويعلن بدء المجزرة لجميع رجال بارديلينو. دعي بارايد سالزيللو، ابن أخت بارديلينو ووريثه الحقيقي في المنطقة، إلى قمة جمعت المديرين كافة في اتحاد كسالسـي. ويروي البينتيتو كارميني سـكيافوني تفاصيل مـا حـدث، فيقـول بأنهـم قد أفسـحوا المجـال لسـالزيللو ليجلس عند رأس المائدة، إكراماً واحتراماً لخاله. وفجأة هاجمه سـاندوكان وأطبق بيديه على عنقه، بينما أمسـك ابن عمه، الذي يدعى أيضاً فرانسيسـكو

سكيافوني لكن يعرف باسم سيتشياريلو، ومعه كتيبته المؤلفة من رفاييل ديانا وجوزيبيه كاتيرينو، أمسكوا جميعاً بقدميه وذراعيه. كان يمكن لساندوكان أن يقتله بمسدس أو طعنة سكين في بطنه، كما كان الزعماء القدماء يفعلون. لكن لا! كان لزاماً أن يقتله بيديه. فهذه هي الطريقة التي يقضي بها العاهل الجديد على القديم عندما يغتصب منه العرش. في عام 1345، تم خنق أندرو ملك هنغاريا في أفيرسا، نتيجة مؤامرة تدبرتها زوجته الملكة جوان الأولى مع النبلاء النابوليّين الموالين لتشارلز دوق دورازو الذي كان يطمح للوصول إلى العرش. ومنذ ذلك الحين، أصبحت وسيلة الخنق في هذا المكان رمزاً للخلافة، ورمزاً للانقلاب العنيف للسيادة. لقد كان لزاماً على ساندوكان أن يظهر لجميع الزعماء أنه هو الوريث. وأنه، بفضل الحق الذي يمنحه إياه كل الشر الذي يحمله، هو القائد الجديد لكسالسي.

لقد وضع أنتونيو بارديلينو نظاماً معقداً لبسط النفوذ؛ ولخلايا العمل التي ترعرعت في حضنه، لن تبقى بعد الآن في حدود الهيكلية التي أوصى بها. لقد بلغوا مرحلة من النضج الآن أصبحوا معها بحاجة إلى إظهار نفوذهم دون العودة إلى سلطة عليا تفرض قيوداً وتسلسلاً هرمياً. تلك هي الوسيلة التي أصبح من خلالها ساندوكان سكيافوني قائداً، وكانت بتطويره نظاماً عالي الكفاءة تديره العائلة. فأخوه والتر كان منسق الفرق الضاربة، وابن عمه كارميني أدار الشؤون الاقتصادية والمالية، وابن عم آخر يدعى نيكولا أصبح خازناً للمال. تحركات جميعها مهمة على صعيد تعزيز الذات بشكل محلي، والذي هو أمر حاسم في المراحل الأولية للتأسيس. في السنوات الأولى من حكمه، رسّخ ساندوكان حكمه عبر إنشاء روابط سياسية صارمة. وبسبب نزاع نشأ مع الحزب الديمقراطي القديم، قامت الجماعة في كازال دي برينشيبه عام 1992 بدعم الحزب الليبرالي الإيطالي، الذي شهد نتيجة

لذلك أكبر نهوض في تاريخه، ناهضاً من واحد بالمئة إلى 30 بالمئة. ومع ذلك كان أعضاء الجماعة رفيعو المستوى جميعهم يكنون العداء لقيادة ساندوكان المطلقة، بسبب أعمالهم وتحالفاتهم السياسية، وخاصة آل فالكو، وهم جماعة جعلت الجنود وأفراد الشرطة يقفون في صفها. وفي عام 1990، عقد العديد من الاجتماعات بين قادة كسالسي، وقد دعي فينسينـزو دي فالكو، الملقب باللاجئ، إلى أحد تلك الاجتماعات، وكان ذلك بسبب رغبة الزعماء بالتخلص منه، لكنه لم يظهر. وعوضاً عنه ظهرت الشـرطة لتعتقل جميع الضيوف. قتل فينسـينـزو دي فالكو في عام 1991، في سيارته بعد أن غربلوا جسده بالرصاص. عثرت عليه الشـرطة وجسـده منحنٍ إلى الأمام وشـريط موسـيقى للمغني دومينيكو موداغنو لا يزال يزعق في سـيارته. بعد موته تضعضع اتحاد كسالسـي الكونفدرالي وأصبح هناك جهتين، فمن جهة كانت العوائل القريبة من سـاندوكان وإيوفيني، أمثال: زاغاريا، وريتشـيا، وبيدوغنيتي، وكاتيرينو، ومـن جهـة أخـرى، العوائل المقربـة من آل فالكو، مثل: كوادرانو، ولا توريه، ولويز، وسـالزيللو. وكردٍ على قتل اللاجئ، فقد قتل آل فالكو ماريـو إيوفينـي فـي كاسـكايس فـي البرتغـال، عـام 1991، وذلـك بأن أمطـروه بوابـل مـن الرصاص في أحد أكشـاك الهاتف. عملية الاغتيال هذه أعطت الضوء الأخضر لساندوكان سكيافوني، ليشن حرباً لا هوادة فيها استمرت أربع سنوات. أربع سنوات من الحروب والمجازر والقتل المتواصل، بين العوائل المناصرة لسـكيافوني، والعوائل المناصرة لآل فالكو. كانت سـنوات من الثورات، والتحالفات، وتغيير في الولاءات. وفـي النهايـة، لـم يكـن هناك حـل حقيقي جذري، بل تقسـيم للأقاليم والنفـوذ. وتحـول سـاندوكان إلـى رمـز لانتصـار اتحاده علـى العوائل الأخـرى. وفـي مـا بعـد، انقلب جميع أعدائه إلى حلفـاء. وأصبح كل من الميادين التالية: الإسـمنت، والمخدرات، والمشـاريع غير القانونية،

والنقل، وإدارة النفايات، والاحتكار التجاري، وبعض الموردين بعينهم، كلها أصبحت إقليماً لشركة كسالسية تحت إمرة ساندوكان.

أضحى مصنعو الإسمنت سلاحاً حاسماً بيد الجماعات الكسالسية، فكانت كل شركة إنشاءات تعتمد عليهم للحصول على الإسمنت. ونظام التزويد هذا أمر أساسي لجعل الجماعات على تواصل مستمر مع جميع متعهدي الإنشاءات في المنطقة، ولربطهم بكل صفقة يمكن أن تبرم. كثيراً ما كرر كارميني سكيافوني ادعاءه بأن مصنعي الإسمنت في الجماعة كانوا يقدمون عروضهم بأسعار ملائمة، وذلك لأن سفنهم كانت تحوي في داخلها ليس الإسمنت فحسب، بل أيضاً أسلحة توزعها على دول الشرق الأوسط المفروض عليها الحظر. هذا المستوى الثاني من التعامل التجاري أتاح لهم أن يضربوا التسعيرة القانونية. لقد جنى أفراد جماعات كسالسي المال بهذه الطريقة مع كل خطوة، إذ كانوا يقدمون الإسمنت والمقاولين الفرعيين، ويتلقون الرشاوى الضخمة على الصفقات الكبرى. وهذه الرشاوى كانت في الواقع مجرد البداية، بما أن شركاتهم الفعالة والمقتصدة لم تكن تعمل إلا لصالحهم، وما من شركة أخرى كانت لتقوم بالعمل بسعر جيد دون أن تعاقبها الجماعة. عائلة سكيافوني تتولى دورة لرأس المال تصل إلى 5 مليارات يورو سنوياً، أما الإمكانيات الاقتصادية لاتحاد كسالسي بمجمله، فتصل إلى قرابة الثلاثين مليار يورو، والتي تتضمن: ممتلكات عقارية، ومزارع، وسيولة نقدية، وشركات بناء، ومعامل تكرير للسكر، ومصانع إسمنت، والمراباة، والإتجار بالمخدرات والسلاح. لقد أضحت كسالسي كامورا شركة متعددة الأغراض، وأكثر شركة موثوقة ويمكن الاعتماد عليها في كامبانيا، بالإضافة إلى مشاركتها الأساسية في مدى واسع من النشاطات في مجال الأعمال. وكثيراً ما كان يقود رأس مالها المتراكم بشكل غير مشروع، إلى تقديم الدعم

المالي على شكل رصيد دائن، مما يتيح الفرصة لشركاتها بأن تسحق أي منافسة، إما عن طريق أسعارها المنخفضة، أو عن طريق الترهيب. لقد حولت الطبقة المتوسطة الجديدة في كسالسي الكامورية عملية الابتزاز إلى نوع من الخدمة الإضافية، جاعلة منها مهنة وإسهاماً في أعمال كامورا. قد تكون تلك الدفعات الشهرية لأفراد الجماعة تعني ببساطة مجرد إعطائهم المال لأجل عملياتهم، لكنها أيضاً قد تحمل في طياتها حماية اقتصادية مع البنوك، ووصولاً لشاحناتك في الوقت المحدد، واحتراماً لمندوبي المبيعات الخاصين بك. فالابتزاز أضحى اكتساباً لخدمات تُفرض عليك فرضاً. هذه المهنة الجديدة ظهر مفهومها إلى النور جراء تحقيق أجرته شرطة كاسيرتا في عام 2004، والذي انتهى باعتقال ثمانية عشر شخصاً. فرانسيسكو ساندوكان سكيافوني، وميشيل زاغاريا، وجماعة موتشيا، كانوا هم أهم حاملي أسهم كامبانيا في شركتي سيريو(*) وبارمالات(**). لقد استولى الحليب الذي وزعته سيريو بداية ومن ثم بارمالات، على 90 بالمئة من السوق في منطقة كاسيرتا، وجزء كبير من منطقة نابولي، ولازيو الجنوبية بأكملها، وأجزاء من مارشيه، وأبروزو، ولوكانيا. لقد توصلت الشركات إلى هذه النتيجة عبر تحالفاتها الوثيقة مع كسالسي كامورا، وعبر الرشاوى التي تدفعها إلى الجماعات لتحافظ على مكانتها المتفوقة.

وهذا يشمل العديد من العلامات التجارية، وجميعها كانت مرتبطة بيورولات (EUROLAT)(***)، والتي انتقلت في العام 1999 من سيريو، تحت إدارة كراغنوتي، إلى بارمالات، ليديرها كاليستو

(*) سيريو - Cirio: شركة أغذية إيطالية. (المترجمة العربية).

(**) بارمالات - Parmalat: شركة ألبان إيطالية. (المترجمة العربية).

(***) يورولات - Euorolat: هي عبارة عن كتلة مؤلفة من 120 برلمانياً من أوروبا وأميركا اللاتينية، أسست في عام 2006 لدعم مختلف العلاقات الثنائية بينهما. (المترجمة إلى العربية).

تانزي في ما بعد.

لقد أمر القضاة باعتقال ثلاثة من أصحاب الامتيازات، وأصحاب العديد من الشركات ذات العلاقة بتوزيع وبيع الحليب، وكانت التهم الموجهة للجميع هي الانقياد لكسالسي كامورا. فشركات الحليب كانت مسجلة بأسماء مزيفة لمصلحة الكسالسيين. لقد تعاملت سيريو وبارمالات بشكل مباشر مع صهر ميشيل زاغاريا، وهو الوصي على جماعة كسالسي الذي أمضى عقداً من الزمن في المخبأ، وذلك لكي تحرز منزلة الزبون الاستثنائي، وقد فازت بها فعلاً من خلال الصفقات التجارية. لقد أعطت ماركتا سيريو وبارمالات موزعيها حسومات خاصة تراوحت بين 4 إلى 5.6 بالمئة، عوضاً عن الثلاثة بالمئة المعتادة، بالإضافة إلى جوائز إنتاجية متنوعة، وبالتالي تلقى أيضاً كل من تجار التجزئة، ومحال السوبرماركت تخفيضاً في الأسعار. وهكذا حققت كسالسي إذعاناً واسع الانتشار لسيطرتها التجارية. وفي الأماكن التي لم يُجدِ فيها الإقناع بالوسائل السلمية، وتبيان المصالح المشتركة، أدى العنف إلى النتيجة المطلوبة، عن طريق التهديدات والابتزاز، وتحطيم عربات النقل. فكانوا يوسعون سائقي منافسيهم ضرباً، وينهبون شاحناتهم، ويحرقون مخازنهم. لقد عمّ الرعب لدرجة أنه في المناطق التي تحكمها الجماعات، كان من المستحيل ليس التوزيع فحسب، بل حتى مجرد العثور على شخص لديه استعداد أن يبيع علامات تجارية غير تلك التي تفرضها كسالسي. وفي نهاية المطاف كان المستهلكون يدفعون الثمن. ففي حالة الاحتكار، والسوق المتجمدة، تصبح أسعار التجزئة خارج نطاق السيطرة نظراً لانعدام المنافسة الحقيقية.

أبصرت الصفقة الكبرى بين شركات الحليب الوطنية وكامورا النور في خريف عام 2000، عندما بدأ عضو كسالسي كوونو لاتييرو بالتعاون مع القانون، ومناقشة القيود التجارية المفروضة على الجماعة.

إن حلم كل مشروع ضخم هو الحصول على ضمانات مصرفية، ويتم تحقيق ذلك عبر آلية تعد من أكثر الوسائل مباشرة وهي ضمان معدل مبيعات ثابت. وبناء على هذا السيناريو، أضحت شركتا سيريو، وبارمالات هما الطرفين المتضررين كونهما وقعتا ضحية الابتزاز. لكن المحققين أصبحوا مقتنعين بأن الأجواء كانت مسترخية نسبياً، وأن سلوك كل من الشركات الوطنية والكامورية المحلية كان يؤدي إلى منفعة متبادلة.

سيريو وبارمالانت لم ترفعا الشكاوى يوماً لتعبرا عن معاناتهما من تدخل الجماعة في كامبانيا. ولا حتى في عام 1998، حين وقع أحد موظفي سيريو ضحية هجوم شُنَّ عليه في منزله قرب كاسيرتا، وتعرض فيه إلى ضرب مبرح بالعصا وأمام زوجته وابنته البالغة من العمر تسع سنوات، وذلك لأنه لم يطع أوامر الجماعة. لم تحدث ثورة على إثرها، ولم توجه أي ادعاءات. يقينية الاحتكار، خير من حال السوق غير الموثوقة. هذه الأموال المستخدمة للحفاظ على الاحتكار والاستيلاء على سوق كامبانيا، توجّب تبريرها في أوراق موازنة الشركة. لكن هذا الأمر لم يكن بمشكلة في بلد التمويل المبدع، وتشريع الحسابات الزائفة. فالحل كان في فواتير زائفة، وضمانات زائفة، ومكافآت في نهاية السنة على مبيعات الحليب، وجميعها كانت كفيلة بحل أي مشاكل تطرأ بخصوص دفاتر الحسابات. لوضع نهاية لكل هذا، تم صرف الأموال منذ عام 1997 على مناسبات لم تحدث: كمهرجان الموزاريلا، وكالحفل الموسيقي في البيازا، وحتى على مأدبة سان تامارو، وعلى الحارس الراعي لفيلا ليتيرنو. وكرمز لتقديرها لموظفيها، قامت سيريو حتى بتمويل بوليسبورتيفا أفراغوليس، وهو نادٍ رياضي يديره أفراد جماعة موتشيا، بالإضافة إلى تمويل شبكة موسيقية شاملة، ومراكز رياضية، ومراكز انتعاش وترفيه، مبرهنين بذلك

على الجانب الاجتماعي النشيط لكسالسي.

لقد نمت قوة الجماعة بشكل تصاعدي في السنوات الأخيرة، ممتدة إلى أوروبا الشرقية: بولاندا، ورومانيا، وهنغاريا. فبولندا كانت المكان الذي ألقي فيه القبض على فرانسيسكو سيتشياريلو سكيافوني، ابن عم ساندوكان، الزعيم القصير البدين ذو الشاربين الضخمين، والشخصية الأساسية في كامورا. لقد كان مطلوباً في عشر جرائم قتل، وثلاث حالات اختطاف، وتسع جرائم شروع بالقتل، والعديد من الانتهاكات للقوانين الخاصة بالأسلحة، والابتزاز. لقد ألقوا القبض عليه بينما كان يتسوق في متجر البقالة مع صديقته الرومانية لويزا بويتز، البالغة من العمر خمسة وعشرين عاماً. لقد كان سيتشياريلو يتجول باسم أنتونيو، وبدا كرجل أعمال إيطالي بسيط في الحادية والخمسين من العمر. لا بد أن صديقته قد استشعرت شيئاً مريباً، عندما اضطرت للقيام برحلة طويلة ومتعرجة في القطار في محاولة للتخلص من أي كلاب بوليسية يمكن أن تقتفي أثرها، ولتنضم إليه في النهاية في كروسنو، قرب كراكاو. لقد تعقبوها عبر ثلاثة حدود، وتبعوها بالسيارة إلى ضواحي المدينة البولندية، ومن ثم أوقفوا سيتشياريلو عند نقطة المحاسبة في السوبرماركت، لقد حلق شاربه، وسوى شعره المجعّد، وخسر من وزنه. لقد انتقل ليعيش في هنغاريا، لكنه استمر بالالتقاء بصديقته في بولندا، حيث مصالحه الكبيرة من مزارع للحيوانات، وشراء للأراضي، وصفقات مع رجال أعمال محليين. لقد ذكر الممثل الإيطالي في المبادرة التعاونية لجنوب شرقي أوروبا من أجل مكافحة الجريمة عبر الحدود، SECI، أن سكيافوني ورجاله قد ذهبوا إلى رومانيا بشكل متكرر، وقاموا هناك بصفقات هامة في الشرق في بارلاد، وفي سينايا في الوسط، وفي كلوج في الغرب، وأيضاً على طول البحر الميت. لقد كان لسيتشياريلو سكيافوني عشيقتان، إحداهما هي

لويزا بويتز، والثانية هي كريستينا كورمانسياو، وهي أيضاً من رومانيا. وعندما انتشر سبب خبر اعتقاله في كازال على أنه "اعتقل بسبب امرأة"، كان ذلك بمثابة صفعة قاسية في وجه الزعيم. بل إن أحد العناوين الرئيسية في إحدى الصحف المحلية بدا وكأنه يهزأ به بقوله: "اعتقال سيتشياريلو مع عشيقته" في الواقع كانت كل من عشيقتيه تلعب دوراً حاسماً، إذ كانت كل منهما مديرة لأعماله، وكانتا تسيّران استثماراته في بولندا ورومانيا. سيتشياريلو سكيافوني كان أحد من آخر زعماء عائلة سكيافوني الذين تم اعتقالهم. فخلال عشرين عاماً من السيطرة والعداوات، وضع كثير من قادة كسالسي ومناصريهم في السجن. جُمعت التحقيقات التي أجريت ضد الاتحاد وفروعه، جميعها معاً في محاكمة سبارتاكوس، وقد سميت كذلك على اسم المقاتل الروماني (gladiator) المتمرد الذي قام بأعظم عصيان مسلح شهدته روما على الإطلاق، وشهدته هذه الأرض نفسها.

لقد ذهبت إلى قاعة المحكمة في سانتا ماريا كابوا فينير يوم إصدار الحكم. وتوقعت وجود أطقم للتصوير التلفزيوني، ومصورين فوتوغرافيين، لكن كان هناك القليل منهم فحسب، ومن ممثلي الصحف والمخطات التلفزيونية المحلية فقط. غير أن أفراد الشرطة والجنود كانوا منتشرين في كل مكان، وُجد قرابة المئتين منهم. وكانت طائرتان مروحيتان تحومان على ارتفاع منخفض فوق قاعة المحكمة، وصوت مراوحها يصمّ آذان الجميع. وأيضاً كان هناك كلاب كشف القنابل، وعربات للشرطة. كانت الأجواء في غاية التوتر، ومع ذلك فإن الصحافة الوطنية وأطقم التصوير التلفزيوني كانت غائبة. كانت وسائل الإعلام تتجاهل كلياً أكبر محاكمة لاتحاد إجرامي على الإطلاق، إن كان على صعيد عدد المتهمين، أو على صعيد الإدانات المطالب بها. يشير الخبراء إلى محاكمة سبارتاكوس بالرقم 3615، وهو الرقم

المعطى للتحقيق في السجل العام، مع ما يقارب 1300 تحقيق أجراها مكتب DDA والتي بدأت منذ عام 1993، وكانت تنبع جميعها من الشهادة التي أدلى بها كارميني سكيافوني.

استمرت المحاكمة سبع سنوات وواحد وعشرين يوماً، بجلسات استماع يصل مجموعها إلى 626 جلسة. كانت أكثر محاكمات المافيا تعقيداً في إيطاليا في الأعوام الخمسين الماضية. خمسمئة شاهد وقفوا على منصة الشهادة، بالإضافة إلى أربعة وعشرين شاهداً حكومياً، وستة منهم كانوا من المدعى عليهم، وتسعون ملفاً تضمّنت: وصفاً لأفعال، ولأحكاماً من محاكمات أخرى، ووثائق، وتسجيلات. وبعد مضي عام تقريباً على حملة عام 1995، ابتدأت كذلك تحقيقات كانت هي نتاج محاكمة سبارتاكوس: مثل سبارتاكوس 2 وريجي لاغني، وكانت متعلقة بتجديد قنوات بوربون، التي لم يتم ترميمها مطلقاً بشكل لائق منذ القرن الثامن عشر. وبحسب ما توصلت إليه التحقيقات، فإن الجماعات قد قادت مشروع الترميم لسنوات، مبرمةً بذلك عقوداً بالملايين. وعوضاً عن تسخير تلك الأموال في ترميم القنوات، فقد وجهتها الجماعات إلى أعمالها الإنشائية، التي لمعت بالنتيجة بنجاح منقطع النظير في جميع أنحاء إيطاليا. كذلك كانت هناك محاكمة آيما، المتعلقة بالسلع المغشوشة في مراكز التجميع الشهيرة، حيث المكان الذي كان المجتمع الأوروبي يتلف فيه الفائض من إنتاج الفواكه، مزوّداً المزارعين بعدها بإعانات مالية. في تلك المراكز، كانت الجماعات بدورها، تضع النفايات، والحديد، ونفايات عمليات البناء، داخل العربات الضخمة المخصصة للفواكه، والتي كان أصحابها يتقاضون، كما كان واضحاً، الإعانات المالية، وكانت الفاكهة المنتجة من أراضيهم تباع باستمرار. لقد صدر مئة وواحد وثلاثون أمراً بوضع اليد على شركات، وأراض، ومشاريع زراعية تعادل قيمتها مئات الملايين من اليورو. حتى إن نادين

لكرة القدم تمت مصادرتهما، وهما: ألبانوفا، الذي دخل في منافسات بطولة C2، ونادي كازال دي برينشيبه.

كما بحثت التحقيقات في إصرار الجماعات على أن تذهب عقود الأشغال العامة إلى شركات مختصّة بعمليات التنقيب في الأرض بالآليات الخاصة بها. وبحثت في حالات الخداع التي سببت الأذى للمجتمع الاقتصادي الأوروبي EEC، وبشكل خاص تلك المتعلقة بالهبات التي حصّلها أفرادها بشكل غير مشروع في القطاع الزراعي - الغذائي. كما بحثت في المئات من جرائم القتل، وفي العلاقات التجارية. بينما كنت أنتظر الحكم مع الجميع، خطر لي أن هذه لم تكن مجرد محاكمة أخرى، ولا مجرد مقاضاة بسيطة عادية لعوائل كامورا في جنوبي إيطاليا. لقد تراءت لي أقرب إلى محاكمة تاريخ، نورينبيرغ(*) لجيل كامل من كامورا. لكن على عكس ضباط الرايخ ذوي الرتب العالية، كان الكثير من الكاموريين المتواجدين هنا لا يزالون في مراكز القيادة، وعلى رأس إمبراطورياتهم، نورينبيرغ دون منتصرين. كان المتهمون في الأقفاص، وقد خيم عليهم الصمت، كأن "على رؤوسهم الطير أما ساندوكان فكانت صورته تنقل على شاشة عبر تصوير متلفز حي من سجن فيتيربو، إذ كانت لتكون مخاطرة كبيرة محاولة نقله لحضور المحاكمة. الصوت الوحيد المنبعث في قاعة المحكمة كان للمحامين، فقد شارك ما ينوف على العشرين مؤسسة قانونية، وعكف أكثر من خمسين محامياً ومعاوناً لهم على الدراسة، والتعقب، والتمحيص، والدفاع. أما أقرباء المتهمين فكانوا يربضون في غرفة صغيرة مجاورة، وأعينهم مثبتة على الشاشات. ساد الصمت في القاعة عندما أمسك رئيس المحكمة، كاتيلو مارانو، حكم

(*) نورينبيرغ: مدينة في بافاريا الألمانية، أجريت فيها محاكمات لأعوان هتلر، والنازيين، ومجرمي الحرب الألمان. (المترجمة إلى العربية).

المحلفين المؤلف من ثلاثين صفحة. كان صمتاً عصيباً، تنبعث فيه جوقة من الأصوات القلقة لأنفاس ثقيلة، ولمئات من الحناجر التي تزدرد ريقها، ولعقارب الساعات التي تدق، ولعشرات الهواتف النقالة التي ما فتئت ترتج بصمت. قرأ الرئيس قائمة الذين تم تجريمهم بداية، ثم قائمة الذين تمت تبرئتهم. واحد وعشرون حكماً مؤبداً، أي أكثر من 750 عاماً في السجن. إحدى وعشرون مرة كرر الرئيس الحكم بالسجن مدى الحياة، مكرراً أيضاً اسم المدانين عدة مرات. ولأكثر من سبعين مرة، قام بقراءة السنوات التي سيقضيها الرجال الآخرون من مديرين وشركاء، في السجن نتيجة لتحالفهم مع قوة كسالسي الرهيبة. مع حلول الساعة الواحدة والنصف، كان كل شيء قد شارف على الانتهاء. وإذ بساندوكان يطلب الكلام. لقد كان مهتاجاً وأراد أن يرد على الحكم الذي تلقاه، ليكرّر مزاعم محامي الدفاع في مرافعته، وهي أنه رجل أعمال ناجح، غير أن مؤامرة من القضاة الماركسيين الحاقدين اعتبرت الطبقة المتوسطة في المنطقة قوةً إجرامية، أكثر منها نتاج موهبة استثمارية واقتصادية. لقد أراد أن يصرخ بأعلى صوته أن الحكم ظالم. فتبعاً لمنطقه جميع القتلى سقطوا نتيجة عداوات محلية، الأمر الذي كان جزءاً من الثقافة الريفية، وليس نتيجةً لحروب كامورا. لكن هذه المرة، لم يعطَ ساندوكان الإذن بالكلام. وتم إسكاته كتلميذ جامح، فبدأ ساندوكان بالصراخ، لذا أمر القضاة بفصل الصوت. لكن الرجل الضخم الملتحي استمر بالتلوي على الشاشة، إلى أن تم قطع النقل التلفازي أيضاً. ثم فرغت قاعة المحكمة مباشرة، وتبددت جموع الشرطة والجنود شيئاً فشيئاً، في حين حامت المروحية قرب تحصينات المحكمة. قد يبدو الأمر غريباً، لكنني لم أشعر أن ما حدث، قد هزم جماعة كسالسي. كثيرون هم الذين تمّ إلقاؤهم في السجن لبضع سنوات، وبعض الزعماء لن يخرجوا منه أحياء قط. ولعل القليل

منهم سيقررون في النهاية أن يتعاونوا، وبالتالي سيستعيدون جزءاً من وجودهم بعيداً عما وراء القضبان. لا بد أن ثورة ساندوكان العارمة كانت تعبر عن غضب خانق يحس به رجل اعتاد السيطرة، وهو يحمل خريطة إمبراطوريته بأكملها في رأسه، لكنه لا يستطيع التحكم بها بشكل مباشر.

الزعماء الذين يقررون ألا يتعاونوا مع السلطات، يعتاشون على نفوذ غيبي يكاد يكون خيالياً، وهم يفعلون كل ما بوسعهم ليتناسوا رجال الأعمال الذين قاموا هم بدعمهم، وإطلاقهم. فهؤلاء كونهم ليسوا أعضاءً في الجماعة فقد خرجوا دون عواقب. لو أنهم أرادوا لاستطاع الزعماء أن يزجوا بهم في السجن أيضاً، لكن في هذه الحالة عليهم أن يتكلموا أولاً، وهو أمر سيضع نهاية فورية لسلطتهم العليا، ويعرض جميع أفراد عوائلهم للخطر. وعندها سيحل بهم ما هو أكثر مأساوية بالنسبة إلى زعيم، إذ سيبقون غير قادرين على رسم خريطة الطرقات لأموالهم واستثماراتهم المشروعة. وحتى باعترافهم وكشفهم النقاب عن نفوذهم، فهم لن يتمكنوا مطلقاً من التيقن تماماً من المكان الذي آلت إليه أموالهم. الزعماء دوماً يدفعون، ولا يستطيعون القيام بشيء سوى ذلك. إنهم يقتلون، يوجهون فرقهم الضاربة، وإنهم الرابط الأول في سلسلة استخلاص رأس المال غير المشروع. وهذا يعني أن جرائمهم دوماً يمكن تعقبها، على عكس الجرائم الاقتصادية الشفافة التي يقوم بها رجالهم ذوو الياقات البيضاء. أضف إلى أن الرؤساء ليسوا خالدين. فكوتولو أخلى الساحة لبارديلينو، وبارديلينو لساندوكان، وساندوكان لزاغاريا، ولامونيكا للديلاورو، والديلاورو للإسبان، والإسبان الله وحده يعلم لمن سيسلمونها. الحقيقة أن القوة الاقتصادية لتنظيم كامورا تكمن تماماً في انقلابات الرؤساء المتواصلة، والخيارات الإجرامية. فدكتاتورية شخص واحد في إدارة الجماعة قصيرة الأجل دائماً، فلو

أن سيطرة زعيم ما كانت طويلة الأمد، لكان قد رفع الأسعار، وأحدث احتكاراً كان سيؤدي بالتالي إلى صرامة في الأسواق، ولاستثمر بشكل مستمر في قطاعات السوق ذاتها بدلاً من التحري عن قطاعات جديدة. وعوضاً عن أن يصبح قيمة مضافة في الاقتصاد الإجرامي، سيتحول إلى عائق في طريق إنجاز الأعمال. فعلى هذا، ما إن يتسلم زعيم زمام الأمور، حتى يبدأ تشكل الأشخاص أو الهيئات المستعدة لتحل محله، وهم تواقون للتوسع، وللوقوف على أكتاف العملاق الذي ساهموا هم بصنعه. الصحافي ريكاردو أوريوليس، وهو واحد من أكثر مراقبي القوى المحركة للنفوذ دهاءً، يذكر دائماً: "الإجرامية ليست بقوة، بل هي مجرد نوع من أنواع القوة" ولن يكون هناك في يوم من الأيام زعيم يرغب بكرسي في الحكومة. فلو أن الكامورا سيطرت على كل القوى، لما كانت وُجدت أعمالها التي هي جوهرية، لتشكيل مقياس ما هو مشروع وغير مشروع على حدٍّ سواء. وبناء على هذا المفهوم، تضحي كل الاعتقالات والمحاكمات الضخمة وكأنها أقرب إلى أن تكون إحدى وسائل استبدال الرؤساء وتغيير المراحل، أكثر منها كفعل قادر على تحطيم بنية نظام معين للأشياء.

صور الوجوه التي اصطفت جنباً إلى جنب في الصحف في اليوم التالي، والتي كانت لزعماء، ومناصرين، وأعضاء شبان، وحراس ناضجين، لم تكن تمثل حلقة من العنف لمجموعة مجرمين، بل قطعاً من فسيفساء القوة التي لم يتمكن أحد طيلة عشرين عاماً من تجاهلها وتحديها على حدٍّ سواء. بعد محاكمة سبارتاكوس، بدأ الزعماء المسجونون بتوجيه التهديدات، بشكل مبطن أو حتى صريح، للقضاة، والحكام، والصحفيين وكل من اعتبروه مسؤولاً عن تحويل مجموعة من مديري الإسمنت والموزاريلا إلى قتلة في نظر القانون.

لقد كان عضو مجلس الشيوخ السيناتور لورينزو ديانا هو هدفهم

المفضل. فقد بعثوا برسائل إلى الصحف المحلية، ووجهوا تهديدات صريحة في أثناء المحاكمات. وبعد الحكم الذي صدر في محكمة سبارتاكوس مباشرة، ذهب بعض الأشخاص إلى مزرعة لتربية سمك السلمون المرقط يملكها أخ السيناتور، وقاموا ببعثرة الأسماك في كل مكان، وتركوها تتلوى على الأرض لتموت ببطء مختنقة في الهواء. بعض التائبين، البنتيتي، قد أخبر حتى، عن محاولات استهدفت حياة السيناتور، قام بها صقور المنظمة. إلا أن هذه العمليات تم إيقافها عبر تدخل عناصر الجماعة الأكثر دبلوماسية. كما ساعدت المرافقة المسلحة التي منحتها الشرطة، في ثنيهم عن الأمر، لا لأن أفراد الجماعات تهاب السيارات المصفحة أو رجال الشرطة، فالمرافقة المسلحة لم تكن يوماً عقبة في طريقهم، إلا أنها كانت مجرد علامةً، وإشارة منهم إلى أن الرجل المُراد إزالته ليس وحيداً، ولن يستطيعوا بكل سهولة التخلص منه، كما يمكن أن يفعلوا مع فرد عادي لا يهم موته أحداً في شيء سوى دائرة أسرته. لورينزو ديانا هو أحد أولئك السياسيين الذين قرروا أن يكشفوا عن تعقيد قوة كسالسي، عوضاً عن شجب المجرمين بصورة عامة. فقد ولد في سان شيبريانو دافيرسا، وخَبِرَ من المصدر نفسه مباشرة، كيفية نشوء كل من بارديلينو وساندوكان، كما خَبِر العداوات التي نشبت، والمذابح التي حصلت، وكذلك العمليات التجارية. إن باستطاعته التحدث عن تلك القوة أفضل من أي شخص آخر، لذا فالجماعات تخشى معرفته وذاكرته. أفرادها يخشون أن يوقظ اهتمام الإعلام القومي بين دقيقة وأخرى. ويخافون أن يبلّغ السيناتور مفوضية مكافحة المافيا، وذلك ما تتغاضى عن ذكره الصحافة، ضاوين كل شيء تحت ستار الجريمة المحلية. لورينزو ديانا، هو أحد أولئك الرجال القلائل الذين يعلمون أن محاربة قوة الكامورا تستلزم صبراً لا ينتهي. ذاك الصبر الذي يدعك تبدأ من جديد، مرة تلو الأخرى، والذي

يسحب خيوط العقدة الاقتصادية واحداً إثر الآخر، حتى يوصلك إلى رأس الإجرام. سيتم ذلك ببطء، إنما بمثابرة وغضب يعتريانك حتى عندما يضعف انتباهك، وحتى عندما تتراءى لك كل الجهود عقيمة، وحتى عندما تضيع في متاهة القوى الإجرامية التي قد تتبدل إنما لا تنهزم يوماً.

مكتبة الرمحي أحمد ٩٦

مع نهاية المحاكمة، كان هناك خطر وقوع صدام علني بين عائلتي بيدوغنيتي وسكيافوني. فقد كانت هناك بينهما لسنوات مجابهات من خلال الجماعات الاتحادية، إلا أن المصالح المشتركة في العمل لطالما سادت فوق خلافاتهما. تغطي جماعة بيدوغنيتي القسم الشمالي من إقليم كاسيرتا، وتمتد بذلك إلى الساحل. وتملك جماعة ضاربة عظيمة القوة تعرف بوحشيتها التي لا تصدق. ففي إحدى المرات، قام أفرادها بإحراق فرانسيسكو سالفو حياً، عقاباً له لأنه تجرأ على استبدال آلات فيديو للعب البوكر تابعة لبيدوغنيتي، بأخرى تابعة لجماعات من الخصوم، في حانته التي يملكها ويعمل فيها، والتي كانت تدعى تروبيكانا. جماعة ميزانوتي بلغ بها الأمر أن تقذف قنبلة فوسفورية على سيارة غابرييل سبينوسو على طريق نولا - فيلا ليتيرنو. وفي عام 2001، أمر دومينيكو بيدوغنيتي بالتخلص من أنتونيو ماغليولو لأنه تجرأ، رغم أنه متزوج، على محاولة التقرب من قريبة أحد الزعماء. فأخذوه إلى الشاطئ، أوثقوه إلى كرسي بمواجهة البحر، وحشوا فمه وأنفه بالرمال. حاول ماغليولو التنفس، فأخذ يبتلع الرمل ويبصقه، وينفثه من أنفه، ويتقيأ، ويمضغ، ويلوي عنقه في كل اتجاه. وعندما كوّن لعابه المختلط بالرمل نوعاً من الإسمنت البدائي، سببت تلك المادة الغروية اختناقه ببطء. وحشية ميزانوتي هذه متناسبة بشكل مباشر مع نفوذها في مجال الأعمال. فتبعاً لتحقيقات متنوعة أجراها مكتب DDA في نابولي عامي 1993 و2006، قام أفراد البيدوغنيتيون الذين كانوا يعملون في

مجال إدارة النفايات، بصياغة تحالفات مع رجال أعمال من المحفل الماسوني P2 المنحرف. إذ قاموا لأجلهم بالتخلص، وبشكل غير شرعي ومقابل أسعار معينة، من نفايات سامة. غايتانو سيرسي ابن أخت سيتشيوتو دي ميزانوتي، قبض عليه في عملية أديلفا ضد، تجار النفايات غير الشرعيين *ecomafia*، إذ كان صلة الوصل بين كسالسي كامورا والماسونيين. وكثيراً ما التقى بشكل مباشر مع ليتشيو غيللي(*) لأغراض تتعلق بالأعمال. لقد توصل المحققون إلى اكتشاف الصفقات عبر الأرباح التي وصلت إلى ما يزيد على 35 مليون يورو لشركة واحدة فقط. والآن الزعيمان بيدوغنيتي وسكيافوني كلاهما في السجن، ومحكومان مدى الحياة، وكلاهما يمكن له أن يستفيد من إدانة الآخر ليحرر رجاله، في محاولة للتخلص من الجماعة التي تشكل خصماً له ومنافساً. لقد بدا لبرهة أن كل شيء على وشك الانفجار، لتندلع واحدة من تلك الحروب التي ينجم عنها الموتى بالأكوام يومياً.

في صيف عام 2005، توجه الابن الأصغر لساندوكان سكيافوني إلى حفلة في باريته، في الإقليم التابع لبيدوغنيتي. وحسبما ذكر في التحقيق، فقد بدأ بمغازلة إحدى الفتيات على الرغم من أنها كانت برفقة أحدهم. سليل سكيافوني كان دون مرافقة تحميه، معتقداً أن مجرد كونه ابن ساندوكان سيجعله محصناً ضد الاعتداء عليه. لكن الأمور لم تجر كما كان يحسب لها. فقد قامت مجموعة صغيرة بسحبه خارجاً، وانهالوا عليه ضرباً، فصفعوه، ولكموه، وركلوا مؤخرته. لقد اضطر إلى الذهاب إلى المشفى ليخيطوا له فروة رأسه. وفي اليوم التالي، ظهر حوالى الخمسة عشر شاباً على الدراجات نارية وداخل السيارات، ودخلوا مشرب بينيلوبه حيث يتسكع عادة الشبان الذين

(*) غيللي كان سيد البروباغاندا ديو أو P2، أي المجمع الماسوني، والذي كان متورطاً في نشاطات إجرامية. وفي عام 1976، قامت مرجعيات ماسونية بإغلاق ذاك المجمع، وطرد ليتشيو غيلي من المؤسسة الماسونية. (المترجمة إلى العربية).

هاجموا ابن ساندوكان. كانوا مسلحين بمضارب البيسبول، وانهالوا ضرباً على كل ما ومن حولهم، محولين المكان إلى حطام، وكل من كان هناك إلى عجين، غير أنهم لم يتمكنوا من العثور على الشبان المسؤولين عن إهانة ساندوكان، لقد فروا على ما يبدو من مخرج آخر، فما كان من المغاوير إلا أن لاحقوهم إلى مطعم للبيتزا مطلقين النار عليهم، فأصابوا أحد المارة برصاصة في بطنه. رداً على ما حدث، توقفت في اليوم التالي ثلاث دراجات نارية أمام مقهى ماتيوتي في كازال دي برينشيبه، وهو المكان الذي يتسكع فيه عادة أعضاء جماعة سكيافوني الصغار. لقد ترجل سائقو الدراجات عن دراجاتهم ببطء، متيحين الفرصة للمارة بالهرب، ومن ثم بدأوا بسحق كل شيء. تم الإبلاغ عن ما ينوف على الستة عشر شجاراً وحالات طعن بالسكاكين. حينها كانت الأجواء آخذة بالتثاقل، والحرب الجديدة أضحت قريبة الاشتعال.

وزاد الاعتراف غير المتوقع للويجي ديانا الطين بلة. إذ تصاعد التوتر حين أعلن التائب، كما جاء في صحيفة محلية، أن بيدوغنيتي كان مسؤولاً عن الاعتقال الأول لسكيافوني، حين تعاون مع الشرطة كاشفاً مكان اختباء الزعيم في فرنسا. عندها أخذت القوى الضاربة بتجهيز عدتها، وأخذ أفراد الشرطة والجنود يستعدون لرفع الجثث التي ستتكوم. لكن ساندوكان بنفسه هو من أوقف حصول المجزرة عن طريق إرساله برسالة علنية. فعلى الرغم من القوانين المشددة في السجن، تمكن من إرسال رسالة مفتوحة إلى صحيفة محلية، وطبعت في صفحتها الأولى في 21 أيلول من عام 2005. لقد تمكن الزعيم، كأي مدير ناجح، من حل النزاع بأن ناقض ذاك التائب، الذي قُتل أحد أقربائه بعيد ساعات فقط من تصريحه. وجاء في الرسالة:

"لقد ثبت أن الشخص الذي خانني بتسريب المعلومة، وأدى

بالتالي إلى اعتقالي في فرنسا، كان هو كارميني سكيافوني، وليس سيتشيوتو بيدوغنيتي. الحقيقة هي أن ذاك الشخص المدعو بالبينتيتو لويجي ديانا ينطق بالأكاذيب ويريد أن يزرع بذور الشقاق لأجل مكاسبه الشخصية"

كما أوصى ساندوكان رئيس تحرير الصحيفة بنقل الأخبار بشكل مناسب، قائلاً:

"كما أتوسل إليكم ألا تدعو أنفسكم عرضة للاستغلال من قبل ذاك الخائن المرتزق المشبوه، وألاّ تقعوا فريسة خطأ تحويل صحيفتكم إلى خرقة تتاجر بالفضائح والافتراءات، مما سيؤدي حتماً إلى فقدانها مصداقيتها، تماماً كما حدث للصحيفة المنافسة. إنني لم أجدد اشتراكي في تلك الصحيفة، وسيفعل الكثيرون فعلي. فهم، شأني، لن يشتروا صحيفة يتم التلاعب بها إلى هذا الحد"

بهذا يكذّب ساندوكان كل ما ينشر لدى الإعلام المنافس، وينتخب بشكل رسمي، الصحيفة التي أرسل برسالته إليها بصفتها المتحدث الجديد باسمه. ويتابع:

"إنني لن أزعج نفسي حتى بمجرد التعليق على أن الصحيفة منافستكم هي معتادة على الترويج للأكاذيب، فالموقّع أدناه هو كماء آت من النبع، كله شفافية!"

لقد حث ساندوكان رجاله على شراء الصحيفة الجديدة بدلاً من القديمة. فانهالت طلبات الاشتراك الآتية من عشرات السجون عبر إيطاليا، على تلك التي كانت الخيار الجديد للزعيم، وكذلك إلغاء الاشتراك في تلك القديمة، وفي النهاية، ختم الزعيم رسالة السلام بينه وبين بيدوغنيتي كما يلي:

"إن الحياة دائماً تسائلك عما أنت قادر على مواجهته. وبالنسبة إلى أولئك المدعوين بالبنتيتي فقد واجهتهم الحياة بالوحل، مثل

الحيوانات النتنة!"

لم ينهزم اتحاد كسالسي، بل على العكس، لقد بدا وكأنه أُنعش من جديد. فوفقاً للنائب العام في هيئة مكافحة المافيا في نابولي، أضحى الاتحاد محكوماً بزعيمين هما: أنتونيو إيوفيني، الملقب باسم أوينو أي الطفل الرضيع، لأنه أصبح زعيماً في الجماعة وهو لا يزال طفلاً. أما الثاني فهو ميشيل زاغاريا، الزعيم المدير لكاسابيسينا، والملقب باسم كاباستورتا، أي الرأس الملتوي، بسبب عدم الانتظام في تقاسيم وجهه. رغم أنه الآن على ما يبدو، أصبح يدعو نفسه باسم مانيرا. كلا الزعيمين كانا مختبئين لسنوات، وهما على رأس قائمة وزير الداخلية لأكثر الهاربين الإيطاليين خطورة. قد لا يمكن العثور على أثر لهؤلاء الهاربين، إلا أنهم دون شك في بلداتهم التي هي مسقط رأس كل منهم. فما من زعيم يستطيع الابتعاد عن جذوره طويلاً، لأنها أساس قوّته، ومن هناك فقط يمكن لقوّته كلها أن تنهار.

مجرد بضعة أميال، من البلدات الصغيرة، وعقد لأزقة ضيقة، ومزارع تائهة في الريف، ومع ذلك، فمن المستحيل الإمساك بهم. لكنهم هنا، وهم يتحركون على طرقات دولية، إلا أنهم دوماً يرجعون إلى البيت، وهم هنا معظم أيام السنة. الجميع يعلم ذلك، إلاّ أنهم لا يستطيعون الإمساك بهم. فنظام التغطية عندهم غاية في الكفاءة لدرجة تمنع عنهم الاعتقال. عوائلهم وأقرباؤهم بدورهم يستمرون في العيش في الفلل والمساكن التي يملكونها. ففيلا أنتونيو إيوفيني في سان سيبيريانو مبنية على طراز الفن المعاصر، في حين أن مجمع ميشيل زاغاريا الهائل، بين سان سيبيريانو وكاسابيسينا، له قبة زجاجية لتسمح لأشعة الشمس بالوصول إلى شجرة ضخمة تهيمن على غرفة الجلوس. تملك عائلة زاغاريا عشرات من شركات الأقمار الصناعية عبر إيطاليا، بالإضافة إلى أضخم الأعمال المرتبطة بآليات الحفر والبناء

الإيطالية. إنهم الأكثر نفوذاً من الجميع في هذا المجال. إنه تفوق اقتصادي لم يولد من نشاط إجرامي مباشر، بل من القدرة على موازنة رأس المال المباح، مع ذاك المحظور.

لقد تمكنت هذه الشركات من أن تكون على قمة التنافس. إذ لديهم مستعمرات إجرامية في إميليا، وتوسكاني، وأمبريا، وفينيتو، حيث يكون جهاز هيئة مكافحة المافيا هناك أقل صرامة، فيتيح بالتالي فرصة نقل فروع بأكملها من الشركة. في البداية، طالب أفراد كسالسي رجال الأعمال في كامبانيا الذين يعملون في الشمال بإتاوة مقابلاً من أجل حمايتهم، لكنهم الآن باتوا يديرون السوق مباشرة. إنهم يتحكمون بمعظم أعمال البناء حول مودينا وأريزو، مستقدمين القوى العاملة من كاسيرتا بشكل رئيسي.

تكشف التحقيقات الحالية أن شركات الإنشاءات المرتبطة بجماعة كسالسي قد وصلت إلى أعمال القطار السريع TAV، في الشمال كما في الجنوب. أظهر تحقيق أجراه القاضي فرانكو إمبوسيماتو في تموز من عام 1995 أن الشركات الضخمة التي فازت بالمناقصات لفرع نابولي - روما من أعمال TAV، قامت في ما بعد بإجراء عقود فرعية لإنجاز الأعمال مع أديلسود، وهي شركة مرتبطة بميشيل زاغاريا نفسه، بالإضافة إلى ارتباطها مع العشرات من الشركات ذات الصلة مع اتحاد كسالسي. صفقة نجم عنها حوالى 5 مليارات يورو.

تظهر التحقيقات أن جماعة زاغاريا كانت قد وصلت حتى ذلك الحين إلى اتفاق مع كالابريان ندرانيتا حول مشاركة شركتهم في المناقصة، على خلفية أن TAV يُفترض أن تصل بعيداً في الجنوب حتى ريجيو كالابريا. لقد كان الكسالسيون مستعدين للدخول في العمل، كما هم الآن. فبحسب ما توصلت إليه التحقيقات التي أجراها مكتب المدعي العام لمكافحة المافيا في نابولي، فإن كاسابيسينا، أحد

روافد المنظمة، قد وصل إلى سلسلة من مشاريع الأعمال العامة في أُمبريا المتعلقة بإعادة الإعمار بعد زلزال 1997. إذ يمكن لشركات كامورا في منطقة أفيرسا أن تهيمن على كل خطوة من كل عقد ضخم وكل موقع بناء، بما فيها تأجير المعدات، وآليات الحفر والتنقيب في الأرض، ووسائل النقل، والمواد الأولية، والقوى العاملة.

إن الشركات في منطقة أفيرسا دوماً على أهبة الاستعداد للتدخل، فهي في غاية التنظيم، والسرعة، والكفاءة، بالإضافة إلى اقتصاديتها. توجد في كازال دي برينشيبه رسمياً 517 شركة إنشاءات، ينبثق عدد كبير منها مباشرة عن الجماعات. وهناك المئات غيرها في المنطقة، كجيش على أهبة الاستعداد ليصب الإسمنت على أي شيء. لم تحجب الجماعات التطور عن المنطقة، بل إنها أعادت توجيه الأرباح إلى جيبها. فخلال السنوات الخمس الماضية، تم بناء عروش متنوعة من الإسمنت في بضعة أميال مربعة منها: أحد أضخم مجمعات دور السينما في إيطاليا، بني في مارسيانايز، وأضخم مركز تسوق في جنوب إيطاليا، شيد في تيفيرولا، وكذلك أضخم مركز تسوق في أوروبا كلها، أنشئ في مارسيانايز. جميعها شيدت في منطقة تسيطر عليها نسبة عالية جداً من البطالة، لدرجة أن عدد مهاجريها بات كالنزيف الحاد الذي يصعب إيقافه. مجمعات تجارية هائلة، بدلاً من أن نعتبرها "اللامكان"، كما كان سيعرّفها عالم الأعراق مارك أوغه، فإنها تبدو بالأحرى أماكن "بداية" متاجر السوبرماركت حيث تعمّد الأوراق المالية القادمة من كل ما يشترى ويستهلك، تشكّل رأس مالٍ ما كان لولاها ليجد له مصدراً محدداً وشرعياً. إنها أماكن تؤمّن أصولاً مشروعة للمال. كلما ازدادت مراكز التسوق عدداً، كلما ترافق ذلك مع مواقع جديدة للبناء، ومع زيادة في البضائع المتوافدة، كذلك سيزداد عدد المزودين المنخرطين في العمل، ويزداد عدد الشحنات التي تصل، وهكذا تتسارع قدرة

الأموال على عبور الأقاليم غير القانونية التي هي حبيستها، والوصول إلى الأقاليم القانونية.

لقد استفادت الجماعات من التطور البنيوي في المنطقة، وهي على استعداد أيضاً لجني المكافآت المادية. فهم ينتظرون بترقب تدشين مشاريع رائدة كنفق القطار الكهربائي في أفيرسا، وكمطار في غرازانايس الذي سيكون أحد من أكبر المطارات في أوروبا، وكلاهما سيشيدان قرب المزارع التي كانت في أحد الأيام عائدة لسيتشياريللو وساندوكان.

لقد قام الكسالسيون بتوزيع سلعهم عبر المنطقة. الممتلكات العقارية التي صادرتها DDA نابولي وحدها، في السنوات الأخيرة الماضية وصلت قيمتها إلى 750 مليون يورو. قوائم مخيفة كشفت في محاكمة سبارتاكوس وحدها، عن 199 بناءً، و52 ملكية، و14 شركة، و12 سيارة، و3 زوارق، تمت مصادرتها جميعاً. عبر السنين، ووفقاً لمحاكمة جرت في عام 1996، شهد سكيافوني ورجاله المخلصون استيلاءً على ممتلكاتهم يقدّر بنحو 450 مليار يورو: شركات، وفيلات، وأراضٍ، وأبنية، وسيارات بمحركات قوية، من ضمنها الجاكوار التي تم فيها القبض على ساندوكان لأول مرة. مصادرات كان لها أن تدمّر أي شركة، وخسائر كان لها أن تقضي على أي رجل أعمال، وضربات اقتصادية كان من الممكن أن تقلب أي شركة رأساً على عقب، أي شركة كانت، عدا اتحاد كسالسي. في كل مرة أقرأ فيها عن وضع اليد على شيء من الأملاك، وفي كل مرة أرى فيها قوائم بما صادرته DDA من الزعماء أشعر باليأس والإنهاك، فأينما وجهت وجهي يتراءى لي أن كل شيء ملك لهم، كل شيء: الأراضي، والجواميس، والمزارع، والطرائد، والمرائب، ومصانع الألبان، والفنادق، والمطاعم. إنه نوع من السلطة المطلقة لكامورا. لم أستطع أن أجد شيئاً لا يعود إليهم.

هناك رجل أعمال واحد امتلك هذا النفوذ المطلق، أكثر من أي شخص آخر. أصبح يمتلك كل شيء، إنه دانته باساريلي من كازال دي برينشيبه. لقد قبض عليه منذ سنوات خلت لارتباطه بكامورا، واتهم بأنه كان خازن جماعة كسالسي. لقد طالب الادعاء بالحكم عليه ثماني سنوات، فباساريلي لم يكن مجرد واحد من رجال الأعمال الذين لا يحصون والذين قاموا بأعمال مع أو من خلال الجماعة. باساريلي كان رجل الأعمال المميز، كان الأول، والأقرب، والجدير بالثقة أكثر من أي أحد آخر. لقد أدار متجراً لبيع الأطعمة المعلبة ناجحاً لأعلى حد، وحسب الاتهامات الموجهة ضده فإن مواهبه هي التي أدّت إلى اختياره ليتولى استثمار جزء من رأس مال الجماعة. لقد أصبح تاجر جملة، ومن ثم صناعياً، ومصنّعاً للباستا ومقاولاً، كما كانت له يد في تجارة السكر وخدمات توزيع الأطعمة، بل وحتى في العمل في مجال كرة القدم. بحسب تقدير مجلس إدارة هيئة مكافحة المافيا DIA، فإن ممتلكات دانته باساريلي كانت قيمتها تتراوح بين 300 إلى 400 مليون يورو. جزء كبير من تلك الثروة كان ثمرة أراض وأسهم معتبرة في القطاع الراعي - الغذائي. كان يملك إيبام، واحداً من أهم معامل تكرير السكر. شركته التي تدعى "باساريلي دانته وأولاده"، قد منحت مقاصف مستشفيات في سانتا ماريا كابوا فيتير، كابوا وسيسّا أورونكا، وكانت الرائدة في توزيع الوجبات. لقد امتلك مئات الشقق، وأبنية تجارية وصناعية. وحين ألقي القبض عليه في 5 كانون الأول من عام 1995، تضمنت الممتلكات التي تعرضت للمصادرة: ثمانية أبنية في فيلا ليتيرنو، وشقة في سانتا ماريا كابوا فيتير، وأخرى في بينيتامار، وبناء في كازال دي برينشيبه، وأراضي في كاستيلفولتورنو، وكازال دي برينشيبه، وفيلا ليتيرنو، وكانسيللو أرنون، بالإضافة إلى لا بالزانا، وهو مجمع زراعي في سانتا ماريا لا فوسا، يتألف من 209 هكتارات من

الأراضـي، و40 بنـاء قرويـاً، وصودرت أيضاً، الريشـة الغالية في قبعته، ويختـه أنفـر\ III وهـو يخـت فاخـر بقمـرات متعددة، وأرضية خشـبية مزخرفة، وحوض استحمام دوّار، كان يرسو في شاطئ غاليبولي، وكان يحمل ساندوكان ورفيقه في رحلة بحرية إلى الجزر اليونانية على متنه. في تشرين الثاني من عام 2004، وبينما كانت التحقيقات تتقدم باتجاه مصـادرات متواليـة للمزيـد من ممتلكاته، عثر على دانته باسـاريلي ميتاً إثر وقوعه من شـرفة أحد منازله. لقد عثرت زوجته على الجثة، وقد انفتـح رأسـه إثـر السـقطة وتحطم عاموده الفقـري. التحقيقات لا تزال مسـتمرة، وتبقى وفاته أمراً غامضاً، فالجميع يتسـاءلون إن كانت مجرد حادثة، أم أن وقوعه من شرفة غير مكتملة سببته يد مألوفة جداً ولكن مجهولـة. بموتـه عادت جميـع الممتلكات التي كان يفترض أن توضع تحت تصرف الولاية إلى أسـرته. كان قدر باسـاريلي قدر رجل أعمال موهوب استطاع، بفضل الجماعة، أن يتولى مبالغ ما كان ليراها بعينيه لولاها، ومن ثم أن يضاعفها بشكل متعاظم. بعدها ظهرت عقبة خفية، وهي التحقيق القضائي، وعلى أثره صودرت تلك الثروة. وكما جلبت له مهارته في إدارة الشركة إمبراطورية، كذلك جلبت تلك المصادرات له حتفه. فالجماعات لا تسمح بوقوع الأخطاء، وعندما أُبلغ ساندوكان فـي أثنـاء إحـدى المحاكمات بخبر وفاة دانته باسـاريلي، أجاب الزعيم بهدوء "فلترقد روحه بسلام"

مكتبة الرمحي أحمد

تبقى قوة أفراد الجماعات نابعة من الإسمنت، فمواقع الإنشاءات هـي مـا كانـت تشـعرني بجبروتهم. لقد عملت في تلـك المواقع لعدة فصول صيف، فلكي أحصل على وظيفة خلط الإسـمنت، كان كل ما يتوجب عليّ فعله هو أن أدع المقاول يعلم من أي مكان قدمت، ولم يرفضني أحد بعدها يوماً. توفر كامبانيا أفضل البنائين في أنحاء إيطاليا

كافة، إنهم الأكثر مهارة، والأسرع، والأرخص أجوراً، والأقل إثارة للمتاعب. إنه عمل يتطلب جهداً قاتلاً، وإنني لم أتعلم يوماً كيفية القيام به جيداً بشكل دقيق. وهي تجارة يمكن لها أن تنتج مبالغ لا يستهان بها، إن كان لديك فقط الاستعداد للمقامرة بكل قوتك، وعضلاتك، وطاقتك، وأن يكون لديك الاستعداد لتعمل في الظروف الجوية كافة، واضعاً أحياناً قناعاً، وأحياناً أخرى ملابسك الداخلية وحسب. أن أضع يديّ وأنفي قريباً من الإسمنت، كانت هي الطريقة الوحيدة التي أعرفها لأتمكن من خلالها من فهم أي قوية حقيقية يتم بناؤها.

لكن حين مات فرانسيسكو إياكومينو، فهمت حينها حقاً ماهية العمل في تجارة البناء. لقد كان في الحادية والثلاثين من عمره عندما عثروا عليه بلباس العمل، ملقىً على الأرض في نقطة التقاطع بين فيا كواترو أورولوجي، وفيا غابرييل دانونزيو في هيركولانيوم. لقد سقط عن السقالة. وبعد الحادثة فر الجميع، حتى واضع المخططات. لم يستدعِ أحد سيارة الإسعاف خشية أن تصل قبل أن يتمكنوا من الخروج، فتركوه ملقىً في الشارع، وهو ما زال حياً يبصق الدم من رئتيه. لقد شعرت بخبر حادثة الموت الجديدة التي أضيفت إلى حوادث الموت الثلاثمئة لعمال البناء سنوياً وفي مواقع البناء، وكأنه يثقب أحشائي. لقد أشعل موت إياكومينو فيّ غضباً عارماً كان أشبه بنوبة ربو منه بنوبة هياج عصبي. لقد تمنيت أن أكون مثل بطل رواية لوتشيانو بيانتشياردي الصادرة عام 1962، **لا فيتا أغرا (إنها حياة شاقة)**، الذي يذهب إلى ميلانو بنية تفجير بناء بيريللي، ليثأر لعمال المناجم الثمانية والأربعين من ريبولا، الذين قتلوا في أيار من عام 1954 في انفجار في ما يدعى بئر كامورا١ بسبب ظروف العمل البغيضة فيه. ربما كان عليّ أنا أيضاً أن أختار بناءً، البناء المحدد، لأفجره. لكن قبل أن أنزلق إلى حالة انفصام الشخصية التي تصيب الإرهابيين، بدأ صدى

كلمات بيير باولو باسوليني يتردد في أذنيّ: "أنا أعلم"، كانت هي كلماته الشهيرة التي شجب بها الديمقراطيين عام 1974، والتي طبعت على الصفحة الأولى من صحيفة كورير ديللا سيرا. مرة تلو أخرى أخذ صداها يعاودني، معذباً إياي كرنين أجراس لا ينقطع. وهكذا، عوضاً عن البحث عن مبان لأفجرها عالياً في السماء، توجهت إلى قبر باسوليني في كاسارسا. ذهبت هناك وحيداً، على الرغم أن هذا من الأشياء التي يقوم بها المرء مع مجموعة، ليبدو أقل إثارة للشفقة: عصابة، أو مجموعة من القراء النهمين، أو صديقة، إلا أنني وبكل عناد ذهبت هناك وحدي.

إن كاسارسا مكان لطيف، واحد من تلك الأماكن التي يسهل فيها تخيل شخص يريد أن يمضي حياته ككاتب. ويصعب من جهة أخرى تخيل أحدهم يرحل عن هذا المكان لينحدر إلى الحضيض، وليقطع الخط الفاصل مع الحياة. إنني لم أذهب إلى قبر باسوليني لأعبر له عن احترامي، أو لأخلّد ذكراه. بيير باولو باسوليني، ذاك الاسم الذي قال الشاعر جورجيو كابروني عنه إنّه ثلاثة في واحد، لم يكن له مثيل، ولا لأنه كان السيد في مجال الأدب، لقد شعرت هنا أنني قد عثرت على مكان ما زال يمكن للمرء فيه أن يفكر ملياً دون أن يخجل من إمكانات كلمته، إمكانية الكتابة عن آليات القوة بعيداً عن القصص، والتفاصيل، وأن يتأمّل ما إذا كان لا يزال بالإمكان تسمية الأسماء، واحداً واحداً، والإشارة إلى الوجوه، وتجريد الأجساد من جرائمها وكشفها كعناصر من هندسة السلطة، وأيضاً أي يتأمّل ما إذا كان لا يزال ممكناً اشتمام القوى المحركة لما هو حقيقي، والتوكيد على وجود النفوذ، دون تعبيرات مجازية، أو وساطات، ودون أي شيء سوى الحد القاطع للكلمة.

ركبت القطار من نابولي إلى بوردينون. كان قطاراً بطيئاً لدرجة لا

تصدق، ويحمل اسماً بليغاً مميزاً: ماركو بولو، للدلالة على المسافة التي يتوجب قطعها، فالمسافة التي تفصل فروبلي عن كامبانيا تبدو هائلة. حين غادرت نابولي كانت الساعة الثامنة إلا عشر دقائق، ووصلت فروبلي في السابعة والثلث من اليوم التالي، بعد أن تحملت ليلة لا تطاق جافاني فيها النوم من البرد القارس. ومن باردينون، استقللت الباص إلى كسارسا، ثم ترجلت وبدأت أمشي مطرقاً رأسي، كمن يعرف طريقه تماماً ويستطيع تمييزه بمجرد النظر إلى مقدّمة حذائه. لقد تهت كما هو متوقع، لكن بعد تجوال دون هدف عثرت على المقبرة في فيا فالفاسون حيث دفن باسوليني وجميع أفراد عائلته. كان يوجد أجمة أزهار، إلى الناحية اليسرى، وبعد المدخل بقليل، وفي وسطها لوحان صغيران من الرخام الأبيض. ووقعت عيناي على قبره، وقد كتب على الشاهد "بيير باولو باسوليني (1922-1975)" إلى جانبه، وعلى مسافة تبعد عنه قليلاً، كان قبر والدته. وشعرت لحظتها بأنني أقل وحدة، وبدأت أغمغم بكل الغضب الذي يعتمل في داخلي، كفاي كانا مقبوضين بإحكام لدرجة أحسست معها أن أظافري قد انغرزت في لحمي. وبدأت أنطق بكلمتي: "أنا أعلم" الخاصتين بي وبزماني.

إنني أعلم، وإنني قادر على إثبات ذلك. إنني أعلم كيف تنشأ الاقتصاديات، ومن أين تأتي رائحتها، رائحة النجاح والانتصار. إنني أعلم كيف تسلب الأموال والأرباح. إنني لأعلم. وحقيقة الكلمة لا تأخذ أسرى لأنها تبيد كل شيء، وتحول كل شيء إلى دليل. إنها ليست بحاجة إلى التيقن بتنويع المصادر، ولا إلى شنّ حملة تحقيقات. إنها تراقب، تأخذ بعين الاعتبار، وتشاهد، وتصغي. إنها تعلم، ولكنها لا تدين أحداً لترسله إلى السجن، والشاهدون لا يتراجعون في أقوالهم، ولا أحد يتوب. أنا أعلم ويمكنني إثبات ذلك. إنني أعلم أين تتبخر صفحات كتيبات الاقتصاد، وكيف تتحول أجزاؤها اللامتناظرة

إلى مواد، وأشياء، وحديد، وزمن، وعقود. إنني أعلم. الأدلة ليست مخفية في إحدى سواقات الحافظة USB ولا مدفونة في حفرة في الأرض. ولست أملك أفلام فيديو للمساومة عليها وهي مخبأة في أحد مرائب السيارات في إحدى القرى الجبلية التي لا يمكن اختراقها. ولا بحوزتي وثائق استخباراتية سرية. إن الأدلة دامغة ولا تقبل الجدل لأنها متحيزة، سجلتها عيناي، وسردتها كلماتي، وعولجت بمشاعر رددت صدى الحديد والخشب. إنني أرى، وأسمع، وأنظر، وأتحدث، وبهذه الطريقة فإنني أهمس بكلمة قبيحة لا يزال لها القدرة على أن تكون ذات فائدة عندما تهمس بأن "هذا غير صحيح" في أذن من يصغون إلى أهازيج القوة. الحقيقة متحيزة، فبعد كل شيء لو أنه كان ممكناً اختصارها إلى صيغة موضوعية، لكانت حينها كيمياءً. إنني أعلم، وبإمكاني أن أثبت ذلك، ولهذا فإنني أخبر عن هذه الحقائق.

إنني أدأب دوماً على أن أهدئ من روع القلق الذي يجتاحني في كل مرة أمشي فيها، أو أرتقي بها السلالم، أو أستقل المصعد، أو أمسح قدمي على ممسحة الأرجل وأجتاز عتبة ما. إنني لا أستطيع منع نفسي من إطالة التفكير باستمرار في الكيفية التي أنشئت بها هذه الأبنية والمنازل. وعندما أجد شخصاً على استعداد للإصغاء، يصبح من الصعب عليّ ألا أسرد كيف تصنع هذه الطوابق فوق بعضها الواحد تلو الآخر. إن ما يجتاحني ليس شعوراً عالمياً بالذنب، ولا هو نزعة لتعويض أخلاقي لأولئك الذين حذفوا من ذاكرة التاريخ، بل بدلاً من ذلك أحاول أن أنفي عني آلية الشاعر المسرحي الألماني بريشت التي تعاودني فطرياً، بأن أفكر في أيدي وأرجل التاريخ. أي بمعنى آخر، أن أفكر دون انقطاع في الصحون الفارغة باستمرار، التي أدت إلى اقتحام

الباستيل بدلاً من التفكير في بيانات الجيرونديين(*) والجاكوبيين(**). إنني لا أستطيع التوقف عن التفكير في الأمر، هذه هي مشكلتي الأبدية. كشخص يقف أمام لوحة لفيرمير، وبدلاً من أن يتأمل في الرسم، يأخذ في التفكير في من خلط الألوان ومد القماش وصنع الأقراط اللؤلؤية. إن ما يحصل معي تحريف حقيقي، فما من مرة أرى فيها درجات سلّم إلا وأشعر ببساطة أنني لا أستطيع تناسي كيفية عمل دورة الإسمنت، وجدار من الزجاج لا يمنعني من التفكير بكيفية رفع السقالات. إنني لا أستطيع التظاهر بعدم الرؤية، فأنا لا أستطيع مشاهدة جدار دون أن أفكر في المالج والملاط. ربما أن الناس الذين يقدّر لهم أن يولدوا في خطوط طول معينة، لديهم علاقة خاصة متفردة مع مواد معينة. فالمواد لا تدرك بالطريقة ذاتها في جميع الأمكنة، فباعتقادي أن رائحة البترول والغاز في قطر، تستحضر أحاسيس ونكهات مرتبطة بالقصور، والنظارات الشمسية، وسيارات الليموزين. الرائحة اللاذعة نفسها للفحم الحجري في منطقة مينسك تستحضر صور وجوه مسودة، وتسربات للغاز، ومدن تختنق بالدخان، بينما هي في بيلغيوم تستدعي استخدام الثوم الإيطالي وبصل شمال أفريقيا. الأمر ذاته ينطبق على الإسمنت في جنوبي إيطاليا. الإسمنت، بترول الجنوب الإيطالي. الإسمنت هنا هو من يعلن ولادة كل شيء، فكل إمبراطورية اقتصادية تنبعث في الجنوب، لا بد أن تمر من خلال أعمال الإنشاء: فهناك مناقصات، وإجراء عقود، ومحاجر، وإسمنت، وعناصر أساسية في البناء، وقرميد، وسقالات، وعمال. هذه هي القوات الحربية لرجال الأعمال الإيطاليين الذين إن لم يكن لإمبراطورياتهم قدم ثابتة في

(*) الجيرونديون: هم الجمهوريون المعتدلون في الثورة الفرنسية. (المترجمة إلى العربية).

(**) الجاكوبيون: هم الجناح اليساري المتطرف من الثورة الفرنسية وهم الذين أطاحوا بالجيرونديين ليبدأ بعدها عهد الإرهاب. (المترجمة إلى العربية).

الإسمنت فلن يكون لديهم فرصة للنجاح. إنها لأبسط طريقة يمكنك من خلالها أن تجني المال بأسرع ما يمكن، وتكسب الثقة، وتوظف الناس في الوقت المناسب للانتخابات، وتدفع الرواتب، وتراكم رأس المال لاستثمارات مقبلة، وتجعل من صورة وجهك ختماً تطبعه على واجهات المباني التي ترفعها. إن من يعمل في مجال البناء يجمع في مهاراته بين الوسيط والشخص المفترس. فهو يملك صبر البيروقراطي الذي لا حدود له في تجميعه للمستندات، متحملاً التأخيرات المطولة، ومنتظراً الموافقات التي تأتي بتباطؤ يشبه تشكل الهوابط في المغارات، وهو كالطير الجارح الذي يحوم حول أرض لا يلحظها أحد آخر غيره، ثم يخطفها فجأة كالفريسة ببضعة دريهمات، ومن ثم يتمسك بها إلى أن يصبح كل إنش، أو كل حفرة فيها قابلةً للبيع بأسعار فلكية. رجل الأعمال المفترس يعرف تماماً كيف يستخدم منقاره ومخالبه، والبنوك الإيطالية بدورها تبدو وكأنها أنشئت خصيصاً للبنّائين، فهي تمنحهم الحد الأقصى من الائتمان. وإن كان البّناء حقاً لا يملك أي رصيد ائتمان، وإن كانت المنازل التي ينوي بناءها لا تكفي كضمان، فسيقوم أحد الأصدقاء دوماً بدعمه. فصلابة الإسمنت والقرميد هي الشيء المادي الوحيد الذي تعترف به المصارف الإيطالية. إذ يعتقد مديروها أن الأبحاث، والمختبرات الزراعية، والمهن اليدوية جميعها حقول وهمية، ومتطايرة، وأثيرية، وخالية من الجاذبية الأرضية. في حين أن الغرف، والطوابق، وأحجار القرميد، ومآخذ الهاتف والكهرباء، هي الأشكال الوحيدة الملموسة والواقعية التي يأخذون بها. إنني أعلم كل شيء، وبإمكاني إثباته. إنني أعلم كيف بنيت نصف إيطاليا، بل أكثر من النصف. إنني متآلف مع الأيدي والأصابع والمشاريع، ومع الرمل. ذاك الرمل الذي بنى ناطحات السحاب، والأحياء، والمنتزهات، والقلل. ما من أحد في كاستيلفولتورنو يمكن له أن ينسى قوافل الشاحنات التي

لا تنتهي، والتي نهبت الرمل من نهر فولتورنو. خطوط من الشاحنات أحاطت بالمزارعين الذين لم يسبق لهم أن شاهدوا في حياتهم من قبل أشياء بضخامة فيلة الماموث، المصنوعة من المعدن والمطاط. هؤلاء المزارعون الذين روضوا أنفسهم على البقاء، ونجحوا في المضي في حياتهم هنا عوضاً عن الهجرة، أخذوا يشاهدون بأم أعينهم الرمل وهو ينقل من أمامهم بعيداً في العربات. والآن بات ذاك الرمل في جدران الشقق في أبروزي، والأبنية في فاريس، وأسياغو، وجينوا. لم يعد النهر من يصب في البحر بعد الآن، بل أضحى البحر هو من يصب في النهر، وأضحوا يصطادون سمك القاروس البحري في نهر فولتورنو. ولم يعد هناك أي مزارعين، فبعد أن حرموا من أراضيهم، اتجهوا إلى تربية الجاموس، ومن ثم أسسوا شركات بناء صغيرة، عينوا فيها الشبان اليافعين النيجيريين والجنوب إفريقيين الذين اعتادوا على العمل المواسمي في المزارع، فإن لم ينضووا تحت لواء الجماعات، فإنهم يلاقون موتاً مبكراً. إنني أعلم، وبإمكاني إثبات ما أعلمه. شركات المقالع تحمل ترخيصاً فقط بإزالة أدنى كميات ممكنة، لكنها في الواقع تلتهم جبالاً بأكملها. الجبال والهضاب المتفتتة والمعجونة لتضحي إسمنتاً، منتشرة في كل مكان من تاناريف إلى ساسولو، فترحيل الأشياء قد لحق بركب ترحيل الأشخاص. عندما التقيت دون سالفاتور في المطعم في سان فيليس أكانسيللو، كان يبدو وكأنه في الثمانين من عمره مع أنه لا يتجاوز الخمسين. إنه سيد من سادة البناء سابقاً، أضحى الآن يمشي وكأنه جثة متحركة. لقد أخبرني أنه قد عمل لعشر سنوات في إضافة غبار عوادم دخانية إلى خلاطات الإسمنت، أي أن الجماعات كانت تخفي النفايات داخل الإسمنت، متيحة المجال للشركات بأن تقدم عروضها الرخيصة الكلفة في المناقصات وكأنها تستخدم يداً عاملة صينية. والآن فإن مرائب السيارات، والجدران، وسلالم المباني

جميعها تتخللها السموم. ولن يحدث شيءٌ إلى أن يتنشق أحد العمال، وسيكون على الأرجح من شمال إفريقيا، هذا الغبار ويموت بعد بضع سنين وهو يلوم حظه العاثر على إصابته بالسرطان.

إنني أعلم، وباستطاعي إثبات ذلك. إن رجال الأعمال الإيطاليين الناجحين ينشأون من الإسمنت، وهم جزء من دورة الإسمنت. وإنني أعلم أنهم قبل أن يحولوا أنفسهم إلى عارضي أزياء، ومديرين ذوي يخوت، ومغيرين على مجموعات مالية، ومشترين لشركات تحتل الصدارة في صفحات الجرائد، قبل كل هذا وتحت كل ذاك، يوجد دائماً الإسمنت، والمقاولون الفرعيون، والرمل، والحجارة الصغيرة، والعربات المغلقة التي يُحشر فيها رجال يعملون طيلة الليل ليختفوا مع الصباح، على سقالات عفنة، وبتأمين غير حقيقي. إن القوة المحركة للاقتصاد الإيطالي تستند إلى سماكة الجدران. وعلى الدستور أن يُعدّل ليذكر أن الإقتصاد قد أسس على الإسمنت والبنّائين، فهؤلاء هم المؤسسون الحقيقيون، وليسوا فيروتشيو باري، أو لويجي أيناودي، أو بييترو نيني، أو جونو فاليرو بورغيس. فقد كان المخمنون العقاريون هم الذين انتشلوا إيطاليا من وحل الفضائح المالية عبر أعمال الإسمنت، والعقود، والأبنية، والجرائد.

تجارة الأبنية تعد بمثابة نقطة تحول للشركاء والأعضاء في الجماعات، فبعد أن عملت كقاتل، أو مبتز، أو مراقب وحارس، ينتهي بك الأمر إلى البناء، أو جمع القمامة. وبدلاً من أن تعرض الأفلام، وتلقي المحاضرات في المدرسة، سيكون أمراً مثيراً للاهتمام أن تصحب الأعضاء الجدد في الجماعات في جولة إلى مواقع البناء، ليشهدوا بأم أعينهم المستقبل الذي ينتظرهم. فإن عفا عنهم السجن أو الموت، فإلى هذا المكان سيكون مآلهم، يبصقون فيه الدم والجير. في حين يحيا أهل النخبة من ذوي الياقات البيضاء، والزعماء الذي يعتقدون

أنهم تحت سيطرتهم، يحيون الحياة الرغدة، فيما يموت الآخرون تحت وطأة العمل الشاق طوال الوقت، والذي يتجلى في السرعة في البناء، وفي الحاجة إلى التوفير في كل وسيلة حماية، وفي كل شكل من أشكال جدول الأعمال، يتجلى في المناوبات اللاإنسانية التي تستمر من تسع إلى اثنتي عشرة ساعة يومياً، وحتى في عطلة نهاية الأسبوع. والمقابل يكون 100 يورو أسبوعياً، وتضاف 50 يورو عند العمل لعشر ساعات في يوم العطلة، أو عند العمل الإضافي مساءً. الأعضاء الأكثر شباباً قد يعملون حتى الخمس عشرة ساعة، ربما عن طريق تجرّعهم للكوكايين. وعندما يموت أحدهم في أحد مواقع البناء، تطبق فوراً آلية مجرّبة وقد أثبتت أنها مجدية وهي حادث سير مزيف، إذ تحمل الجثة بعيداً لتوضع في سيارة، يلقى بها من أعلى الجرف، بعد أن تضرم فيها النار. أما مال التأمين الذي يعطى للعائلة فيكون بمثابة التعويض عن خسارتها. وليس من المستبعد أن يصاب الأشخاص الذين يلفقون الحادث هم أنفسهم بجروح قد تكون خطيرة أحياناً، خاصة عندما يتوجب عليهم أن يصدموا السيارة بالحائط قبل أن يشعلوا فيها النار. عندما يكون الزعيم متواجداً، يسير كل شيء بسلاسة، أما عندما يكون غائباً فكثيراً ما يصيب الفزع العمال. وعليه فإنهم يحملون الشخص ذا الإصابات الخطرة، والذي أضحى شبه جثة هامدة، ومن ثم يتركونه إلى جانب الطريق المؤدي إلى المشفى. إنهم يصحبونه إلى هناك في سيارة، ويمددونه بعناية على الرصيف، ثم يفرّون. وفي حال كانوا مهتمين حقاً، فإنهم يطلبون سيارة الإسعاف. وأياً كان ذاك الذي يشارك في اختفاء أو ترك شبه جثة على قارعة الطريق، فإنه يعلم أن زملاءه سيفعلون الشيء نفسه معه، لو أنها كانت جثته هي التي سُحقت، أو رُميت. أنت تعلم يقيناً، أنه في المواقف الخطرة، سيساعدك في البداية الشخص الذي يقف إلى جانبك، غير أنه بعدها سيقضي عليك ليخلص

نفسه من عبثك. لذا تشعر أن هناك نوعاً من الحذر يسود الأجواء في الموقع، فالشخص الذي إلى جانبك الآن قد يضحي جلادك، وأنت كذلك بالنسبة إليه. إنه لن يدعك تعاني، لكنه سيتركك لتلاقي حتفك وحيداً على جانب الطريق، أو يحرقك وأنت في قلب سيارة ما. كل بنّاء يعلم أن هذه هي طريقة سير الأمور، وشركات البناء في الجنوب تؤمّن ضمانات أفضل، من حيث إنها تعمل وتخفي وتحل كل مأزق دون أن تسبب اضطراباً. إنني أعلم وبإمكاني الإثبات، والإثباتات التي لدي موثّقة. في غضون سبعة أشهر، توفي في مواقع البناء في نابولي خمسة عشر عاملاً، بعضهم وقع، وبعضهم انتهى به الأمر تحت جرافة، أو سحقته رافعة يشغلها عمال أنهكتهم مناوباتهم الطويلة. على العمل أن ينجز بسرعة، حتى وإن استمر لسنوات، فعلى المقاولين الفرعيين أن يفسحوا المجال لقطعة الأرض القادمة. اجمع مالك، وحصّل ديونك، واستمر. أكثر من 40 بالمئة من الشركات العاملة في إيطاليا قدمت من الجنوب، من أفيرسا، ونابولي، وساليرنو. في الجنوب، لا زال بإمكان الإمبرطوريات أن تولد والروابط الاقتصادية أن تقوى، ولا يزال ميزان التراكم الأصلي غير مكتمل. يجب عليهم أن يعلقوا لافتات ترحيب في أنحاء الجنوب كافة، من باغليا إلى كالابريا لأجل جميع رجال الأعمال الذين يرغبون بإلقاء أنفسهم في حلبة الإسمنت، وأن يضعوا في غرف جلوس ميلانو وروما بعد سنوات من الآن لافتة ترحيب تحمل التمنيات بالحظ الطيب، بما أن كثيرين هم الذين يأتون، لكن قلة فقط هم الذين لا يغرقون في الرمال المتحركة. إنني أعلم، وإنني قادر على إثبات ما أعلم. والبناؤون الجدد، ومالكو المصارف واليخوت، وأمراء الثرثرة، وملوك الرذيلة، جميعهم يخفون أرباحهم. لعلّه لا زال لديهم بقية من روح تجعلهم يشعرون بالخجل من الإعلان عن مصادر أرباحهم. في الولايات المتحدة الأميركية، البلد الذي يعتبرونه قدوة لهم، عندما

يصبح أحد رجال الأعمال ذو الاسم اللامع في عالم المال، مصيباً قمة النجاح والشهرة، فإنه يستدعي المحللين، والاقتصاديين الشباب ليعرض عليهم مهاراته، ويبوح لهم بالطريق الذي أوصله إلى الانتصار، أما هنا، فالصمت مطبق. المال هو مال فحسب. وعندما يُسألون عن نجاحاتهم يجيب رجال الأعمال القادمون من أرض أسقمتها الكامورا وبكل وقاحة: "لقد اشتريت بعشرة، وبعت بثلاثمئة" لقد قال أحدهم ذات مرة، إن الحياة في الجنوب، تشبه النعيم، فكل ما عليك فعله هو أن تحدق دائماً إلى السماء، وأن لا تنظر يوماً إلى الأسفل على الإطلاق. لكن هذا مستحيل! فالتجريد من كل منظور للأمور، أزال حتى خطوط البصر. كل منظور يصطدم بالشرفات، وبالعليّات، وبالسقوف المائلة، وبالشقق، وبالأبنية المجدولة، وبعقد الأحياء. في هذا المكان، لا يعتقد أحد أن شيئاً ما يمكن أن يسقط من السماء. في هذا المكان، يجب عليك أن تنظر إلى الأسفل، أن تغرق في الهاوية، لأنه هناك دوماً هاوية أخرى داخل الهاوية. لذا فعندما أرتقي السلالم، وأمر أمام الغرف، أوعندما أستقل المصعد، فإنني لا أملك إلا أن ألاحظ، لأنني أعلم كل ما أعلمه، وهو تحريف في النظر إلى الأمور من قبلي. ولذلك عندما أجد نفسي وسط النخبة من رجال الأعمال الناجحين فعلاً، أشعر عندها بالغثيان، فعلى الرغم من أنهم أنيقون، ويتحدثون بهدوء، ويصوتون للسياسيين اليساريين، إلا أنني أشتم رائحة الجير والإسمنت تنبعث من جواربهم، ومن ثنيات أكمامهم، ومن رفوف كتبهم. إنني أعلم، أعلم من بنى مدينتي، ولا يزال يبنيها. إنني أعلم أنه في هذه الليلة، سيغادر قطار ريجيو كالابريا، وفي الثانية عشرة والربع بعد منتصف الليل سيتوقف في نابولي، وهو في طريقه إلى ميلانو. قطار سيكون محشواً، وفي المحطة ستلتقط العربات المغلقة وسيارات البنتو المغبرة الأطفال الذين ستنقلهم إلى مواقع البناء الجديدة. إنها هجرة

دون هدف ثابت، هجرة لن يقوم أحد بدراسـتها أو تقييمها لأن الأثر الوحيد الذي تنجح في تركه هو آثار أقدام في غبار الإسمنت، لا أي شيء آخر. إنني أعلم ما هو دستور زماني، ومقدار ثروات الشركات. إنــي أعلــم مقـدار دمـاء الآخرين المعجونة في كل عامـود. إنني أعلم وبإمكاني إثبات ذلك، ولا أتخذ أي شهود على كلامي.

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

دون بيبينو ديانا

كلما فكرت في حروب الجماعة في كازال دي برينشيبه، سان شيبريانو، وكاسابيسينا، وجميع الأقاليم الأخرى التي تسيطر عليها من باريت إلى فورميا، يتجه تفكيري دوماً إلى الملاءات البيضاء. تلك الملاءات الناصعة البياض التي تتدلى من كل شرفة، وسياج، ونافذة. ذاك الشلال الصغير من النسيج الأبيض كان بمثابة إظهار غاضب للحداد في جنازة دون بيبينو ديانا، في آذار من عام 1994. كنت في السادسة عشرة من العمر، أيقظتني خالتي كعادتها في ذلك الصباح، لكن بطريقة عنيفة لم أعهدها قبلاً، إنتزعت عني الغطاء الذي طوقت نفسي به وكأنها تفض قطعة من نقانق السلامي. لقد وقعت عن السرير على إثر حركتها، لكن خالتي لم تتفوه بكلمة، بل أخذت تسير بجلبة في أرجاء المكان، وكأنها كانت تصرّف كل ثورتها عن طريق كعبي حذائها. لقد ربطت الملاءات إلى الشرفة، وعقدتها بإحكام لا يمكن معه لإعصار أن يحلّها. ودفعت النافذة لتنفتح على مصراعيها، ولتدخل منها الأصوات القادمة من الشارع، ويخرج منها ضجيج المنزل. حتى إنها فتحت جميع الخزائن. لا زلت أذكر تلويحات فتيان الكشافة، فقد ألقوا عنهم سلوكهم الهادئ المعتاد للأولاد حسني التربية، وبدت آثار الغضب الشديد تلوح من وشاحاتهم الزرقاء والخضراء المميزة، إذ إن دون بيبينو كان واحداً منهم. كانت تلك المرة الوحيدة على الإطلاق، التي شاهدت فيها فتيان الكشافة على تلك الدرجة من العصبية، غير

عابثيـن بـكل أشـكال السـلوك المنظـم والهـدوء اللذين يرسـمان عادة خطواتهـم. إن ذكرياتـي عـن ذلك اليوم متقطعـة، ومنقطة كفرو الكلب الدالماسـي. إن حكايـة دون بيبينـو ديانـا غريبـة للغايـة، وما إن تسـمع بهـا، حتـى تصبـح جـزءاً منك، ويتعين عليـك أن تحفظها في مكان ما فـي داخلـك، وعميقـاً في حنجرتك، وبإحكام فـي قبضتك، وقريباً من قلبك، وفي مؤخر محجري عينيك. إنها حكاية استثنائية، وغير معروفة للأكثرية.

لقـد درس دون بيبينـو فـي رومـا، وهنـاك كان يجـب أن يبقـى ليصنع لنفسـه مهنة ومسـتقبلاً. بعيداً من هنا، وبعيداً عن مسـقط رأسـه وعن الصفقات القذرة التي تعقد فيه. لكنه، وكشـخص لا يسـتطيع أن ينفـض عنـه ذكـرى مـا، أو عـادة، أو رائحة، فقد قـرر فجأة العودة إلى كازال دي برينشيبه. أو ربما كانت حاله، كذاك الشخص الذي تتملكه رغبة شديدة بالقيام بأمر ما، بحيث لن يجد الراحة أو السكينة قبل أن يقوم به، أو على الأقل أن يحاول القيام به. دون بيبينو كان هو رجل الدين الشاب في دار عبادة سان نيكولاس في مدينة باري، التي كانت مبنية بشكل حديث، بدا أنه يتلاءم بصورة مثالية من الناحية الجمالية، مـع حسـه الخـاص بالالتـزام. فبخـلاف بقية رجال الديـن، الذين كانوا يرتدون سلطتهم العبوس مع ردائهم الكهنوتي، كان دون بيبينو يمضي في المكان مرتدياً الجينـز. ولم يكن يسـترق السـمع إلى الشـجارات العائلية، فيؤدّب الرجال على أعمالهم الطائشـة، أو يدور على النسـاء المخدوعـات ليواسـيهن، لقـد حـوّل بطريقـة عفويـة دور رجـل الدين المحلـي، بـأن قـرر أن يولي اهتمامه للقوى المحركة للنفوذ المبسـوط على الناس، بدل أن يهتم لنتيجته الطبيعية من معاناة فحسب. لم يكن يريـد أن يقـوم بمجـرد تنظيف للجـرح، بل أراد أن يفهم آلية الانبثاث، وأن يمنع بذلك السرطان من الانتشار، وأن يحجب مصدر ذاك الشيء،

أياً كان كنهه، الذي يحوّل موطنه إلى منجم ذهب لاستنباط رأس المال، مع فيض من الجثث. حتى إنه كان يدخن السيجار على الملأ من حين لآخر. قد يبدو مثل هذا التصرف غير مسيء في أي مكان آخر، لكن في هذا المكان كان رجال الدين يميلون إلى أن يلبسوا مظهراً متقشفاً يتجلى في حرمان أنفسهم من المسرات الزائدة. دون بيبينو قرر أن يكون على طبيعته، وهذا ضمان للشفافية، في أرض يتحتم على الوجوه فيها أن تكون على استعداد لتتقلد أقنعة تناسب ما يمثّله أصحاب تلك الوجوه، تعينها في ذلك ألقابٌ تضخ قوةً في أجسادهم إلى درجة الامتلاء، ويأملون أن تظهر آثارها على جلودهم كآثار خياطة الجروح. كان دون بيبينو مهووساً بالقيام بفعل، فأنشأ مركزاً للترحيب بأول موجة من المهاجرين الأفارقة، يقدم لهم فيه المأوى والطعام. كان هذا أمراً مهماً ليحول دون تحويل الجماعات لهم إلى جنود ممتازين، وهو ما حصل في النهاية فعلاً. حتى إنه ساهم في المشروع بشيء من ماله الخاص، الذي كان يجنيه من التعليم. فانتظار الدعم المؤسساتي يمكن أن يكون محنة طويلة الأمد، بطيئة ومعقدة، حتى لتصبح السبب الأكبر في عدم الإتيان بأي فعل. بوصفه رجل دين، فقد شهد دون بيبينو تقلّب الزعماء، شهد إزالة بارديلينو، وقوة ساندوكان وسيتشيوتو دي ميزانوتي، كما شهد مذابح رجال بارديلينو، والكسالسيين، ومن ثم مذابح القياديين المستثمرين المغامرين.

هناك حادثة شهيرة وقعت في ذلك الحين تتعلق بموكب من السيارات كان يجول شوارع المدينة. ففي الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم، شكلت قرابة العشر سيارات ما يشبه استعراض الفرسان تحت نوافذ أعدائهم. لقد كانوا رجال سكيافوني المنتصرين يتحدون أعداءهم. كنت حينها مجرد طفل، لكن أبناء عمومتي يقسمون إنهم قد رأوهم بأم أعينهم، وهم يقودون السيارات بتؤدة عبر شوارع سان

شيبريانو، وكاسابيسينا، وكازال دي برينشيبه. كانت النوافذ مفتوحة، والرجال قد شرّعوا أبواب السيارات ليقفوا بساق داخل السيارة، والأخرى تتدلى خارجاً، ووجوههم غير مقنّعة، وكل منهم يمسك سلاحاً. كان الموكب يتقدّم ببطء جامعاً في أثناء تقدمه المزيد من الأعضاء، الذين خرجوا من شققهم حاملين البنادق، والرشاشات نصف الأتوماتيكية، وأخذوا يسيرون خلف السيارات، ليشكّلوا جميعاً مظاهرة عظمى، وعامة، ومسلّحة. لقد توقفوا أمام بيوت أعدائهم، أولئك الذين تجرأوا على تحدي سيادتهم، صائحين:

"اخرجوا أيها الأنذال! اخرجوا... هذا إن كنتم تملكون الشجاعة!"

لقد استمر الموكب ساعة على الأقل ودون أي تعكير من أحد، بينما أُرخيت سريعاً مصاريع المحلات والحانات. طيلة يومين بعدها، كان هناك وقف إطلاق نار كامل، لم يخرج فيهما أحد، ولا حتى لشراء الخبز. أدرك دون بيبينو وقتها، أنه قد آن الأوان لوضع خطة مقاومة، وقد حان الوقت ليخطّ علانية منهجاً يتبعه فيه الآخرون. لا مزيد من التصدي المنفرد، لقد حان الوقت لتنظيم احتجاج، يتم فيه التنسيق مع دار العبادة المحلية للوصول بها إلى مستوى جديد من المشاركة. لقد كتب وثيقة مذهلة، تم توقيعها من قبل جميع رجال الدين في كازال دي برينشيبه. كان نصّها دينياً بأسلوب تفوح منه الكرامة الإنسانية اليائسة، مما جعل كلماته عامة وشاملة، وأتاح لها بأن تتخطى حدود الدين. لقد جعلت كلماته الزعماء يرتجفون، لقد خشوها أكثر من أي حملة قد يشنها عليهم قسم مكافحة المافيا، وأكثر من الحجز على محاجرهم وجبّالات الإسمنت، وأكثر من التنصت عليهم والذي قد يؤدي إلى التقاط أحد الأوامر بالقتل. لقد كان نصاً ينبض حياة، بعنوان قوي ومؤثر هو: "حباً بأناسي، لن أبقى بعدُ صامتاً" وزع دون بيبينو

الوثيقة في يوم ذكرى الميلاد. ولم يقم بلصقها على باب دار العبادة، فهو ليس بمارتن لوثر الساعي للإصلاح، بل كان لدى دون بيبينو أمور أخرى تشغل تفكيره، كان يحاول أن يفهم كيفية الوصول إلى طريق يقطع من خلاله شرايين القوة، ويشل سلطة جماعات كامورا الاقتصادية والإجرامية.

لقد حفر دون بيبينو طريقاً في سطح الكلمة، وجعل نفوذ الجماعات يتآكل بتأثير العبارات، فما تزال الكلمات قادرة على فعل شيء كهذا حين تقال علانية وبهذا الوضوح. لقد كان يفتقر إلى اللامبالاة العقلانية التي يحملها أولئك الذين يعتقدون أن الكلمات قد استنفذت جميع مصادرها، وأصبحت تملأ الفراغ الذي بين آذاننا فقط. صلابة الكلمة تماثل تكتل الذرات الصغيرة التي تعترض الآليات التي تحدث وفقها الأشياء، وتحدث فيها أثراً كأثر الهاون، أو المعول. لقد بحث دون بيبينو عن الكلمة الحق ليسفحها كدلو من الماء، يجلو بها النظرات الدنيئة التي كان يتلقاها. ففي هذا المكان، أن تغلق فمك ليس نوعاً من الأوميرتا(*) البسيطة، والصامتة، بإرخاء قبعتك، ونظرك معاً. هنا الموقف السائد هو "هذه ليست بمشكلتي وهذا ليس كل شيء، بل إن القرار بالانسحاب هو القرار المتخذ بالإجماع، في التصويت المتعلق بمجرى الأمور. الكلمة تضحي صرخة، وصرخة مدوية حادة، تقذف في وجه الزجاج المضاد للرصاص، على أمل أن تحطمه إلى أشلاء. وكلماته صاغها هكذا:

"لقد أصابنا الضعف، ونحن نشاهد الكثير من العوائل الحزينة على أبنائها الذين ينتهون بشكل بائس، إما كضحايا لمنظمات

(*) الأوميرتا: دستور الصمت لدى المافيا، الذي يلزم الأعضاء أن يلتزموا الصمت حيال أي جريمة يتناهى إليها سمعهم. (المترجمة إلى العربية).

كامورا، أو كمرتكبي جرائم فيها... إن الكامورا اليوم هي شكل من أشكال الإرهاب الذي يبث الخوف، ويفرض قوانينه الخاصة، ويحاول أن يصبح عنصراً مستوطناً في حنايا مجتمع كامبانيا. يحاول الكاموريون بأسلحتهم التي يحملونها دائماً في أيديهم، أن يفرضوا قسراً وبعنف قواعد غير مقبولة: من الابتزاز الذي حوّل منطقتنا إلى مساحات تحتاج إلى المعونات المالية، دون أي إمكانيات خاصة بها للتطور، والرشاوى التي تصل إلى 20 بالمئة وأكثر على مشاريع البناء، والتي تثبط همة حتى أكثر رجال الأعمال تهوراً، والإتجار غير المشروع بالمخدرات، التي يؤدي استخدامها إلى إنتاج مجموعات من الشباب المهمشين، والعمال غير ذوي الخبرة، والذين ينتظرون مجرد إيماءة من المنظمات الإجرامية، وصدامات بين الأحزاب تهبط على رؤوس العوائل في منطقتنا كوباء مدمر. جميعها أمثلة سلبية لمجموع المراهقين، ومختبرات حقيقية لصناعة العنف والجريمة المنظمة"

مكتبة الرمحي أحمد ٩٦

لقد كان هدف دون بيبينو، أن يذكّر الناس أنه من المهم في مواجهة قوة الجماعة، ألا تقتصر ردود فعلهم على صمت الاعتراف. لقد استحضر العظات الدينية لإقناعهم بإلحاح بأن إعلان موقفهم على الملأ، والتبليغ عن مشكلاتهم، والتفاعل مع ما يحصل، أمور جوهرية لإعطاء حياتهم معنى.

إننا نسأل رجال الدين أن يشهدوا بوضوح وشجاعة خلال عظاتهم الدينية، وخلال المناسبات كافة. إنّا نطلب من دار العبادة ألا تعتزل دورها في المجابهة وفي تبيان القدرة على إنتاج ضمير جديد

تحت شعار العدالة، في التكافل الأخلاقي والاجتماعي

لم تكن الوثيقة تهدف إلى أن تكون متناغمة مع الواقع الاجتماعي، ولا أن تكون مهذّبة مع القوى السياسية، التي اعتبرتها ذات أهداف مشابهة لأهداف الجماعات ومدعومة من قبلها. لم يكن دون بيبينو يرغب بأن يصدق أن الجماعة كانت محض خيار فردي شرير، بل هي بالأحرى نتيجةً لظروف واضحة، وآليات ثابتة، وأسباب مميتة قابلة للتحديد. ما من دار عبادة أو فرد في هذه المنطقة، سبق له أن كان يوماً على هذه الدرجة من التصميم على توضيح الأمور.

لقد وصل الإيطاليون الجنوبيون إلى مرحلة الارتياب والحذر من الحكومة، بسبب عدم قدرتها الأزلية على حل المشكلات الخطيرة التي يبتلى بها الجنوب، وخاصة مشاكل التوظيف، والإسكان، والصحة، والتعليم.

لديهم شك، وهو ليس دائماً دون أساس، بأن يتواطئ قسم من السياسيين مع كامورا ويضمن لها التغطية ويمنحها الامتيازات، مقابل الحصول على الدعم الانتخابي، أو مقابل تحقيق أهداف مشتركة.

الشعور السائد بعدم الأمان الشخصي، والخطر المستمر الناجمين عن نقص الحماية القانونية للأفراد والممتلكات من جهة، وتباطؤ الجهاز القانوني، وغموض الأدوات التشريعية من جهة أخرى، فرضت عليهم الاستغاثة بجهات دفاعية تنظمها الجماعات، أو القبول بحماية كامورا.

وكذلك فإن الافتقار إلى الوضوح في سوق العمل، أدى إلى أن يصبح العثور على عمل، شأناً خاصاً بعمليات يجريها وكيل لكامورا، عوضاً عن ممارسة حق يستند إلى تشريعات التوظيف.

كما أن هناك غياب أو عدم كفاية في التعليم الاجتماعي الحقيقي، حتى في النشاطات الدينية. وكأنه من الممكن أن تنشئ إنساناً ملتزماً

ومؤمناً حقيقياً وناضجاً، دون أن تنشئ الإنسان، والمواطن الناضج.

لقد نظّم دون بيبينو مسيرة مناهضة للمافيا، بعد وقوع هجوم جماهيري على ثكنات الجنود في سان سيبيريانو دافيرسا في أواخر الثمانينيات. لقد تجرأ بعض الجنود على فضّ قتال بين صبيين من السكان المحليين، خلال أمسية ضيافة. وهكذا قرر عشرات من الناس أن يحطموا مركزهم الرئيسي، ويقوموا بضرب الضباط فيه. كانت ثكنات سان سيبيريانو متموضعة في زقاق ضيق، لم يكن لرؤساء الشرطة والعريفون أي منفذ للنجاة. مما اضطر الزعماء أنفسهم أن يرسلوا رؤساء الأحياء لديهم، ليخمدوا الثورة وينقذوا الجنود.

"إننا نحن رجال الدين في كامبانيا، لا ننوي على الرغم من ذلك أن نحدّ أنفسنا بمجرد شجبٍ لهذه الأوضاع، بل إن نيتنا، وضمن مدى قدراتنا وإمكانياتنا، أن نساعد في التغلب عليها وذلك بأن نراجع وندمج هذه القضية مع النشاط الديني

وضع دون بيبينو معتقدات الزعماء قيد المساءلة، وذلك لينفي وبكل وضوح إمكانية وجود أي انسجام بين العقيدة الدينية والقوى السياسية والعسكرية وقوى الأعمال في الجماعات. في أرض الكامورا، لا تعتبر العقيدة الدينية متناقضة مع نشاطات كامورا. فإن كانت الجماعة تتصرف وفقاً لمصلحة جميع أعضائها، ترى المنظمة حينها أنها تسعى لأجل مصلحة الملتزم فتحترمه. أما القتل الاضطراري للأعداء والخونة، فينظر إليه على أنه تجاوز مشروع، فمن منظور منطق الزعماء، الأمر بأن "لا تقتل" يمكن تعليقه إن كانت جريمة القتل تحصل لأجل دافع أسمى، ألا وهو صون الجماعة، ومصالح مديّريها، أو لأجل خير المجموعة، والذي يعود بالتالي على الجميع. القتل في نظرهم، إثم

سيتفهمه الدين ويصفح عنه باسم الضرورة.

في سان سيبيريانو دافيرسا، استخدم أنتونيو بارديلينو أحد الطقوس القديمة الذي تلاشى في النهاية، وكان هو ما استخدمته أيضاً كوسا نوسترا عند انضمام أعضاء جدد إليها، والذي يدعى: بونغيتورا. وكان فحواه أن توخز إصبع السبابة اليمنى للطامح في العضوية بدبوس، ويجعلون قطرات الدم تتساقط، ثم تحرق على لهب شمعة، لتمرر بعدها باليد إلى جميع مديري الجماعة الذين يتحلّقون بدورهم حول الطاولة. فإن قام الجميع بتقبيل الطامح في العضوية، يصبح المرشح بشكل رسمي واحداً من الجماعة.

كثيراً ما تعتبر عوائل كامورا، وبخاصة الزعماء ذوو الشخصيات الأكثر جاذبية، أن أفعالهم نوع من الفروسية، يتحمل فيها ضميرهم الألم وثقل الآثام لأجل خير المجموعة والرجال الذين يحكمونها.

تدّعي الكامورا بأنها تملك نوعاً من الورع الخاص بها، وفي بعض الأحيان تنجح في خداع لا المؤمنين فحسب، بل ورجال الدين أيضاً.

لقد حاولت الوثيقة كذلك أن تقارب بعض الموضوعات، لتقصي أي إمكانية للخلط بين الزواج، وبين استراتيجيات كامورا، ولتقصي المواثيق والتحالفات التي تعقدها الجماعة عن مجال الرموز الدينية. إن مجرد التفكير بالتفوه بهذه الأشياء، كانت لتجعل رجال الدين المحليين يهرعون إلى الحمّام وهم يرتعدون، وأيديهم على معداتهم. من كان ليطرد عن المذبح، زعيماً يتوق إلى تعميد طفل أحد شركائه؟ من كان ليرفض عقد زواج لمجرد أنه ناجم عن تحالفات ما بين عوائل كامورا؟ لكن دون بيبينو كان واضحاً في ما قاله.

إن تحدي دون بيبينو لنفوذ كامورا جاء في الوقت الذي كان

فيه فرانسيسكو ساندوكان سكيافوني مختبئاً في غرفة تحت الأرض في فيلته في البلدة، وعوائل كسالسي آخذة بالاقتتال في ما بينها، والإسمنت والنفايات قد أخذت تشكل الحدود الجديدة لإمبراطورياتهم. لم يرد دون بيبينو أن يلعب دور رجل الدين المواسي الذي يصحب الفتية المجندين المقتولين إلى قبورهم، وأن يهمس لأمهاتهم المتشحات بالسواد بالتحلّي بالقوة والصبر. لقد صرح في مقابلة أجريت معه بقوله: "علينا أن نطرح الفرقة بين الناس، لأجل أن نضعهم في أزمة"

كما أنه اتخذ موقفاً سياسياً، حين أوضح أن أولويته هي محاربة القوى السياسية التي تصبح تعبيراً عن قوة الأعمال الإجرامية. سيقدم دعمه للمشاريع الواقعية، وللتجديد. لن يلزم الحياد، "لقد بات الفريق السياسي مرتبكاً من ممثليه، فغالباً ما يكون المرشحون الذين تساندهم كامورا خالي الوفاض من أي سياسة أو حزب، ويقتصر دورهم على أنهم مجرد لاعبين يملأون فراغاً شاغراً معيناً" لم يكن الهدف هزيمة الكامورا، فكما يقول دون بيبينو نفسه "الفائزون والخاسرون جميعهم يضمهم مركب واحد" بل كان الهدف هو فهم ما يحصل، وتحويل مجرى الأمور، وهو أن يكون المرء شاهداً على ما يحدث، وأن يرفع صوته بالكلام بصراحة. وأن يجري تخطيطاً كهربائياً لقلب القوة الاقتصادية، ليفهم كيف يمكن ليّ عضلات أي عضو من أعضاء السيطرة في الجماعة.

لم أشعر ولا لحظة في حياتي بأنني إنسان تقي، ومع ذلك فقد كانت كلمات دون بيبينو تدوّي بشيء يتعدى أسماع المتدينين الأتقياء. لقد ابتكر منهجاً أعاد فيه سبك الخطاب الديني والسياسي معاً، منهجاً يحمل ثقة بالقدرة على العض على هكذا واقع بالنواجذ، وعدم تركه

إلى أن يمزَّق إرباً، كما يحمل لغة قادرة على تتبع رائحة المال.

"إننا نميل إلى الاعتقاد أن المال لا تنبعث منه رائحة، إن هذا صحيح فقط في حال كان في يدي الإمبراطور. لكن وقبل أن ينتهي إلى أصابعه، يكون للمال فعلاً رائحة كرائحة مرحاض المعسكر لقد كدح دون بيبينو في أرض لا يحمل المال فيها رائحة، لكن لمجرد ثانية فقط، وهي الثانية التي يتم فيها استخلاصه، قبل أن يصبح شيئاً آخر مشروعاً. ولأننا نستطيع تمييز الروائح فقط عندما تحتك بأنوفنا ومن خلال ما يصدر عن تلك الروائح، فقد أدرك دون بيبينو أن عليه أن يبقي وجهه قريباً من الأرض، وقريباً من وجوه الناس وعيونهم، وأنه لا يستطيع أن يبتعد عنهم إن كان يريد أن يستمر في الرؤية وتوجيه إصبع الاتهام، وإن كان يريد فهم كيف ومن أين تتراكم ثروة الأعمال، وكيف تبدأ أعمال القتل والاعتقالات، والعداوات والصمت. كان يتوجب عليه أن يبقي على الأداة الوحيدة التي يملكها لتغيير واقع زمانه، ألا وهي الكلمة، وأن يبقيها دوماً جاهزة على طرف لسانه. هذه الكلمة التي لم تكن لتقدر على الصمت، كانت هي من خطت حكم إعدامه. لم يتفق قاتلوه على يوم التنفيذ، فالتاسع عشر من آذار من عام 1994 كان ذكرى دينية.

باكراً ذاك الصباح، كان دون بيبينو في غرفة اجتماعات دار العبادة قرب مكتبه. ولم يكن قد ارتدى رداءه الأسود بعد، لذا فلم يكن واضحاً مباشرة أي الحاضرين كان هو.

- أيكم دون بيبينو؟

- أنا هو.

كان هذا جوابه الأخير. وردد صحن دار العبادة أصداء الرصاصات التي انطلقت نحوه. رصاصتان أصابتاه في وجهه، والأخرى حفرت في رأسه، ورقبته، ويده، وأخرى أصابت مجموعة المفاتيح المعلقة في

حزامه. لقد صوبوا على رأسه مطلقين النار من مدى قريب، وإحدى الرصاصات علقت بين سترته وكنزته. لقد كان دون بيبينو يستعد ليتلو صلاة الصباح الأولى، لقد كان في السادسة والثلاثين من العمر.

كان ريناتو ناتاله، المحافظ الشيوعي لكازال دي برينشيبه، من أوائل الذين هرعوا إلى دار العبادة، ووجد جثة رجل الدين لا تزال على الأرض. لم يكن قد مضى على انتخابه سوى أربعة أشهر، ولم يكن هذا التوقيت من قبيل المصادفة، فقد أرادوا لهذه الجثة أن تسقط خلال الفترة القصيرة جداً التي تولّى فيها هذا المنصب، إذ إن ناتاله كان المحافظ الأول لكازال دي برينشيبه الذي يضع محاربة الجماعة على رأس أولوياته. حتى إنه استقال من المجلس البلدي احتجاجاً على أن دوره اقتصر على مجرد التوقيع على قرارات كانت تصنع في مكان آخر.

في إحدى المرات، شن جنود الجيش غارة على منزل غايتانو كورفينو، وهو عضو في المجلس البلدي، ليجدوا صفوة مديري الجماعات محتشدين هناك، بينما كان كورفينو في اجتماع في قاعة المجلس البلدي. إدارة الأعمال هي السبب الوحيد لإخراجك من السرير، فهي تجذبك بشدة من لباس النوم وتضعك على قدميك.

لطالما راقبت ريناتو ناتاله عن بعد، كما يفعل المرء تجاه أولئك الأشخاص الذي يصبحون، دون رغبة منهم، رموزاً لفكرة الالتزام، والمقاومة، والشجاعة. رموز تكاد تكون غيبية، وغير واقعية، ومطابقة للأصل. لقد شعرت بحرج المراهق وأنا أراقب جهوده خلال السنوات السوداء التي دارت فيها الصراعات في إنشاء عيادات للمهاجرين، والتكلم ضد نفوذ عوائل كسالسي كامورا، وعمليات إدارة الإسمنت والنفايات لقد وصلوا إليه، هددوا حياته، أخبروه أنه إن لم يتوقف فستدفع عائلته ثمن اختياراته، لكنه استمر بمجابهتم بكل

وسيلة استطاعها، حتى إنه وضع ملصقات في أرجاء البلدة تفضح ما قررته الجماعات وما فرضته بالقوة. على المرء أن يكون على اطلاع بالتاريخ السياسي لهذه المنطقة، ليدرك الوزن الحقيقي لمصطلحات مثل الالتزام، والإرادة.

منذ أن وضع القانون الخاص بتسرب المافيا قيد التنفيذ، تم حلّ أربعة عشر مجلساً بلدياً في دائرة كاسيرتا، خمسة منها تم حلّها لمرتين؛ وهي: كارينولا، وكازال دي برينشيبه، وكاسابيسينا، وكاستيل فولتورنو، وسيسا، ولوتشيانو، وموندارغون، وبيغناتارو ماجيور، وريكاله، وسان شيبيريانو، وسانتا ماريا لا فوسا، وتيفيرولا، وفيلا دي بريانو، وسان تامارو. عندما يتمكن مرشحون معارضون للجماعات من الفوز في هذه البلدات، متغلبين على تجارة أصوات الاقتراع والاستراتيجيات الاقتصادية التي تقيّد كل تحالف سياسي، كان عليهم عندها أن يحسبوا حساباً لقيود الإدارات المحلية، من الموارد المالية المحدودة للغاية، والتهميش المطلق. عليهم أن يواجهوا ويدمروا لبنة لبنة، شركات متعددة الجنسيات بميزانية البلدية الصغيرة، وأن يكبحوا القوات الضاربة الهائلة بجماعات الجنود المحلية. كما حدث في 1988، عندما قام أنتونيو كانجيانو عضو مجلس بلدية كاسابيسينا بمعارضة تسرب الجماعة إلى عقود عمل معينة. لقد هددوه، ولاحقوه، وأطلقوا عليه النار في ظهره، في محل للبيتزا وعلى مرأى من الجميع. فإن لم يكن سيسمح لجماعة كسالسي بالتقدم، عندها لن تسمح له الجماعة حتى بالمشي على قدميه. فجراء اعتدائهم هذا، أضحى كانجيانو مقيداً إلى كرسي متحرك، أما مرتكبو الجريمة فقد صدر الحكم بتبرئتهم عام 2006.

إن كازال دي برينشيبه ليست مدينة ترزح تحت وطأة المافيا في صقلية، حيث من الصعب معارضة طبقة الأعمال الإجرامية، وتكون أفعالك فيها محاطة بموكب من آلات التصوير التلفزيوني، وبالصحفيين

المشهورين أو الذين في طريقهم إلى الشهرة، وبأسراب من السلطات التنفيذية التي تتدبر بطريقة ما أمر تضخيم الدور الذي تقوم به. هنا كل ما تقوم به يبقى ضمن محيط ضيق، وتتم مشاركته مع القلة فقط. إنني أعتقد أنه وتماماً ضمن هذه العزلة، يزوّر ما يمكن تسميته بالشجاعة. إنه نوع من الدرع الواقي الذي ترتديه دون تفكير أو انتباه منك. إنك تستمر، وتؤدي ما هو واجب عليك، وما تبقّى فهو بلا قيمة. لأن التهديد لا يأتي دوماً في صيغة رصاصة بين العينين، أو طن من أوساخ الجاموس الذي قد يترك على عتبة بابك.

إنهم ينالون منك ببطء، يسلخونك طبقةً طبقة، إلى أن تجد نفسك عارياً تماماً، ووحيداً. وتبدأ بالاعتقاد أنك تحارب ما لا وجود له، وما هو مجرد هلوسة في دماغك فقط. تبدأ بتصديق الافتراءات التي تجعل منك ذاك الساخط الذي يصب جام غضبه على الناجحين من الناس، أولئك الذين يدفعك الإحباط إلى وسمهم بأنهم كاموريون. إنهم يلعبون بك كما لو كنت أحد الأعواد في لعبة "التقط العود"، فهم يلتقطون جميع الأعواد من حولك ودون أن تتحرك مطلقاً، حتى تضحي في النهاية وحيداً تماماً، وهذه الوحدة هي ما سيسحبك من شعرك. لكنك لن تستطيع السماح لنفسك بهذا الشعور هنا. إنها لمخاطرة، فلو أنك تراخيت في وضعك الدفاعي قليلاً، لن تتمكن حينها من فهم القوى المحركة، والرموز، والخيارات. إنك تخاطر بعدم القدرة على ملاحظة أي شيء بعد ذلك، لذا فعليك أن تتمسك بكل ما تعدّه ملاذاً لك، عليك أن تجد ما يشحذ روحك بالهمة لتكون قادراً على المتابعة: الأديان، والأخلاق، والماركسية، والكبرياء، والفوضوية، ومحاربة الجريمة، والطهارة، والإصرار والثورة التي لا تنقضي، وانتماؤك إلى الجنوب، عليك أن تجد شيئاً ما، لا خطّافاً تتعلق به، بل شيئاً شبيهاً أكثر بالجذر، تحت الأرض، ولا تمكن مهاجمته. ففي معركتك التي

تعلم يقيناً أنك ستلعب فيها دور الخاسر، يوجد أمر عليك مراقبته ومعرفته. وعليك أن تكون واثقاً من أنه سيزداد قوة بينما تصبح طاقتك المهدورة نوعاً من الحماقة والاستحواذ. لقد تعلمت أن أميز ذلك الجذر المغروس في الأرض، في أعين أولئك الذين اتخذوا قراراً بأن يحدقوا وجهاً لوجه، إلى أعين قوى معينة.

كان جوزيبيه كوادرانو ورجاله المشتبه بهم في مقتل دون بيبينو. كما كان هناك أيضاً شاهدان، أحدهما مصور كان قد قدم ليتمنى الخير لدون بيبينو، والثاني هو حافظ إحدى الغرف في دار العبادة. وحالما تفشى الخبر بأن شكوك الشرطة تحوم حول كوادرانو، قام الزعيم نانزيو دي فالكو، الملقب بأولوبو أي الذئب، باستدعاء شرطة كاسيرتا، وطلب عقد اجتماع لتوضيح بعض المسائل المتعلقة بأحد شركائه. ونتيجة لتقسيمات إقليمية متعلقة بالنفوذ بين الكسالسيين، حُدّد مقر دي فالكو في غرناطة بإسبانيا. فتوجه اثنان من ضباط كاسيرتا لمقابلته هناك، ولاقتهما زوجة الزعيم في المطار، ثم استقلوا السيارة معاً مجتازين الريف الأندلسي البديع. وكان الزعيم بانتظارهم، لا في فيلته في سانتا في، وإنما في مطعم كان على الأرجح معظم الزبائن فيه من أعوانه المطلعين على الأمر، والذين على أهبة الاستعداد للتدخل، في حال قامت الشرطة بأي عمل متهور. على الفور شرح الزعيم بأنه استدعاهم ليعرض لهم روايته عن الحادثة، كنوع من التفسير لحادثة تاريخية بعيداً من الشجب والاتهام. إنه تمهيد واضح وضروري كي لا يلوث اسم العائلة وسلطتها. لم يستطع الزعيم أن يبدأ بالتعاون مع الشرطة، ودون لف أو دوران أعلن أن خصومه أفراد عائلة سكيافوني هم وراء مقتل دون بيبينو، وأنهم قد أقدموا على هذه الفعلة كي تحوم الشكوك حول عائلة دي فالكو. لقد قال "الذئب" إنه ما كان على

الإطلاق ليصدر الأمر بقتل دون بيبينو ديانا لأن أخاه ماريو كان مقرباً منه. بل إن رجل الدين قد نجح حتى في الحؤول دون تحول ماريو إلى مدير في الجماعة، وذلك بأن استمر في محاورته ليحرره من تنظيم كامورا. لقد كان هذا أحد أهم إنجازات دون بيبينو، لكن دي فالكو استخدمه كحجة تبرّئه. وقام شريكان آخران هما ماريو سانتورو، وفرانسيسكو بياسينتي بدعم نظرية الزعيم.

جوزيبيه كوادرانو كان في إسبانيا كذلك. في البداية نزل ضيفاً على فيلا دي فالكو، ومن ثم استقر في قرية قرب فالينسيا. لقد أراد أن يؤسس لنفسه مجموعة، وحاول أن يستخدم بعض شحنات المخدرات ليسرّع من هذا التأسيس لجماعة عمل إجرامية إيطالية إضافية في جنوبي إسبانيا، لكنه لم يفلح. إذ لطالما كان كوادرانو في أعماقه شخصاً مؤيداً، وبالتالي فقد سلم نفسه للشرطة الإسبانية، وأعلن عن استعداده للتعاون. وقد ناقض رواية دي فالكون إذ أقر بأن جريمة القتل تلك حصلت في سياق العداوة الدائرة بين مجموعته وآل سكيافوني. كان كوادرانو رئيس حي كارينارو، ورجال ساندوكان الكسالسيون كانوا قد قتلوا مؤخراً أربعة من شركائه، وعمّيه وزوج أخته. لقد ذكر كوادرانو أنه هو وماريو سانتورو قد قررا قتل آلدو سكيافوني، ابن عم ساندوكان، ليثأرا لذاك الاعتداء. وقبل أن يأتيا بأي حركة اتصلا بدي فالكو في إسبانيا - فما من ضربة يمكن توجيهها قبل الحصول على موافقة الزعيم - لكن دي فالكو جمّد كل شيء. فإن قتل ابن عم ساندوكان سكيافوني، سيأمر الأخير بقتل جميع أقرباء دي فالكو في كامبانيا. وأعلن الزعيم بأنه سيرسل فرانسيسكو بياسينتي لتنفيذ أوامره. لقد قطع بياسينتي الطريق بين غرناطة وكازال دي برينشيه بسيارته المرسيدس، وهي السيارة التي أصبحت رمزاً لهذه المنطقة في الثمانينيات والتسعينيات. لقد صُدم الصحافي إنزو

بياجي عندما حصل على إحصائيات مبيعات المرسيدس في إيطاليا لأجل مقالة كتبها في التسعينيات، لقد كانت كازال دي برينشيبه، من بين المناطق الأعلى نسبة في أوروبا في المبيع. غير أنه لاحظ كذلك رقماً قياسياً آخر، وهو أن كازال دي برينشيبه كانت المنطقة المدنية ذات النسبة الأعلى في معدل جرائم القتل، في مناطق أوروبا كلها. إن علاقة المرسيدس بجرائم القتل ستبقى موضع رصد متواصل في أقاليم كامورا. وحسبما باح به كوادرانو، فإن بياسينتي أبلغ الآخرين أنه من الضروري القضاء على دون بيبينو، ولم يعلم أحد لماذا، إلا أنهم جميعاً كانوا واثقين من أن "الذئب" يعلم ما يفعل. كذلك ذكر كوادرانو، أن بياسينتي أعلن عن استعداده للقيام بعملية القتل بنفسه، شريطة أن يرافقه سانتورو أو أي عضو آخر في الجماعة. إلا أن ماريو سانتورو تلكأ، وقام بالاتصال بدي فالكو ليخبره أنه ضد عملية القتل، إلاّ أنه استسلم في النهاية. إذ لم يكن له، إن كان يريد أن يحافظ على المكانة التي قلّده إياها، كسمسار في تجارة المخدرات مع إسبانيا، أن يتجاهل أمراً على هذه الدرجة من الأهمية. لكنه أيضاً لم يستطع تقبّل مقتل رجل دين، وبخاصة إن كان دون أي دافع واضح، واعتبار مهمة قتله مثل أي مهمة عادية أخرى. القتل في تنظيم كامورا أمر لا بد منه، إنه شبيه بإيداع المال في المصرف، أو شراء امتياز، أو فصم عرى صداقة. إنه لا يختلف كثيراً عن بقية الأمور في حياتك، إنه جزء من بزوغ وأفول كل عائلة في كامورا، وكل زعيم، وكل عضو. لكن قتل رجل دين، هو أمر يخز ضميرك، وهو خارج دائرة آليات النفوذ تبعاً لكوادرانو، فقد انسحب فرانسيسكو بياسينتي، مدعياً أنه معروف لدى الكثير من الأشخاص في كازال دي برينشيبه، ولا يمكن بالتالي أن يكون له ضلع في عملية القتل تلك. لكن ماريو سانتورو قَبِل، كما قَبِل أن يكون برفقته عضو، كان قد نفّذ معه عمليات أخرى سابقة،

من جماعة رانوتشي من سانت أنتيمو يدعى جوزيبيه ديلا ميداغليا. وحسبما ذكره التائب، فقد تمّ الترتيب للقائهما في السادسة من صباح اليوم التالي. لكن الفرقة بأكملها أمضت تلك الليلة في عذاب واهتياج، لقد كانوا قلقين، لم يغمض لهم جفن وأخذوا يتشاجرون مع زوجاتهم. رجل الدين ذاك أثار فيهم رعباً أكبر من بنادق جماعات خصومهم.

لم يظهر ديلا ميداغليا في الساعة الموعودة، بل أجرى اتصالات في تلك الليلة مع شخص آخر ليحل محله، وهو فينسينزو فيرديه. لم تكن بقية أعضاء الفرقة راضية تماماً عن اختياره لأن فيرديه كان يعاني من نوبات صرع، وكان هناك مخاطرة بعد إطلاق النار، في أن يقع على الأرض متشنجاً والزبد يخرج من فمه، وأسنانه تعض على لسانه حتى تكاد أن تقطعه. لذا فقد حاولوا جعل نيكولا غاغليون يحل محله، لكنه رفض الأمر جملة وتفصيلاً. أما سانتورو فقد أصيب بالتهاب في الأذن الداخلية، ولم يستطع الالتزام بأي خطة معدّة، فأرسل كوادرانو أخاه أرماندو ليرافقه. كانت العملية بسيطة: تنتظر سيارة القتلة أمام دار العبادة، ثم أن عليهم الخروج بهدوء بعد إنجازهم المهمة، وكأنها كانت صلاة مبكّرة. فالفرقة الضاربة لم تكن في عجلة للفرار بعد تنفيذ حكم الإعدام. لقد دعي كوادرانو ليذهب إلى إسبانيا في الأمسية نفسها، لكنه رفض، فقد كان يشعر بالأمان كون مقتل دون بيبينو حدث بطريقة لا تمت بصلة لأساليبهم المعتادة. وكما كان الدافع للجريمة بالنسبة إليهم أمراً غامضاً، فسيكون كذلك بالنسبة إلى الشرطة. وعلى أي حال، ما إن بدأت تحقيقات الشرطة بالتوسع في جميع الاتجاهات، حتى غادر كوادرانو إلى إسبانيا. حتى إنه صرح بأن فرانسيسكو بياسينتي قد أخبره، أن نانزيو دي فالكو، وسيباستيانو كاتيرينو، وماريو سانتورو كان من المفترض أن يقتلوه، ربما لأنهم ارتابوا برغبته بتقديم الأدلة للولاية، لكن وفي اليوم المحدد لضربتهم، شاهدوه في السيارة مع ابنه الصغير،

وقرروا أن يصفحوا عنه.

في كازال دي برينشيبه، أخذ ساندوكان يسمع اسمه باستمرار مرتبطاً بقضية التخلص من رجل الدين. فأعلم أسرة دون بيبينو، أنه إن وضع رجاله أيديهم على كوادرانو قبل أن تفعل الشرطة، فسيقطعونه إلى ثلاثة أجزاء، ويرمونها في فناء دار العبادة. لم يكن هذا ثأراً، بل تعبيراً واضحاً عن خلو طرف ساندوكان من أي علاقة في مقتل دون بيبينو. وبعدها بفترة وجيزة، عقد أفراد جماعة دي فالكو اجتماعاً في إسبانيا لتحديد الطريقة التي يردّون فيها على ادعاءات فرانسيسكو سكيافوني، بأن ليس له علاقة بالجريمة. واقترح جوزيبيه كوادرانو قتل أحد أقرباء سكيافوني، وتقطيعه إلى أجزاء صغيرة، وتركه في كيس أمام دار عبادة دون بيبينو، وهي طريقة تلقي باللائمة على ساندوكان. لقد توصل كلا الحزبان، إلى الحل ذاته، ودون علم منهما بمخططات الآخر، وهو أن الطريقة المثلى لإرسال رسالة لا تمحى، هي في تقطيع الأجساد وبعثرة الأجزاء.

وبينما كان قاتلو دون بيبينو يناقشون تقطيع اللحم ليثبتوا موقفهم، كنت لا أزال أفكر في معركة رجل الدين، وفي السلطة العليا للكلمة. كنت أفكر في رغبته الجديدة والقوية بوضع الكلمة في مركز الصراع ضد القوى المحركة للنفوذ. الكلمات ضد جبّالات الإسمنت والأسلحة، وليس على نحو مجازي، بل بشكل واقعي: أن تتكلم عالياً، وتشهد، وأن يكون لك موقفاً. الكلمة ودرعها الوحيد، وهو النطق بها. الكلمة التي هي شاهد يقظ، لا ينفك يبحث عن الحقيقة أبداً. والطريقة الوحيدة لإزالة هذه الكلمة من الوجود، هي في قتلها.

في عام 2001، قدمت محكمة سانتا ماريا كابوا فيتيريه الحكم الأول: السجن المؤبد لكل من فينسينزو فيرديه، وفرانسيسكو بياسينتي،

وجوزيبيه ديلا ميداغليا. كان جوزيبيه كوادرانو قد بدأ مسبقاً بمحاولة تشويه صورة دون بيبينو. فخلال التحقيق معه أخذ يتأمل في سلسلة الدوافع وراء الجريمة، كانت نيّته في ذلك أن يخنق التزام رجل الدين بالحق، وذلك بأنشوطة من التفسيرات الإجرامية المنشأ. لقد قال إن نانزيو دي فالكو قد أعطى دون بيبينو بعض الأسلحة، التي أعطاها بدوره دون تفويض لوالتر سكيافوني، وهذا ما أدى إلى معاقبته على هذا التجاوز المهلك الخطير. وكان هناك أيضاً حديث عن جريمة عاطفية، وأنه قتل لأنه كان يخطّط لعلاقة مع قريبة أحد الزعماء. وكما أن مجرد نعت امرأة ما بأنها قذرة كفيل بأن يوقف أي نوع من التفكير فيها، كذلك فإن أسرع طريقة لإنهاء الاهتمام برجل دين هي اتهامه بمداومة لقاء بنات الهوى. وفي النهاية كشفوا أن دون بيبينو قد قتل لعدم اضطلاعه بمهامه كرجل دين، حين لم يرد أن يقيم في دار العبادة مراسم جنازة أحد أقرباء كوادرانو. لقد كانت كلها دوافع مضحكة ولا تصدق، في محاولة لمنع دون بيبينو من أن يصبح ضحية في عيون الناس، ولمنع كلمته من الانتشار، ولتحويله من ضحية لكامورا، إلى جندي في الجماعة. كثيراً ما يعتقد الناس الذين ليسوا على اطلاع على آلية قوى كامورا، بأن قتل الجماعات لإنسان بريء هو عمل في غاية السذاجة، لأنه إنما يضفي مشروعية على كلمات ذلك الشخص ويضخم من صورته كقدوة، ويأتي كإثبات على مصداقية الحقائق التي قالها. لكن ليست هذه هي الحال على الإطلاق، فما إن تموت في بلاد كامورا حتى تكتنفك شبهات لا عدد لها، وبراءتك منها هي مجرد فرضية بعيدة الاحتمال. في بلاد كامورا، نظرية الحقوق الحديثة مقلوبة رأساً على عقب.

إن الاهتمام الإعلامي قاصر لدرجة أنّه حتى أصغر شك يكفي لمنع الصحف من طباعة خبر مقتل شخص بريء. ومن ثم إن لم

يكـن هنـاك المزيـد مـن الموتى، فلن يركّز أحد علـى القضية. لذا فقد كان أمـراً جوهريـاً تدميـر صـورة دون بيبينـو ديانا في تكتيك يرمي إلى تخفيف الضغط عن الجماعات، ويسكّن المشكلة المزعجة التي تتجلى في يقظة الاهتمام القومي بالمسألة.

إحدى الصحف المحلية حولت حملة تشويه سمعة دون بيبينو إلى طبل تقرع عليه. لقد كانت العناوين الرئيسية كثيفة لدرجة أن أصابعك تستحيل إلى اللون الأسـود وأنت تقلب الصفحات: "دون بيبينو كان كاموريـاً"، وبعد بضعة أيام، عنوان آخر: "دون ديانا في السرير بصحبة امرأتيـن" لقـد كانـت الرسـالة واضحـة: ما من أحد يمكنه الوقوف في وجـه الكامـورا، وأيـاً كان مـن سـيفعل، سـيكون حامـلاً دومـاً لدوافع شخصية، أو شجار، أو أمر خاص يجعله يتمرّغ في الوحل نفسه.

لقـد دافـع عنه أصدقاؤه القدامى، وأقرباؤه، والناس الذين اتّبعوه، بمـن فيهـم الصحفيـون: رفاييل سـاردو حفظ ذكراه فـي مقالاته وكتبه، كذلك فعل روسـاريا كاباتشـيونه الذي راقب اسـتراتيجيات الجماعات وقوتهم المعقدة والوحشية، ودهاء البنتيتي (التائبين).

في عام 2003، شكّك الاستئناف في جوانب من شهادة جوزيبيه كوادرانـو السـابقة، وبُـرِّئ كل مـن فينسـينـزو فيرديـه، وجوزيبيـه ديـلا ميداغليـا. لقـد اعتـرف كوادرانو بحقائق جزئية، فقد كانت اسـتراتيجيته منـذ البدايـة ألا يقـر بمسـؤوليته فـي الأمـر. لقـد كان هـو القاتل، هذا مـا شـهد به الشـهود الذيـن تعرفوا إليه، وأكده تقريـر تحليل الطلقات. جوزيبيـه كوادرانـو هـو من قتل دون بيبينـو ديانا. كانت الفرقة الضاربة مؤلفة من كوادرانو، وسـانتورو الذي لعب دور السـائق، وفرانسيسـكو بياسـينتي الـذي كان يزودهـم بالمعلومـات، لإدارة العمليـة، عـن دون بيبينو، والتي كانت تصل مباشرة من إسبانيا من قبل دي فالكو. وعليه فقد أقر الاستئناف حكم السجن مدى الحياة ليشمل كلاً من بياسينتي

وسانتورو. حتى إن كوادرانو سجل مكالمات هاتفية أجراها مع شركائه، كان قد أكد خلالها مراراً خلو طرفه من العلاقة بالجريمة، ثم قدّم هذ التسجيلات في ما بعد إلى الشرطة. أدرك كوادرانو أن الأمر بالقتل قد صدر من دي فالكو، وهو لم يكن يريد أن يشاع أنه كان مجرد رجل العضلات في العملية. من المرجح إلى حدٍّ كبير، أن يكون جميع الأشخاص الذين ذكرهم كوادرانو في روايته الأولى، قد بالوا في ثيابهم، ولم يريدوا أن تكون لهم بأي حال من الأحوال أي علاقة بعملية القتل هذه. هناك أوقات تكون فيها الرشاشات والمسدسات غير كافية لمجابهة وجه غير مسلح، وخطاب صريح.

أما نانزيو دي فالكو، فقد ألقي القبض عليه في ألباسيت بينما كان على متن قطار فالنسيا - مدريد. لقد أنشأ اتحاداً إجرامياً قوياً مع بعض رجال ندرانيتا، ومع قلة من المنسحبين من كوسا نوسترا. وبحسب مصادر من الشرطة الإسبانية، فقد حاول في جنوبي إسبانيا أن ينظم الغجر في جماعة إجرامية. لقد بنى إمبراطورية احتوت على قرى سياحية، وبيوت قمار، ومتاجر، وفنادق. ولقد تحسنت البنية التحتية بشكل مثير في كوستا ديل سول الإسبانية عندما قررت الجماعات الكسالسية والنابوليّة أن تحول المنطقة إلى لؤلؤة للسياحة.

في كانون الثاني من عام 2003، صدر بحق نانزيو دي فالكو بوصفه المحرض على قتل دون بيبينو ديانا، حكماً يقضي بالسجن المؤبد. عندما تُلي الحكم في قاعة المحكمة، شعرت برغبة في الضحك، لكنني تدبرت أمري بأن تمالكت نفسي، ولم أدع خديّ ينتفخان. لم أستطع تحمل سخافة ما كان يحصل، فقد كان محامي نانزيو دي فالكو وهو غايتانو بيكوريلا، رئيس هيئة وكلاء العدالة، وفي الوقت ذاته مستشار الدفاع لأحد أكبر زعماء اتحاد كسالسي كامورا. لقد ضحكت لأن الجماعات كانت قوية لدرجة أنها عكست

بين بديهيات الطبيعة والخرافة، فالحمل كان يدافع عن الذئب. لكن لعل هذياني كان نتيجة الإرهاق، وبين الانهيار العصبي.

لقد كان لقب نانزيو دي فالكو مرسوماً على وجهه، فهو بالفعل يبدو كالذئب. وفي صورته في بطاقة الهوية يطل عليك وجه طويل، مغطى بلحية رقيقة وشوكية، وكأنها بساط من الإبر، له أذنان مدببتان، وشعر أشعث، وبشرة داكنة اللون، وفم مثلث. إنه يبدو تماماً كواحد من أولئك المستذئبين الذين يظهرون في أفلام الرعب. ومع ذلك كرّست إحدى الصحف المحلية، وهي ذاتها التي تبجحت حول علاقات دون بيبينو مع الجماعة، كرّست صفحتها الأولى لتستفيض في صفاته كعاشق، ترغبه النساء والفتيات. لقد صيغت العناوين الرئيسية في عدد 17 كانون الثاني من عام 2005 بكل فصاحة لتقول: "نانزيو دي فالكو، ملك الفاسقين"

كازال دي برينشيبه

إنهم ليسوا وسيمي الطلعة، لكنهم جذابون لأنهم زعماء، هذا ما هي عليه الحال. إن كان أحد سيصنف مراتب الزعماء اللعوبين في المنطقة، فستذهب المرتبة الأولى إلى اثنين مدانين بشكل متكرر من كازال دي برينشيبه، ستذهب إلى رجلين ليسا حتماً جميلي المحيا، على عكس دون أنتونيو بارديلينو الذي هو بين الجميع الأكثر فتنة وجاذبية. إننا نتحدث عن فرانسيسكو بياسيتي، واسمه المستعار هو الأنف الكبير، ونانزيو دي فالكو واسمه المستعار هو الذئب. يتناقل الناس أنّ لأحدهما خمس زوجات، وللآخر سبعاً، ومن الواضح أننا لا نعني بحديثنا هذا الزيجات الحقيقية، وإنما علاقات طويلة الأمد، أثمرت عن إنجاب الأطفال. في

الواقع، إن لنانزيو دي فالكو على ما يبدو أكثر من اثني عشر ابناً وابنة من نساء مختلفات. أمر آخر مثير للاهتمام، وهو أن هؤلاء النسوة لسن جميعهن إيطاليات، فمنهن الإسبانية، والإنكليزية، والبرتغالية. إن هؤلاء الرجال يفعلون كما البحارة، فهم يكوّنون أسراً جديدةً في كل مكان يختبئون فيه... وليس محض مصادفة أن تستدعى بعض هؤلاء النسوة للشهادة في أثناء محاكماتهم، وكل منهن كانت امرأة جميلة وراقية. إن الجنس اللطيف هو السبب في انحدار العديد من الزعماء، فكثيراً ما تقود النساء على نحو غير مباشر إلى أسر أشد الزعماء خطورة، فبتعقبهن للنساء، استطاع المحققون الوصول إلى زعماء من مستوى فرانسيسكو سكيافوني سيتشياريللو... بكلمات أخرى، النساء نعمة متفاوتة حتى بالنسبة إلى الزعماء.

إن موت دون بيبينو كان الثمن للحصول على الوفاق بين الجماعات. حتى حكم المحكمة كان يحمل إشارة لهذه الفرضية. فقد كان لا بد من الوصول إلى اتفاق بين الطرفين المتنازعين، ولعل ختمه طبع على لحم دون بيبينو. كما لو أنه كان كبش الفداء، فإزالته من الوجود عَنَتْ الحل لمشكلة جميع العوائل، وفي الوقت ذاته شكلت إلهاءً للسلطات عن ملاحقة شؤون أفرادها.

لقد سمعت حديثاً عن شيبريانو، وهو صديق لدون بيبينو منذ الطفولة، كان قد كتب خطبة مستوحاة من إحدى خطب رجل الدين لتتلى في الجنازة، لكنه يومها لم يجد حتى القوة على النهوض. لقد رحل عن كامبانيا قبل سنوات عديدة، واستقر قرب روما بعد أن قرر ألاّ تطأ قدماه ذاك المكان إلى الأبد. لقد أخبروني أن حزنه على دون

بيبينو جعله طريح الفراش لشهور طويلة. وكلما سألت إحدى قريباته عنه، تجيبني بطريقة آلية وبالصوت الحزين نفسه: "لقد انغلق على نفسه، شيبريانو انغلق على نفسه!"

"إن هذا يحدث بين حين وآخر وبشكل متكرر"، هذه العبارة التي تستخدم في هذا المكان، لم يكن وقعها غريباً. في كل مرة أسمع فيها هذا التعبير، أفكر بغويستينو فورتوناتو، الذي مشى في بدايات القرن العشرين على طول جبال أبينين الجنوبية، ليتعرف إلى أنواع البلدات المتشرة على طول السلسلة الجبلية. لقد زار كل واحدة منها، مقيماً مع المزارعين، منصتاً إلى الفلاحين الغاضبين، متعرفاً إلى صوت ورائحة قضية الجنوب. لاحقاً عندما أصبح عضواً في مجلس الشيوخ، عاد إلى تلك البلدات، وسأل عن الأناس الذين التقاهم قبل سنوات، والذي أراد أن يشرك الأكثر منهم في مشاريعه للإصلاح السياسي استعداداً للقتال. لكنه كثيراً ما تلقى الجواب من أقربائهم: "لقد انغلق على نفسه!" أن تنغلق على نفسك يعني أن تصبح صامتاً، وأبكم عملياً، في رغبة منك بأن تهرب إلى داخلك، وتتوقف عن معرفة ما يدور حولك، وتتوقف عن الفهم، وعن الفعل. أن تتوقف عن المقاومة، هو قرار بالانسحاب تتخذه في اللحظة التي تسبق انحلالك في تسويات الحياة. شيبريانو انغلق على نفسه أيضاً. أخبروني في البلدة أنه وصل إلى هذه الحالة بعد أن ذهب إلى مقابلة عمل في إحدى شركات الشحن في فروسينونه لشغل منصب في الموارد البشرية، من أجرى المقابلة معه أخذ يقرأ سيرته الذاتية بصوت عال، لكنه توقف عند اسم بلدته، قائلاً:

- آه، نعم، إنني أعلم من أين أنت! إنها بلدة ذلك الزعيم المشهور... ساندوكان، أليس كذلك؟

- لا، بل بلدة دون بيبينو ديانا.

- من؟؟ *مكتبة الرمحي أحمد*

نهض شيبريانو، ومشى خارجاً. لقد أدار كشكاً للصحف في روما ليعيل نفسه. حصلت على عنوانه من والدته، التي صادف أنها كانت تقف أمامي بانتظار دفع الحساب في السوبرماركت. لا بد أنها قد نبهته إلى قدومي، لأنه لم يجب عندما قرعت جرس الباب. لعله كان يعلم ما أردت أن أكلمه فيه. إلا أنني انتظرت خارجاً لساعات، وكنت على استعداد لأن أنام على عتبة بابه. وأخيراً قرر شيبريانو الخروج، لكنه بالكاد قال لي مرحباً، ثم تمشينا إلى منتزه صغير قريب من منزله. أشار إليَّ بالجلوس على أحد المقاعد، ثم أخرج مفكرة من النوع الذي تستخدمه في المدرسة الابتدائية، وفتحها. وهناك على الصفحات المسطرة كانت خطبته، مكتوبة بشكل كامل دون اختزال. من يدري لعل خط يد دون بيبينو موجود هناك في مكان ما بين تلك الصفحات، لكنني لم أجرؤ على السؤال. تلك الخطبة كانا ينويان توقيعها معاً، ثم أتى القتلة، وأحضروا معهم الموت، وتشويه السمعة، والعزلة المتعذر فهمها. عندما بدأ شيبريانو بالقراءة، كان صوته وإيماءاته شبيهة بفرا دولتشينو، وهو الواعظ في القرون الوسطى الذي كان يجوب الشوارع معلناً عن اقتراب النهاية، والذي أعدم حرقاً بتهمة الهرطقة:

"إننا لن نسمح بأن تتحول بلادنا إلى مرتع للكامورا، وإلى غومورا واحدة جبّارة تستوجب التدمير! يا رجال الكامورا - الرجال الذين لا يختلفون عن غيرهم، وليسوا وحوشاً - إننا لن نسمح لكم بأن تجدوا هنا طاقة محظورة في ما هو شرعي في مكان آخر، إننا لن نسمح لكم بأن تدمروا هنا ما هو معمّر في أماكن أخرى. إنكم تصنعون صحارى حول فيلاتكم، ووحدها رغباتكم الجامحة هي ما يقف بين ما أنتم عليه حقاً، وبين ما تريدون. إن الرجال يموتون لأجل كلمة

نعم أو لا، ويقدمون حياتهم مقابل قرار شخص ما أو أوامره. إنكم تمضون عقوداً في السجن لتصلوا إلى قوة الموت، إنكم تكسبون جبالاً من المال تستثمرونها في بيوت لن تسكنوها يوماً، وفي بنوك لن تطأها أقدامكم يوماً، وفي مطاعم لا تديرونها، وشركات لا تترأسونها. إنكم تسيطرون على قوة ميتة، لأجل أن تهيمنوا على حياة تقضونها مختبئين تحت الأرض، محاطين بالحراس. إنكم تَقتلون وتُقتلون في لعبة شطرنج، لكنكم لستم الملك فيها. الملوك هم أولئك الذين يجنون الثراء من ورائكم، ويدعونكم تأكلون بعضكم بعضاً، إلى ألاّ يبقى أحد على الرقعة ليقول كش ملك، سوى بيدق صغير، ولن يكون هو أنت. ما تلتهمونه هنا، ستبصقونه في مكان آخر، مكان بعيد للغاية، كالطيور التي تتقيأ الطعام في أفواه صغارها. غير أن من تطعمونهم ليسوا بصغار الطير، بل هم نسور كواسر، وأنتم لستم أمّات الطيور، بل الجواميس التي على استعداد لأن تدمروا أنفسكم، في مكان أضحت فيه الدماء والقوة رمزين للانتصار

وتوقف شيبريانو عن القراءة. لقد بدا وكأنه قد تخيّل جميع الوجوه التي كان يود لو يقذف في وجهها هذه الكلمات. اختنقت أنفاسه، كما لو كان يعاني من الربو. فأغلق مفكرته، وغادرني دون كلمة وداع.

هوليوود

هناك في كازال دي برينشيبه يوجد الآن مركز رعاية للأطفال، أنشئ تخليداً لذكرى دون بيبينو ديانا. لقد أنشئ في فيلا فخمة ورحبة كان قد استولى عليها أحد الأعضاء في جماعة كسالسي، وهو إيجيديو كوبولا. لقد أخذت وكالة تحديث وتطوير وسلامة كاسابيسينا، وكازال دي برينشيبه، وسان شيبريانو دافيرسا، وفيلا ليتيرنو، AGROOINASCE، بتحويل كل ممتلكات كامورا المصادرة إلى مرافق اجتماعية. هذه الممتلكات المصادرة، إن لم يتم استخدامها لأغراض أخرى، تظل حاملة لدمغة الزعماء الذين بنوها وعاشوا فيها. فحتى وهي مهجورة، تبقى رموزاً للسيادة. إن الرحلة عبر أفيرسا مارشيز تعرض دليلاً عن الأساليب المعمارية التي وجدت خلال السنوات الثلاثين الماضية. تقدم الفلل الأكثر فخامة ومهابة، والتي تعود إلى المتعهدين وأصحاب الأراضي، نموذج التقليد لمنازل الموظفين وأصحاب المتاجر. فإن كان النموذج الأصلي متوجاً بأربعة أعمدة دُورية إغريقية من الإسمنت المسلح، فقد زُيّن النموذج المقلّد بعمودين حجمهما يعادل نصف حجم الأعمدة الأصلية. لقد ملأت لعبة التقليد هذه المنطقة بفلل تتنافس لتكون الأكثر تأثيراً، والأكثر تعقيداً، ولا تحتمل النقد. قصور تكافح لتكون غريبة ومتفردة، كذاك الذي كانت له بوابة تنسخ في هندستها لوحة موندريان.

إن فلل الكامورا المحمية بالأسوار وكاميررات الفيديو، هي

كاللآلئ المحفوظة في المناطق الريفية، هناك العشرات والعشرات منها، ذات الرخام والخشب المزخرف في أرضيتها، وتحتوي صفوفاً من الأعمدة والسلالم، ومواقد من الغرانيت حفرت عليها الحروف الأولى من اسم الزعيم. الڤيلا التي كانت الأكثر ترفاً وشهرة بين هذه الڤلل، أو لعلها تلك التي تولّدت حولها الأساطير على أكبر نحو، هي تلك التي يدعوها الجميع باسم هوليوود. إن مجرد نطقك للكلمة سيجعلك تفهم لماذا. لقد كانت هوليوود هي منزل والتر سكيافوني، وهو شقيق ساندوكان الذي تولى إدارة أعمال الجماعة في الإسمنت لسنوات طويلة. ليس من الصعب تخمين السبب وراء هذا الاسم، فمن السهل تخيل المساحات الواسعة، وتخيّل الروعة في كل زاوية، لكن هذا لم يكن كل شيء. فقد كان فعلاً لڤيلا والتر سكيافوني صلة بهوليوود. يتناقل الناس في كازال دي برينشيبه، أن الزعيم قد أخبر مهندسه المعماري أنه يريد لفيلاه أن تكون كفيلا توني مونتانا، في فيلم *Scarface*، وهو رجل العصابات الكوبي الذي استقر في ميامي. لقد شاهد الفيلم عدداً لا يحصى من المرات، وقد ترك فيه أثراً عميقاً، إلى درجة أنه أصبح يتمثّل بالشخصية التي لعبها الممثل آل باتشينو. وبالفعل، مع قليل من التخيل يمكن لوجه سكيافوني الأجوف أن يصبح كبير الشبه بوجه الممثّل، بل ويطغى عليه. إن هذه القصة تحمل جميع مقومات الأسطورة. يذكر الناس أن سكيافوني قام حتى بإعطاء نسخة من الفيلم لمهندسه، لأنه أراد فيلا *Scarface* هي بذاتها، تماماً كما ظهرت في الفيلم. تبدو هذه القصة كواحدة من تلك القصص التي تضفي زخرفاً على ارتقاء كل زعيم على سلم السلطة، هي كالعبير الممتزج بالأسطورة، مما يجعلها خرافة مدنية أصيلة. ففي كل مرة تُذكر فيها هوليوود، تسمع أحدهم يقول إنه عندما كان صغيراً، شاهد الڤيلا وهي تبنى، حدث ذلك حين كانت مجموعة من الصبية على دراجاتهم

الهوائية يتأملون في ڤيلا توني مونتانا التي غادرت الشاشة، وأخذت تنهض في قلب الحي. إن هذا الأمر غريب في حد ذاته، لأنه في كازالي، لا يبدأ بناء الفيلا إلا بعد أن ترتفع أسوار عالية تحجب الموقع عن الرؤية. أما أنا، فإنني لم أصدق يوماً رواية هوليوود. فمن الخارج، تبدو فيلا سكيافوني كمستودع تحيط به الأسوار العالية المتوجة بأسلاك شائكة، والبوابات المسلحة التي تحمي كل منفذ فيه. فما من طريقة يستطيع بها المرء أن يخمن ماذا يوجد وراء هذه الأسوار، لكنهم يتركونك تعتقد أنه ولا بد أن يكون شيئاً باهظ الترف.

عند المدخل الرئيسي، هناك علامة خارجية واحدة فقط نالت الشهرة والإعجاب بصمت. إنها البوابة الحمراء، التي كان يمكن أن تشبه بوابة المَزارع الريفية لولا الأعمدة الدُورية الإغريقية التي تحيط بها، ولولا قوصرتها ذات التجويف التي تتضارب مع الرزانة المنضبطة للجدران السميكة، وللبوابة. إن هذه القوصرة الغائرة ذات الطابع الوثني الحديث، هي في الواقع رمز العائلة، فهي ترسل برسالة لكل من يعرف المكان مسبقاً. ومنظرها وحده، كان كافياً ليقنعني بأن الڤيلا الأسطورية كانت في الواقع حقيقة. لقد فكرت عشرات المرات أن أذهب لمشاهدتها بنفسي، لكن الأمر بدا مستحيلاً. فحتى بعد أن تمت مصادرة هوليوود من قبل السلطات، ما زال حراس الجماعات يحرسونها. في صباح أحد الأيام، وقبل أن أعي ما كنت مقدماً عليه، استجمعت شجاعتي وذهبت إلى هناك. دخلت من أحد المداخل الجانبية، الآمنة من أعين الفضوليين الذين لن يسرهم تطفلي على المكان. لقد كانت الڤيلا جليلة ومضيئة. واجهتها الضخمة تبعث على الرهبة في النفوس، وتتألف من أعمدة تدعم مثلثاً مضاعفاً في واجهة المبنى، ومن نصف دائرة مزروعة في المركز. القاعة الأمامية كانت هذياناً معمارياً بحق، فيها درجان كأجنحة من الرخام، يحلقان إلى شرفة الطابق الثاني التي

كانت تطل على القاعة الضخمة في الأسفل، تماماً كفيلا توني مونتانا. حتى إنه كان يوجد مكتب على الشرفة، كما بدا في المشهد الأخير من *Scarface*، والذي ينتهي بسيل جارف من الرصاصات. الفيلا تبدو كانتصار للأعمدة الدُورية، فالداخلية منها زهرية اللون، أما الخارجية فبلون الزبرجد. على الجوانب تتوزع صفوف أعمدة مزدوجة بحواف معدنية مزخرفة، باهظة الثمن. تحتل هذه الملكية بمجملها مساحة تبلغ حوالى الإيكر، أما الفيلا ذات الطوابق الثلاثة فتشغل قرابة التسعة آلاف قدم مربع. في نهاية التسعينيات، كانت قيمتها تبغ 5.3 مليون دولار، أما الآن فقد تصل قيمة البناء نفسه إلى 5 ملايين دولار. لكل من غرف الطابق السفلي البالغة الضخامة، حمام واحد على الأقل، بعضها كبير ومترف، والآخر صغير ومريح. في غرف الأطفال توجد ملصقات لمغنين ولاعبي كرة القدم، لا تزال معلقة على الجدار، بالإضافة إلى لوحة صغيرة مسودة كانت تعلق فوق السرير، وقصاصة من ورق الجرائد كتب عليها الخبر التالي: "ألبانوفا تشحذ أسلحتها" ألبانوفا كان فريق كرة القدم لكازال دي برينشيبه وسان شيبريانو دافيرسا - فريق يتلاعب به الزعماء، وتدعمه الجماعات مادياً - وقد قامت هيئة المافيا بحله في عام 1997. هذه القصاصات التالفة المعلقة إلى الجص المتعفن كانت هي كل ما تبقى من أثر ابن والتر، الذي توفي في حادث سيارة عندما كان لا يزال مراهقاً. تطالعك الباحة الأمامية من الشرفة، وفيها أشجار النخيل، وفيها حتى بحيرة اصطناعية بجسرها الخشبي الذي يوصل إلى جزيرة صغيرة من الأشجار والنباتات، ويحيط بها جدار حجري. عندما كان آل سكيافوني يقطنون هنا، كانت كلابهم، وهي كلاب حراسة قوية ضخمة، تعدو في المكان، في استعراض آخر للقوة. في الباحة الخلفية، ظللت أشجار النخيل حوض سباحة بيضاوي مائل من قيظ شمس الصيف. لقد كانت الحديقة منسوخة عن حمام

فينوس، وهو درّة الحديقة الإنكليزية داخل القصر الملكي في كاسيرتا. وكان هناك تمثال كبير يطفو على سطح الماء كالذي صممه لويجي فانفيتيللي. بعد اعتقال الزعيم، عام 1996، هُجرت هذه الڤيلا، تماماً كما حدث لهذه الغرف، فوالتر لم يفعل كأخيه. عندما أراد ساندوكان الاختباء، بنى مخبأ ضخماً يليق بأمير تحت ڤيلاه الهائلة في كازال دي برينشيبه. إنه معقل يشبه الحصن الصغير خال من الأبواب والنوافذ، وله ممرات تحت الأرض وكهوف طبيعية لتأمين وسائل الهرب في حالات الطوارئ. لكن كان هناك أيضاً شقة مفروشة بشكل كامل تُقدّر مساحتها بألف قدم مربع.

وهي شقة سريالية: بأضواء من النيون وأرضية من الماجوليكا البيضاء، وهي مجهزة بنظام اتصال داخلي متلفز، وبمدخلين مخفيين تماماً من الخارج. كان يبدو أنه ما من وسيلة للدخول، فالأبواب كانت جدراناً من الإسمنت تنزلق على مسارات خاصة لتنفتح. وعندما كان يتهدده خطر التفتيش، كان يمكن للزعيم أن يدخل من باب سري في غرفة الطعام يؤدي إلى شبكة قنوات متصلة يصل مجموعها إلى الإحدى عشرة قناة، والتي شكلت تحت الأرض، نوعاً من الحاجز الدفاعي، أو الملجأ الأخير الذي نصب فيه ساندوكان الخيام ليعيش فيه، وكانت عبارة عن غرفة في قلب غرفة تحت الأرض.

حتى تتمكن DIA من إلقاء القبض عليه في عام 1998، وضع المحققون المكان تحت المراقبة المتواصلة طيلة عام وسبعة أشهر، مستخدمين في النهاية منشاراً كهربائياً ليقطعوا الجدار ويعبروا إلى مخبئه، ولم يستطيعوا أن يتعرفوا إلى الوسيلة الرئيسية للوصول إلى الداخل، إلا بعد أن سلم فرانسيسكو سكيافوني نفسه، إذ كانت البوابة ضائعة بين أقفاص البلاستيك ومعدات الحديقة في غرفة التخزين في فيلا في فيا ساليرنو. لم يكن المخبأ ينقصه شيء، ففيه برادان متخمان

بالطعام بكميات تكفي على الأقل ستة أشخاص لأسبوعين. وفيه مركز ترفيه منزلي متطور مؤلف من نظام صوتي مجسم، وأجهزة تسجيل فيديو، وأجهزة لتسليط الضوء (البروجكتور)، والتي شغلت حائطاً بأكمله. لقد استغرق قسم التحليل الجنائي في شرطة نابولي عشر ساعات، ليتفقد أنظمة الإنذار والإقفال التي تتحكم بالمدَخلين. حتى إنه كان هناك في الحمام حوض استحمام دوّام (جاكوزي). لقد عاش سكيافوني تحت الأرض، في جحر للأرانب، وسط الأبواب المخفية والممرات السرية.*مكتبة الرمحي أحمد*

أما أخوه والتر، فلم يعش حياة السنجاب في جحره. فعلى الرغم من كونه هارباً، فقد استمر بالظهور في البلدة لحضور الاجتماعات رفيعة المستوى وبالغة الأهمية، عائداً إلى منزله في ضوء النهار، يرافقه حراسه الشخصيون، وشاعراً بالمنعة في فيلته العصية على الاختراق. لقد استطاعت الشرطة أن تلقي القبض عليه عن طريق الصدفة تقريباً. إذ عادة ما يذهب أفراد الشرطة والجنود لتفقد منازل الهاربين ثماني، أو عشر، أو اثنتي عشرة مرة في اليوم الواحد. إنهم يتفقدون العائلة، يزورون ويفتشون، وقبل كل شيء يحاولون أن ينهكوا أعصابهم، ويقوّضوا دعمهم للقرار الذي اتخذه قريبهم الهارب بالاختباء. لطالما حيّت السنيورة سكيافوني أفراد الشرطة بكياسة وتحدٍّ، وعرضت عليهم دائماً بهدوء الشاي والكعك، وهو العرض الذي كانوا دائماً يرفضونه لأسباب تتعلق بنظام عملهم. ومع ذلك، وفي أصيل أحد الأيام حين قرعوا بابها، بدا على زوجة والتر التوتر سلفاً، فمن التباطؤ الذي فتحت به البوابة، أدركوا من فورهم أن أمراً ما كان يحصل. وبينما كانوا يجوبون الفيلا، تبعتهم السيدة سكيافوني، هذه المرة، مع كل خطوة كانوا يخطونها، عوضاً عن الوقوف في أسفل الدرج كعادتها،

كما أنها اعتمدت الصياح بينما كانت تخاطبهم، وجدران المنزل تردد صدى كلماتها. لقد عثروا يومها على ثياب رجل مكوية حديثاً، ومطوية بعناية على السرير ومقاسها أكبر بكثير من أن تكون لابنها. لقد كان والتر هنا، لقد عاد إلى منزله. واندفع رجال الشرطة خارجاً للبحث عنه، وألقوا القبض عليه وهو يحاول تسلق الأسوار. كان يتسلق ذاك السور ذاته الذي بناه ليجعل من فيلته حصناً منيعة ضد الاقتحام، والذي أعاق الآن هروبه السريع. اعتُقل كلص وضيع، يضرب ما حوله في بحثه عمّا يعينه على تسلق الجدار الأملس. تمت مصادرة الفيلا مباشرة، لكن أحداً لم يأخذ شيئاً من ممتلكاتها لمدة ست سنوات. لقد أمر والتر بإزالة كل ما يمكن إزالته، فإن لم يكن هو قادراً على استخدام الشيء، فعليه إذاً أن يختفي من الوجود. فإما أن تكون تلك الأشياء له، أو لا تكون لأحد. لقد أمر بانتزاع الأبواب من مفصلاتها، وإزالة النوافذ، وبأن ترفع الأرضية الخشبية المزينة، وأن ينزع الرخام عن السلالم، وأن تختفي رفوف المواقد الغالية، والسيراميك المثبت في الحمام، والأسيجة الخشبية، والأنوار المثبتة، وتجهيزات المطبخ، والأثاث الأثري، والخزائن الصينية، واللوحات، جميعها نزعت وحملت بعيداً. لقد أعطى أوامره بأن تُوزع إطارات السيارات في المنزل، وتشعل فيها النار، لتتلف التزيينات الجصية والأعمدة. ومع هذا كله، فقد استطاع أن يترك رسالة، تجلت في الشيء الوحيد الذي ترك دون أن يمس، وهو حوض استحمام تربع على ثلاث درجات عريضة في غرفة الجلوس. حوض يليق بأمير، عليه وجه أسد يجيش بالماء، تموضع أمام نافذة بالاديّة(*)، تطل مباشرة على الحديقة. هذه كانت بصمة قوّته كبنّاء وكاموري، إنه كالرسام الذي يلغي لوحته، لكنه يترك توقيعه على قماشها.

(*) البالاديّة: طراز معماري كلاسيكي، ينسب إلى أندريا بالاديو الذي طوره في القرن السادس عشر. (المترجمة إلى العربية).

وبينما كنت أتجول في تلك الغرف المسوّدة، شعرت بصدري يتورم، وكأن أحشائي قد تحولت جميعها إلى قلب واحد ضخم أخذ يخفق بعنف أكثر فأكثر، في أنحاء جسدي بأكمله. لقد جف ريقي من الأنفاس العميقة التي أخذتها لأهدّئ من اهتياجي. لو أن أحد حراس الجماعة هاجمني فجأة، وضربني لاستحلت عجيناً، وكان يمكن أن أصرخ كحيوان مذبوح، لكن ما كان لأحد أن يسمعني. كان جلياً أن أحداً لم يرني وأنا أدخل، أو أن أحداً لم يعد يحرس الڤيلا. لقد اعتراني غضب عارم أخذ ينبض قوياً في داخلي. وأخذت تلتمع في ذهني كدوامة عملاقة من الرؤى المفككة، وصور أصدقاء هاجروا، أو انضموا إلى الجماعة أو إلى الجيش، صور الأمسيات الكسلى في هذه الأرض القاحلة، التي تفتقر إلى كل شيء في ما عدا الصفقات، وصور السياسيين الذين يمسحهم الفساد، والإمبراطوريات التي تبنى في شمال إيطاليا ونصف أرجاء أوروبا، مخلفة وراءها فقط النفايات والسموم. كنت بحاجة إلى أن أصرّف ما اعتراني، أن أصب جام غضبي على أحدهم. لم أستطع المقاومة، فوقفت على حافة الحوض وبلت فيه. ما قمت به كان مجرد حركة حمقاء، لكن ما إن فرغت مثانتي حتى شعرت بأنني أفضل حالاً. لقد كانت تلك الڤيلا بمثابة برهان لصيغة دائمة التكرار، وسبيل للتحقق الملموس من إشاعة متناقلة. لقد انتابني شعور سخيف بأن توني مونتانا كان على وشك أن يخرج من إحدى الغرف، ويحيّني بإيماءة قاسية ومتعجرفة، قائلاً: "كل ما أملكه في هذه الحياة، هما رجولتي، وكلمتي، وإنني لا أكسرهما لأجل أي كان، أتفهم؟" من يدري إن كان والتر قد حلم بأن تكون نهايته مثل مونتانا، الذي جعل الرصاص من جسده غربالاً، وهو يسقط متكوماً في قاعته الأمامية، عوضاً عن قضاء بقية أيامه في زنزانة في السجن، يستنزفه داء غريفس في الغدة الدرقية،

جاعلاً عينيه تبليان وضغط دمه يرتفع.

في الواقع، ليس عالم الأفلام هو من يمسح العالم السفلي ليستقي منه أشد أنواع السلوك تشويقاً، بل ما يحصل هو على العكس تماماً. فالجيل الجديد من الزعماء لا يتبع منهجاً إجرامياً حصرياً، فهم لا يمضون أيامهم في الطرقات مع قطّاع الطريق المحليين الذين يحملون إما السكاكين، أو الندبات على وجوههم. إنهم يشاهدون التلفاز، ويدرسون، ويذهبون إلى الجامعات، ويتخرجون، ويسافرون، وهم قبل كل شيء، موظفون في دائرة القوى المحركة للنفوذ. إن فيلم **العرّاب**، *Il Padrino* \ أو *The Godfather* مثال بليغ على ذلك، فقبل أن يظهر الفيلم، لم يكن أحد قط في المافيا الصقلية، أو منظمات كامبانيا الإجرامية قد استخدم مصطلح *padrino*، المشتق من ترجمة غير دقيقة لغوياً لكلمة *Godfather* الإنكليزية. فقد كان المصطلح المتعارف عليه لرأس العائلة أو لشريك ما، هو دائماً "كومباريه" *compare*. وعلى أي حال، فبعد ظهور الفيلم، بدأت عائلات المافيا الإيطالية في الولايات المتحدة، باستخدام كلمة العرّاب *godfather* عوضاً عن كلمة كومباريه *compare*، وصيغة التصغير منها هي كومباريللو compariello، التي تراجع استخدامها. كذلك، تبنّى الكثير من الإيطاليين - الأميركيين ذوي الروابط مع المافيا، وضع النظارات السوداء، وارتداء البزّات المقلمة، والأسلوب الوقور في الحديث. حتى إن جون غوتي بنفسه أراد أن يصبح نسخة حية عن الممثل دون فيتو كورليون، وحتى زعيم كوسا نوسترا، لوتشيانو ليجيو، كان يبرز ذقنه في الصور لتنتأ كذقن الممثل مارلون براندو في الفيلم.

أما ملهم ماريو بوزو فلم يكن زعيماً صقلياً، بل كان ألفونسو تييري، زعيم بيناسيتشا في وسط نابولي، والذي أصبح زعيم عائلات المافيا الإيطالية في أميركا بعد موت تشارلز غامبينو. لقد صرح الزعيم

النابولـي ذو الصـلات مـع تييري، أنتونيو سـبافوني الملقب بأومالومو، أو "الرجـل السـيئ"، فـي مقابلـة لـه مـع صحيفة أميركية أنـه: "إن كان الصقليّـون قـد أظهـروا كيـف يمكـن أن يغلقـوا أفواههـم، فقـد أظهـر النابوليّـون للعالـم كيفية التصرف عندما تتسـلم القيادة. مشـيرين بذلك إلى أن موقع المسؤولية، أفضل من العبث" إن معظم النماذج الأصلية للشـخصيات الإجراميـة، التـي تعتبـر ذروة المافيا، قد قدمت من بضعة أميال مربعة من كامبانيا. حتى آل كابون تعود أصوله هناك، إذ تنحدر عائلته من كاسـتيلا ماري دي سـتابيا، وقد كان هو الزعيم الأول الذي قاس نفسـه على شـخصيات الأفلام السـينمائية. لقد استمد لقبه، "وجه الندبة" scarface، من ندبة على خده، وهو اللقب الذي استخدمه براين دي بالمـا فـي فيلمـه عـام 1983 عن تونـي مونتانا، لكن هوارد هوكس كان قد استخدمه قبل ذلك في فيلمه عام 1932 عن كابون. كان كابون ومرافقوه يظهرون في مواقع التصوير في كل مرة كان يصوّر فيها مشهد عنف، أو إطلاق نار على موقع ما يمكنهم مشاهدته. لقد أراد الزعيم أن يتوثـق مـن أن تونـي كامونـت، الذي كان يلعب دور شـخصية وجه الندبة التي أوحاها كابون، لم يكن مبتذلاً في أدائه. لقد أراد أن يكون أشبه ما يمكن بتوني كامونت، لأنه كان يدرك، أنه بعد إصدار الفيلم، سيضحي كامونت رمز كابون، وليس العكس.

تشـكل الأفلام مصادراً لاسـتقاء أشـكال التعبير، ويعد كوسـيمو ديـلاورو فـي نابولـي مثـالاً جيـداً على ذلك، فملابسـه تذكـر بملابس برانـدون لـي فـي فيلـم "الصرخـة" *The Crow*. علـى الكاموريـين أن يبتكـروا لأنفسـهم صـورة إجرامية كثيراً ما كانـوا يفتقرون إليها بذاتهم، ولكنهـم يعثـرون عليهـا في الأفـلام. إنهم يجعلون من أنفسـهم نماذج لأقنعة هوليوودية، إنه نوع من الطريق المختصر الذي يحولون أنفسهم مـن خلالـه إلـى رموز تبعث على الخوف. حتـى إن إيحاءات التصوير

السينمائي تحدد بعض الخيارات التقنية، كالطريقة التي تتناول بها المسدس أو تطلق النار. لقد أخبرني شخص محنك في قسم التحليل الجنائي في نابولي عن كيفية تقليد القتلة في كامورا للأفلام:

"منذ ظهور تارانتينو وهؤلاء الرجال لا يعرفون الطريقة الصحيحة للتصويب والإطلاق! إنهم لا يحافظون على استقامة الماسورة، بل إنهم يصوّبون بشكل مائل كما في الأفلام السينمائية مما يؤدي إلى كوارث، فهم يصيبون الأحشاء، والأفخاذ، والسيقان، مسببين إصابات خطيرة، إنما غير مميتة. لذا كان يتوجب عليهم القضاء على الضحية برصاصة في مؤخر العنق أو الرقبة، فينجم عن ذلك بركة من الدماء لا ضرورة لها، إنها بربرية تتجاوز تماماً هدف الإعدام"

أما الزعيمات الإناث فلديهن حارسات شخصيات يقلدن أوما ثورمان في فيلم "أقتل بِيل" *Kill Bill*، بشعرها الأشقر وبزتها الصفراء الفوسفورية. وأيضاً فينسينزا دي دومينيكو، وهي امرأة من كوارتيري سبانولي تعاونت مع السلطات لفترة وجيزة، وكانت تحمل اسم نيكيتا، مماثلة لاسم البطلة القاتلة في فيلم لوك بيسون. فالأفلام السينمائية، وبخاصة الأميركية منها، لا تمثل البلدان القصية التي يقع فيها الضلال، ويحدث المستحيل، بل إنها أماكن قريبة جداً إلى الموطن.

غادرت الفيلا بهدوء، وأنا أخلّص قدمي من نباتات العليق والحشائش التي نمت بكثافة في الحديقة الإنكليزية الغالية على قلب الزعيم. لقد تركتُ البوابة مفتوحة. منذ بضع سنوات فحسب، كان مجرد الاقتراب من هذا المكان يعني أن يرصدك عشرات الحراس، أما الآن فقد مشيت خارجاً، مطرق الرأس ويداي في جيبي كشخص غادر لتوه قاعة السينما، ولا زال مصاباً بدوار مما شاهد.

ليس من الصعب إدراك السبب الذي من أجله ترك فيلم جوزيبيه تورناتور*Il Camorrista*، الكاموريون، تأثيراً كبيراً في الخيال النابولي.

كل ما عليك فعله هو أن تستمع إلى مزاح الناس ذاته الذي يرددونه لسنوات:

- أخبر البروفيسور أنني لم أخنه.
- إنني أعلم من يكون، لكنني أيضاً أعلم من أكون أنا!
- مالاكارني ضعيف.
- من الذي أرسلك؟
- ذاك الذي بإمكانه إنقاذ حياتك، أو أخذها منك.

لقد باتت التسجيلات الصوتية للفيلم نوعاً من الأغنية الرئيسية التي تعبر عن فكرة الكامورا، يُصفر لحنها عندما يمر رئيس للحي في المكان، أو فقط لإثارة أعصاب أحد أصحاب المتاجر. لقد استطاع فيلم "الكاموريون" *Il Camorrista* أن يصل إلى صالات الديسكو، حيث يرقص الناس على أنغام ثلاث نغمات مختلفة مختلطة لأشهر تعبيرات رفاييل كوتولو، والتي تم عزفها في فيلم بين غازانا.

لقد حفظ اثنان من كازال دي برينشيبه، هما جوزيبيه أم وروميو بـي، الحـوار فـي فيلم الكاموريون عن ظهر قلب، وكانا يقومان بتمثيل مشاهد مختلفة منه:

- ما وزن البيتشيوتو(*)؟
- كوزن ريشة في مهب الريح.

لقد بدأا الشجار مع مجموعات من الأطفال في مثل عمريهما، في كاسالي وسان شيبريانو دافيرسا، حتى قبل أن يكونا كبيرين كفاية ليقودا سيارة. لقد كانا متنمرين، ومتبجحين، كمهرجين سخيفين. كانا يخرجان لتناول الطعام، ويتركان بقشيشاً قيمته ضعف الفاتورة. كانا

(*) البيتشيوتو: ذو المرتبة الأدنى بين أعضاء المافيا. (المترجمة إلى الإنكليزية).

يتركان قمصانهما مفتوحة ليظهر تحتها صدراهما الخاليان من الشعر، ويتبختران بطريقة تمثيلية، وبذقن مرفوعة، مستعرضين بتفاخر قوة وثقة، لا وجود لها في الواقع إلا في ذهنيهما. كانا لا يفترقان، جوزيبيه يلعب دور الزعيم ودوماً يسبق الكومباريه خاصته، وروميو كان يلعب دور حارسه الشخصي، فهو بمثابة يده اليمنى، وصديقه الوفي. كثيراً ما كان جوزيبيه يدعوه دوني، مثل دوني براسكو. فعلى الرغم من أن براسكو كان شرطياً متسللاً إلى صفوف المافيا، إلا أن حقيقة تحوله إلى مافياوي حقيقي بروحه، تشفع له في نظر معجبيه. في فيرسا، كان جوزيبيه وروميو يرهبان الفتيان الذين حصلوا للتو على رخصهم. كانا يفضلان الثنائي اليافع، إذ كانا يصدمان سيارتهم بدراجاتهما النارية، وعندما يترجلان طالبين أوراق التأمين، كانا يبصقان في وجه الفتاة استفزازاً لرفيقها ليتصرف، ثم يوسعانه ضرباً. لقد تحديا أيضاً البالغين، وحتى أولئك الذين كانوا حقاً ذوي اعتبار، لقد اجتاحا الأقاليم، معيثين فيها ما طاب لهما من الفساد. لقد قدم جوزيبيه وروميو من كازال دي برينشيبه، وكان هذا كافياً في منطقهما. لقد أرادا أن يوصلا الرسالة، فعلى الجميع أن يهابهما ويحترمهما، وكل من سيقترب منهما يجب أن لا يجد في نفسه الشجاعة ليرفع نظره في وجهيهما، بل أن يحملق في الأرض. إلا أنهما في يوم من الأيام تجاوزا حدهما أكثر مما يجب، فقد خرجا إلى الشارع مسلحين ببنادق رشاشة، التقطاها من مستودع ذخيرة لأحد الجماعات، وأخذا يطلقان النار على مجموعة من الأولاد. لا بد أنهما كانا قد تدربا كثيراً، لأنهما كانا حريصين على ألا يصيبا أياً منهم، غير أنهما جعلاهم يشتمّون رائحة البارود، ويسمعون صوت الأعيرة النارية. ولكن قبل أن يفتحا النار، قام واحد منهما بتلاوة شيء ما، لم يفهم أحد أي حماقات تفوه بها، لكن بتحليل كلماتهما، كان واضحاً أنها الأبيات التي طرحها جولز وينفيلد في فيلم *Pulp Fiction*،

تماماً قبل أن يقتل الشخص الذي جعل حقيبة مارسيللوس والاس الثمينة تختفي:

"إن طريق المرء الصالح يهاجمه من كل الجهات ظلم الأنانيين، واستبداد الرجال الأشرار. بورك من يقوم عبر وادي الظلام باسم الإحسان والنوايا الطيبة، برعاية الضعفاء. لأنه بحق راعٍ لأخيه، وإنه مكتشف الأطفال الضائعين. وسأحل عليهم انتقامي العظيم، وغضبي الشديد، أولئك الذين يحاولون تسميم إخوتي وتخريبهم. وستعلم أن اسمي هو الأعلى عندما يحل بك انتقامي

تلا كل من جوزيبيه وروميو هذه الكلمات، كما في الفيلم، ثم فتحا النار. لقد كان والد جوزيبيه كامورياً تائباً عاد إلى صفوف منظمة كوادرانو - دي فالكو بعد هزيمتها أمام السكيافونيين. لقد كان فاشلاً إذاً، إلا أن جوزيبيه اعتقد أن فيلم حياته يمكن أن يتغير لو أنه فقط يلعب الدور الصحيح. كان الصبيان يحفظان أفضل حوارات أفلام الجريمة جميعها عن ظهر قلب. وفي معظم الأحيان، كانا يبدأان الشجار جراء نظرة لا أكثر. في أرض الكامورا، تعد النظرة قضية سلطة على الإقليم، إنها تعد على المساحة الخاصة بالمرء، فهي كمثل تحطيم الباب والدخول عنوة إلى منزل أحدهم. فالنظرة تعد أكثر من إهانة، وأن تطيل النظر في وجه أحدهم أكثر مما ينبغي، هو تماماً كتحد إلى نزال مفتوح:

"أوَتتكلم معي؟ أأنت تتكلم معي؟ أتتكلم معي؟؟؟"

كانا يكرران هذا الحوار الشهير من فيلم "سائق التاكسي" *Taxi Driver*، ثم يبدأان القتال، مكيلين لكماتهما إلى القفص الصدري، لكمات من النوع الذي تسمع له صوتاً، يتردد صداه في صدرك أنت.

لقد تعامل زعماء كسالسي مع المسألة بجدية، فالمشاجرات، والمشاحنات، والتهديدات، لا يتم تجاوزها بسهولة، إذ كان هناك الكثير من الأمهات القلقات على أبنائهن، والكثير من الشكاوى والتذمر. لذا فقد أرسلوا تحذيراً عبر رئيس الحي، كنوع من الدعوة للانضباط. ويلتقي الرئيس بهذين اليافعين في أحد المشارب ليخبرهما بأن صبر الزعماء قد بدأ ينفد. إلا أنهما استمرا في التمثيل بفيلمهما الخيالي، معتديين بالضرب على كل من يحلو لهما، كما كانا يبولان في صفائح بنزين الدراجات النارية لأبناء الحي. مرة أخرى قام الزعماء بالإرسال في طلبهما، فهذا النوع من التصرف لا يمكن للجماعة أن تقبله. إن التسامح الأبوي المعتاد في هذه الناحية يتحول في حال الضرورة إلى المعاقبة، الولدان بحاجة إلى الضرب، صفعة موجعة علنية تعيدهما إلى الصراط المستقيم. غير أن جوزيبيه وروميو صدّا استدعاء الزعماء لهما، واستمرا بالتمدد في المشرب وهما يلعبان ألعاب الفيديو، أو بالالتصاق أمام شاشة التلفاز وهما يشاهدان أفلامهما المفضلة على الفيديو DVD، ويمضيان الساعات في حفظ الجمل، وتعلم لغة الجسد، والتعبيرات، وكيفية اختيار الملابس. كانا يظنان أن بإمكانهما التصدي لأي شخص كان، حتى الأشخاص المهمين. في الواقع، كانا يعتقدان أن وقوفهما في وجه الأشخاص المهمين تحديداً، سيجعل الآخرين يهابوهما حقيقة، مثل توني وماني في فيلم "وجه الندبة" *Scarface*، الذي ما كانت أية حدود توقفه عند شيء. لم يكونا يستمعان إلى أحد، فقد كانت غاراتهما وبث الجزع في نفوس من حولهما، تجعلهما يشعران بأنهما حاكمي كاسيرتا. لم يختر جوزيبيه وروميو الانضمام إلى الجماعة، حتى إنهما لم يحاولا ذلك. فقد كان التقدم في ذلك الطريق بطيئاً ومنظماً للغاية بالنسبة إليهما، وهما لم يريدا الارتقاء بصمت عبر مراتب الجماعة. بالإضافة إلى أن الكسالسي قد أضحت

لسنوات تضع الأعضاء الجيدين حقاً في قطاعات المنظمة الاقتصادية، وليس في القوى الضاربة. لقد كان جوزيبيه وروميو على النقيض تماماً من الجندي الكاموري الجديد، فقد ظنا أن بوسعهما ركوب موجة السمعة السيئة لمنطقتهما. وصحيح أنهما لم يكونا أعضاءً في الكامورا، إلا أنهما أرادا التمتع بمزايا الكاموريين، فتوقعا من الحانات أن تقدم لهما ما يرغبان به دون مقابل، وافترضا أن بنزين دراجتيهما كان حقاً مكتسباً، وأن والدتيهما يجب أن تحصلا على بقالة مجانية. وإن تجرأ أحد على التمرد، كانا ينقضان عليه فوراً، محطمين زجاج النوافذ، ومنهالين ضرباً موجعاً على بائعي الخضار، والفتيات البائعات. بناء على كل ذلك، رتب مبعوثون من الجماعة عام 2004، لقاء معهما في ضواحي كاستيلفولتورنو، في منطقة راكو ماري، حيث يتدفق الرمل والبحر والنفايات جميعها مع بعضها. إن كان الزعماء غير قادرين على التفاهم معهما بالعروض السلبية، فسيحاولون بالإيجابية منها. ربما كانوا يخبئون لهما صفقة مغرية، أو حتى الفرصة في المشاركة في عملية قتل، تكون الضربة الأولى الحقيقية التي سيسددانها في حياتهما. لقد تصورتهما في ذهني وهما يسابقان الريح على دراجتيهما الناريتين، وهما يستعيدان في رأسيهما كل المشاهد المحببة إليهما من أفلامهما، والتي يضطر فيها الزعماء إلى الخضوع إلى تفاخر الأبطال الجدد. فبالطريقة ذاتها التي توجه فيها الإسبارطيون اليافعون إلى الحرب وهم يحملون في أذهانهم خطى أشيليس وهكتور، بطلي حرب طروادة، ليسيروا عليها، كذلك في هذا المكان إنك تذهب لتَقتل أو تُقتل وأنت تفكر في أفلام دوني براسكو: *Donie Brasco* "وجه الندبة" و"الأشخاص الطيبون" *Good fellas, Scarface*. في كل مرة أمر بها من باركو ماري، أتخيل المشهد الذي أعادت الشرطة تمثيله، والذي نقل في الصحف. أتخيل جوزيبيه وماريو على دراجتيهما الناريتين، وقد وصلا إلى المكان

المتفق عليه قبل الموعد بكثير، وهما يتحرقان شوقاً وإثارة. لقد كانا بالانتظار عندما وصلت السيارة، وتوقفت، وترجل منها مجموعة من الرجال. وعندما توجه إليهم الشابان لإلقاء التحية، أمسكوا بروميو من فورهم، وانهالوا ضرباً على جوزيبيه، ثم سددوا إلى صدره ماسورة المسدس الأوتوماتيكي، وأطلقوا النار. إنني واثق من أن المشهد من فيلم "الأشخاص الطيبون" *Good Fellas* قد مرّ أمام عيني روميو، ذاك المشهد الذي يدعى فيه تومي ديفيتو إلى أن يكون له دور في غدارة كوسا نوسترا في أميركا، ولكن عوضاً عن استقباله في قاعة تغص بالزعماء، أخذوه إلى غرفة خاوية، وأطلقوا النار في رأسه. ليس صحيحاً أن الأفلام عبارة عن جملة من الأكاذيب، وأنك لا تستطيع أن تعيش حياتك كما في الأفلام، وأنك ما إن ترفع رأسك خارجاً من صالة السينما، حتى تدرك أن الأمور مختلفة. إن لحظة واحدة هي المختلفة، وهي اللحظة التي ينهض فيها الممثل آل باتشينو من النافورة التي سقط فيها بديله تحت وطأة طلقات الرشاش، ويجفف وجهه ماسحاً عنه آثار لون الدم. إنها اللحظة التي يغسل فيها الممثل جو بيسشي شعره ليوقف النزف الاصطناعي بعد انتهاء التصوير. لكنك لا ترغب بأن تعرف ذلك الجزء، لذا فإنك لا تفهمه. في تلك اللحظة التي شاهد فيها روميو رفيقه جوزيبيه صريعاً على الأرض، إنني متأكد - على الرغم من أنني لا أستطيع أن أجزم - أنه قد فهم الفرق بين الأفلام والواقع، وبين المشهد المفبرك والرائحة في الهواء، وبين حياته والنص السينمائي. ثم جاء دوره، لقد أطلقوا النار عليه في حلقه، ثم قضوا عليه نهائياً برصاصة في رأسه. لقد كان مجموع عمريهما معاً، بالكاد يبلغ الثلاثين. تلك هي الطريقة التي تحل بها جماعة الكسالسي المشكلة البالغة الصغر للناميات الإجرامية التي تتغذى على الأفلام السينمائية. إنهم حتى لم يستدعوا الشرطة أو سيارات الإسعاف، بل تركوا جثتي الصبيين هناك، لتنقر طيور

النورس كفوفهما، وتقضم الكلاب الشاردة التي تجول الشواطئ المغطاة بالنفايات، فميهما وشفاههما. غير أن هذا أمر لا تعرضه الأفلام أبداً، إنهم يختمون تماماً في الدقيقة التي تسبق ذلك.

لا يوجد فرق حقيقي بين مشاهدي الأفلام في أرض الكامورا، عنهم في أي مكان آخر. إن مرجعيات التصوير السينمائي تنتج في كل مكان أساطير من محاكاتها. فإن كنت في مكان آخر، سيعجبك "وجه الندبة" *scarface*، وإن كنت تماثله سراً، فهنا يمكنك أن تكون "وجه الندبة" *scarface* نفسه، لكن عليك أن تكون مثله في كل شيء.

إن أرض الكامورا كذلك مملوءة بأناس مولعين بالفن والأدب. ساندوكان مثلاً، كان يملك في فيلته مكتبة ضخمة تحت الأرض، تحوي عشرات المجلدات جميعها حول موضوعين اثنين، هما: مملكة الصقليّتين، ونابوليون بونابرت. كان سكيافوني مفتوناً بأهمية ولاية بوربان Bourban، متبجحاً بأن أسلافه كانوا ضباطاً في تيرا دي لافورا جنوبي إيطاليا. لقد جذبته عبقرية بونابرت، الذي نهض من مرتبة عسكرية دنيا، إلى غزو نصف أوروبا. لقد رأى فيه تشابهاً مع حياته هو، كونه بدأ من العدم وأصبح الآن القائد الأعلى لأحد أقوى الجماعات في أوروبا. لقد آثر ساندوكان، الذي كان في يوم من الأيام طالباً في كلية الطب، أن يمضي وقته في مخبئه يرسم لوحات دينية، ولوحات شخصية لنابليون وموسوليني. إنها لا تزال معروضة للبيع حتى اليوم، في محال كاسيرتا التي لا يرقى إليها الشك، لوحات غاية في الندرة، رسمها ساندوكان. لقد أحب سكيافوني كذلك قراءة الملاحم البطولية، أمثال هومر، وأساطير الملك آرثر، ووالتر سكوت، إذ كانت المفضلة عنده. لقد كان حبه لسكوت هو ما دفعه إلى تعميد أحد أبنائه المتعددين بالاسم الطنان المفتخر: إيفانهو.

غير أن أسماء سليلي شخص ما، تحمل دوماً شيئاً من عواطف

الأب. فجوزيبيه ميزو، زعيم جماعة حي سانيتا، كان لديه ثلاثة أحفاد، هم: بين هور، جيسوس، وإيميليانو زاباتا. في أثناء محاكمته، تظاهر ميزو دائماً باتخاذ موقف الزعيم السياسي، والمفكر المحافظ والثوري. لقد كتب مؤخراً رواية *I leoni di marmot* أي **الأسود الرخاميون**، بيعت منها عدة مئات من النسخ في نابولي خلال أسابيع قليلة. كانت رواية تروي بتعابير مشوهة، إنما بأسلوب هائج حكاية نابولي في الثمانينيات والتسعينيات، وحكاية تشكله كزعيم، ونشوئه كمحارب وحيد ضد كامورا الأعمال والمخدرات، دفاعاً عن دستور شهم إنما معروف بشكل ومبهم للسرقة واللصوصية. في كل مرة اعتقل فيها في تاريخه الإجرامي الطويل، كان يعثر برفقته على كتب لخوليو إيفولا، وإزرا باوند.

أوغوستو لا توري، زعيم موندراغون، كان طالباً يدرس علم النفس، وقارئاً شرهاً لكارل يونغ، وخبيراً في نظريات سيغموند فرويد. إن نظرة خاطفة على عناوين الكتب التي طلبها وهو في السجن، تكشف عن بيان مطول لمؤلفات علماء في التحليل النفسي. وفي المحكمة، تمازجت اقتباساته من لاكان، مع مرئياته عن مدرسة غيشتالت في علم النفس. هذه معرفة أفاد منها الزعيم في صعوده نحو السلطة والنفوذ، وهي سلاح إداري وعسكري غير متوقع.

حتى أحد أشد المخلصين لباولو ديلاورو كان عاشقاً للفن والثقافة، وهو توماسو بريستيري. لقد قدّم الرجل العديد من المغنين الحديثين، إضافة إلى أنه خبير في الفن المعاصر. العديد من الزعماء هم جامعو فنون، ففيلا باسكال غالاسو كانت تضم متحفاً خاصاً، فيه ما يقارب الثلاثمئة قطعة أثرية، جوهرة المجموعة كانت تاج الملك البوربوني فرانسيس الأول. ولويجي فولارو، الملقب باسم أوكاليفو، أو الخليفة، كان يملك لوحة لفنانه المفضل بوتيسيللي.

لقد تمكنت الشرطة من القبض على بريستيري بسبب عشقه للموسيقى، إذ اعتقلته في مسرح تيترو بيلليني في نابولي عندما ذهب ليستمع إلى حفل موسيقي فيما كان هارباً. وبعد صدور الحكم بحقه، أعلن بريستيري: "بالفن أنا حر، ولست بحاجة إلى أن يطلق سراحي من السجن" لقد وفر الرسم والغناء توازناً وسكينة مستحيلة لزعيم تعس الحظ كبريستيري، وهو الذي فَقَدَ أَخّين له، قتلا كلاهما بدم بارد.

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

أبيردين، موندراغون

إن الزعيم والمحلل النفسي أوغوستو لا توريه كان أحد الأثيرين لدى أنتونيو بارديلينو. لقد حل محل أبيه في عمر مبكر، وأضحى بذلك الزعيم الأوحد لجماعة كيوفوي كما كانت تسمى في موندراغون، والتي حكمت في شمالي كاسيرتا، جنوب لا زيو، وعلى طول ساحل دوميتيا. لقد انحازت جماعة لا توريه إلى صف أعداء ساندوكان سكيافوني، لكن ذكاءهم في الإدارة وفي الأعمال، والتي هي العناصر الوحيدة المؤثرة بقوة كافية لتغيير منحى العلاقات المتعارضة بين عوائل الكامورا، استطاع في نهاية الأمر تسوية الخلاف مع الكسالسيين الذين عملوا معهم في الوقت الذي حافظوا فيه على استقلاليتهم. لم يحصل أوغستو على اسمه مصادفة، فقد كان تقليداً في عائلة لا توريه تسمية الوليد الأول للأسرة باسم أحد الأباطرة الرومان. لكنهم في هذه الحالة عكسوا التاريخ، فبدلاً من أن يُتبع أوغستو بتيبيريوس، حمل الأب اسم الإمبراطور الثاني تيبيريوس، وابنه اسم الإمبراطور الأول أوغستو.

هناك ڤيلا شيبيو أفريكانوس قرب بحيرة باتريا، ومعارك هانيبعل في كابوا، والقوة التي لا تقهر للسامنيتيس وهم المحاربون الأوائل في أوروبا الذين أقدموا على مهاجمة جيوش الرومان ومن ثم الفرار إلى الجبال، لقد كانوا رموزاً أسطورية في عوائل كامورا المحلية، فهم يعتبرون أنفسهم مرتبطين بهذه القصص من الماضي السحيق. إن تخيلات الجماعات التاريخية تتعارض مع الصورة المنتشرة عن

موندراغـون بأنهـا عاصمـة الموزاريلا في إيطاليـا. لقد اعتاد والدي أن يحشـوني إلـى حـد التخمـة بموزاريلا موندراغون. كان من المسـتحيل تحديد موزاريلا أي منطقة هي الأجود، فالنكهات كانت شديدة التنوع: من الحلاوة الشديدة في باتيباليا، إلى الملوحة الثقيلة في أفيرسا، إلى الطعـم النقـي مـن موندراغـون. لكن سـادة الموزاريلا فـي موندراغون كانـت لديهـم طريقـة لقيـاس الجـودة، فالموزاريلا الجيـدة تترك طعماً في الفم، يطلق عليه أهل الريف اسـم أنفاس الجاموس. فإن لم يكن طعـم الجامـوس ذاك موجـوداً، فالموزاريلا لا قيمة لها. كنت أحب أن أتمشى جيئة وذهاباً على رصيف موندراغون، فقد كان ذلك أحد أحب الأمكنة الصيفية إليّ قبل أن تدكه معاول الهدم. كان لساناً من الإسمنت المسـلح، بني على سـطح البحر، بمثابة مرسـى للقوارب، لكنه أضحى غير مستخدم، وغير ذي قيمة.

لقـد أضحـت موندراغـون بغتـة، موئلاً لجميع الفتية في كاسـيرتا وبونتيني مارشـيز، الراغبين في الهجرة إلى المملكة المتحدة. الهجرة، هـي فرصـة العمـر، والطريـق المأمـول أخيـراً للخـروج من هنـا، لكن دون أن يعني ذلك أنك سـتعمل كنادل، ولا كفتى يغسـل الأطباق في مكدونالدز، أو سـاقياً في إحدى الحانات يدفع له ببواينت من شـراب الشـعير الأسـود. لقـد كانـوا يتوجهون إلـى موندراغـون ليحاولوا إقامة علاقـات مـع الأشـخاص المناسـبين، الذيـن بإمكانهـم أن يؤمّنوا أجرة سـكن ملائمـة، وأن يشـكّلوا مدخـلاً يوصـل إلى أصحـاب العمل. في موندراغون، كان هناك أشـخاص يسـتطيعون أن يؤمّنوا للمرء عملاً في مجـال التأميـن أو العقـارات، وأن يسـاعدوا بشـكل متواصـل العاطلين عن العمل واليائسين، على إيجاد عقد عمل لائق، ونوع عمل محترم. لقد كانت موندراغون بوابة إنكلترا. بدءاً من أواخر التسعينيات، أصبح امتلاك صديق في موندراغون فجأة يعني أنك ستقيّم بما تستحقه، دون

الحاجة إلى توصيات أو علاقات. إنه أمر نادر حقاً، وهو في إيطاليا مستحيل، وبخاصة في الجنوب. ففي تلك الأنحاء، أنت دوماً بحاجة إلى حامٍ يحميك، إلى شخص يكون قادراً على الأقل على وضع قدمك إن لم يكن بقِيّتك. في فسحة الباب، حين تقدم نفسك دون حامٍ، فذاك يشبه أن تظهر دون ذراعين أو ساقين، وكأن شيئاً ما ينقصك، أما في موندراغون فسيأخذون منك سيرتك المهنية، وينظرون في أمر إلى من سيرسلونها في إنكلترا. فمهاراتك ذات شأن وقيمة، والأهم من ذلك كيفية استخدامك لها. إنما هذا ينطبق على لندن وأبريدين فقط، وليس في كامبانيا، الأضيق أفقاً بين أقاليم أوروبا جميعها.

لقد قرر صديقي ماتيو المحاولة، والهجرة مرة واحدة وإلى الأبد. لقد تخرج بدرجة شرف من الجامعة، وقد ضاق ذرعاً من القيام بدورات تدريبية، ومن العمل في مواقع البناء ليعيل نفسه. لقد استطاع أن يوفر بعض المال، وحصل على اسم شخص في موندراغون سيساعده في التقدم إلى بعض مقابلات العمل في بريطانيا. لقد رافقته في رحلته، وانتظرنا لساعات عند الشاطئ حيث طلب ذاك الشخص إلى ماتيو مقابلته عنده. كان الفصل صيفاً، وقد غزا المصطافون من جميع أنحاء كامبانيا، شواطئ موندراغون أولئك الذين لا يقدرون على تحمل نفقة ساحل أمالفي، أو استئجار منزل صيفي على الشاطئ. لذا فهم يقومون برحلات يومية إلى هذا الشاطئ من مناطقهم الخلفية. حتى أواسط الثمانينيات، كانت الموزاريلا تباع على الشاطئ في دلاء خشبية تفيض بحليب الجاموس الذي يغلي. كان السابحون يأكلونها بأيديهم والحليب يقطر منهم في كل مكان، وكان الأطفال يلعقون أصابعهم التي انحسر عنها ماء البحر مخلفاً آثار الملح، ثم يأخذون قضمة منها. لكن لم يعد أحد يبيعها، فهم الآن يبيعون خبز الغريسينو وشرائح جوز الهند. لقد تأخر الشخص الذي انتظرناه لساعتين، وعندما ظهر أخيراً

كان قد اكتسب سمرة أشعة الشمس، مرتدياً لباس سباحة هزيلاً. شرح أنه قد تناول فطوره متأخراً، وبالتالي ذهب للسباحة متأخراً، وجفف نفسه متأخراً، وها هو ذا. ذاك كان عذره، الذنب كان ذنب الشمس. لقد اصطحبنا إلى وكالة للسفر، هذا كل ما في الأمر. وفي حين ظننا أننا كنا سنجتمع بسمسار كبير الشأن، تم تقديمنا فحسب، إلى وكالة للسفر ولم تكن حتى راقية بشكل خاص. هي ليست إحدى تلك الوكالات التي تحوي مئات كتيبات السفر، بل هي مكان متواضع شبيه بحفرة في الجدار. لكنك على الرغم من ذلك كنت بحاجة إلى معرفة شخص محلي لتحصل على الخدمات. أما بالنسبة إلى أي شخص يدخل الوكالة، فكانت تعمل كأي وكالة سفر عادية. طلبت فتاة شابة من ماتيو سيرته الذاتية، وأخبرتنا عن أول رحلة متوافرة إلى أبيردين، ذاك كان المكان الذي سيرسلونه إليه، ثم سلموه قائمة بأماكن العمل التي يمكن أن يقصدها ليجري مقابلة عمل، ومقابل أجر بسيط قاموا حتى بتحديد مواعيد مع سكرتيرات الأشخاص المنوطة بهم عملية التوظيف. لم أشهد يوماً وكالة موقتة على هذه الدرجة من الفاعلية والكفاءة. بعد هذا اللقاء بيومين، ركبنا الطائرة المتوجهة إلى أسكتلندا من موندراغون، في رحلة سريعة ومقبولة التكاليف.

لقد أعطتنا أبيردين الانطباع وكأننا في موطننا، على الرغم من أن هذه المدينة الأسكتلندية كانت في قمة الاختلاف عن موندراغون. ثالث أكبر مدينة في أسكتلندا، كانت قاتمة، متسخة، ورمادية، لكن أمطارها أقل من أمطار لندن. قبل وصول الجماعات الإيطالية، لم تعرف المدينة كيف تستغل مواردها من أجل إطلاق بعث جديد في المدينة والسياحة. فالمطاعم، والفنادق والأعمال الترفيهية جميعها كانت منظمة على النمط الإنكليزي الكئيب. وعلى النهج نفسه، كان الناس يزدحمون في الحانات مرة واحدة في الأسبوع. بحسب تقارير

النائب العام لمكافحة المافيا في نابولي، فقد كان أنتونيو لا توريه، أخو الزعيم أوغستو، هو من أنشأ سلسلة نشاطات تجارية في أسكتلندا، أضحت في غضون بضع سنوات فخر الاستثمارات الأسكتلندية. إن معظم نشاطات جماعة لا توريه في بريطانيا قانونية تماماً، كالحصول هناك على أملاك وأعمال والقيام بإدارتها، وكالتعامل التجاري مع إيطاليا في مجال المنتجات الغذائية؛ وقد حققت دورة لرأس المال غاية في الضخامة ويصعب تحديد رقم لها. في أبيردين، سعى صديقي ماتيو للحصول على كل ما حرم منه في إيطاليا، لقد أخذنا بالتجوال هناك ونحن نشعر بالرضا والسرور، فلأول مرة في حياتنا بدا مقدمنا من كامبانيا كافياً لضمان النجاح إلى حدٍّ معين. وعند 27/ 29 يونيون تيراس، ألفيت نفسي أمام بافاروتي، مطعم للجماعة مسجل باسم أنتونيو لا توريه، ومدرج في قائمة المواقع الإلكترونية السياحية. لقد أصبحت أبيردين مدينة أنيقة، وعنواناً للمائدة الراقية والصفقات المهمة. في معرض إيتاليسيما المقام في باريس والمتخصص في ذواقة الطعام، سوّقت أعمال الجماعة لنفسها على أنها قمة ما صنع في إيطاليا. وأيضاً فقد وضع أنتونيو لا توريه هناك، إعلانات لعلامته التجارية الخاصة بنشاطات رعاية مآدب الطعام. لقد خوّله نجاحه أن يصبح واحداً من أعلى رجال الأعمال الأسكتلنديين مرتبة في أوروبا.

ألقي القبض على أنتونيو لا توريه في أبيردين، في آذار من عام 2005. لقد صدرت مذكرة اعتقال إيطالية بحقه على خلفية علاقته بالتآمر والابتزاز الإجرامي لكامورا، إلا أنه استطاع تجنب تسليمه لحكومته لسنوات، بسبب جنسيته الأسكتلندية، ولأن السلطات البريطانية لم تقر في الواقع بجرائمه المزعومة. أسكتلندا لم تكن ترغب بأن تخسر واحداً من ألمع المستثمرين المغامرين لديها.

في عام 2002، أصدرت محكمة نابولي أوامر بالحجز الوقائي

لثلاثين شخصاً مرتبطين بجماعة لا توريه. وانبثق عن القرار أن أعمال الابتزاز، والعقود، والتحكم بالنشاطات الاقتصادية، كانت تدرّ على الجماعة أرباحاً هائلة من المال، والتي كانوا يقومون بعدها باستثمارها فيما بعد في ما وراء البحار، وبشكل خاص في بريطانيا التي تكونت فيها مستعمرة فعلية للجماعة. هذه المستعمرة لم تغزُ السوق أو تطرح فيها منافسة فظة في مجال القوى العاملة، بل قامت عوضاً عن ذلك ببث النشاط الاقتصادي في حنايا المدينة، وبث الحياة في صناعة السياحة، وحثت على نشاطات استيراد وتصدير جديدة، وحقنت قطاع العقارات بالحركة والنشاط.

الطاقة الدولية المنبعثة من موندراغون تمثلت بروكيفيلر، هكذا كان يسميه الناس لموهبته الواضحة في عقد الصفقات، وسيطرته على كميات هائلة من المال. روكيفيلر هو رفاييلي بارباتو، وهو مواطن أصلي من موندراغون، ويبلغ الثانية والستين من عمره، وربما هو نفسه قد نسي اسمه الحقيقي. له زوجة هولندية، إذ حتى أواخر الثمانينيات كان له أعمال في هولندا، حيث كان يملك إثنين من الكازينوهات، كانا أثيرين لدى الأشخاص المهمين عالمياً، من أمثال أخ بوب سيلينو الذي أنشأ كازينوهات في لاس فيغاس، وجماعة المافيا الروسية (سلافيك مافيوزي)، ويقع مركزها في ميامي. كان شركاؤه: ليبوريو الصقليّ صاحب الاتصالات بكوسا نوسترا، وإمي الرجل الهولندي الذي انتقل لاحقاً إلى إسبانيا، حيث افتتح الفنادق والمساكن وصالات الديسكو. لقد صرح كل من التائبين ماريو سبيرلونغارو، وستيفانو بيتشيريلو، وجيرولامو روزيرا، أن روكيفيلر ومعه أوغستو لا توريه كانا من حضنا فكرة الذهاب إلى كراكاس سعياً وراء لقاء تجار المخدرات الفنزويليين، الذين كانت أسعار الكوكايين لديهم أفضل مما لدى الكولومبيين الذين كانوا يزودون

النابوليين والكسالسيين. وقد كان روكيفيلر هو من وجد مكاناً مريحاً لأوغستو ليبيت فيه عندما ذهب للاختباء في هولندا، وهو نادي الرماية. فبعيداً عن ريف موندراغون، يمكن للزعيم أن يحافظ على لياقته في التصويب على حمائم صلصالية طائرة. كان روكيفيلر صاحب شبكة ضخمة، فهو واحد من رجال الأعمال الأكثر شهرة، لا في أوروبا فقط، بل في الولايات المتحدة الأميركية كذلك. وعبر بيوت القمار الخاصة به، أنشأ علاقات مع رجال المافيا الإيطالية - الأميركية الذين كانت الجماعات الألبانية تنبذهم شيئاً فشيئاً، وتسيطر على مدينة نيويورك. نتيجة لذلك تحالف المافياويون بشكل متزايد مع عوائل كامورا في كامبانيا، وأضحَوا أكثر توقاً للاستثمار في السوق الأوروبية، وللاتجار بالمخدرات، وللاستثمار في المطاعم والفنادق، كل ذلك عبر بوابة موندراغون المفتوحة. روكيفيلر هو مالك قرية آدم وحواء، التي أعيد تسميتها فأصبحت لا بلايا، وهي قرية عطلات جميلة على شاطئ موندراغون، يمضي فيها العديد من المطلوبين الهاربين في الجماعة عطلهم، بحسب ما ذكره القضاة. فكلما كان المخبأ مرفهاً أكثر، كلما قلّ إغراء إنقلابهم إلى شهود لدى الولاية رغبة بإنهاء حياة الهرب والتنقل. لقد كان لا توريه شديد العنف مع التائبين، ففي إحدى المرات اتصل فرانسيسكو تيبيريو، قريب أوغستو، بدومينيكو بينسا، الذي شهد ضد جماعة ستولدر، ودعاه بالكلام الصريح أن يغادر المدينة، قائلاً:

"لقد وصلني من آل ستولدر أنك قد تعاونت مع الشرطة ضدهم. وبما أننا لا نرغب بوجود المخبرين في هذه البلدة، فمن الأفضل أن ترحل عن موندراغون، وإلا سيأتي أحدهم إليك ويقطع رأسك"

لقد كان لدى قريب أوغستو هذا موهبة في إجراء مكالمات التهديد مع كل من تجرأ على التعاون مع السلطات، أو سرّب

مكتبة الرمحي أحمد

المعلومات. لقد كان أكثر وضوحاً في محادثته مع فيتوريو دي تيللا، إذ دعاه إلى ابتياع طقم لجنازته:

"إن كان لا بد أن تتكلم، فمن الأفضل لك أيضاً أن تشتري قميصاً أسود أيها اللعين، لأنني سوف أجهز عليك"

قبل أن يبدأ شركاء الجماعات بالتحول إلى شهود لدى الحكومة، لم يكن لدى أحد القدرة على تخيل مدى اتساع عمليات موندراغون. أحد أصدقاء روكيفيلر كان رفاييل أكونتشيا، وهو الذي ولد في موندراغون كما روكيفيلر، إلا أنه انتقل إلى هولندا حيث امتلك هناك سلسلة مطاعم، وحيث كان تاجر مخدرات مهماً على المستوى الدولي، حسب زعم التائب ستيفانو بيتشيريلو. ولا يزال كنز لا توريه مخبأً في مكان ما من هولندا، ربما في أحد البنوك، وكذلك ملايين من اليورو التي لم يستطع القضاة يوماً تحديد مكانها، والتي جمعت من أعمال الوساطة والتجارة. لقد أضحى ذاك المخبأ المزعوم في البنك الهولندي رمزاً للثروة المطلقة في موندراغون، والتي تفوق مؤشرات الثروات العالمية الأخرى كلها. لم يعد الناس هناك يقولون "لقد كان يظنّ أنني بنك إيطاليا" بل يقولون "كان يظن أنني بنك هولندا"

لقد قررت جماعة لا توريه، بدعم من جنوب أميركا وهولندا، أن تستولي على تجارة الكوكايين في روما. فبالنسبة إلى عوائل كامورا كاسيرتا جميعها، تشكل روما الوجهة الأولى لاستثمارات المخدرات والعقارات. فقد باتت العاصمة امتداداً لدائرة كاسيرتا. وبإمكان جماعة لا توريه الاعتماد على طرقات ساحل دوميتيا لتزويدهم بما يحتاجون إليه. والفلل هناك أيضاً كانت جوهرية، بداية لأجل تهريب السجائر، ومن ثم لأجل تخزين جميع أنواع البضائع. كان الممثل نينو مانفريدي يمتلك فيلا هناك، فذهب إليه ممثلون عن الجماعة وطلبوا

منه بيعها لهم، إلا أن مانفريدي قاوم بكل الوسائل الممكنة، غير أن ضغط الجماعة تزايد، وذلك لأن موقع منزله كان نقطة استراتيجية بالنسبة إليهم لإرساء القوارب. بعدها توقفوا عن الطلب، وأجبروه على تسليم المنزل لهم مقابل ثمن هم حددوه. حتى إن مانفريدي ناشد زعيماً في كوسا نوسترا، ونشر الخبر عبر راديو نيوز 1 في كانون الثاني من عام 1994، لكن ما من صقلي قبل أن يتدخل في وساطة ضد الموندراغونيين عظيمي النفوذ. تمكن فقط من الكشف علناً عن الضغط الذي استعملته كامورا لأجل مصالحها الاستراتيجية، عن طريق الظهور على التلفاز وجذبه لاهتمام الإعلام الوطني بالقضية.

لقد اتبعت تجارة المخدرات طرقات تجارية أخرى، فقد قرر إنزو بوكولاتا، قريب لا توريه وصاحب مطعم في ألمانيا، أن يصدّر الملابس. فقام ومعه أنتونيو لا توريه، ورجل أعمال لبناني، بشراء ملابس في باغليا، في الوقت الذي كانت جماعات سيكونديغليانو تحتكر فيه صناعة الألبسة، ثم باع هذه الملابس ثانية في فنزويلا عبر وسيط يدعى ألفريدو، والذي تشير التحقيقات إلى أنه كان واحداً من أهم تجار الألماس في ألمانيا. بفضل جماعات كامورا في كامبانيا، أصبح الألماس - الذي يتميز بتذبذب أسعاره، إلا أنه يحافظ دوماً على قيمته الإسمية - سريعاً من الأصول المختارة في غسيل الأموال. كان إنزو بوكولاتو معروفاً في مطارات فنزويلا وفرانكفورت، فقد كان له من يحميه بين مفتشي البضائع. فعلى الأرجح أنهم لم يكونوا فقط لا يفتشون شحنات الملابس، بل وكانوا أيضاً يعدون شبكة ضخمة لأجل الكوكايين. قد يبدو أن الجماعات، ما إن تراكم رأس مال ضخماً، حتى تضع نهاية لنشاطاتها الإجرامية، وتحلّ بطريقة ما قوانينها الوراثية المتأصلة فيها، وتحوّل نشاطاتها إلى أنشطة قانونية. تماماً كعائلة كينيدي، التي جمعت كميات هائلة من المال عن طريق بيعها

للمشروبات خلال فترة تطبيق قانون منع بيعها، ثم قامت لاحقاً بقطع جميع صلاتها الإجرامية. تكمن قوة الأعمال الإجرامية الإيطالية بالدقة في المحافظة على مسار مزدوج، وفي عدم إنكار أصولها الإجرامية على الإطلاق. يدعى هذا النظام في أبيردين: الخدش. فكما يضع منسّق الأغاني DJ إصبعه على الأسطوانة لإعاقتها عن الدوران بشكل طبيعي، كذلك يقوم رجال الأعمال الكاموريون في أي لحظة بإيقاف حركة السوق القانونية، "خدش"، ومن ثم يجعلونها تدور بسرعة أكبر حتى من السرعة التي كانت قبل.

كشفت عدة تحقيقات لمكتب النائب العام لمكافحة المافيا في نابولي، أنه عندما كان المسار القانوني للا توريه يقع في أزمة، يتم على الفور تفعيل المسار الإجرامي. إن كان هناك نقص في السيولة، فتتم طباعة فواتير مزورة، وإن كانوا بحاجة إلى رأس المال سريعاً، فيتم بيع سندات مالية مزيفة. لقد قضوا على أي منافسة عن طريق الابتزاز، واستوردوا البضائع دون دفع الضرائب. إن خدش أسطوانة الاقتصاد القانوني يعني أن الزبائن يحصلون على أسعار ثابتة، فالأرصدة الدائنة لدى البنوك تُحترم دوماً، ويستمر المال بالدوران، ويستمر استهلاك البضائع. الخدش يخفض الفجوة بين ضرورات القانون وضرورات الاقتصاد، بين ما تمنعه الأنظمة والقوانين، وبين ما يتطلبه صنع المال.

إن الصفقات الخارجية تعني أن المشاركة البريطانية في مستويات مختلفة من نشاطات جماعة لا توريه كانت أساسية، حتى إن بعض الأشخاص أصبحوا من الشركاء. أحد هؤلاء الأشخاص كان براندون كوين الذي كان محتجزاً في بريطانيا، لكن مرتّبه كان يصل إليه من موندراغون في الوقت المحدد شهرياً، متضمناً العلاوة أيام ذكرى

الميلاد. لقد ذكر في أمر الحجز الوقائي الصادر في حزيران من عام 2002، أن "براندون كوين هو دائماً ضمن جدول الرواتب التي تدفعها الجماعة، بناء على رغبة أوغستو لا توريه" إذ يتلقى الأعضاء في الجماعة عادة، وبالإضافة إلى الحماية الجسدية، راتباً مضموناً، ومساعدة قانونية، وتغطية من الجماعة إذا لزم الأمر. إنما ليحظى بعهود من الزعيم مباشرة، كان على كوين أن يلعب دوراً حيوياً في أعمال الجماعة، ليضحي دون تردد الكاموري الإنكليزي الأول في التاريخ الإجرامي لإيطاليا وإنكلترا.

لقد سمعت أحاديث عن براندون كوين لسنوات، على الرغم من أنني لم أره يوماً ولا حتى في الصور. وعندما وصلت أخيراً إلى أبيردين، لم أستطع أن أمنع نفسي من السؤال عن حليف أوغستو لا توريه الجدير بالثقة، الكاموري الاسكوتلندي، وهو الرجل الذي استطاع فقط نتيجة معرفته بالتركيبات في مجال الأعمال، وبقواعد القوة، أن يفكك دون عناء أي علاقات متبقية مع الجماعات القديمة في منطقة هايلندز الأسكتلندية، من أجل الانضمام إلى الموندراغونيين. كان هناك دائماً مجموعة من الأولاد المحليين الذين يتسكعون في مشارب لا توريه. لم يكونوا من الأنماط الخاملة، والثورية، والإجرامية التافهة، الذين يرضعون شراب الشعير "باينت"، منتظرين فرصة مؤاتية للّكم، أو لسرقة محفظة، بل كانوا ببساطة أولاداً سريعي البديهة يشاركون في أعمال قانونية على مستويات متنوعة، كالنقل، والإعلان، والتسويق. عندما سألتهم عن براندون، لم يقابلوني بنظرات عدائية أو أجوبة مبهمة، كما كان سيحصل لو أنني كنت أسأل في كامبانيا عن أحد أعضاء الجماعات. لقد بدا أنهم يعرفونه منذ الأزل، وأنه قد أصبح على الأرجح وجوداً أسطورياً يتحدث عنه الجميع. لقد كان كوين إنساناً ناجحاً، ولم يكن مثلهم عاملاً بأجر ثابت فحسب، فهو ليس

موظفاً في مطعم، أو شركة، أو متجر، أو وكالة عقارات. براندون كوين كان أكثر من ذلك. لقد حقق أحلام العديد من الشبان الأسكتلنديين لا لمجرد أنه عمل بشكل قانوني، بل لأنه أصبح جزءاً من التنظيم، وعضواً عاملاً في الجماعة. أصبح كامورياً من كل النواحي، على الرغم من مساوئ أن يكون المرء أسكتلندي المولد، والتي تتجلى في اعتقاده بأن للاقتصاد طريقاً واحداً فحسب ويسلكه الجميع، اقتصاد مبتذل بقواعده وانهزاماته، إنه اقتصاد المنافسة والأسعار فقط. لقد صدمت لاكتشافي بأن لغتي الإنكليزية المترعة باللكنة الإيطالية، لم تجعل مني مهاجراً في أعين الأسكتلنديين، ولا نسخةً محرفةً ومشوهةً عن جيك لا موتا - الثور الهائج(**) - ولا مجرماً أتى ليمتص خيرات بلادهم، لقد سمعوا في لكنتي بدلاً من ذلك قواعد القوة المطلقة للاقتصاد، والقوة التي تقرر كل شيء بحق كل شيء، ولا يحدها حتى السجن أو الموت. بدا لي ذلك مستحيلاً، غير أنه من الواضح أنهم كانوا يعرفون موندراغون، وسيكونديغليانو، ومارانو، وكازال دي برينشيبه. لقد سمعوا عن هذه الأماكن من الزعماء الذين مروا من هنا، أو تناولوا الطعام في مطاعم يعملون فيها، كانت كما لو أنها في ملحمة جرت في أقاصي الأرض. بالنسبة إلى نظرائي الأسكتلنديين، إنها ميزة لا تضاهى أن تكون مولوداً في أرض الكامورا. لقد كانت بنظرهم تعني أن لديك شيئاً يمكّنك من فهم وجود حلبة تكون فيها الاستثمارات، والأعمال المغامرة، والأسلحة، وحتى حياتك نفسها، مكرّسة فقط وحصراً للمال والنفوذ، وهي الأشياء التي تجعل الحياة تستحق أن تعاش، وهي التي تضعك في مركز يومك الحاضر، دون القلق على أي أمر آخر. لقد فعلها براندون كوين، وحتى دون أن يكون مولوداً في إيطاليا، وحتى

(*) جيك لا موتا: هو جيكوب لا موتا، ملاكم معروف نشأ من بيئة معدمة، ثم سطع نجمه كبطل في الملاكمة، ومثل فيلماً عن حياته حمل اسم لقبه نفسه، الثور الهائج، أدى دوره فيه روبرت دي نيرو. (المترجمة إلى العربية).

دون أن يرى كامبانيا يوماً، أو دون أن يقود سيارته لساعات عبر مواقع البناء، ومكبات النفايات، ومزارع الجاموس. لقد أضحى رجل قوة ونفوذ حقيقيين، لقد أضحى كامورياً.

على أي حال، إن هذه المنظمة العظمى للتجارة والتمويل العالميين لم تكسب مرونة الجماعة وهي في ديارها. لقد استخدم أوغستو لا توريه نفوذه بخشونة في موندراغون. فقد توجب عليه أن يكون عديم الرحمة لينشئ اتحاداً قوياً بهذا الشكل، فطلب مئات الأسلحة من سويسرا. سياسياً، تفاوت أداء أوغستو لا توريه بين الشدة في إدارة العقود وبين التحالفات والعلاقات المتقطعة مع بعض الأشخاص، متيحاً بذلك فرصة ترسيخ صفقاته، مع حرصه على أن ينتظم السياسيون في سياق أعماله. لقد كانت موندراغون هي أول بلدة إيطالية تحل بلديتها في التسعينيات بسبب تسرب كامورا إليها. عبر السنوات، لم ينفصل السياسيون عن الجماعة حقاً، ففي عام 2005 وجد هارب نابوليّ ملجأ له في منزل مرشح في حزب المحافظ المنسحب. ولمدة طويلة، كانت ابنة ضابط مرور، متهمة بأنها تجمع الرشاوى للا توريه التي تمثل حزب الأغلبية في مجلس البلدة.

كذلك كان أوغستو خشناً مع السياسيين، فكل من سولت له نفسه معارضة أعمال العائلة، تلقى عقوبات رادعة. أما منهج التصفية الجسدية فقد كان دائماً هو نفسه في إزالة أعداء لا توريه، حتى بات يشار إليه في لغة المصطلحات الإجرامية بأسلوب موندراغون. تتألف هذه التقنية من الضرب المبرح للجثة، ورميها في بئر ريفية، ثم إلقاء قنبلة يدوية فوقها لتفجرها إلى أشلاء، ويردم التراب البقايا التي غاصت في الماء. هذا ما فعله أوغستو لا توريه، بنائب المحافظ أنتونيو نوغنيز، وهو الديمقراطي الذي تبخر في الهواء عام 1990. لقد

مثل نوغنيز حجر عثرة في طريق الجماعة الراغبة في أن تدير بشكل مباشر العقود المرتبطة بالبلدية، وفي أن تتدخل في الشؤون السياسية والإدارية كافة. فأوغستو لا توريه لم يكن راغباً بالحلفاء، بل كان يريد أن يدير كل شيء بنفسه. في ذلك الحين، لم تكن القرارات العسكرية تخضع للكثير من التفكير: فأنت أولاً تطلق النار، ومن ثم تفكر. لقد كان أوغستو لا توريه شاباً يافعاً عندما أصبح زعيم موندراغون. وقد أراد أن يصبح مالك أسهم في عيادة خاصة يتم بناؤها، وقد استحوذ نوغنيز على كم كبير من الأسهم. عيادة إنكالدانا كانت واحدة من أكثر العيادات هيبة في لازيو وكامبانيا، وهي لا تبعد أكثر من رمية حجر عن روما، وبالتالي فسوف تستقطب عدداً لا يستهان به من رجال الأعمال من جنوبي لازيو، مقدمة بذلك حلاً لمشكلة نقص المستشفيات عالية المستوى في ساحل دوميتيا وبونتيني مارشيز. لقد أصر أوغستو على أن يقبل مجلس إدارة العيادة، بشخص من طرفه أراده أن يمثل العائلة، وهو رجل أعمال ينتمي إلى الجماعة، كان قد أصبح ثرياً بفضل تجارة النفايات. لقد عارض نوغنيز، فقد أدرك أن استراتيجية لا توريه كانت ترمي إلى أبعد من مجرد الدخول في صفقة ضخمة. فأرسل أوغستو مبعوثاً إلى نائب المحافظ ليحاول تليين موقفه وليقنعه بأن يقبل بشروطه. بالنسبة إلى سياسي ديمقراطي، لم يكن أمراً فاضحاً أن يكون له علاقات مع أحد الزعماء، وأن يحسب حساباً لقوته العسكرية والتجارية. فالجماعات كانت القوة الاقتصادية الأساسية في المنطقة، ورفض إقامة العلاقات معها سيكون كما لو أن نائب محافظ مدينة تورين رفض مقابلة الإدارة العليا لشركة فيات. في الواقع، لم تكن فكرة أوغستو تتلخص في شراء الأسهم بسعر جيد كما كان ليفعل زعيم أكثر دبلوماسية، بل لقد أراد الحصول عليها مجاناً، وسيتعهد بالمقابل بأن تقوم شركاته جميعها التي ربحت عقود

الأمور الخدماتية من تنظيف، وتقديم الطعام، والنقل، والحراسة، بأداء عملها باحترافية عالية، وبأسعار مقبولة. حتى إنه أكد لنوغنيز أن أبقاره ستنتج حليباً أكثر جودة. لقد تذرعوا بعقد اجتماع مع الزعيم ليبعدوا نوغنيز عن أعماله الزراعية التي كان يديرها، ويأخذوه إلى مزرعة في فالتشيانو ديل ماسيكو. وبحسب شهادة أوغستو، فقد كان معه بانتظار نوغنيز كل من: جيرولامو روزيرا، المعروف باسم جيمي، وماسيمو جيتو، وأنجيلو غاغلياردي، وجوزيبيه فالينتي، وماريو سبيرلونغانو، وفرانسيسكو لا توريه، جميعهم كانوا بانتظار الكمين. ترجل نائب المحافظ من السيارة ليحيي الزعيم، وقد اعترف أوغستو للقضاة أنه بينما كان يمد يده ليصافح نوغنيز، غمغم لجيمي قائلاً: "تعال، فالعم أنتونيو هنا" تلك كانت رسالة جلية لا لبس فيها، أطلق على أثرها جيمي النار على نوغنيز في رأسه مرتين، وأجهز عليه الزعيم بنفسه. بعدها، تخلصوا من الجثة بإلقائها في بئر عمقها أربعون متراً في وسط الريف، وألقوا فوقها قنبلتين يدويتين.

لسنوات طويلة لم يعرف شيء عن أنتونيو نوغنيز، كان الناس يتصلون بالسلطات ليخبروا عن مشاهدتهم له في جميع أنحاء وزوايا إيطاليا، لكنه في الحقيقة كان في قعر بئر، مدفوناً تحت أطنان من التراب. وبعد مضي ثلاثين عاماً، أخبر أوغستو، وأكثر رجاله ولاء، الشرطة عن المكان الذي بإمكانهم العثور فيه على نائب المحافظ الذي تجرأ على الوقوف في وجه نمو أعمال لا توريه. عندما بدأت الشرطة بجمع البقايا، أدركوا أنها لم تكن لشخص واحد فقط، إذ كانت مؤلفة من أربع عظام ساق، وجمجمتان، وثلاث أيدي. بعدها بعشر سنوات تمددت إلى جانب جثة نوغنيز، جثة فينسينزو بوكولاتا، الكاموري المرتبط بكوتولو، والذي انضم لاحقاً إلى جماعة لا توريه إثر هزيمة كوتولو.

لقد صدر حكم الموت بحق بوكولاتا لأنه أهان أوغستو بشدة في رسالة أرسلها إلى صديقه من السجن. لقد عثر عليها الزعيم مصادفة، في أثناء تجوله في غرفة جلوس أحد الأعضاء. فبينما كان يقلب في بعض الرسائل والأوراق، وقعت عيناه على اسمه، فدفعه الفضول إلى قراءة ما تكشف بأنه كومة من الإهانات والانتقادات أهالها بوكولاتا على رأسه، وقبل أن ينهي الزعيم قراءة الرسالة، كان الحكم قد صدر، على الرجل أن يموت. لقد أرسل إليه أنجيلو غاغلياردي لتنفيذ الحكم، وكان هو أيضاً عضواً سابقاً في جماعة كوتولو، إذ أن بوكولاتا سيصعد معه إلى السيارة دون أن يرتاب في الأمر. يشكل الأصدقاء أفضل القتلة، فهم يؤدون عملهم على أتم وجه ودون فوضى، فلا حاجة إلى ملاحقة الهدف الذي يركض هارباً ويملأ الدنيا صراخاً. وعندما يكون الأمر آخر ما يمكن أن تتوقعه، سيتم بصمت. سيصوبون فوهة المسدس إلى عنقك ويضغطون الزناد. لقد أراد أوغستو لا توريه لأحكام الإعدام أن تنفّذ بألفة ومودة. فلم يكن يحتمل أن يهزأ به أحد، ولم يرد لأي كان أن يضحك عندما يذكر اسمه، لا أحد يجب أن يجرؤ على ذلك.

لقد كان لويجي بيليغرينو، المعروف باسم جيجيوتو، واحداً من أولئك الأشخاص الذين يستمتعون بالثرثرة حول الأعلام المهمة وذات النفوذ في المدينة. الكثير من الأولاد في أرض الكامورا يهمسون في ما بينهم بما يفضله الزعماء من النواحي الجنسية، لكن على الرغم من ذلك، يتقبل عادة الزعماء هذه الأمور، إذ لديهم أمور أخرى ليشغلوا بالهم بها، ففي النهاية إنها حتمية الأمور التي تجعل من الأشخاص الذين في موقع القيادة مادة دسمة ترعى عليها هذه الأقاويل. لقد نشر جيجيوتو الشائعات حول زوجة الزعيم، قائلاً بأنه قد شاهدها مع أحد أكثر الرجال الموثوقين بالنسبة إلى أوغستو، وأنه رأى سائق الزعيم

يقلها لملاقاة حبيبها. رجل جماعة لا توريه الأول، الرجل الذي يتحكم بكل شيء، له زوجة تخونه، وتحت سمعه وبصره، وهو لا يدرك ذلك. لقد كرر جيجيوتو قصصه، ودائماً بهّرها بالمزيد من التفاصيل، ودائماً بقليل من الاختلاف بينها. وسواء أكان ذلك افتراء أم لا، فقد أصبح الجميع الآن يتندرون بقصة علاقة زوجة الزعيم الغرامية بالرجل الذي يشكّل ذراعه اليمنى. وقد كانوا دوماً حريصين على ذكر مصدر القصة: جيجيوتو. وفي أحد الأيام، وبينما كان جيجيوتو يتمشى في وسط مدينة موندراغون، سمع دراجة نارية تقترب من الرصيف أكثر قليلاً مما ينبغي، وما إن بدأت في تخفيف سرعتها، حتى انطلق يجري، وانطلقت في أثره طلقتان. لكن جيجيوتو استطاع تفاديهما بركضه المتعرج بين الناس وأعمدة النور، وهرب في حين أفرغ القاتل الملتصق بظهر سائق الدراجة مخزنه بأكمله. وبالتالي قام بمطاردته سيراً على الأقدام إلى مشرب حاول جيجيوتو الاختباء فيه، ثم أخرج مسدسه وأطلق النار عليه في رأسه على مرأى العشرات من الناس، الذين تلاشوا بعدها سريعاً وبصمت. وفقاً لما ورد في التحقيقات، كان القاتل هو جوزيبيه فراغنولي، وهو وصي في الجماعة أراد تصفية جيجيوتو، ودون حتى انتظار التفويض. لقد قرر أن يخرس اللسان المهرج الذي كان يلطخ صورة الزعيم.

في عقلية أوغستو، لم تكن موندراغون، والريف المحيط، وخط الساحل، والبحر، جميعها أكثر من ورشة للجماعة، ومختبر له ولزملائه، ومنطقة تستخرج منها المواد لتمخّضها شركاتهم إلى أرباح. لقد مُنع الإتجار بالمخدرات بشكل قاطع في موندراغون وعلى طول ساحل دوميتيا، وبأشد أنواع الأوامر صرامة التي يمكن لزعماء كاسيرتا أن يصدروها لمرؤوسيهم، أو لأي كان. لقد كان الدافع وراء هذا الأمر أخلاقياً، لينقذ أهل بلدته من الهيروين والكوكايين، لكنه

على الأغلب كان أيضاً ليمنع تجار المخدرات في الجماعة الذين يفتقرون إلى الخبرة، من اكتساب موطئ قدم اقتصادي في إقليمه، ومن الوصول إلى الثراء في قلب القوة، فيصبحون قادرين على معارضة قيادته. فتلك المخدرات التي كانت تجلب من هولندا، لتباع في السوق الرومانية من قبل اتحاد موندراغون، كانت محظورة تماماً. كان على أهل موندراغون أن يستقلوا السيارة، ويسلكوا الطريق إلى روما بطوله ليشتروا الماريجوانا، والكوكايين، أو الهيروين، التي يبيعها لهم النابوليّون، والكسالسيون، والموندراغونيون أنفسهم. لقد شكّلت الجماعة فرقة لمكافحة المخدرات، تدعى GAD، كانت تتصل بالشرطة لتعلن مسؤوليتها عما تفعل. فإن أمسكوا بك وفي فمك جرعة مخدر، فسيحطمون أنفك. وإن عثرت الزوجة على ظرف كوكايين فكل ما عليها فعله هو إخبار GAD، لأن زوجها سيعود إلى رشده حتماً بعد أن يتعرض للركل واللكم في وجهه، وبعد أن تكون محطات البنزين قد رفضت ملء خزان سيارته للقيام برحلته إلى روما.

كان هناك شاب يافع مصري، اسمه حسان فخري، قد دفع الثمن غالياً لكونه مدمناً على المخدرات. كان مربياً للحيوانات الكريهة، ذات السلالة النادرة. وهي أدكن لوناً من الجواميس، وبدينة وكثيرة الشعر، وذات مخازن شحم تصنع منها النقانق الرفيعة، والسلامي، والشرائح. إنه أمر مريع أن تكون مربي حيوانات، وتجرف السماد باستمرار، وتحز أعناق الحيوانات، وتعلقها بالمقلوب من أرجلها ليقطر دمها في أحواض وضعت تحتها. لقد كان حسان سائق سيارة أجرة في مصر، لكنه ابن عائلة من المزارعين، لذا فقد كان يعلم كيفية التعامل مع الحيوانات، لكن ليس الكريهة منها. بالنسبة إلى شخص مسلم، الحيوانات الكريهة تثير الاشمئزاز بشكل مضاعف، لكنها تبقى أفضل من الجواميس، إذ سيتوجب عليك حينها أن تمضي يومك بأكمله وأنت تجرف قذارة

فضلاتها كما يفعل الهنود. فضلات الحيوانات الكريهة هي أقل بنسبة النصف، وزرائبها صغيرة مقارنة بزرائب الأبقار. العرب كلهم يعرفون هذا، لذا فتراهم يتجهون إلى العمل مع الحيوانات الكريهة، عوضاً عن الإغماء من التعب في العمل مع الجواميس. ثم بدأ حسان بتعاطي الهيروين. كان يستقل القطار إلى روما، يبتاع ما يريد، ثم يعود إلى الزريبة. إلى أن أتى يوم أضحى فيه مدمناً بشدة، ولم يكن يملك المال الكافي على الإطلاق، فاقترح عليه البائع أن يحاول العمل كمروّج في موندراغون، وهي المدينة التي ليس فيها سوق مخدرات. وافق حسان، وبدأ ببيع المخدرات خارج مشرب دوميزيا، فأنشأ لنفسه مجموعة زبائن جنى من خلالهم في عشر ساعات ما يجنيه في ستة أشهر من عمله كمربي حيوانات. كل ما تطلّبه إنهاء نشاطه هذا، هو اتصال أجراه صاحب المشرب. هذه هي مسيرة الأمور في هذا المكان، فأنت تتصل بالصديق، الذي يتصل بدوره بابن عمه، الذي يخبر الكومباري خاصته، والذي بدوره سينقل الخبر إلى كل من يلزمه أن يعلم، في سلسلة لا يعرف في حلقاتها سوى حلقة البداية والنهاية. وبعد عدة أيام توجه رجال لا توريه، الذين يدعون أنفسهم GAD، مباشرة إلى زريبة حسان، وطرقوا الباب. لقد تظاهروا بأنهم من رجال الشرطة، كيلا يفر منهم بين الحيوانات والجواميس، مما يجبرهم على مطاردته في الوحل والقذارة. ثم حملوه في السيارة التي انطلقت بعيداً، وعندما لم تتخذ طريق مقر الشرطة، أدرك حسان أنهم سيقدمون على قتله، وعندها انتابته نوبة حساسية غريبة، عانى على إثرها من تنفّخ في جسده، وكأن هناك من يضغط الهواء فيه، وكأن الخوف أثار لديه رد الفعل التحسسي هذا. حتى أوغستو لا توريه نفسه بدا مشدوهاً وهو يروي للقضاة عن التحول الغريب الذي أصابه: لقد أصبحت عينا المصري صغيرتين للغاية، وكأنهما امتصت إلى داخل رأسه، ومساماته أخذت تفرز عرقاً غزيراً

كثيفاً، وفمه يزبد بجبنة الريكاتا. كان عدد القتلة ثمانية، إلا أن سبعة منهم فقط هم الذين أطلقوا النار، إذ قال التائب ماريو سبيرلونغانو: "لقد بدا لي أنه لا فائدة ترجى من إطلاقي النار على جثة ميتة" لكن هذا ما كانت عليه الحال على الدوام. لقد بدا أوغستو مسروراً باسمه الإمبراطوري، وكان لزاماً على جميع المحاربين لديه أن يعضدوه في جميع أفعاله وقراراته. فعملية القتل التي لا تحتاج إلى أكثر من رجل أو اثنين للاهتمام بها، يجب أن ينفذها ثلة من أكثر محاربيه الموثوقين، والذين يتوقع من كل منهم أن يطلق رصاصة واحدة على الأقل، حتى وإن كان الشخص قد مات فعلاً. الفرد للكل، والكل للفرد، وعليه فقد كان أوغستو يطالب بمشاركة كاملة من الجميع، حتى وإن كانت زائدة عن الحاجة. لقد كان موقفه هذا تجاه وجوب العمل الجماعي، ناجماً عن خوفه الدائم من أن يشذّ أحد عن المجموعة. فصفقات الجماعة في أمستردام، وأبيردين، ولندن، وكاراكاس كفيلة بأن تذهب بصواب أحد الشركاء ليعتقد أن بإمكانه التحليق بمفرده خارج السرب. في هذا المكان، الهمجيةُ هي ما تعطي التجارة قيمة حقيقية، وأن تعتزلها معناه أن تخسر كل شيء. وبعد أن قتلوا حسان فخري، غرسوا في جسده مئاتٍ من حقن الأنسولين، وهي النوع الذي يستخدمه مدمنو الهيروين لحقن أنفسهم. رسالةٌ خطّوها على جسده سيفهمها كل شخص في موندراغون وفورميا على الفور.

لم يكن الزعيم يكترث بالناس الآخرين، فعندما أخذ أحد أكثر الرجال الذين يعتمد عليهم باولو مونتانو، والمعروف بلقب زومباريللو، يتعاطى المخدرات ولم يستطع الإقلاع عن الكوكايين، استدعاه أوغستو عن طريق أحد أصدقائه المخلصين إلى اجتماع في إحدى المزارع. وعندما وصلوا، كان يفترض بإرنستو كورناتشيا أن يفرغ مخزن ذخيرة كاملاً في جسد زومباريللو، لكن الزعيم كان يقف قريباً منه للغاية،

فخشي كورناتشيا أن يصيبه أيضاً. عندما شاهد الزعيم تلكؤ إرنستو، أخرج مسدسه وقتل مونتانو بنفسه. لقد اخترقت الرصاصات جسده مصيبة كورناتشيا كذلك، لكن الأخير كان يفضل أن يجازف بأن يصاب هو على أن يجازف بإصابته للزعيم. ألقي جسد زومباريللو في البئر، وفُجّر على طريقة موندراغون.

محاربو أوغستو مستعدون لفعل أي شيء لأجله، حتى إنهم تبعوه عندما تحول إلى شاهد للولاية. في كانون الثاني من عام 2003، قرر الزعيم أوغستو، بعد إلقاء القبض على زوجته، أن يتخذ الخطوة الكبرى. فقام باتهام نفسه ورجاله بأكثر من أربعين جريمة قتل، وأعلن عن أماكن الآبار التي يفجرون الناس فيها، واتهم نفسه بالعشرات والعشرات من جرائم الابتزاز. اعتراف ركز على الجانب العسكري أكثر منه الاقتصادي، سرعان ما لحقه فيه أكثر رجاله ولاء: ماريو سبيرلونغانو، وجوزيبيه فالينتي، وجيرولامو روزيرا، وبييترو سكوتيني، وسلفاتور أورابونا، وإيرنستو كورناتشيا، وأنجيلو غاغلياردي. ما إن يصبح الزعماء في السجن، حتى يصبح الصمت سلاحهم الأمضى للتمسك بالسلطة، وذلك كي يبقوا على عرش القوة بشكل رسمي، وإن كان روتين السجن القاسي يحول بينهم وبين تولي زمام الإدارة. إلا أن أوغستو لا توريه، كان حالة خاصة، فباعترافه وبجعله جميع رجاله يعترفون كذلك، أَمِن أن لا يتهدد أحد أفراد أسرته بخطر القتل كنتيجة لهذا الارتداد. كما أن التعاون مع الشرطة لم يقلل من أهمية الإمبراطورية الاقتصادية لاتحاد موندراغون. لقد ساعد اعترافه فقط، على فهم منطق القتل وتاريخ القوة على طول ساحل كاسيرتا ولازيو. فشأنه شأن الكثير من زعماء كامورا، كل ما تحدث عنه أوغستو لا توريه كان في الماضي، فمن دون التائبين لا تكتشف حقيقة الصنائع، والتفاصيل، والآليات، إلا بعد عشر سنوات أو عشرين سنة، وكأن الإنسان قدر له ألا يكتشف كيفية عمل أجهزته

الحيوية إلا بعد موته.

إن تعاون أوغستو لا توريه ورؤساء الأركان لديه يحمل في طياته مخاطرة مؤكدة، فمن المحتمل أن يحصلوا على تخفيض سخي في الحكم لاعترافهم بالماضي، ومن ثم يخلى سبيلهم بعد بضع سنوات. وبعد أن يعهدوا للآخرين بقوتهم العسكرية، وعلى رأسهم عوائل الجريمة الألبانية، فسيحافظون على قوتهم الاقتصادية المشروعة. وكأنهم قد عقدوا العزم على قول الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة، وأن يستخدموا معرفتهم كطريقة حياة تتلاءم مع نشاطاتهم المشروعة، وأن يتجنبوا أحكام السجن المؤبد والعداوات الداخلية في أثناء مسيرتهم. لم يكن أوغستو قادراً يوماً على تحمل أن يكون حبيساً، فعلى نقيض الزعماء الكبار الذي قاموا بتدريبه، كان عاجزاً عن النجاة لعقود في الحجز. لقد توقع من كافيتيريا السجن أن تقدم طعاماً خاصاً للنباتيين. لم يسمح له بالاحتفاظ بجهاز تسجيل فيديو في زنزانته، وبما أنه يحب أفلام السينما فكان حين يشعر بالرغبة بمشاهدة فيلم العراب، كان يطلب إلى إحدى المحطات المحلية أن تعرضه مساء، قبل أن يأوي إلى سريره.

بالنسبة إلى القضاة كان تعاون لا توريه مع السلطات مغلفاً بالغموض، وذلك لأنه لم يتخلَّ عن دوره كزعيم. فاعتبار أن ما أفشاه هو مجرد امتداد لقوته يظهر في رسالة أوصلها أوغستو إلى عمه، طمأنه فيها ثانية أنه قد أنقذه من أي تورط محتمل في شؤون الجماعة، لكنه أيضاً لم يغفل عن تهديده، هو واثنين من الأقرباء، ليتجنب بذلك احتمال نشوء تحالف ضده في موندراغون:

"إن صهرك ووالده يشعران بالحماية من قبل ذاك الميت الذي يمشي على قدميه"

على الرغم من توبته، إلا أن الزعيم استمر بالمطالبة بالمال من زنزانته في سجن أكويلا. لقد استطاع أن يلتف على النظام بأن يحرر أوامره وطلبه للمال في رسائل يسلمها لأمه أو لسائقه بييترو سكوتيني. بالنسبة إلى القضاة، كانت هذه الطلبات في الواقع عبارة عن ابتزاز. وقد أثبتت رسالة مجاملة مهذبة بعث بها أوغستو إلى أحد أكبر مصنّعي الجبنة في ساحل دوميتيا، أنه لا يزال يعتبره تحت سيطرته.

"عزيزي ببيبه، إنني بحاجة إلى معروف كبير منك. لقد تحطمت، وأطلب منك مساعدتي، وهو أمر أطلبه منك باسم صداقتنا فقط وليس لأي سبب آخر، وحتى إن رفضت فلا تقلق، فسأعتني بك دوماً! إنني بحاجة ماسة إلى عشرة آلاف يورو. كما عليك أن تخبرني أيضاً إن كان باستطاعتك أن تعطيني ألف يورو شهرياً، إنني بحاجة إليها كي أعيش وأسرتي

إن مستوى معيشة عائلة لا توريه المعتاد كان أعلى بكثير من مستوى المساعدة الاقتصادية التي تزودها الولاية لأولئك الذين تعاونوا مع السلطات. لم أتمكن من فهم تعاملات العائلة وصفقاتها حتى قرأت وثائق المصادرات الضخمة التي جرت بأمر من محكمة سانتا ماريا كابوا فيتيري في عام 1992. لقد حجزوا على ممتلكات تبلغ قيمتها حوالى 230 مليون يورو، وتسع عشرة شركة بقيمة 323 مليون يورو بالإضافة إلى معدات تصنيع وآلات تساوي 133 مليون يورو. وكذلك على العديد من المصانع المتموضعة على طول الساحل بين نابولي وغايتا، وتتضمن مصنع ألبان، ومصفاة لتنقية السكر، وأربعة متاجر سوبرماركت، وتسع فلل على الساحل، وأبنية وأراضي، بالإضافة إلى سيارات ودراجات نارية ضخمة. كل شركة كانت تحوي قرابة الستين موظفاً. كما أمر القضاة بمصادرة الشركة التي فازت بعقد جمع القمامة في موندراغون. إنها عملية ضخمة أبطلت جزءاً ضخماً

من قواهم الاقتصادية، لكنها تبقى مجهرية الصغر مقارنة مع عمليات الجماعة الحقيقية. كما تمت مصادرة ڤيلا فخمة قرب أريانا دي غايتا، كانت شهرتها قد طبقت الآفاق حتى وصلت إلى أبيردين. كانت تتألف من أربعة طوابق، تطل تماماً على الجرف، وتحوي بركة سباحة مع متاهة تحت الماء، صممت على غرار ڤيلا تيبيريوس، وهو الإمبراطور الروماني الذي اعتزل العالم في جزيرة كابري. لم أدخل يوماً إلى هناك، بل كانت الأساطير التي رويت عنها وتقارير المحكمة هي عين العدسة التي علمت من خلالها بوجود هذا البناء الإمبراطوري المهيب، والحارس للأملاك الإيطالية للجماعة. كان يمكن لحزام الساحل أن يشكل فضاءً لا متناهياً، يلهم كل خيالٍ معماري مجنح يمكن تصوره، لكنه بدلاً من ذلك أصبح بمرور الزمن خليطاً من البيوت والقلل الصغيرة، التي بنيت على عجل لتستقطب السياح إلى جنوب لازيو ونابولي، دون مخططات تنظيمية، ولا تراخيص. نتيجة لذلك حشرت مجموعات من الأفارقة المهاجرين في أكواخ من كاستيلفولتورنو إلى موندراغون. أما المنتزهات التي خطط لها، والأراضي التي كان يفترض أن تحوي كتلاً جديدة من منازل العطلات، أصبحت أماكن قذرة غير منظمة. لم تكن أي من هذه البلدات تحوي مصانع لتدوير النفايات. أصبحت شواطئ البحر البني مغطاة بالقمامة. وفي غضون بضع سنوات، اختفت حتى أصغر ذكرى للجمال. وفي أيام الصيف تحولت بعض الملاهي الليلية إلى مشارب منتظمة. لقد كان أصدقائي في أثناء التحضير للنشاطات المسائية، يتباهون أمامي بمحافظ جيوبهم الخالية.

أوغستو لا توريه كان واقي موندراغون. لقد قرر الزعيم أن يبقي عينه يقظة على صحة رعاياه. فأضحت موندراغون نوعاً من المكان الآمن تماماً من الأمراض المريعة التي تنتقل عن طريق الاتصال

الجنسي. فبينما كان يستشري في بقية العالم وباء الأيدز HIV، كان شمال كاسيرتا تحت السيطرة تماماً. لقد كانت الجماعة شديدة التدقيق، متتبعة نتائج التحاليل المخبرية لكل فرد، إلى درجة أن أفرادها كانوا يحتفظون بقوائم متكاملة، فهم لم يريدوا لمقاطعتهم أن تلوّث. ولذا عندما ظهرت تحاليل أحد الرجال المقربين لدى أوغستو في الجماعة إيجابية على فيروس HIV، اكتشفوا ذلك مباشرة. لقد كان فيرناندو بروديلا يتردد على الفتيات المحليات، لذا فكان يمكن أن يكون مصدراً للخطر. وعلى عكس جماعة بيدوغنيتي، الذين كانوا يرسلون شركاءهم إلى أفضل الأطباء، مغطين تكاليف عملياتهم الجراحية في أفضل مشافي أوروبا، فأفراد جماعة لا توريه لم يدرسوا حتى فكرة إرسال بروديلا إلى طبيب جيد أو الدفع لعلاجه، بل لقد قتلوه بدم بارد. إنها أوامر الجماعة التي كانت تقضي بإزالة كل مريض لبتر الوباء. ففي منطقهم أن المرض المعدي، وبخاصة ذاك الذي ينتقل جنسياً، أي عبر الوسيلة التي هي أقل ما يمكن السيطرة عليها، يقضى عليه فقط عن طريق التخلص من أولئك المصابين به قضاءً مبرماً. الوسيلة الوحيدة المؤكدة لضمان ألا ينقلوا العدوى إلى أي امرئ آخر، هي في إنهاء حياتهم.

على استثمارات رؤوس الأموال في كامبانيا أن تكون بمأمن أيضاً. وسعياً لهذا، فقد قاموا حتى بشراء ڤيلا في أناكابري آوت وجعلوها مركزاً رئيسياً للشرطة المحلية، الذين بوجودهم كمستأجرين، كان مضموناً ألا يواجهوا أي صعوبات. وعندما أدرك اللا توريه أن الڤيلا ستدر عليهم أرباحاً أكبر من السياح، أخلوها من الشرطة، وقسموها إلى ست شقق مع باحة ومواقف للسيارات، وذلك قبل أن تصل مكافحة المافيا وتضع يدها على المكان بأكمله. تلك استثماراتهم النظيفة، والآمنة، والخالية من المخاطر التي يمكن توقعها.

بعد تحول أوغستو إلى شاهد للولاية، بدأ الزعيم الجديد لويجي فراغنولـي وهـو الموالـي لآل لا توريـه، بمواجهـة بعـض المتاعب مع بعـض الشـركاء أمثـال جوزيبيـه مانكونـي، المعروف باسـم رامبو، لأنه كان ذا شـبه غريب بالممثل سيلفسـتر سـتالوني، وجسـده كان منتفخاً من حمل الأثقال. لقد كانت سـوق المخدرات التي أسسـها تكتسـب أهميـة متواصلـة، وعما قريب سـيصبح قادراً علـى طرد جميع الزعماء القدامى، الذين تهشـمت سـمعتهم بسـبب اعترافات التائبين. بحسب ما ورد عن النائب العام لمكافحة المافيا، فقد لجأت جماعات موندراغون إلى استخدام القتلة من منطقة إيركولانو. وعليه، فقد وصل القاتلان إلى موندراغون في آب من عام 2003، على متن واحدة من تلك الدراجات الناريـة المنخفضـة الضخمـة، التي على الرغم من أنها لـم تكن شـديدة المرونة في المناورة، إلا أنها تبعث على الرهبة لدرجة لم يستطيعا معها مقاومة إغراء استخدامها في الكمين. وعلى الرغم من أنه لـم يسبق لهما أن وطئـت أقدامهمـا موندراغـون سـابقاً، إلا أنهما لـم يجدا صعوبة في تحديد مكان ضحيتهما، فقد كان في مشـرب روكسـي، كعهده دائماً. توقفـت الدراجـة قليـلاً، ترجل أحدهما، مشـى بحزم إلـى رامبو، أفرغ فيه مشطاً كاملاً من الرصاص، ثم عاد إلى الدراجة.

- أكل شيء على ما يرام؟ أقمت بالمهمة؟

- نعم لقد فعلت، اذهب، هيا هيا هيا.

كان قرب المشرب مجموعة أطفال يقررون ما سيفعلونه في عطلة 15 آب. وما إن شاهدوا الأشخاص القادمين من إيركولانو حتى أدركوا مـا كان علـى وشـك الحـدوث، إذ لـم يكن هنـاك أي مجال للالتباس بين صوت السـلاح الأتوماتيكي، والألعاب النارية. فاسـتلقوا جميعهم أرضاً ووجوههم إلى الأرض، خشية أن يراهم أحد القاتلين ويعتبرهم

شـهوداً محتملين ضدهـم. شـخص واحد فقط لم يشـح بنظـره بعيداً، امـرأة واحـدة حدقـت إلـى القاتـل بملء عينيهـا دون أن ترخي نظرها، ودون أن تضغط صدرها إلى إسفلت الشارع، ودون أن تغطي وجهها بيديهـا. لقـد كانـت معلمة مدرسـة في الخامسـة والثلاثيـن من عمرها تقدمـت للشـهادة، وتعرفـت إلـى القاتليـن، وبلغت عن جريمـة القتل. مـن بيـن الأسـباب العديـدة التـي تدفع المرء إلى التـزام الصمت وإلى التظاهر بأن شيئاً لم يحدث والعودة إلى المنـزل لمزاولة الحياة كسابق عهدهـا، هـو الترهيـب، والأكثر منه هـو العبثية وعدم الجدوى، فالقاتل الذي سيعتقل، سيكون واحداً فقط من كثر. ومع ذلك، ومن بين أكوام نفايات الأسباب التي تدفع المرء للصمت، فقد وجدت معلمة المدرسة من موندراغون حافزاً يدفعها للكلام: إنها الحقيقة. حقيقةٌ تبدو طبيعية، كفعل يومي اعتيادي، واضح وضروري كالتنفس. لقد تقدمت للشهادة دون أن تطلب شيئاً بالمقابل، فلم تتوقع الحصول على مرتب أو حماية من الشرطة، إنها لم تضع ثمناً لكلمتها.

لقـد أخبـرت عمـا رأت، ووصفـت وجه القاتل بملامحـه المثلثية وحاجبيه الثقيلين. بعد إطلاق النار، انطلقت الدراجة النارية مسرعة، إلا أنها سـلكت مجموعة من المنعطفات الخاطئة، متجهة إلى نهاية طريق مسـدودة، مـا اضطرهـا إلـى العودة على أعقابها، لقـد بدا الراكبان على متنها كسـائحين منفصمي الشـخصية أكثر منهما قاتلين. وفي المحاكمة التي نتجت عن شهادة المعلمة، حصل القاتل سلفاتوري سيفاريللو البالغ من العمر أربعة وعشرين عاماً، والمحسوب على جماعة إيركولانو، على حكم بالسجن المؤبد. لقد وصف القاضي الذي سمع شهادة المعلمةِ، المعلمةَ بأنها "وردة في وسط الصحراء"، تزهر في أرضٍ، الحقيقةُ فيها هـي دائمـاً نظـرة الناس الأقوياء للأمور، حتى لكأنها تكاد لا يصرّح بها مطلقاً، إنها كسلعة نادرة يقايَض عليها لأجل المرابح. وعلى الرغم من

ذلك، لقد جعل اعترافها حياتها صعبة، وكأنها انتزعت خيطاً من قطب قماش محاك، فانحل وجودها بمجمله مع شهادتها الشجاعة. لقد كانت مخطوبة، لكن خطيبها تخلى عنها، لقد فقدت عملها وتم نقلها إلى موقع محمي من الحكومة، تتلقى فيه راتباً بالكاد يكفيها لتعيش. لقد ابتعد عنها بعض أفراد عائلتها، وأحاطت بها وحدة عميقة. وحدة تتفجر بعنف في حياتها اليومية عندما ترغب بالرقص، ولا تجد شريكاً لترقص معه، عندما لا يجيب أحد على مكالماتها، وعندما يتوقف الأصدقاء عن الاتصال بها، ويختفون في النهاية من حولها. لم يكن الإدلاء بشهادتها في حد ذاته هو ما ولد خوفاً كذاك، ولا واقع أنها تعرفت إلى قاتل هو ما سبب فضيحة كتلك. فمنطق \الأوميرتا ليس بهذه البساطة. إن ما جعل من مبادرة المعلمة الشابة أمراً مخزياً إلى ذاك الحد، هو أنها اعتبرت قدرتها على التقدم بالشهادة أمراً طبيعياً، وغريزياً، وحيوياً. في أرض تعتبر أن الحقيقة هي ما يعود عليك بأمر ما، وأن الكذب هو ما يسبب خسارتك. أن تحيا وكأنك تعتقد في الواقع أن الحقيقة لها وجود، هو أمر مبهم لا يمكن إدراك كنهه. لذا يشعر الناس من حولك بعدم الراحة، تعرّيهم نظرة المرء الذي أنكر قوانين الحياة نفسها، والتي أقروها هم بدورهم إلى أبعد درجة. حتى إنهم قبلوا بها، دون أن يعتريهم أي شعور بالخجل، ففي النهاية إنها مجرد طريقة تسير بها الأمور، والتي لطالما سارت الأمور وفقها. لا يمكنك تغييرها بمفردك، لذا فمن الأجدى أن توفر طاقتك، وتحافظ على المسار المرسوم، وأن تحيا بالشكل الذي يفترض بك أن تحياه.

في أبيردين، اصطدمت عيناي بالنجاح المادي للمشاريع الاستثمارية المغامرة الإيطالية. يتولاك شعور غريب حين ترى الفروع البعيدة إن كنت تعرف الجذور. لا أدري كيف أصف الأمر، لكن

رؤيـة المطاعـم، والمكاتب، وشـركات التأمين، والأبنية جعلتني أشـعر وكأنني أمسك بقدمي، وأنقلب رأساً على عقب، وأنتفض حتى أتجرّد مـن كل شـيء، كمفاتيـح المنزل وقطع الفكـة المعدنية الصغيرة، التي أخذت تتسـاقط من جيوبي وفمي وحتى روحي، إن كان يمكن لذلك أن يسـتغل للربح. تدفق المال يشـع في كل الاتجاهات، ماصاً الطاقة مـن المركـز. أن تعـرف هـذا الأمر يختلف عـن رؤيتك له. لقد رافقت ماتيو إلى مقابلة عمل، وقد وظفوه كما هو واضح. لقد أرادني كذلك أن أبقى في أبيردين.

مكتبة الرمحي أحمد ٩٦

"هنا كل ما يتوجب عليك فعله هو أن تكون كما أنت، روبي

يجب على ماتيو أن يكون من كامبانيا ليحمل تلك الصفة المميزة، وليجد التقدير لسيرته الذاتية، ودرجته العلمية، ورغبته بالعمل. فأصوله ذاتهـا التـي أتاحـت له في أسـكتلندا أن يصبح مواطنـاً مكتمل الريش، كانت تضعه في إيطاليا في تصنيف يعلو بقليل عن فضلة إنسان، خالي الوفـاض مـن الحمايـة والأهمية، ومهزومـاً حتى قبل أن يخطو خطواته الأولى لأنه لم يضع قدمه على المسار المناسب. لقد انفجر ماتيو في سعادة لم أشهد لها مثيلاً من قبل، وكلما ازدادت معنوياته تحليقاً، كلما شعرت بأنني أرزح أكثر فأكثر تحت وطأة كآبة مريرة. فأنا لم أكن يوماً قادراً على إحداث مسافة كافية بيني وبين المكان الذي ولدت فيه، وبين سلوك الناس الذي كنت أكره. لم أشعر بنفسي يوماً بأنني مختلف حقاً عن الآلية المفترسة التي تسحق الأرواح وتسحق ما تتوق إليه. أن تولد فـي أماكـن معينـة يعني أنك سـتصبح ككلاب المطـاردة، تولد ورائحة الأرانـب البريـة فـي أنفك، فتطاردها مـن مكان إلى آخر، حتى إن كان ذاك ضد إرادتك، وحتى إن كنت في اللحظة التي تطبق عليها بفكيك تنتزعها لتطلق سراحها. لقد كنت قادراً على تتبع المسالك، والشوارع، والطرقـات بهـوس محمـوم لا واعٍ، وبقـدرة مخيفة على الفهم بشـكل

مطلق للأقاليم المغزوة.

لقد أردت الخروج من أسكتلندا، أردت أن أغادرها وألا تطأها قدماي بعدها مرة ثانية. لقد رحلت بأسرع ما استطعت. واجهت صعوبة في النوم في الطائرة، فنقص الهواء، والظلمة المخيمة خارج نافذتي أمسكا بحنجرتي، وكأنني كنت أضع ربطة عنق ضيقة للغاية، أخذت تضغط على تفاحة آدم التي في حلقي. لعل رهاب الأماكن المغلقة الذي أصابني لم يكن مرده إلى المقعد الضيق في طائرة صغيرة، أو الظلمة الحالكة التي في الخارج، بل كان بسبب إحساسي بأنني مسحوق من قبل الواقع، كقن دجاج أتخم بالطيور الجائعة حتى أضحت على استعداد لأن تأكل وتؤكل. وكأن كل شيء عبارة عن إقليم واحد، ببعد واحد، وطريقة تعبير واحدة، مفهومة في كل مكان. إنه شعور بانعدام المخرج، بأن تكون مقيداً إلى أحد خيارين، إما أن تنضم إلى المعركة الكبرى، أو لا يكون لك وجود. لقد عدت إلى إيطاليا وأنا أفكر في المسارات التي تسير وفقها القطارات السريعة، ففي الاتجاه الأول تندفع نحو العاصمة ومنها إلى قلب الاقتصاد الأوروبي، بينما في الاتجاه الآخر - اتجاه الجنوب - يأتي كل ما يعتبر في مكان آخر ملوثاً، دخولاً وخروجاً عبر الشبكات القسرية للاقتصاد المرن المفتوح، ما سينتج - عن طريق الدوران المتواصل للتحويل - ثروة في مكان آخر، إنما دون أن يحفز يوماً أي شكل من أشكال التطوير في الأرض التي منها بدأ التحول والانسلاخ.

لقد ورّمت النفايات أحشاء جنوبي إيطاليا، ومددتها كبطن الحامل، لكن الجنين لا يكبر أبداً، إنها تجهض أموالاً، ثم تعود من فورها لتحمل مرة أخرى، فقط لكي تجهض وتحمل من جديد، إلى النقطة التي يتهالك فيها الجسد، وتنسد الشرايين، وتمتلئ الرئتان، وتتخرب الوصلات العصبية، مرة تلو مرة تلو مرة.

أرض الحرائق

ليس من الصعب تخيل أمر ما، وليس من الصعب أن تتصور في ذهنك شخصاً أو إيماءة، أو أي أمر ليس له وجود، بل إنه ليس بالأمر المعقد أن تتخيل موتك. لكنه سيكون غاية في الصعوبة أن تتخيل الاقتصاد بجوانبه كافة: الموارد المالية، ونسبة الربح، والمفاوضات، والديون، والاستثمارات. فما من وجوه تتراءى لك، وما من شيءٍ محدد يمكنك أن تثبته في ذهنك. قد يكون بمقدورك تخيل الأثر الذي يحدثه الاقتصاد، إنما ليس تدفق النقد، والحسابات المصرفية، والمعاملات التجارية الفردية. وإن حاولت أن تحصيها جميعها في مخيلتك، فإن المخاطرة التي تأخذها هي في أنك تغلق عينيك لتركز، وتجهد دماغك إلى أن تصل إلى مرحلة تبدأ فيها برؤية تلك الأشكال المحرّفة المخدّرة مرسومة خلف جفنيك.

لقد واظبت على محاولتي بناء صورة للاقتصاد في ذهني، أي شيءٍ يستطيع أن يعبر عن فكرة تقدمه وإنتاجه، ومبيعه وشرائه. غير أنه كان من المستحيل الخروج برسم بياني يمثل تسلسله، أو شيئاً محدداً اصطلاحياً وموجزاً. لعل الطريقة الوحيدة لتمثيل أشغال الاقتصاد، هي في فهم ما يخلفه وراءه، وهي في ملاحقة آثار تلك الأجزاء التي تسقط بعيداً، كالجلد الميت المتقشر، بينما يتابع هو مسيرته متقدماً إلى الأمام.

إن الرمز الأشد صلابة لكل دورة اقتصادية هو مكب النفايات.

ولأنّ مكبات النفايات تراكمٌ لكل ما سبق ولكل ما كان موجوداً منذ الأزل، فإنها النتيجة الحقيقية للاستهلاك، إنها أعظم دلالة على العلامة التي يتركها أي منتج على وجه الأرض. جنوب إيطاليا هو نهاية الخط، لرواسب الإنتاج، والبقايا عديمة الفائدة، والنفايات السامة. وبحسب ما ذكرته المجموعة البيئية الإيطالية ليغامبيتني، فلو أن النفايات التي تفلت من التفتيش الرسمي، جمعت كلها في مكان واحد، لشكلت جبلاً يزن 14 مليون طن، وبارتفاع 47,900 قدم عن قاعدة تغطي مساحتها الثلاثة هكتارات. فارتفاع مونت بلانك هو 15,780 قدماً، أما إيفرست فارتفاعها 29,015 قدماً. وعليه فإن أكوام النفايات هذه غير المعدّلة، وغير المبلّغ عنها إلى السلطات، ستكون أعلى جبل على سطح الأرض. وعن طريق هذا الجبل الهائل، بدأت أتخيل DNA الاقتصاد، ومعاملاته التجارية وإيرادات أرباحه، وعمليات الجمع والطرح التي يجريها المحاسبون. ولكأن هذا الجبل قد انفجر وغطّى جنوب إيطاليا، وبخاصة كامبانيا، وصقلية، وكالابريا، وباغليا، وهي المناطق ذات النسبة الأعلى في الجرائم البيئية، وهي المناطق نفسها التي تترأس قائمة تتشكّل من أضخم الاتحادات الإجرامية، ومعدلات البطالة الأعلى، وأكبر عدد في المتطوعين في الجيش وقوى الشرطة. إنها القائمة نفسها دائماً وأبداً. في الأعوام الثلاثين الماضية، امتصت المنطقة المحيطة بكاسيرتا، بين نهر غاريغليانو وبحيرة باتريا - أي أرض جماعة مازوني - أطناناً من النفايات العادية والسامة.

إن التي تلقت الضربة الأكثر إيلاماً من سرطان الإتجار بالسموم هي ضواحي نابولي - مناطق مثل غويغليانو، وكواليانو، وفيلاريكا، ونولا، وأسيرا وماريغليانو - وما يقرب من 115 ميلاً مربعاً تضمّنت بلدات غرازانيسي، وكانسيللو أرنوني، وسانتا ماريا لا فوسا، وكاستيلفولتورنو، وكازال دي برينشيبه. ما من بلد غربي في العالم لديه هذا الكم من

النفايات السامة، وغير السامة، والتي تصرّف بطريقة غير مشروعة. في السنوات الخمس الأخيرة، أظهرت تجارة القمامة زيادة كلية بنسبة 8.28 بالمئة، وهو معدل نمو يمكن مقارنته فقط بسوق الكوكايين. في أواخر التسعينيات أصبحت جماعات كامورا، هي الجماعات الرائدة في أوروبا في عملية التخلص من النفايات، وإنهم بالتعاون مع سماسرتهم عبأوا جيوبهم بحوالى 44 مليار دولار من العائدات في هذا المجال، وذلك في غضون أربع سنوات. لقد أشار التقرير البرلماني لعام 2002، والمقدم لوزير الداخلية، إلى تغير في عملية جمع القمامة، وتحوّلها إلى ميثاق بين مجموعة من الدخلاء على هذا العمل، بهدف إلى السيطرة بشكل كامل على الدورة بمجملها. لقد أضحت إدارة النفايات عملاً ضخماً إلى درجة أنه على الرغم من التوتر المستمر بين فرعي جماعة كسالسي، فإن زعيميهما ساندوكان سكيافوني وفرانسيسكو بيدوغنيتي، المعروف باسم تشيتشيوتو دي ميزانوتي، قد تقاسما تلك السوق الهائلة الاتساع دون أن يصلا إلى حد المناطحة بالرؤوس. لكن الكسالسيين ليسوا وحدهم، فجماعة مالاردو من غويغليانو توزّع كميات ضخمة من النفايات عبر إقليمها، ومن ثم تقسّم ريعها بسرعة. لقد اكتُشف أحد المحاجر المهجورة في المنطقة، وهو يفيض كلية بالقمامة، وبما يوازي سعة ثمانية وعشرين ألفاً من شاحنات القاطرة والمقطورة. تخيل صفاً من الشاحنات، تتقدّم إثر بعضها ببطء، على طول الطريق من كاسيرتا إلى ميلانو.

حين أتخم الزعماء بلداتهم بالسموم، وحين قاموا بإفساد الأرض المحيطة بأملاكهم، لم يحصل لهم أدنى وخزة ضمير. حياة الزعامة قصيرة، ونفوذ الجماعة، ما بين الثأر والاعتقالات والقتل وأحكام السجن مدى الحياة، لا يضمنا طول الديمومة. لذا فإن إغراق المنطقة بسيل من النفايات السامة، وإحاطة المدينة بسلاسل جبلية سامة

مؤذية، هما مشكلتان كبيرتان فقط في نظر من يملك حساً بالمسؤولية الاجتماعيـة، ومفهومـاً بالنفـوذ طويل الأمد. أما بالنسـبة إلى العمل في الوقـت الحاضـر والآنـي، فـلا وجود للسـلبيات، بل فقـط لهامش ربح عال. إن جلَّ الإتجار بالنفايات السامة يتخذ في مسيرته منحىً واحداً، وهو من الشمال إلى الجنوب. منذ أواخر التسعينيات، ثمانية عشر طناً من النفايات السـامة الآتية من بريشـا، ألقيت حول نابولي وكاسـيرتا، ومليون طنٍ منها لاقت خلال أربع سنوات، محطتها النهائية في سانتا ماريا كابوا فيتيريه. أما نفايات مرافق المعالجة في ميلانو، وبافيا، وبيزا فقد شحنت إلى كامبانيا. لقد اكتشفت مكاتب النائب العام في نابولي وسانتا ماريا وكابوا فيتيريه، التي يقودها دوناتو سيغلي، أن ما يزيد على ستة آلاف وخمسمئة طنٍ من النفايات القادمة من لومباردي وصلت إلى ترينتولا دوسينتا قرب كاسيرتا، خلال أربعين يوماً في عام 2003.

تشـكل مناطق الأرياف حول نابولي وكاسـيرتا خرائط حقيقية من القمامة التي تقوم مقام اختبار ورق عباد الشمس في الصناعة الإيطالية. ويمكن رؤية مصير عدد لا يحصى من المنتجات الصناعية الإيطالية في المحاجر ومواقع دفن النفايات. لطالما أحببت أن أقود دراجتي الفيسبا عبر تلك المكبات، وعلى الطرقات الريفية التي عبّدت لتسـهيل حركة الشـاحنات عليها. في سـجل المسـافات التي قطعتها كنت أشـعر بأنني أتحرك بين بقايا حضارة، أو بين طبقات من التعاملات التجارية، جنباً إلى جنب مع أهرام الإنتاج. تشكل جغرافية الأشياء هنا فسيفساء متنوعة ومتعددة الأشكال. كل نفاية إنتاج، وبقايا كل فعالية، كانت تنتهي هنا. فـي أحـد الأيـام، كان مـزارع يحرث مزرعةً اشـتراها حديثاً على الخط الواقـع بيـن نابولي وكاسـيرتا، عندما توقـف محرك محراثه بغتة، وكأن الأرض كانـت مكتنــزة بشـكل اسـتثنائي في تلـك البقعة. وبدأت قطع مـن الـورق تتناثـر مـن على جانبي المحـراث. كانت نقـوداً، آلافاً، بل

مئات الآلاف من السندات المالية. فألقى المزارع بنفسه عن محراثه وانكب على الأرض بشكل مسعور يجمع الغنيمة التي خبأها لص غير معروف هنا. إلا أنها كانت مجرد قصاصات ممزقة فاقدة المفعول، وأموال مفرومة من مصرف بانكا دي إيطاليا لكونها عملة مستهلكة أصبحت غير متداولة الآن.

بالقرب من فيلاريكا تعرّف أفراد الشرطة إلى قطعة أرض، ألقيت فيها المناديل الورقية للمئات من مزارع الألبان في فينيتو، وإيميليا روماغنا، ولومباردي وهي مناديل كانت تستخدم لتنظيف ضروع البقر. فالعاملون في المزارع يتوجب عليهم تنظيف الضروع على نحو متواصل، بمعدل مرتين في اليوم أو حتى ثلاث وأربع مرات في كل مرة يصلون بها الأنابيب الماصة لآلة الحلب الأتوماتيكية إلى الضرع. نتيجة لذلك تصاب الأبقار بالتهاب الثدي وبأمراض مشابهة، وتبدأ بإفراز القيح والدم. ومع ذلك، لا يسمح لها بالاستراحة، بل يتم ببساطة تنظيف ضروعها كل نصف ساعة، كيلا يتسرب القيح والدم إلى الحليب ويفسدا الصفيحة بأكملها. لعل خيالي كان يعبث بي، أو أن أكوام مناديل الضروع قد شوشت حواسي، إلا أنني شعرت أنها تفوح برائحة الحليب المتخمّر. الحقيقة هي أن النفايات المتراكمة عبر عقود من الزمن قد أعادت تشكيل الآفاق، أحدثت تلالاً لم يكن لها وجود سابقاً، وابتكرت روائح جديدة، ورممت فجأة كتلاً فقدتها الجبال التي التهمتها المحاجر. حين يمشي المرء في المناطق البعيدة من كامبانيا، يمتص روائح كل ما تنتجه الصناعة. حين أرى الأرض مختلطة بدم من شريان مسموم من مصانع منطقة بأكملها، تخطر ببالي الكرة المعجونية التي يصنعها الأطفال، مستخدمين كل الألوان المتوافرة لديهم. على مدى عقود طويلة، كانت نفايات مدينة ميلانو تلقى بالقرب من غرازانايس. النفايات كافة التي كانت تجمع من حاويات القمامة،

أو التي كان عمال التنظيفات يكنسوها عن الطرقات كل صباح، كانت تشحن إلى هنا. ثمانمئة طن من النفايات من مقاطعة ميلانو تنتهي إلى ألمانيا. وبما أن مجموع إنتاج القمامة هو ألف وثلاثمئة طن، فذلك يعني أن خمسمئة طن مفقودة من السجلات الرسمية، ولا يزال المكان الذي تنتهي إليه غير معروف، لكن من المرجح بدرجة كبيرة أن هذه النفايات الشبحية منتشرة في جنوبي إيطاليا. كذلك محابر الطابعات تلوث الأرض، وهو أمر اكتشف في عام 2006، في عملية تم التنسيق فيها بين مكتب المدعي العام في سانتا ماريا كابوا فيتيريه أو ما يلقّب بمادريه تيرّا، أي الأرض الأم. ففي الليل تنطلق شاحنات تحمل من الناحية الرسمية الأسمدة ومخصبات التربة، بينما كانت في الواقع تلقي بالمحابر من مكاتب توسكان ولومباردي في فيلا ليتيرنو، وكاستيلفولتورنو، وسان تامارو. في كل مرة تمطر فيها، تفوح رائحة قوية أسيدية من الأرض التي أشبعت بمُركّب الهيكسافالانت الكروم. هذا المركب على درجة من السمية، إذ إنه ما إن يُستنشق حتى يجعل من الكريات الحمراء والشعر مأوى له، فيسبب القرحات، ومشاكل في التنفس والكليتين، وسرطاناً في الرئة.

كل متر من الأرض له قمامته الخاصة. أخبرني طبيب أسنان صديق لي، عن مرة أتته فيها مجموعة من الأولاد، حاملين معهم الجماجم، وكانت جماجم بشرية حقيقية، أرادوا منه تنظيف أسنانها. وكمجموعة من شخصيات هاملت الصغار، حمل كل منهم الجمجمة في يد، وفي يده الأخرى لفيفة أوراق مالية مقابل أجرة تنظيف الأسنان. فما كان من الطبيب إلا أن ألقى بهم خارج مكتبه، ثم أجرى مكالمة هاتفية معي، بدا فيها في قمة الانزعاج، قائلاً: "من أين يحصلون على هذه الجماجم بحق الجحيم؟ أين يعثرون عليها؟" لقد ضحكت وحسب، إذ لم يكن من الصعب فك طلاسم الأمر. في إحدى المرات ثقب

إطار دراجتي الفيسبا بينما كنت ماراً في سانتا ماريا كابوا فيتيريه، لقد مررت فوق نوع من العصي الحادة، ظننتها بداية عظم فخذ جاموس، لكنهـا كانـت أصغـر بكثيـر من أن تكون كذلـك. لقد كانت عظم فخذ بشري. تقوم المقابر بشكل دوري بعمليات نبش، تزيل فيها، ما يدعوه حفارو القبور الأصغر سناً، بالموتى الخارقين، وهم أولئك الذين مضى علـى دفنهـم أكثـر مـن أربعين عاماً. يفترض بالمسـؤولين عـن المقابر أن يسـتدعوا شـركات مختصـة للتخلص من الجثـث، والتوابيت، وكل شـيء آخـر، وصـولاً إلـى مصابيح النـذور. إلا أن عمليات الإزالة هذه مكلفة، لذا يقوم المسؤولون برشوة حفاري القبور ليلقوا بكل التوابيت والعظام المتربة البالية معاً في شاحنة ما. جدود وأسلاف لا يعلم المرء مـن أيـن جـاؤوا، كانـوا جميعهـم يتكومون في ريف كاسـيرتا. في عام 2006، اكتشـفت كاسـيرتا NAS، وهي فرع من فرقة الشـرطة المسؤولة عن مراقبة السـلع وحماية صحة المسـتهلك العامة، أن الكثير جداً من الموتى كانوا يلقون في سانتا ماريا كابوا فيتيريه، لدرجة أن الناس كانوا يصلّون كلما مروا من هناك، كما لو كانت مقبرة. كان الأولاد اليافعون يقومون بسـرقة القفازات المطاطية من مطابخ أمهاتهم، ويحفرون بحثاً عن الجماجم، والأقفاص الصدرية السـليمة بالأيدي والملاعق فالباعة في سـوق البضائع المسـتعملة يدفعون حتى 100 يورو مقابل جمجمة بأسـنان بيضـاء، كمـا أن القفـص الصدري الذي تكـون جميع أضلاعه متموضعـة فـي مكانهـا، يمكـن أن يـدر حتى 300 يـورو. وصحيح أنه لا سـوق للقصبة، والفخذ، والأذرع، والأكف، لأنها تتحلل سـريعاً في التربة. الجماجم ذات الأسنان المسودة، تجلب 50 يورو، إذ ليس هناك سـوق كبيرة لها، فالمشـترون، على ما يبدو، لا تنفرهم فكرة الموت، لكنهم ينفرون من مينا الأسنان التي لا بد لها في نهاية الأمر، من أن تبلى.

من الشمال إلى الجنوب، تنجح الجماعات في استنزاف كل ما يمكن من أشكال وألوان الأشياء، لقد دعا رجل دين نولا جنوب إيطاليا بالأرض اللامشروعة لنفايات الشمال الغني الصناعي. فهي تحوي رغوة ناتجة عن المعالجة الحرارية لمعدن الألمنيوم، وغبار دخاني ناجم عن صناعة الحديد والفولاذ، ومشتقات من المعامل الكهربائية الحرارية ومواقد إحراق القمامة، ونفايات الدهان، وسوائل ملوثة بالمعادن الثقيلة، والأسبيستوس، والتربة الملوثة من مشاريع الاستصلاح والتي تلوث فيما بعد التربة التي كانت سليمة وغير ملوثة، والنفايات السامة من الشركات البيتروكيميائية مثل شركة إنيكم من بريولو، ورواسب طينية من معامل الدباغة قرب سانتا غروسي سول آرنو، ورواسب مواد التطهير لشركات يملكها بشكل رئيس العامة في فينيسيا وفورلي.

إن الشركات الكبرى، وكذلك المنشآت الصغيرة، التي تتوق إلى تخليص نفسها وبكلفة رخيصة من المواد التي لم تعد تستطيع استخراج أي شيء منها، والتي تتسبب لها بكلفة إضافية، هي الخطوة الأولى في التخلص غير المشروع من المواد. بعدها يأتي مالكو المستودعات الذين يخلطون الوثائق ويجمعون النفايات، فهؤلاء كثيراً ما يخفّفون من التركيز السّمّي للمواد السامة فيقومون بخلطها مع القمامة العادية، وبذلك يسجلون المجموع كله على أنه ما دون مستوى السمية الذي حدده CER، وهو فهرس النفايات الذي وضعه المجتمع الأوروبي. المواد الكيميائية أساسية في إعادة تعميد النفايات السامة على أنها قمامة حميدة. فالعديد من القائمين على هذه الأمور يقدمون أوراق تعريف مزيّفة، ورموزاً تحليلية مضللة. ومن ثم هناك الحمّالون الذين يسوقون النفايات إلى المواقع المختارة للمكبات. وأخيراً هناك الأشخاص الذين يفسحون المجال للتصريف، أمثال: مديرو المكبات المرخصة ومرافق التسميد التي تحوّل فيها النفايات إلى مخصبات

وأسمدة. بالإضافة إلى مالكي المحاجر المهجورة أو المزارع التي كرّسوها لتكون مكبات غير مشروعة. فكل مساحة لها مالك، يمكن أن تصبح مكباً للنفايات. الأمر الجوهري لنجاح العملية بأسرها يكمن في الموظفين والمسؤولين المدنيين الذين لا يدققون أو يتحققون من الإجراءات، أو الذين يتيحون الفرصة لأناس متورطين بشكل واضح في الجريمة المنظمة، بأن يديروا المحاجر أو مدافن النفايات. فالجماعات ليست بحاجة إلى أن تعقد مواثيق بالدم مع السياسيين، أو أن تتحالف مع أحزاب سياسية، فكل ما يستلزمه الأمر هو مسؤول واحد، أو تقني واحد، أو موظف واحد يريد أن يزيد من دخله. وهكذا يتم العمل، بكثير من المرونة، وبسرية مطلقة، مما يعود بالأرباح على جميع الأطراف المشاركة. إلا أن المخططين والمنفذين لهذه المشاريع هم أصحاب المصلحة المباشرة هنا، فهم المجرمون الحقيقيون العباقرة في إدارة النفايات السامة اللامشروعة. أفضل أصحاب المصالح في المشاريع من الإيطاليين، يتم تشكيلهم هنا، في نابولي، وساليرنو، وكاسيرتا. أصحاب المصالح، في لغة الأعمال الاصطلاحية، هم مستثمرون مغامرون، مرتبطون بمشروع اقتصادي، بطريقة يكون لهم فيها تأثير، مباشر أو غير مباشر، على حصيلته. وأصحاب المصالح في النفايات السمية، قد ألّفوا الطبقة الإدارية المنتظمة. حتى إنه في فترات الركود التي مرت في حياتي، وأنا عاطل عن العمل، لم يكن أمراً غريباً أن يقول لي شخص ما: "لديك شهادة جامعية، ولديك المهارات المطلوبة، لمَ لا تصبح صاحب مصلحة؟"

في جنوبي إيطاليا، أن تصبح صاحب مصلحة هو الطريق المضمون للغنى والرضا المهني، على الأقل لخريجي الجامعة الذين ليس آباؤهم بمحامين ولا محاسبين. فبجمعهم لمقومات التعليم والمظهر الحسن، وبدراستهم للسياسة البيئية في الولايات المتحدة الأميركية أو إنكلترا

لبضع سنوات، كانوا يصبحون بعدها سماسرة. كنت أعرف أحد هؤلاء، أحد من النخبة، كان اسمه فرانكو. قبل أن أسمعه يتكلم، أو أن أشاهده وهو يعمل، لم أكن أعقل شيئاً عن الكنز الثمين المخبأ في طيات القمامة. التقيته على متن القطار العائد من ميلانو، كان قد تخرج من بوكوني - أرقى كليات إيطاليا لإدارة الأعمال والموجودة في ميلانو - أضحى في ألمانيا خبيراً في سياسة التجديد البيئي. إنه أحد أكثر أصحاب المصالح خبرةً ومعرفةً في فهرس النفايات الصادر عن المجتمع الأوروبي، حَفِظَه عن ظهر قلب، وكان الأكثر فهماً لكيفية المناورة ضمنه، فقط كيما يتمكن من الالتفاف على القوانين، ومن العثور على اختصارات مخبأة توصله إلى مجتمع الأعمال. كان فرانكو قد قدم أصلاً من فيلا ليتيرنو، وأراد أن يشركني في تجارته. وكان أول ما أخبرني به عن عمله هو أهمية المظهر الخارجي، وأهمية الممنوع والمباح لصاحب المصلحة الناجح. إن كان شعرك قد بدأ بالتساقط، أو ظهرت في رأسك بقعة صلعاء، فيمنع منعاً باتاً أن تضع على رأسك شعراً مستعاراً، أو أن تصبغه لتسرّحه إلى الخلف. لتكون لك صورة لامعة، عليك أن تحلق رأسك، أو على الأقل أن تبقي شعرك قصيراً. تبعاً لفرانكو، إن دُعي صاحب مصلحة إلى حفلة ما، فعليه أن يتجنب مغازلة الجميلات، وأن يكون دوماً بصحبة امرأة. فإن لم يكن لديه صاحبة أو صديقة مناسبة، يتوجب عليه حينها أن يعين مرافقة من النوع الراقي رفيع المستوى.

يقدم أصحاب المصالح إلى مالكي المعامل الكيميائية، وأصحاب المدابغ، والمصانع البلاستيكية لوائح أسعارهم. فإزالة النفايات تشكل نفقة لا يشعر أي رجل أعمال إيطالي بأنها ضرورية، وهم جميعاً يقولون الشيء نفسه تماماً: "إن فضلاتهم أثمن بالنسبة إليهم من النفايات التي يتوجب عليهم دفع أموال باهظة في سبيل التخلص منها"

على أصحاب المصالح ألا يعطوا انطباعاً بأن ما يعرضونه هو خدمة إجرامية على الإطلاق. إنهم يضعون الصناعيين على صلة بمصرّفي القمامة لدى الجماعات، ثم ينسقون كل خطوة من العملية عن بعد.

هناك نوعان لمنتجي النفايات: الأول وهم أولئك الذين همهم التوفير في السعر، ولا يلقون أي بال إلى ما إذا كانت شركات إزالة النفايات جديرة بالثقة أم لا، فبالنسبة إليهم تنتهي مسؤوليتهم في اللحظة التي يغادر فيها السم عتبة مبنى شركتهم. أما الآخرون فهم النوع الذي يكون متورطاً على نحو مباشر في العمليات، أي يقوم بالتخلص غير المشروع من النفايات بنفسه. على أن وساطة أصحاب المصالح، في كلتا الحالتين، تبقى ضرورية لضمان وسائل النقل، وتحديد موقع إلقاء النفايات، وأيضاً للتواصل مع الشخص المناسب الذي سيحذف النفايات من التصانيف. ومكتب صاحب المصلحة هو سيارته، وهو يحرك مئات آلاف الأطنان من النفايات بهاتفه الخلوي وحاسبه المحمول. وتتناسب نسبة مرابحه التي يكسبها على العقود مع عدد الكيلوغرامات المسجلة لتتم إزالتها. وتتفاوت أسعاره، فمثلاً المحاليل المرققة للقوام، يصل سعرها لدى صاحب المصلحة ذي الصلات مع الجماعات، من 10 إلى 30 سنتاً من اليورو للكيلوغرام الواحد، سعر كبريتيد الفوسفور يورو واحد للكيلوغرام، وسعر نفايات الشوارع بمبلغ 55 سنتاً، وعمليات التغليف بوجود آثار لمواد خطرة بمبلغ 1,4 يورو، والتربة الملوثة يصل سعرها إلى 2,3 يورو، وبقايا المقابر إلى 15 سنتاً، كما يصل سعر القطع الطرية أو غير المعدنية من السيارات إلى مبلغ 1,85 يورو، بما فيها أجور النقل. ولكون الكميات التي يتعامل بها أصحاب المصالح ضخمة للغاية، يضحي هامش الربح لديهم متعاظماً.

في عملية هوديني التي أجريت في عام 2004، تم الكشف عن أن

المؤسسة الواحدة في فينيتو تتعامل بشكل غير قانوني مع حوالى مئة ألف طن من النفايات سنوياً. تتراوح تسعيرة السوق للتصريف القانوني للنفايات بين 21 و62 سنتاً للكيلو الواحد، بينما تقدم الجماعات الخدمة نفسها بمبلغ 9 أو 10 سنتات للكيلوغرام. في سنة 2004 سعى أصحاب المصالح في كامبانيا إلى أن يتم العمل على ثمانمئة طن من التربة الملوثة بالهيدروكربون تسببت بها شركة للكيماويات، بمبلغ 25 سنتاً للكيلوغرام متضمنة أجور النقل، أي بنسبة توفير تصل إلى 80 بالمئة عن الأسعار النظامية.

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

يكمن موطن القوة الحقيقية لأصحاب المصالح الذين يعملون مع كامورا بضمانهم لخدمات متكاملة، في حين أن أولئك الذين توظفهم المؤسسات الشرعية يقدمون عروضاً بأسعار أعلى ولا تتضمن أجور النقل. ومع ذلك، فمن النادر على الإطلاق أن يصبح أصحاب المصالح أعضاء في الجماعة، إذ لا مبرر لذلك. فعدم انضمامهم يعود بالنفع على الطرفين: فهم يعملون بشكل مستقل لصالح عدة عوائل، وليس لديهم التزامات تجاه فرقة ضاربة أو حتى واجبات خاصة، ولا يجعلون من أنفسهم بيادق ضعيفة في المعارك. البعض منهم يعتقل في كل مرة يجمع فيها المشتبه بهم، لكن الأحكام تبقى خفيفة، فمن الصعب إثبات مسؤوليتهم المباشرة لأنهم لا يساهمون بصورة رسمية في أي خطوة من عملية التخلص غير المشروع من النفايات.

تعلمت بمرور الوقت أن أرى الأشياء بعيني صاحب المصلحة، ومن منظور يختلف عن منظور أصحاب أعمال البناء. البنّاء يرى الفضاء الخالي كمساحة يجب ملؤها، فيحاول أن يحتل الفراغ، بينما صاحب المصلحة يبحث عن المساحة الخالية في ما هو مملوء أصلاً. في أثناء تجوالنا، لم يكن فرانكو ينظر إلى المشهد الطبيعي، بل، بدلاً

من ذلك، كان يفكر في كيفية إيلاج شيء ما فيه. كان يفحص الأرض كما لو كانت سجادة عملاقة، وينظر إلى الجبال والحقول بحثاً عن زاوية يمكن أن يرفعها ويدسّ الأشياء تحتها. في إحدى المرات، بينما كنا نتمشى معاً، لاحظ فرانكو محطة بنزين مهجورة، فأدرك من فوره أن الصهاريج التي تحت الأرض يمكن أن تتسع لعشرات من براميل النفايات الكيميائية، إنه لقبر مثالي. هكذا كانت حياته بحثاً لا ينتهي عن الفراغ. لاحقاً تخلى فرانكو عن عمله كصاحب مصلحة، توقف عن طيّ الأميال في سيارته، وعن عقد اللقاءات مع رجال الأعمال من الشمال الشرقي، وعن تلبية النداء من كل أنحاء إيطاليا. لقد أسس برنامج دورات تدريبية احترافية، وكان أهم طلابه فيها من الصينيين القادمين من هونغ كونغ. لقد تعلم أصحاب المصالح الآسيويون من نظرائهم الإيطاليين، كيفية التعامل مع الشركات الأوروبية، وذلك بأن يعرضوا عليهم أسعاراً جيدة لحلول سريعة. فعندما ارتفعت كلفة التخلص من النفايات في إنكلترا، سارع أصحاب المصالح الصينيون، الذين تلقوا علومهم في كامبانيا، بالانتقال إلى هناك لتقديم خدماتهم. في آذار من عام 2005، عثرت شرطة الموانئ الهولندية في مدينة روتردام على ألف طن من قمامة المدن الإنكليزية، والتي مررت بصورة رسمية على أنها عجينة ورقية لإعادة التصنيع. في كل عام، يفرّغ في الصين مليون طن من النفايات الإلكترونية، القادمة من أوروبا. ثم يعيد أصحاب المصالح وضع هذه النفايات في غويي، في الشمال الشرقي من هونغ كونغ. تدفن وتقحم في أماكن تحت الأرض، وتغرق في بحيرات صناعية. تماماً كما في كاسيرتا، حيث تفشى التلوث سريعاً جداً في غويي لدرجة اصبحت معها المياه الجوفية ملوثة بكاملها، فوجب استقدام مياه الشرب من المناطق المجاورة. إن حلم أصحاب المصالح في هونغ كونغ هو أن يضحي ميناء نابولي محور النفايات الأوروبية، ومركزاً

يعوم بالنفايات التي يمكن جمعها، ليحشى ذهب القمامة في حاويات يتم دفنها في الصين.

إن أصحاب المصالح القادمين من كامبانيا هم الأفضل، إذ استطاعوا بمساعدة الجماعات أن يتفوقوا على أي منافسة كالابريّة، أو باغليّة، أو رومانيّة، وذلك بأن حوّلوا مكبات نفايات المنطقة إلى متجر واحد، هائل الاتساع، للتنزيلات غير المحدودة. فخلال ثلاثين عاماً من الإتجار في هذا المجال استطاعوا أن يصادروا ويتخلصوا من جميع أنواع الأشياء، وقد وضعوا نصب أعينهم هدفاً وحيداً فقط، وهو أن يخفّضوا النفقات ما استطاعوا، ليحصلوا على عقود لكميات أكبر. كشف تحقيق أجري عام 2003، وأطلق عليه اسم كينغ ميداس - مستقياً اسمه من مكالمة هاتفية تم تسجيلها، وقيل فيها: "ما إن نلمس القمامة، حتى تتحول ذهباً" - أن كل خطوة من دوران النفايات، تصنع أرباحاً.

عندما كنا، فرانكو وأنا، معاً في سيارته، كنت أستمع إليه وهو يسدي النصائح الفورية عبر هاتفه النقال، عن كيفية التخلص من النفايات السامة، والمكان الأمثل لإلقائها. كان يبحث في تفاصيل المواد كالنحاس، والزرنيخ، والزئبق، والكادميوم، والرصاص، والكروم، والنيكل، والكوبالت، والموليبدينوم، منتقلاً بالحديث من مخلفات المدابغ إلى نفايات المشافي، ومن قمامة المدن إلى الإطارات، شارحاً ما يتوجب القيام به، وحاملاً في رأسه قواميس كاملة لأسماء أناس وأماكن يمكن اللجوء إليها. وعندما أخذت أفكر في السموم التي تختلط بالسماد، بالقبور التي تحوي نفايات عالية السمّيّة تنحت في جسد الريف، أخذ وجهي يشحب. ولا بد أن فرانكو قد لحظ ما ألمّ بي إذ قال:

"أيصيبك هذا العمل بالغثيان يا روبي؟ أوَتعلم أن أصحاب

المصالح هم الذين مكّنوا هذه البلاد التعسة من الدخول في الاتحاد الأوروبي؟ صحيح أم لا؟ أوَتعلم كم مؤخرة عامل أنقذت، لأنني تمكنت من ترتيب الأمور لشركاتهم بحيث لا تنفق ولا سنتاً لعيناً واحداً؟"

منذ نعومة أظفاره أحسن مسقط رأس فرانكو تدريبه كصبي. لقد كان يدرك أنه في مجال العمل، إما أن تكسب أو أن تخسر - فلا مكان لأي شيء آخر - وهو لم يرد أن يخسر، أو أن يجعل الأشخاص الذين يعمل لديهم يخسرون. لقد برر أفعاله - لنفسه ولي على حدٍّ سواء - بطرح إحصائيات عنيفة، غيّرت كليّة من فهمي السابق لموضوع إدارة النفايات السامة. فبالجمع بين حصيلة كافة البيانات من التحقيقات التي أجراها مكتب المدعي العام في نابولي وسانتا ماريا كابوا فيتيريه، منذ أواخر التسعينيات وحتى الوقت الحاضر، نجد أنه من الممكن حساب الفائدة الاقتصادية، التي عاد بها العمل على كامورا في التخلص من النفايات، بحوالى 500 مليون يورو. كنت أعلم أن هذه التحقيقات إنما تعكس نسبة مئوية فقط من المخالفات الحقيقية، الأمر الذي جعل رأسي يدور. فالدور الذي لعبته جماعات نابولي وكاسيرتا في تخفيف الثقل المميت لكلفة التخلص من النفايات، مكّن الكثير من الأعمال في الشمال الإيطالي من التوسع وتعيين الموظفين والعاملين، ومن جعل النسيج الصناعي للبلاد بأكمله ذا قدرة تنافسية، وهو الأمر الذي دفع بعجلة إيطاليا قدماً نحو الدخول في الاتحاد الأوروبي. وعليه فإن عوائل سكيافوني، ومالاردو، وموتشيا، وبيدوغنوتي، ولا توريه، وجميع العوائل الأخرى، قدمت خدمة ذات طبيعة إجرامية، أدت إلى اندفاع الاقتصاد نحو مستوى التنافسية. لقد كشفت عملية كاسيوبيا في عام 2003، أن أربعين شاحنة ذات مقطورات معبأة نفايات كانت وبشكل أسبوعي، تنطلق من الشمال متجهة إلى الجنوب. وبحسب

المحققين فإنهم ألقوا، ودفنوا، أو بالأحرى تخلصوا من الكادميوم، والزنك، ومخلفات الدهان، ورواسب معامل التطهير، ومن مواد بلاستيكية متنوعة، ومن الزرنيخ، والمنتجات الجانبية لمصانع الفولاذ، ومن الرصاص. من الشمال إلى الجنوب، هو اتجاه التجار المفضل. وقد تبنت الكثير من الأعمال في فينيتو ولومباردي إقليماً في كاسيرتا ونابولي وحوّلته إلى موقع هائل لرمي النفايات. وقدّر عدد أطنان النفايات التي ألقيت في كامبانيا في السنوات الخمس الفائتة بحوالى 3 مليون طن. مليون منها في منطقة كاسيرتا وحدها، شغّل منطقة صُممت خصيصاً لهذا الغرض في مخططات التطور المدني للجماعات.

تلعب توسكاني، وهي المنطقة الأكثر مناصرة للبيئة في إيطاليا، دوراً رئيسياً في جغرافية هذه التجارة غير المشروعة. فوفقاً لما ذكر في ثلاثة تحقيقات على الأقل، وهي كينغ ميداس (الملك ميداس) عام 2003، وفلاي وأورغانيك أغريكلتشر (الزراعة الحيوية) عام 2004، فقد تركزت مراحل متعددة من العملية، من الإنتاج إلى السمسرة، في هذا المكان.

لا يقتصر الأمر على أن كميات ضخمة من النفايات المعالجة بشكل غير قانوني تأتي من توسكاني، بل أضف إلى ذلك أن المنطقة قد باتت قاعدة منتظمة لعمليات جيش كامل من الأشخاص المتورطين في هذه النشاطات الإجرامية، بدءاً بأصحاب المصالح، مروراً بالكيميائيين المتعاونين معهم، وانتهاءً بمالكي مواقع التسميد الذين يسمحون للنفايات بأن تخلط مع السماد. لكن ميدان إعادة تكرير النفايات السامة يتوسع، فقد كشفت التحقيقات الإضافية نشاطاً في أمبريا وموليسي، تلك المناطق التي كانت منيعة قبلاً. في عملية فلاي في عام 2004، التي نسقها مكتب المدعي العام الفيدرالي في لارينو،

ظهر للملأ أنه في موليسي، هناك عمليات إزالة غير قانونية لحوالى 120 طناً من النفايات الخاصة بصناعات المعادن، والفولاذ، والحديد. لقد طحنت الجماعات 320 طناً من الأسطح القديمة للطرقات، ذات الطبقة الشديدة الكثافة من الزفت، وكانت حددت موقعاً للتسميد جاهزاً لخلطها بحشوة ما، لكي تختفي في الريف الأمبري. تولّد إعادة التكرير هذه، والتي تغير من مظهر الأشياء، مكاسب متعاظمة في كل خطوة. فليس كافياً أنهم يخفون المحتويات السامة، بل إنهم يجنون بعض الأرباح الإضافية أيضاً بتحويل السم إلى مخصبات، ومن ثم بيعها. أربعة هكتارات من الأراضي قرب ساحل موليسي، زوّدت بمخصبات حوّلت من نفايات المدابغ، تسعة أطنان من حبوب ذات تراكيز متزايدة من الكروم تم استردادها. لقد اختار التجار ساحل موليسي - تحديداً القطاع الواقع بين تيرمولي وكامبومارينو - ليحوّلوه إلى مكبّ للنفايات الخطرة وخاصة، تلك القادمة من الأعمال الإيطالية الشمالية. لكن وفقاً لتحقيقات حديثة العهد أجراها مكتب النائب العام في سانتا ماريا كابوا فيتيريه، فإن المركز الفعلي للتخزين هو ألفينيتو، التي غذت ولسنوات التجارة اللامشروعة على المستوى القومي. فمعامل سبك المعادن في الشمال، تتخلص دون اكتراث من رغوة المعادن ونفاياتها التي تنتجها عن طريق خلطها بالسماد المستخدم لتخصيب مئات الحقول الزراعية.

غالباً ما يستفيد أصحاب المصالح من طرقات الجماعات في تجارة المخدرات، ليكتشفوا أقاليم جديدة يحدثون فيها التجاويف، وقبوراً جديدة يملأونها. لقد ذكر في تقرير عملية ميداس عام 2003، أن تجار التخلص من النفايات كانوا قد شرعوا فعلاً بإقامة علاقات في ألبانيا وكوستاريكا. لكن الآن، أصبحت كل القنوات مفتوحة إلى الشرق باتجاه رومانيا، حيث لدى الكسالسي مئات ومئات الهكتارات

من الأراضي وإلى إفريقيا، في الموزمبيق، والصومال، ونيجيريا، حيث لطالما كان للجماعات هناك مؤيدون وعلاقات. خلال إعصار تسونامي، كان واحداً من الأشياء التي صدمتني هو رؤية الوجوه القلقة المتوترة لزملاء فرانكو. فما إن شاهدوا الصور على الأخبار حتى شحبت وجوههم، وكأن لكل واحد منهم زوجة أو حبيبة أو طفلاً في خطر. في الحقيقة، كان الأمر بالنسبة إليهم أثمن وأغلى بكثير، إنه عملهم الذي كان في خطر. فبعد موجة المد والجزر، عثر على مئات من براميل النفايات المشعة الخطرة من الثمانينيات والتسعينيات، على شواطئ الصومال، ما بين أوبيا ووارشيك. كان يمكن للاهتمام الإعلامي أن يعيق صفقات حملة الأسهم الجديدة، وأن يسد المنافذ لأسواقهم الجديدة. إلا أن ذلك الخطر تم تجنبه سريعاً، من خلال حملات الإعانة الخيرية للاجئين، والتي صرفت الانتباه عن براميل السموم العائمة جنباً إلى جنب مع الجثث. حتى المحيط لم يسلم، بل بات موئلاً لا ينضب لأماكن التخلص من النفايات. لقد أصبح التجار بشكل متزايد يملأون السفن بالنفايات، ومن ثم يفتعلون حادثة ما، تغرق على أثرها السفينة. إنهم يجنون أموالاً مضاعفة، إذ يغطي التأمين أضرار الحادث المادية من جهة، وتدفن النفايات في قعر المحيط من جهة أخرى.

كان يمكن للجماعات أن تعثر على فضاء يستوعب النفايات في أي مكان، لكن الإدارة المحلية لكامبانيا، والتي تمت إدارتها لعشر سنوات من قبل لجنة مفوضة خارجية بسبب تسرب الكامورا الدائم إليها، لم تكن قادرة على التخلص من قمامتها الخاصة في كامبانيا. ففي حين كانت النفايات من كل أنحاء إيطاليا تجد طريقها غير القانوني إلى كامبانيا، كانت قمامة كامبانيا تشحن إلى ألمانيا، للتخلص منها بكلفة تفوق بخمسين مرة العروض التي كانت الجماعات تقدمها إلى

زبائنها. وتفيد التحقيقات أنه في منطقة نابولي وحدها، يوجد 15 شركة مختصة بإدارة النفايات من أصل 18 شـركة، ترتبط بشـكل مباشـر مع جماعات كامورا.

الجنوب عائم بالقمامة لدرجة يبدو من المستحيل معها الوصول إلى حل. لسنوات مضت، كانت النفايات توضّب على شكل رزم بيئية. مكعبـات ضخمـة مـن القمامة المطحونة تلف باللون الأبيض. ولمجرد التخلص من الرزم البيئية التي تراكمت حتى الآن، سيستغرق الأمر ستةً وخمسـين عامـاً، لـذا كان الحل الوحيـد المقترح بالمطلق، هو إحراقها حتى تصبح رماداً. في أسيرا نفسها التي ظهرت فيها فكرة بناء الموقد لإحراق القمامة، تولدت ثورة معارضة مستعرة. فقد كانت الجماعات متـردّدة، ولا تسـتطيع أن تحـزم أمرهـا تجـاه مواقد الإحـراق. فهي من جهة تعارضها، كونها تريد أن تستمر في الاستفادة من مكبات النفايات والحرائق، وحالـة الطـوارئ هذه تتيح لأفرادهـا الفرصة ليضاربوا على أراض، هم في الأصل يؤجرونها. وهي من ناحية أخرى على الرغم من ذلك، على استعداد لإجراء عقود ضمنية لبناء وإدارة مثل هذا الموقد، إن تمـت الموافقـة عليـه. علـى الرغم مـن أن التحقيقـات القضائية لم تصـل إلـى حكـم نهائـي بعد، إلا أن الناس قـد توصلوا. إلى حكمهم: إنهم خائفون، ومرتعبون، ومتوترون. يخشـون أن تضحي هذه المواقد في أيدي الجماعة، أفراناً دائمة التوقد لنصف قمامة إيطاليا، وأن يحبط إحراق السموم كل ضمانات السلامة البيئية. يعيش آلاف من الناس في حالة قلق وترقّب في كل مرة يصدر فيها أمر بإعادة فتح مكبّ نفايات مقفل. فبسـبب خشـيتهم من أن تنصب عليهم النفايات السـامة من كل مـكان، وأن تمـرّر علـى أنهـا قمامة عادية، فهم يقاومـون حتى النهاية، مفضليـن ذلـك علـى المخاطـرة بـأن تصبـح بلدتهم مسـتودعاً لنفايات

جديدة لا يمكنهم التحكم بها. عندما حاول المفوض الإقليمي في شباط من عام 2005، أن يفتح مكبّ نفايات في باسو ديل أولمو قرب ساليرنو، شكل أهل البلدة بصورة عفوية صفوفاً من المعارضة، لتعيق وصول الشاحنات وتسد الطريق إلى المكب. لقد كان دفاعاً متواصلاً وثابتاً، وأياً كان الثمن. حتى إن شاباً في الرابعة والثلاثين من عمره يدعى كارميني إيوريو، توفي بسبب العوامل الجوية القاسية، إذ كان يتولى المراقبة في ليلة كان البرد فيها قارساً بشكل رهيب. عندما ذهبوا لإيقاظه في الصباح، كانت لحيته متجمدة وشفتاه زرقاوين، كان ميتاً منذ ما لا يقل عن الثلاث ساعات.

لقد أضحت صورة مكبّ النفايات، أو الحفرة، أو المحجر رديفاً ملموساً وظاهراً بشكل متزايد للخطر المميت الذي تجرّه على المقيمين المجاورين لها. بات مثلث غويغليانو - فيلاريكا - كواليانو القريب من نابولي، يعرف باسم أرض الحرائق. فهو يحوي تسعةً وثلاثين مكبّ نفايات، وسبعة وعشرون منها تحوي نفايات خطرة. إنها منطقة تزداد المكبّات فيها سنوياً بنسبة 30 بالمئة، وعندما يشارف موقع ما على الامتلاء، تشتعل النيران في القمامة، في آلية مجربة ومطبّقة بشكل منتظم. يعد صبية الغجر الأفضل مراساً في تطبيق هذه الآلية، وتعطيهم الجماعات 50 يورو مقابل كل كومة يحرقونها. إن الآلية التي يتم بها الأمر بسيطة، فهم يحيطون كل رابية بأشرطة كاسيت الفيديو، يغرقونها بالكحول والبنزين، ويلوون نهايات الأشرطة على بعضها حتى تصبح كفتيل ضخم، ثم يبتعدون عنها بعد أن يشعلوا الفتيل بولاعة سجائر. وخلال ثوان، تشتعل غابة من اللهب، وكأنهم قد فجّروا قنابل حارقة، ثم يلقون ببقايا سبك المعادن، والصمغ، وثفل النفط إلى النار. ويتصاعد دخان أسود سميك من ألسنة اللهب، ملوثاً كل إنش من الأرض بمادة

الديوكسين المسرطنة. لقد أخذت الزراعة المحلية تتقوض، وبراعم النباتات باتت عليلة والأرض أضحت مجدبة. بعد أن كانت تصدّر الخضار والفواكه إلى أماكن بعيدة تصل حتى الدول الاسكندنافية إلا أن هذه الكارثة، وغضب المزارعين العارم ما هي إلا منفعة إضافية لا حدود لها بالنسبة إلى الكامورا، فمالكوا الأراضي اليائسون يبيعون مزارعهم، لتحصل بذلك الجماعات على مواقع لمكبّات جديدة بأثمان بخسة، بل وبخسة جداً. وفي هذه الأثناء، يموت الناس بشكل متواصل من الأورام. إنها مجزرة صامتة، وبطيئة، وتصعب مراقبتها، كون أولئك الذين يرغبون بالحياة لأطول فترة ممكنة، يفرون إلى مشافي الشمال. لقد قدم المعهد العالي للصحة في إيطاليا تقريراً ذُكر فيه، أن معدل الوفيات جراء مرض السرطان في مدن كامبانيا ذات المواقع الضخمة للنفايات السامة، قد ازداد بنسبة 21 بالمئة في السنوات الأخيرة. ترى الرئتان متقيحتين، والقصبة الهوائية محمرة، وعندما تزور المشفى لإجراء تصوير طبقي محوري، تفضح البقع السوداء وجود الورم. وبسؤال مرضى كامبانيا عن المكان الذي قدموا منه، غالباً ما يكشف الجواب عن مسار النفايات السامة بأكمله.

في إحدى المرات قررت أن أقطع أرض الحرائق مشياً على قدمي، فعقدت منديلاً على وجهي غطى أنفي وفمي، تماماً كما يفعل صبية الغجر عندما يشعلون النيران الذين يبدون كعصابة من رعاة البقر في صحراء من النفايات المحروقة. مشيت في أراضٍ أبادها الديوكسين، وشوهتها الشاحنات، واقتلعت النار أحشاءها بقسوة وقد لا تعرف بعدها هذه الثقوب طريقها إلى الاندمال تماماً.

لم يكن الدخان حولي كثيفاً، لكنه كان أقرب إلى طبقة لزجة على الجلد جعلتني أشعر بالرطوبة. في مكان ليس ببعيد عن الحرائق،

كانت هناك سلسلة من المنازل، يتموضع كل منها على كتلة ضخمة من الإسمنت المسلح. إنها منازل تستند إلى مكبّات نفايات مغلقة وغير مسموح بها، قد استُنفِدت إمكانياتها بعد أن ملئت الآن إلى حد الانفجار، كل ما هو قابل للاحتراق فيها قد تم إحراقه. ومع ذلك، فقد تمكنت الجماعات من تحويلها إلى مناطق للبناء. ففي نهاية الأمر، لقد كانت من الناحية الرسمية مراعي وأراضي زراعية. وهكذا فقد بنت الجماعات مجموعات بديعة من الفلل الصغيرة، على الرغم من أن أرض تلك المنطقة لم تكن مستقرة. فقد كان يمكن أن تحدث فيها انهيارات وتصدّعات على نحو مفاجئ. فجاءت بهذا الحل، وكان صبّات إسمنتية مسلحة على شكل نقوش شبكية، دعمت المنازل وجعلتها آمنة. كانت أسعارها معقولة، وهذا ما جعل الجميع من موظفي المكاتب، وعاملي المصانع، والمتقاعدين يقبلون على شرائها، على الرغم من معرفتهم بأنها كانت تجلس على أطنان من النفايات، إلا أن فرصة امتلاكهم لمنازل خاصة بهم، جعلتهم يحجمون عن كثرة السؤال والانتقاد.

تبدو أرض الحرائق وكأنها توقّعات مستمرة ومتكررة، وكأن ما من شيء آخر بعد يمكن أن يفاجئها وهي في حمأة اشمئزازها من سوائل النفايات المتحللة التي تسيل فيها، والإطارات القديمة المتناثرة. لقد كشفت التحقيقات عن الوسائل التي تتبعها الجماعات لتردّ تدخل أفراد الشرطة وحراس الغابات عن نشاطها هذا. لقد استخدموا منهجاً قديماً جداً، طبّقه محاربو العصابات والموالون في كل زاوية من العالم، ويتلخص في استخدام الرعاة الذين يأخذون ماشيتهم المؤلفة من الأغنام، والماعز، وبضع أبقار إلى المراعي، كحراس لديهم. وبدلاً من أن يرعوا ماشيتهم، يعيّن الأفضل كفاءة بينهم ليراقب دخول المتطفلين، وما إن يلحظوا سيارة مشبوهة حتى يطلقوا الإنذار، بالنظرات أو عبر

أجهزة الهاتف الخلوي التي تعد سلاحاً لا يمكن مهاجمته أو إيقافه. كثيراً ما شاهدتهم وهم يجولون في أنحاء المكان، تتبعهم قطعانهم الضعيفة المطيعة. لقد انضممت إليهم في إحدى المرات لأرى المكان الذي يتدرب فيه الأولاد على قيادة الشاحنات. في تحقيق ألدورادو الذي أجري عام 2003، وجد أن القاصرين يتم توظيفهم على نحو متزايد في هذه العمليات. فسائقو الشاحنات لم يعودوا يرغبون بنقل الأحمال طوال الطريق إلى المكبّات، إذ إنهم لا يشعرون بالاطمئنان عند الاقتراب من النفايات السامة. في الواقع، فإن سائق شاحنة هو من كان وراء إطلاق شرارة التحقيق في تجارة النفايات عام 1991. فقد دخل ماريو تامبورينو المشفى بعينين تبدوان كأمحاح البيض، ومتورمتين لدرجة لم يستطع معها إغلاق جفنيه. لقد أصيب الرجل بالعمى المطلق، واحترقت الطبقة الخارجية من جلد يديه، وكأن البنزين قد أشعل كفيه. والسبب أن برميلاً من التوكسين قد انفتح قريباً من وجهه، الأمر الذي كان كافياً ليصيبه بالعمى، وليحترق جلده كلياً وهو حي حروقاً جافة، إذ لم يكن هناك أي لهب. بعد هذه الحادثة، طالب سائقو الشاحنات بأن يقودوا شاحنات ذات مقطورات، وبأن تكون البراميل بعيدة منهم خلف وصلة المحور، فلن يضطروا مطلقاً حتى إلى لمسها. إن أكثر الشاحنات خطورة، هي تلك التي تحمل سماداً مغشوشاً، يتألف من مخصبات مخلوطة مع التوكسين، فمجرد استنشاق الأبخرة المنبعثة منها، يمكن له أن يسبب ضرراً دائماً في الجهاز التنفسي. أما المرحلة الأخيرة من العملية، فيتم فيها تفريغ البراميل إلى شاحنات أصغر، لتنقل مباشرة إلى الحفر، إنها المرحلة الأخطر ولا أحد يرغب بالقيام بها. فبسبب تكويم البراميل فوق بعضها بعضاً، كثيراً ما تنبعج، مما يسمح للأبخرة بالتسرب منها. لذا فعندما تصل القاطرات، فإن السائقين لا يغادرونها حتى، بل يدعون الأولاد يفرغون حمولة البراميل ويحملونها إلى غايتها

الأخيرة. لقد أراني أحد الرعاة منحدراً، حيث يتدرب الأولاد على قيادة الشاحنات قبل وصول الشحنة. يضعون وسادتين تحتهم كيما يتمكنوا من الوصول إلى الدواسات، ويتعلمون كيفية استخدام الفرامل، وهم في طريقهم نزولاً. أولاد في الرابعة عشرة، والخامسة عشرة، والسادسة عشرة من أعمارهم، يتقاضون 250 يورو للرحلة الواحدة. يتم تجنيدهم في المشرب، وصاحب المشرب يعلم بالأمر، لكنه لا يجرؤ على الاعتراض، إلا أنه لا يتردد في أن يعرض رأيه ويسدي النصح بينما يقدم القهوة والكابوتشينو، لكل من لديه الاستعداد بأن يسمعه:

"تلك الأشياء التي يجعلونهم يقومون بحملها، كلما استنشقوها أكثر، كلما قربتهم من حتفهم. إنهم يرسلونهم في رحلة موت لا في رحلة قيادة"

إلا أنه بالنسبة إلى السائقين اليافعين، كلما تردد على أسماعهم أن ما يقومون به من عمل هو خطير ومميت، كلما شعروا بتعاظم في مقدرتهم على تأدية مهمة على هذه الدرجة من الأهمية. إنهم ينفخون صدورهم عجباً، ويومض بريق من الغطرسة من خلف نظاراتهم الشمسية. إنهم يشعرون بأنهم على خير ما يرام طيلة الوقت، لا يمكن لأحدهم أن يتخيل ولو للحظة ما ستكون عليه حالهم بعد عشر سنوات، وهم يتعرضون للمعالجة الكيميائية، ويتقيأون العصارة الصفراء، وقد انكمشت معداتهم، وأكبادهم، ومعيهم إلى ما يشبه اللّب.

استمر المطر بالهطول، والأرض المشبعة بكل ما فيها لم يعد لها القدرة على امتصاص أي شيء آخر، فغرقت بالكامل سريعاً في الماء. لم يقلق الأمر الرعاة، بل ذهبوا ليجلسوا كثلاثة رجال أتقياء هزيلين، تحت صفيحة معدنية وجدوا فيها ملجأً موقتاً. لقد بقيت أعينهم ترقب

الطريق، في حين التمست أغنامهم المأوى الآمن بتسلقها لكومة من القمامة. كان أحد الرعاة يستخدم عصاه في المشي ليمسّد السطح، كيلا ينثني بفعل ثقل المطر، ثم ينهار على رؤوسهم فيسحقها. لقد تبللت ملابسي حتى وصل الماء إلى جلدي، لكن كل ذلك الماء لم يكن كافياً ليطفئ الشعور الحارق الذي اندلع في معدتي، وأخذ يتأجج وصولاً إلى رقبتي. حاولت جهدي أن أفهم إن كانت المشاعر الإنسانية قادرة على مقاومة ماكينة القوة والنفوذ، إن كان ممكناً أن أجد طريقة، أي طريقة، تسمح لي إن أنا تصرفت وفقها أن أعيش خارج ديناميكيات القوة. لقد سببت لنفسي العذاب، وأنا أحاول أن أدرك إن كان من الممكن أن أحاول الفهم، والاكتشاف، والمعرفة، دون أن يبيدني أو يحطمني ما سأصل إليه. أم أن الاختيار كان بين احتمالين فقط، أن أعرف وأتعرض للخطر، أو أن أتجاهل ما يجري وأعيش بسكينة. لعل الخيار الوحيد المتاح لدي كان في أن أنسى، أن لا أرى، أن أصغي إلى النسخة الرسمية للأشياء، وأن أسمع نصف ما يقال، وبذهن مشتّت الانتباه، وأن لا أتجاوب بأكثر من تنهيدة. طفقت أسأل نفسي عما إذا كان هناك أي شيء يمكنه أن يطرح الإمكانية بحياة سعيدة، أو لعله يتوجب عليّ أن أتوقف عن الحلم بالانعتاق والحريات الفوضوية، وألقي بنفسي في الأتون. أن أدسّ مسدساً نصف أوتوماتيكي تحت ثيابي الداخلية، وأبدأ بالعمل بشكل حقيقي. أن أقنع نفسي بأن أكون جزءاً من النسيج الرابط ليومي، وبأن أقامر بكل شيء، وبأن أوجه الأوامر وأتلقاها، وبأن أصبح مسخاً من الربح، وكاسراً من كواسر التمويل، ومقاتل ساموراي للجماعات. ربما عليّ أن أحوّل حياتي إلى ساحة نزال، حيث لا يرجو المرء النجاة، بل يغرق في سعيه وراء نزال جيد وحسب.

لقد ولدت في أرض الكامورا، في المقاطعة التي تحظى بالنسبة

الأعلى لجرائم القتل في أوروبا، حيث الهمجية معجونة بالتجارة، حيث لا قيمة لشيء في العالم إلا لما يولّد القوة والنفوذ. حيث لكل شيء طعم المعركة الأخيرة. لقد تراءى لي أن الحصول على دقيقة سلام واحدة، هو أمر مستحيل، حيث تعيش باستمرار في صراع تكون فيه كل إيماءة نوعاً من الاستسلام، وحيث تتحول كل ضرورة إلى شكل من أشكال الضعف، وحيث كل شيء يحتاج إلى قتال بالأسنان والأظافر. في أرض الكامورا، معارضة الجماعات ليست نوعاً من الصراع الطبقي، أو إثباتاً لحق ما، أو إعادة تخصيص لحقوق المرء المدنية. إنها ليست وسيلة لإدراك شرف المرء، أو الحفاظ على كرامته. إنها أمر أكثر أساسية، أمر حسي إلى أبعد حدود الضراوة. في أرض الكامورا، أن تعرف آليات الجماعة في النجاح، وأساليب أفرادها في الاستخراج، والاستثمار، فذلك معناه أن تفهم كيف تسير الأمور اليوم في كل مكان في العالم، وليس هنا فقط. أن تضع نفسك بمواجهة الجماعات هو حرب للبقاء، وكأن الوجود بذاته، والطعام الذي تأكل، والشفتان اللتان تقبّلان، والموسيقى التي تستمع إليها، والصفحات التي تقرأ، جميعها كانت مجرد شكل من أشكال البقاء، وليست معنىً للحياة. لذا فإن المعرفة لم تعد مؤشراً للانهماك الأخلاقي في الأمر. المعرفة - الإدراك - تضحي ضرورة، والضرورة الوحيدة إن كنت تعتبر نفسك جديراً بالأنفاس التي تتنفسها.

لقد غاصت قدماي عميقاً في الوحل، فقد ارتفع مستوى الماء حتى وصل إلى مستوى فخذي، وكنت أستطيع أن أشعر بكعبي وهما يغوصان أكثر فأكثر. طفت أمامي ثلاجة ضخمة، فألقيت بنفسي فوقها، وأنا أتشبث بها بإحكام بذارعي، تاركاً إياها تحملني. طفقت أفكر في المشهد الأخير من فيلم "الفراشة" *Papillon*، المأخوذ عن رواية هنري

كاريـري، وتمثيـل سـتيف مكويـن. لقـد شـعرت بأنني بابيلـون، الذي اسـتطاع الهرب من غويانا الفرنسـية خلال الفيضان، طافياً على كيس مـن جـوز الهنـد. لقـد كانت فكرة سـخيفة، إنما في لحظـات معينة لا يكون باسـتطاعتك عمل أي شـيء آخر سـوى أن تسـاير هذيانك، كأمر أنت لا تختاره إنما ببساطة تتحمله. أردت أن أنادي، وأن أصرخ، وأن أمزق رئتي إرباً كبابيلون، أردت أن تندفع الصرخة من أعماق أحشائي، مفجرة في حنجرتي كل ما تبقى فيّ من صوت لتقول:

"هيه، أيها السفلة، إنني لا أزال هنا!"

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

https://t.me/ktabpdf

غومورا

تخطّى روبرتو سفيانو الخطوط الحمراء وفضح ما لم يتجرّأ أحد على كشفه من قبل، عبر نشر حقائق سرية وتفاصيل دقيقة وحرجة متجاوزاً الخوف ومتصدياً لإجرام المافيا الايطالية، عبر توجيه الاتهامات التي تدينها، مشفوعة بالأدلة الثابتة، دون مبالاة بالعواقب التي قد تصيبه.

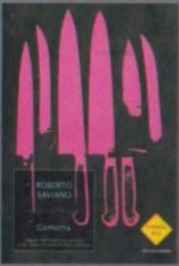

وقد حقق الكتاب نسب مبيعات ضخمة في العالم متصدراً لائحة أفضل الكتب مبيعاً في صحيفة «النيويورك تايمز»، كما تمّت ترجمته الى اثنتين وثلاثون لغة مختلفة. وهو يشكّل صرخة عالية أدهشت الكثيرين وحوّلت القصة الواقعية إلى فيلم سينمائي يعرض حالياً بنجاح كبير، كما نال جائزة في مهرجان كان السينمائي. وقد نال المؤلف نصيباً كبيراً من الشهرة، وحظي بجائزة «فياريجيو» الأدبية في إيطاليا، إضافة إلى مجموعة من المرافقين الأمنيين الذين وضعتهم الشرطة لحراسته، بعد أن وصلته تهديدات بالقتل إثر نشر كتابه، مما جعله دائم التنقل من مكان الى آخر متوارياً عن مافيا «كامورا» التي أصدرت الأمر بقتله.

يسرد الكتاب الوقائع المذهلة التي اكتشفها المؤلف أثناء تحقيقاته حول مافيا «كامورا» الإيطالية التي تنشر سمومها في منطقة نابولي. وتعتبر «كامورا» من أكبر المنظمات السرّية إجراماً في أوروبا، حيث تعني «كا» زعيم و«مورا» الشوارع. وقد تغلغل «سافيانو» في بنيان هذا التنظيم الإجرامي العالمي الذي يمتلك سلسلة أعمال غير شرعية تسيطر على اقتصاد العالم، وتؤثر على مختلف الأسواق الأوروبية. حيث كان متواجداً في مسارح الجرائم، مراقباً نوافذ السيارات المهشمة ومعايناً جثث القتلى المليئة بالرصاص. وقد صعق هذا الطغيان والارهاب جميع حواسه، وألهبت رائحة الجثث المحترقة ضميره، فانكبَّ يكتب مشاهداته، واصفاً ردّات فعله، ومتحدياً الظلم، وناشداً فضح ما يجري لمعاقبة المسؤولين عنه. مما جعل زعماء العصابة يطالبون برأسه.

مكتبة الرمحي أحمد

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

ISBN 978-9953-87-633-7
9 789953 876337

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

كلمة
KALIMA